جائزة فناك للرواية

جائزة أنتيراليي

رواية

لوران بيني

الوظيفة السابعة للغة

من قتل رولان بارت؟

ترجمة وتقديم

د. محمد الجرطي







الوظيفة السابعة للغة.. من قتل رولان بارت؟، رواية
ترجمة وتقديم: د. محمد الجرطي

الطبعة الأولى ٢٠٢١

Nabu Publishers
تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩+
ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail: info@nabupub.com
التوزيع في العالم العربي: دار التنوير

التصميم والإخراج الفني: وليد غالب

Laurent Binet.

La septième fonction du langage.

Roman.

Bernard Grasset. Paris.

Editions Grasset et Fasquelle. 2015

لوران بيني

الوظيفة السابعة للغة

من قتل رولان بارت؟

ترجمة وتقديم
د. محمد الجرطي



« ثمة مؤولون أينما ولّيت وجهك. كل واحد يتكلم بلغته، على الرغم من معرفته النزر القليل في لغة الآخر. كما أن لكل منهم أحابيل تجعل تأويله على أوسع نطاق من دون أن يغفل عن مصالحه.»

جاك دريدا





إهداء

إلى سجى ...



مقدمة الترجمة العربية

نقدم للقارئ العربي رواية قمنا بترجمتها عن اللغة الفرنسية بعنوان: «الوظيفة السابعة للغة» للكاتب الفرنسي لوران بيني، وهي رواية مختلفة ومتميزة، بكل المقاييس، مقارنة مع نمط الروايات السائدة، من حيث الشكل والتيمات؛ لأنها تقدم عرضاً مستفيضاً حول مختلف تيارات الفكر الغربي؛ فهي رواية فكرية تعرض بدقة مرحلة حاسمة في تاريخ النظريات النقدية الغربية (البنيوية، السيميولوجيا، النظرية الفرنسية...) مع روادها جاك دريدا، ميشيل فوكو، رولان بارت...فهذه الرواية الحائزة على جائزتين عند صدورها سنة 2015، تكشف عن طبيعة التغيرات التي انتابت علاقة الإبداع الروائي بالواقع الحضاري الذي تصدر عنه، وهي تعرض تأملاً فكرياً عميقاً في إشكالية الرواية وقضية اللغة، على اعتبار أن البطل الحقيقي فيها هو اللغة وما تمثله من سلطة مادية ورمزية.

إن هذه الرواية التي تبدو أحياناً في شكل رواية بوليسية ذات حبكة محكمة تعمل على تشويق المتلقي، وهي تسعى إلى فك لغز جريمة قتل «رولان بارت»، والسطو على مخطوط الوظيفة السابعة للغة. ومن جهة أخرى، يبدو من الصعب تحديد بعد أحادي لهذه الرواية العصية على التصنيف، فتارة يحلو لمؤلفها لوران بيني أن ينتهك إطارها الفني بتضمينها خطابات فكرية

وفلسفية تضاعف خطابها السردي؛ الشيء الذي يكشف عن عملية تفاعل بين رؤية الكاتب واستراتيجيات الإبداع لديه، وتارة أخرى، تنحو هذه التحفة الأدبية منحى الرواية السياسية بانخراطها في الصراع السياسي القائم بين اليمين واليسار في فرنسا.

ولعلّ عنصر التشويق في هذا العمل الروائي، يتمثل في الحبكة الدرامية الرامية إلى فك لغز محير: استرداد مخطوط الوظيفة السابعة للغة الذي سُرق من رولان بارت، والذي بسببه قُتل، ما جعل حادثة السير حادثة غير عرضية، وإنما اغتيال مدبّر. فبعد أن استعرض لوران بيني وظائف اللغة الستّ كما نظّر لها عالم اللسانيات رومان جاكوبسون في كتابه أبحاث في اللسانيات العامة (الوظيفة المرجعية والانفعالية والإفهامية والانتباهية والميتا- لغوية والشعرية)، توصل إلى وظيفة سابعة ذات أهمية بالغة الخطورة، وقد دوّنها في مخطوط سلّمه سرّاً لعالم السيميولوجيا وأحد أعظم نقاد الأدب في القرن العشرين رولان بارت، ليكون الوصي على هذه الوظيفة التي تتيح لمن يمتلكها ويتقن شفراتها السيطرة على شؤون العالم، كما يشرح ذلك السيميائي الإيطالي أمبرتو إيكو: «إن من ينجح في الحصول على هذه الوظيفة، سيكون بمقدوره امتلاك الكون بأسره، وبسط نفوذه على كل قطاعات الحياة، كأن يتم انتخابه على الدوام، وأن يكون قادراً على استمالة الجماهير وتشجيعها على الثورة، وأن يقوم بإغواء النساء، وأن يشيد إمبراطوريات عظيمة، وأن يحصل على أيّ شيء يرغب فيه». لذلك، هرعت الاستخبارات الدولية وكذلك الشخصيات النافذة، في متن هذه الرواية، إلى البحث قصد الاستيلاء على المخطوط السحري فدخل الجميع في صراع شائك. ومن هنا، انبرى الكاتب لوران بيني بلغة متحذلقة إلى أبعد الحدود إلى نسج حبكة روائية درامية باستخدام استراتيجيات تخييلية سردية، تتشابك فيها الاستعارات وأساليب الباروديا، حيث تفنن في خلق أجواء يلفها الصراع والغموض والسجالات الفكرية والسياسية التي تشد انتباه القارئ، وهو يتابع تعرجات رحلة البحث عن المخطوط الملغز.

ومن بين النقاط العديدة التي تسلط عليها هذه الرواية الضوء، ثمة نقطة جوهرية تتجسد في الحقبة التي بزغ فيها نجم الناقد السيميولوجي رولان بارت، والتي تميزت بمخاض فكري عسير، نجم عنه أفول الوجودية والماركسية على حد سواء، لتتبلور تيارات فكرية وإيديولوجية كالبنيوية، والسيميولوجيا، واللسانيات، والتداولية، والنظرية الفرنسية، مع ثلة من المفكرين والنقاد.

لقد تفنن لوران بينـي في معاكسة أفكارهم ونظرياتهم في إطار من السخرية اللاذعة ومواقف هزلية تكشف عن نية الكاتب في تصفية حسابات إيديولوجية مع هؤلاء المفكرين والنقاد: جاك دريدا، ميشيل فوكو، جوليا كريستيفا، فيليب سوليرز، برنار هنري ليفي، جون سورل...، لدرجة عمد فيها مؤلف هذه الرواية إلى التشويه والغلو والتجريح بلغ الذروة في وضع النظرية الفرنسية موضع محاكمة ساخرة في الندوة التي عقدت في جامعة كورنيل في الولايات المتحدة الأمريكية.

كلّ هذه القضايا والإشكاليات النقدية والفكرية والإبداعية التي تعج بها هذه الرواية، تدفعنا إلى القول إن الكاتب لوران بيني الذي تشبع بأفكار رولان بارت، ونهل من معين كتبه حين كان طالباً في شعبة الآداب المعاصرة، بقي لصيقاً بالأحداث الفكرية والاجتماعية والسياسية المحيطة به؛ لأنها كانت العوامل الأكثر تحكّماً في الإرث الثقافي لكل كاتب.

محمد الجرطي / القنيطرة، المغرب.

14 دجنبر 2020





الفصل الأول

باريس

1

الحياة ليست رواية. على الأقل هذا ما تريدون الإيمان به. يسير رولان بارت صوب شارع ذي بيفر. لدى أكبر ناقد أدبي في القرن العشرين دواعٍ عديدة ليكون في ذروة القلق. توفيت والدته التي كانت تربطه بها علاقاتٌ بروستية حميمية. والدرس الذي ألقاه في الكوليج دو فرونس، المعنون ب «تهيئة الرواية» كان عديم الجدوى، حيث من الصعب عليه إخفاء ذلك: طوال السنة بكاملها، كان عليه أن يتحدث مع طلابه عن قصائد الهايكو الياباني، عن التصوير الفوتوغرافي، عن الدوال والمدلولات، عن تسليات بسكالية، عن شباب المقاهي، عن ملابس النوم أو عن المقاعد في قاعة المحاضرات – عن كل شيء ماعدا الحديث عن الرواية. ويستمر الحال على هذا الشكل ثلاث سنوات؛ يعلم رولان بارت حتماً أن الدرس في حد ذاته ليس سوى مناورة تسويفية لتأجيل لحظة البدء في عمل أدبي حقيقي؛ أي عمل ينصف الكاتب شديد الحساسية الذي يهجع في داخله، والذي، في نظر الجميع، بدأ يتكون في عمله شذرات من خطاب عاشق، ويُعتبر بالفعل إنجيلاً لمن هم من دون الخامسة والعشرين من العمر. من سانت بوف إلى

بروست، لقد حان الوقت من أجل التغيير وتبوء المكانة التي تناسبه بين مشاهير التاريخ من الكُتاب. توفيت والدتي: منذ الدرجة الصفر في الكتابة، اكتملت الحلقة. لقد آن الأوان.

السياسة، نعم، نعم، سنرى ذلك. ليس بمقدورنا القول إن رولان بارت أصبح ماوياً منذ رحلته إلى الصين. وفي الوقت نفسه، ليس هذا ما ننتظره منه.

شاتوبريان، لاروشفوكولد، بريخت، راسين، روب غرييه، ميشيليه، الأم. حب طفل.

أتساءل عما إذا كانت هناك بالفعل «عربات قديمة» في كل مكان من الحي.

بعد ربع ساعة، سيموت رولان بارت.

أنا متأكد بأن الطعام كان شهيّاً، في شارع دي بلانكس مانتيو. أعتقد أن المرء يتناول طعاماً طيباً عند هؤلاء الناس. في كتابه « أسطوريات»، يفك رولان بارت رموز الأساطير المعاصرة التي أقامتها البرجوازية تخليداً لمجدها الخاص، وبهذا الكتاب أصبح مشهوراً بالفعل، باختصار، وبطريقة ما، صنعت البرجوازية ثراءها. لكنها كانت البرجوازية الصغيرة. إن البرجوازي الكبير الذي يضع نفسه في خدمة الشعب هو حالة فريدة من نوعها تستحق التحليل، سيلزم كتابة مقال في هذا الموضوع. هذا المساء؟ ولما ليس الآن؟ لكن كلاّ، يجب عليه أولا فرز صوره الفوتوغرافية وترتيبها.

أسرع رولان بارت الخطى من دون أن يشعر بشيء في محيطه الخارجي، وهو الذي يبدو مرصوداً للمراقبة، هو الذي تكمن مهنته في الملاحظة والتحليل، هو الذي قضى حياته بكاملها في مطاردة العلامات. لم يرَ بارت حقاً الأشجار ولا الأرصفة أو الواجهات أو السيارات في شارع سان جرمان الذي يعرفه عن ظهر قلب. لم يعد الآن في اليابان. ولا يشعر بلسعات البرد. بالكاد يسمع ضجيج الشارع. إن الأمر أشبه بصورة رمزية لحكاية الكهف مقلوبة رأساً على عقب: عالم الأفكار الذي انزوى بداخله، جعل نظرته إلى

العالم المحسوس نظرة قاتمة. لا يرى من حوله سوى الأشباح.

إن الأسباب التي ذكرتها للتو لتفسير السلوك الحريص لرولان بارت يشهد عليها التاريخ، لكنني أرغب في أن أحكي لكم ما حدث بالفعل. في ذلك اليوم، إذا كان رولان بارت مشتت الذهن، فليس ذلك فقط بسبب والدته المتوفاة، ولا لعدم قدرته على كتابة رواية ولا حتى للنفور المتزايد الذي لا شفاء منه إزاء الفتية الذكور، كما يعتبر هو بنفسه. لا أقول إنه لا يفكر في ذلك، وليس لدي أدنى شك في نوعية عصابه الاستحواذي. ولكن اليوم، ثمة شيء آخر. بسبب النظرة الغائبة لرجل منغمس في أفكاره، كان بمقدور المارة الأكثر يقظة التعرف على تلك الحالة التي كان بارت يعتقد أنه لم يختبرها أبداً: الإثارة. هناك شيء آخر أكثر من والدته، أو الفتية الذكور أو روايته الوهمية. ثمة الرغبة في المعرفة، التعطش إلى المعرفة، ومعها، إعادة إحياء الرؤية العظيمة في إحداث ثورة في المعرفة الإنسانية، وربما تغيير العالم. هل كان بارت يشعر بنفسه كأنه آينشتاين، وهو يفكر في نظريته حين كان يعبر شارع المدارس؟ ما هو مؤكد، هو أنه لم يكن منتبهاً جدّاً. كانت تفصله بضع عشرات الأمتار للوصول إلى مكتبه، عندما صدمته شاحنة صغيرة. أحدث جسده صوتاً مكتوماً، مميزاً، مروعاً، للجسد الذي اصطدم بصفيحة الشاحنة الحديدية، وأخذ يتدحرج على قارعة الطريق مثل دمية من القماش. قفز المارة مذعورين. في تلك الظهيرة من يوم 25 فبراير 1980، لم يكن بمقدورهم معرفة ما حدث أمام أعينهم. وذلك لسبب وجيه؛ لأنه حتى اليوم، لا يزال العالم يجهل ذلك.

2

تعدّ السيميولوجيا شيئاً في غاية الغرابة. وفرديناند دي سوسير، مؤسس اللسانيات، هو أول من اهتم بالسيميولوجيا. في كتابه دروس في اللسانيات العامة، يقترح دو سوسير «وضع تصور لعلم يدرس حياة العلامات في الحياة الاجتماعية». هذا كل شيء، يضيف دي سوسير، على سبيل وضع

معالم لمن يرغبون في الاضطلاع بهذه المهمة: «ستشكل السيميولوجيا جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام، سنسميها سيميولوجيا (علم العلامات) (من الكلمة اليونانية. «Séméion «signe) ستعلمنا السيميولوجيا ماهية العلامات، وما هي القوانين التي تحكمها. طالما لا وجود لها حتى الآن، فلا يمكننا أن نقول ما ستكون عليه، ولكن لديها الحق في الوجود، فمكانتها محددة سلفاً. ليست اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام، والقوانين التي ستكتشفها السيميولوجيا ستطبق على اللسانيات التي سيتم ربطها بمجال محدد بوضوح في مجموع الوقائع الإنسانية. أود أن يعيد لنا فابريس لوشيني قراءة هذا المقطع، بالتشديد على الكلمات؛ لأنه يعرف كيف يقوم بذلك، حتى يتمكن العالم برمته من إدراكه، إن لم يكن على مستوى المعنى، فعلى الأقل على مستوى الجمالية بكاملها. هذا الحدس المذهل، الذي يكاد يستعصي على الفهم بالنسبة إلى معاصريه (ألقيت المحاضرة عام 1906) لم يفقد شيئاً، بعد قرن من الزمن، من قوته وغموضه. منذ ذلك الحين حاول العديد من علماء السيميولوجيا تقديم تعريفات أكثر وضوحاً وتفصيلاً على حد سواء، ولكنهم تناقضوا مع بعضهم البعض (أحياناً من دون أن يدركوا ذلك بأنفسهم)، وعقّدوا كل شيء، ولم ينجحوا في نهاية المطاف سوى في تمديد (ومرة أخرى، وبالكاد) قائمة أنظمة العلامات التي تفلت من اللغة: مدونة السير، المدونة البحرية الدولية، أرقام الحافلات، أرقام غرف الفنادق، وهذه العلامات جرى استكمالها بالرتب العسكرية، والحروف الأبجدية للصم والبكم... وهذا كل ما في الأمر.

حصيلة هزيلة مقارنة مع الطموح الأولي.

إن السيميولوجيا التي، ينظر إليها بهذه الطريقة، بدلا من أن تكون امتداداً لمجال اللسانيات يبدو أنها تنحصر في دراسة اللغات البدائية الشائنة الأقل تعقيداً، وبالتالي محدودة أكثر من أية لغة أخرى.

ولكن في الواقع، كلاّ.

ليس من قبيل المصادفة أن يشير أمبرتو إيكو، حكيم مدينة بولونيا،

وأحد آخر علماء السيميولوجيا الأحياء، إلى الاختراعات العظيمة الحاسمة في تاريخ البشرية: العجلة، الملعقة، الكتاب...، أدوات مثالية، في نظره، ذات فعالية لا مثيل لها. في الواقع، هناك افتراض قوي بأن السيميولوجيا هي في الحقيقة إحدى أهم الاختراعات الحيوية في تاريخ البشرية وإحدى أقوى الأدوات التي صنعها الإنسان على الإطلاق، ولكنها أشبه بالنار أو الذرة: في البداية، لا ندري على الدوام ما الفائدة منهما، ولا كيف نستخدمهما.

3

في الواقع، لم يمتْ بارت بعد ربع ساعة. يرقد رولان بارت في الشارع، هامداً وأخذ غطيط أجش يتصاعد من جسده، وبينما كان يفقد وعيه، ربما عبرت ذهنه قصائد الهايكو المدوخة، وبحور الشعر الإسكندرية الراسينية والحكم الباسكالية، لقد سمع بارت - ربما كان آخر شيء يسمعه - يعتقد (يعتقد بكل تأكيد) - صرخات رجل مذعور: لقد رمى نفسه تحت عععجلاتي! لقد رمى بنفسه تحت عجلاتي! ما مبعث هذه اللهجة؟ من حوله، المارة، الذين تخطوا دهشتهم، تجمعوا، وانحنوا على جثته، وهي تحتضر، يناقشون، يحللون ويقيّمون:

- «يجب المناداة على الإسعاف!
- لا حاجه لذلك، لقد كان ثملاً.
- لقد رمى بنفسه تحت عععجلاتي، أنتم شهود!
- يبدو مصاباً بشدة.
- الرجل المسكين...
- علينا أن نجد كشكاً هاتفياً. من يملك قطعاً نقدية؟
- لم يكن لدي حتى الوقت لاستخدام الفرامل!
- لا تلمسوه، يجب انتظار الإسعاف.
- ابتعدوا! أنا طبيب.

- لا تقلبوه!
- أنا طبيب. مازال على قيد الحياة.
- يجب إخبار عائلته.
- الرجل المسكين...
- أعرفه!
- هل انتحر؟
- يجب أن نعرف فصيلة دمه.
- إنه أحد الزبائن. كل صباح يأتي ليشرب عندنا بيرة.
- لن يأتي بعد الآن...
- هل هو في حالة سُكر؟
- رائحة الكحول.
- رجل أبيض في البار، كل صباح، منذ سنوات.
- لا نعرف فصيلة دمه...
- لقد عبببببر الشارع من دون أن ينننننظر!
- يجب أن يسيطر السائق على سيارته في جميع الظروف، وهذا هو القانون هنا.
- سوف تكون بخير، يا عجوز، إذا كنت تملك تأميناً جيداً.
- لكن هذا الحادث سيكلفه عقوبة كبيرة.
- لا تلمسه!
- أنا طبيب!
- أنا أيضاً.
- إذن، اعتن به، سأطلب الإسعاف.
- يجب تسلللليم بضضضاعتي...».

تستعمل غالبية اللغات في العالم حرف «الراء» ذولقي - نخروبي، والذي يسمى «الراء مرددة، على عكس اللغة الفرنسية التي اعتمدت حرف «الراء» بشكل خطي- نطعي منذ ثلاثمائة عام تقريباً. لا تردد الألمانية ولا الإنجليزية حرف «الراء» إلى الوراء. وكذلك الشأن في الإيطالية أو الإسبانية. اللغة البرتغالية ربما؟ إنه حرف حلقي في الواقع، لكن جملة الرجل ليست ذات أحرف أنفية أو رخيمة، في الحقيقة، جمله رتيبة تماماً، لدرجة أنه من الصعب أن نميز فيها نبرات الذعر.

يبدو أنها اللغة الروسية.

4

كيف أوشكت السيميولوجيا التي ولدت من رحم اللسانيات في ألّا تكون سوى قزماً موجهاً لدراسة اللغات الأشد فقراً والأكثر محدودية، وكيف تمكنت في أن تتحول في النهاية إلى قنبلة نيوترونية؟

من خلال عملية ليس رولان بارت غريباً عنها.

في البداية، جنحت السيميولوجيا إلى دراسة أنظمة التواصل غير اللغوية. يقول سوسير بنفسه لطلابه: «اللغة هي نظام من علامات التعبير عن الأفكار، وبالتالي، يمكن مقارنتها بالكتابة، وبالحروف الأبجدية للصم والبكم، وبالطقوس الرمزية، وأشكال الأدب والإشارات العسكرية، إلخ. إنها الآن الأمر الأكثر أهمية في هذه الأنظمة». هذا صحيح، وإلى حد بعيد، ولكن فقط إذا حصرنا تعريف أنظمة العلامات على الأشخاص القادرين على التواصل بشكل صريح وقصدي. يعرف بوسينس السيميولوجيا بأنها «دراسة أساليب التواصل؛ أي الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمعترف بها بصفتها كذلك من طرف الشخص الذي نرغب في التأثير عليه».

تكمن سمة عبقرية بارت في عدم الاكتفاء بأنظمة التواصل، وإنما في توسيع مجال دراسة السيميولوجيا لتشمل أنظمة الدلالة. عندما يتذوق المرء لأول مرة اللغة، يشعر سريعاً بالملل كما هو الأمر في أيّ شكل آخر من أشكال

اللغـة: دراسـة التشـويـر الطرقـي أو الرمـوز العسـكرية هي أمر مثـير للغاية بالنسـبة إلى عـالم اللسـانيات بقـدر ما هي مثيرة أيضـاً لعبة التـاروت أو لعبة الرامي بالنسـبة إلى لاعب الشـطرنج أو البوكر. وكما قد يقـول أمبرتو إيكو: لكـي نتواصل، علينا اسـتعمال اللغة، هذا رائع، وليـس بمقدورنا اختراع ما هو أفضل. ومع ذلك، فإن اللغة لا تقول كل شيء. الجسد يتحدث، الأشياء تتحـدث، التاريـخ يتحدث، الأقـدار الفرديـة، أو الجماعية تتحـدث، الحياة والموت يتحدثان إلينا من دون توقف وبألف طريقة مختلفة. الإنسان آلة يجب تفسـيرها، وعندمـا يملك القليل من الخيال، يـرى علامات في كل مكان: في لـون معطف زوجتـه، في أخدود باب سـيارته، في العـادات الغذائية لجيرانه المجاورين، في الأرقام الشـهرية للبطالة في فرنسـا، في ذوق الموز من مقاطعة بوجوليـه الجديدة (ودائماً سـيكون موزاً، أو نادراً مـا يكون توتاً. لماذا لا أحد يعـرف ذلك، ولكن ثمة بالضرورة تفسـيراً وهو تفسـير سـيميولوجي)، في المشـية المختالة والمقوسـة للمرأة السـوداء التي تجوب ممرات المترو وأمامها، كـما في العـادة زميلهـا في المكتب الذي لا يربـط الزرّين الأخيريـن لقميصه، في طقـوس لاعب كـرة القدم للاحتفال بتسـجيل هـدف، في طريقة صراخ الخليلة للإشـارة إلى نشـوة الجماع، في تصميم هذه الأثاث الاسكنديناڤية، في شـعار الراعي الرئيس لبطولة التنس، في موسيقى مقدمة فيلم، في العمارة، في الرسم، في الطبخ، في الموضة، في الإعلانات، في الديكور الداخلي، في التمثيل الغربي للمرأة والرجل، في الحب والموت، والسماء والأرض، إلخ. مع بارت لم تعـد العلامـات في حاجة إلى أن تكون إشـارات: لقـد أصبحت دلالات. تحـوُّلٌ حاسـمٌ. إن العلامـات في كل مـكان. مـن الآن فصاعـداً، أصبحـت السيميولوجيا مستعدة لاكتساح العالم الرحب.

5

توجّـه مفـوض الشرطـة جاك بايـارد إلى قسـم الطوارئ في مستشـفى سـالبيتريير، حيث تم إخباره برقم غرفة رولان بارت. فيما يلي عناصر الملف

التـي يتوفـر عليها: رجل يبلغ من العمر 64 عاماً، صدمته شـاحنة للغسـيل في شـارع المدارس بعد ظهر يوم الاثنين، وهو يعبر ممرّاً للمشـاة. كان سـائق الشـاحنة، الذي يدعى إيفان، من جنسـية بلغارية، في حاله سكر طفيف، من دون حدوث انتهاك للقانون: 0.6 غ تحت 0.8 المسموح بها. اعترف السائق أنـه كان متأخـراً عن تسـليم قمصانه، ومع ذلـك صرح أن سرعته لم تتجاوز 60 كيلومـترا في السـاعة. كان الرجـل المصـاب فاقداً للوعـي، ولم يكن معه أيـة أوراق حين وصل فريق الإسـعاف، لكن تم التعـرف عليه من قبل أحد زملائه، شخص يدعى ميشـيل فوكو، كاتب وأستاذ في الكوليج دو فرانس. اتضح أن الأمر يتعلق برولان بارت، هو أيضاً أسـتاذ في الكوليج دو فرانس وكاتب.

حتـى تلـك اللحظـة، لا شيء في الملـف يـبرر التعجيل بإرسـال محقق، ناهيك عن مفوض من الاسـتعلامات العامة. لا يتم تفسير حضور المفوض جـاك بايـارد في الواقع إلا بـشيء واحد: حين تعـرض رولان بارت للدهس في يوم 25 فبراير 1980، كان قد خرج للتو بعد غداء مع فرنسـوا ميتران في شارع بلانك مونتو.

لا توجـد أيـة صلـة مبدئيـاً بـين الغـداء والحـادث، ولا بـين المرشـح الاشـتراكي للانتخابـات الرئاسـية المقـرر إجراؤها العـام المقبل، والسـائق البلغاري الموظف من طرف شركة للغسـيل، ولكن من طبيعة الاستعلامات العامة ذاتها أن تسـتفسر عن كل شيء، وخصوصاً في هذه الأوقات السـابقة للحملة الانتخابية، عن فرنسـوا ميتران. لكن ميشيل روكار كان أكثر شعبية لدى الرأي العام (حسـب اسـتطلاع المجتمع الفرنسي في يناير 1980: «من هو أفضل مرشـح اشـتراكي» متـيران 20 ٪، روكار 55 ٪)، لكن بلا شـك يُقدر على مستوى رفيع أن ميشيل روكار لن يجرؤ على اتخاذ خطوات جريئة: الاشـتراكيون هـم الشرعيون وميـتران أعيد انتخابه عـلى رأس الحزب. قبل 6 سـنوات، مـن قبل، كان ميتران قـد حصل عـلى 41.19 ٪ من الأصوات مقابل 51.81 ٪ لصالح جيسـكار، وهو أصغر فرق مسجل في الانتخابات

الرئاسية منذ بدء الاقتراع العام المباشر. لا يمكننا استبعاد خطر أنه، لأول مرة في تاريخ الجمهورية الخامسة، سيتم انتخاب رئيس يساري، وهذا سبب تعجيل الاستعلامات العامة إرسال محقق. تتمثل مهمة جاك بايارد في التحقق مما إذا كان بارت قد شرب حتى الثمالة عند ميتران، أو إذا لم يكن بالمصادفة، قد شارك في طقوس ممارسات جنسية شاذة مع بعض المنحرفين. أثرت كثير من الفضائح على الزعيم الاشتراكي في السنوات الأخيرة، ويبدو أنه يتخذ حذره. الاختطاف الوهمي في حدائق المرصد الذي صار نسياً منسياً. كثير من المحظورات، فرنجيته التي عرفت ببلطة قتال كان يستعملها الفرنجة واتهامه بالتعاون مع نظام فيشي. ستكون لهذه القضايا عواقب يجب تحملها. جاك بايارد مسؤول رسمياً عن التحقق من ملابسات الحادث، لكنه لا يحتاج إلى تفسير ما هو منتظر منه: معرفه ما إذا كانت ثمة طريقة لتقويض مصداقية المرشح الاشتراكي من خلال النبش في سيرته، وإذا لزم الأمر، تدنيسها.

عندما وصل جاك بايارد أمام الغرفة، وجد صفاً يمتد لعدة أمتار في الرواق. الجميع ينتظر لزيارة المصاب. رجال كبار في السن يرتدون ملابس جميلة، وشباب يرتدون ملابس سيئة، ورجال كبار في السن يرتدون ملابس سيئة، وشباب يرتدون ملابس جميلة، أنماط متنوعة للغاية، البعض بتسريحة شعور طويلة والبعض الآخر بتسريحة شعر قصيرة، أفراد بسحنة مغاربية، عدد الرجال يفوق عدد النساء. في انتظار دورهم، يتحدثون مع بعضهم البعض، يتكلمون بصوت عال، يتجادلون أو يقرؤون كتاباً، ويدخنون سجائر. من المحتمل أن يتساءل بايارد الذي لم يعِ بعد حجم شهرة رولان بارت عن سر هذه الفوضى. مستخدماً صلاحيته، يتقدم أمام الصف، ويقول: «الشرطة» ويدخل إلى الغرفة.

يدوّن جاك بايارد على الفور: السرير مرتفع بشكل مدهش، أنبوب محشو في حلقه، أورام دموية في وجهه، نظراته حزينة. هناك أربعة أشخاص آخرين في الغرفة: الأخ الصغير، الناشر، التلميذ وأمير عربي شاب، أنيق للغاية. يدعى الأمير العربي يوسف، صديق مشترك للأستاذ والتلميذ الذي يعده

الأستاذ بارت أكثر طلابه ذكاء وألمعية، وهو الشخص الذي يكن له بارت على كل حال الكثير من المحبة. يتقاسم جون لويس ويوسف نفس الشقة في المقاطعة الثالثة عشرة، حيث ينظمان الحفلات التي تبهج حياة رولان بارت. يلتقي هناك بكثير من الناس، والطلاب، والممثلات والشخصيات المختلفة، في غالب الأحيان أندري تيشينيه، وأحياناً إيزابيل أدجاني، ودائماً ثمة حشد من المثقفين الشباب. في الوقت الحالي، لا تهم هذه التفاصيل المفوض بايارد الذي لا يتواجد هنا إلا من أجل إعادة تشكيل ملابسات الحادث. استعاد بارت وعيه عند وصوله إلى المستشفى. قال بارت لأقاربه الذين أسرعوا مهرولين: «يا لها من حماقة ! يا لها من حماقة !» على الرغم من الكدمات المتعددة والأضلاع المكسورة، فإن حالته لم تثرْ الكثير من القلق. لكن الكاتب كما يقول أخوه الصغير لديه نقطة ضعف مميتة: الرئتان». لقد أصيب بالسل في شبابه، وهو مدخن كبير للسجائر. لقد نتج عن ذلك ضعف مزمن في الجهاز التنفسي، الذي استبد به تلك الليلة: أصيب بارت بالاختناق، يجب إسعافه بإدخال أنبوب في قصبة الرئة لتأمين مرور الهواء إلى الرئتين – حين وصل المفوض كان الكاتب مستيقظاً، لكنه لا يستطيع التحدث بعد الآن.

يتحدث بايارد بهدوء مع بارت. سوف يطرح عليه بعض الأسئلة وتكفي بارت إيماءة برأسه للإجابة بنعم أو لا. ينظر بارت إلى المفوض بعينيه الحزينتين. يحرك رأسه بصعوبة. « كنتَ متوجهاً إلى مقر عملك حين صدمتك السيارة، هل هذا ما حدث بالفعل؟ يؤكد بارت برأسه أجل. هل كانت الشاحنة تسير بسرعة كبيرة؟ يحرك بارت رأسه من جهة إلى أخرى ببطء، ويدرك بايارد أنه يريد أن يقول إنه لا يدري شيئاً. «كنتُ شارداً؟» نعم «هل كان شرودك مرتبطاً بغذائك؟» كلاّ. «بدرسك الذي يجب تحضيره؟» بعد برهة. نعم «هل قابلت فرنسوا ميتران في هذا الغداء؟ نعم. «هل حدث شيء خاص أو غير عادي خلال هذا الغداء؟» بعد برهة من الوقت. كلاّ. «هل شربت الكحول؟» نعم. «الكثير؟» كلاّ. كأس واحد؟ نعم. «كأسين؟» نعم. «ثلاثة أكواب؟» برهة من الوقت. نعم. «أربعة أكواب؟» كلاّ. «هل كانت أوراقك معك عند وقوع الحادث؟» نعم. برهة من الوقت. «هل أنت

متأكـد؟» نعـم. «لم تكن معك أوراق حين تم العثـور عليك. هل من الممكن أن تكـون قد نسـيتها في المنـزل أو في أي مـكان آخر؟». بعـد صمت طويل. شـحنت نظرة بارت فجأة بحدة وقوة جديدة. أومأ برأسـه كلاّ. «هل تتذكر ما إذا كان شخص ما قد تحسسك، بينما كنت مصاباً على الأرض قبل وصول الإسعاف؟» يبدو أن بارت لم يفهم أو لم يسمع السؤال. أومأ برأسه لا. «لا. لا تتذكر». بعد فترة من الصمت، لكن هذه المرة، يعتقد بايارد أنه تحقق من لغة تعبير الوجه: إنه أمر يدعو إلى التشـكك والارتياب. أومأ بارت برأسـه كلاّ. «هل كان هناك مال في محفظتك؟» حدق بارت في محدثه. «السيد بارت»، هل تسـمعني؟ هل كانت معـك نقود؟ كلاّ. «هل كان لديـك شيء ذو قيمة؟» لم يجب بارت. لقد كان شـخوص النظر والنـور الغريب المنبعث من العين على درجه تدعو إلى الاعتقاد بأن بارت قد مات. السيد بارت؟ هل كان بحوزتك شيء ذو قيمـة؟ «هـل تعتقد أن شـخصاً ما سرق شـيئاً منـك؟» لقد تم كسر الصمت الذي سـاد في الغرفة فقط بالتنفس الثقيل لبارت الذي كان يمر عبر أنبـوب جهاز التنفس الاصطناعي. بعد مرور ثواني طويلة أيضاً. ببطء، أومأ بارت كلا، ثم أدار رأسه.

6

عند مغادرة المستشفى، أيقن بايارد أن ثمة مشكلة، وأن ما كان يجب أن يكون تحقيقاً روتينياً ربما سـيكون - تماماً - مسـألة ضرورية، وقبل كلّ شيء، إن اختفاء وثائق هو منطقة ظل مثيرة للفضول في هذه المسألة التي تبدو بمثابة حـادث عادي، وأنـه يجب توضيح هـذه القضية من خلال اسـتجواب عدد مـن النـاس أكبر مما تخيل، وأن طريقه يبدأ من شـارع المدارس، أمام الكوليج دو فرانـس (المؤسسـة التـي كان يجهل وجودهـا حتى اليـوم، والتي لم يفهم طبيعتها)، وأنه سـيبدأ بلقاء السـيد ميشيل فوكو، أسـتاذ تاريخ أنساق الفكر (هكـذا)، وأنه يتعـين عليه بعد ذلك اسـتجواب الكثير مـن الطلاب طويلي الشعر، بالإضافة إلى شهود الحادث، وكذلك أصدقاء الضحية. يشعر بايارد

في الآن نفســه بالحيرة والملل. لكنه يعرف ما رآه في غرفة المستشـفى. في عيني بارت، كان ينبعث الخوف.

لم ينتبـه المفـوض بايارد الذي كان غارقاً في أفكاره وتأملاته إلى السـيارة سـتروين السـوداء المتوقفة في الجانب الآخر من الشـارع. صعد إلى السـيارة الوظيفية من نوع 504 وسلك طريق الكوليج دو فرانس.

7

في بهو مدخل المبنى، لمح لائحة المواد التي يتم تدريسـها: «المغناطيسـية النوويـة»، «علـم النفـس العصبـي للتنميـة»، «سوسـيوغرافيا جنوب شرق آسـيا»، «المسـيحية والمعرفة الروحية في الشرق ما قبل الإسـلام»... في حالة من الارتباك توجه بايارد إلى قاعة الأسـاتذة وطلب رؤية ميشـيل فوكو. قيل له إنه يقدّم في هذه اللحظة درساً.

لقـد كان المدرج مليئاً بصفوف من الطلبة. لم يتمكن بايارد من الدخول إلى القاعة. لقد تم صده بجدار متراص من الطلبة الدارسـين، والذين تأجج غضبهـم حينما حاول أن يشـتق لنفســه ممـراً. شرح له طالب متسـاهل، وهو يهمـس كيف تجري الأمـور هنـا: إذا أراد المرء أن يحصل عـلى مقعد ليجلس عليه، فيجب عليه أن يصل سـاعتين قبـل بداية الدرس. عندما يكون المدرج ممتلئـاً، يمكننـا الرجوع إلى المـدرج المقابل، حيث يتم بث الـدرس إذاعياً. لا يرى الطلاب في المدرج الآخر فوكو، لكن على الأقل يتم سـماعه. توجه إذن بايـارد إلى المدرج بـ B المليء أيضاً، لكن مـازال بالإمكان العثور على أماكن. كان المجلـس عبـارة عـن خليـط، كان ثمة شـباب وشـيوخ وفتيـان الهيبي، وشـباب في غاية الحيوية والطمـوح، ومعارضون للنظام الاجتماعي بشـكل اسـتفزازي، وقوطيـون وإنجليز بسـترات التويـد، ايطاليون بثيـاب مقورة، إيرانيـون بالشـادور، جدات مـع كلابهم الصغـيرة... جلس بايـارد بجانب توأمين شابين متنكرين في زي رواد الفضاء (دون خوذة). الجو رائع، والناس يدونـون الملاحظـات عـلى دفاتر أو يسـتمعون في حالة مـن التأمل من وقت

لآخر، يسعلون كما هو الحال في المسرح، ولكن لا يوجد أحد على الخشبة. تبث مكبرات الصوت صوتاً أغن، من أصوات الأربعينيات تقريباً، ليس صوت الشابان ديلماس، ولكن مع ذلك، لنقل صوت جان ماريه ممزوجاً بصوت جان بواريه، أكثر حدة.

قال الصوت، المشكلة التي أود طرحها هي: ما هي الدلالة التي ينطوي عليها مفهوم الخلاص؛ أي ضمن مفهوم الإشراق، وضمن مفهوم الافتداء الذي حصل عليه الناس بمناسبة تعميدهم الأول –، ماذا عسى أن تكون دلالة تكرار التوبة (الكفارة)، أو تكرار الخطيئة ذاتها؟

وبنبرة أستاذية: هذه النبرة، أدركها بايارد. يحاول بايارد أن يفهم ما يدور حوله الموضوع، لكن لسوء الحظ، الجهد الذي بذله كان في اللحظة التي قال فيها فوكو: «ذلك أن الذات تتجه صوب الحقيقة، وترتبط بها من خلال الحب الجلي، في كلماتها، حقيقة ليست شيئاً آخر سوى التجلي في ذاته لمظهر من مظاهر الوجود الحقيقي لله الذي، بنفسه، لا يمكن أن يقول سوى الحقيقة؛ لأنه لا يكذب أبداً، وهو صادق».

ماذا لو أن فوكو تحدث في ذلك اليوم، عن السجن والسيطرة، والأركيولوجيا، والقوة الحيوية، والجينيالوجيا، وما شابه ذلك؟ ... لكن الصوت الشرس استمر في التقدم: «حتى لو كان في الواقع بإمكان العالم في نظر العديد من الفلاسفة والكوسمولوجيين، أن ينعطف في هذا الاتجاه أو ذاك في حياة الأفراد، فإن الزمن ليس له سوى اتجاه واحد». يستمع بايارد من دون أن يفهم ويستكين إلى اللهجة التعليمية بعيدة الصدى، والرخيمة في الآن نفسه في نوعها، والتي يسندها حس الاعتدال، وبرهة من الوقت، وعلامات الوقف المتقنة بدقة.

هل يكسب هذا الرجل أكثر منه؟

«بين نسق القانون هذا الذي يتناول الأفعال، ويستند إلى موضوع الإرادة، وبالتالي تكرار الخطأ الذي لا يمكن تحديده، ونمط الخلاص والكمال الذي يتناول الذوات، ويتضمن تقطيعاً زمنياً وصيرورة لا رجعة فيها، أعتقد لا

يوجد تكامل ممكن...». نعم، بلا أدنى شك. لم يتمكن بايارد أن يكبح الحقد الغريزي الذي جعله يكره هذا الصوت بشكل قبلي. مع أشخاص كهؤلاء، يجب على الشرطة أن تجادل بشأن أموال دافعي الضرائب. مسؤولون مثله، فقط إنه هو، يستحق أن يكافئه المجتمع على عمله. لكن هذا الكوليج دو فرانس، ما هو بالضبط؟ لقد تأسس من طرف فرنسوا الأول، حسناً، لقد اطلع على نبذة عند المدخل. وماذا بعد ذلك؟ دروس متاحة للجميع لا تهم سوى اليساريين العاطلين عن العمل، والمتقاعدين، والمثقفين أو الأساتذة الذين يدخنون الغليون، موضوعات بعيدة عن الواقع لم يسمع الحديث عنها من قبل... لا شواهد ولا امتحانات. أشخاص مثل بارت أو فوكو يتقاضون أجراً لسرد أفكار ضبابية. متأكد بالفعل من شيء واحد: ليس في هذا المكان يتعلم المرء مهنة ما. المعرفة، هذا هراء.

عندما حدد فوكو بصوته الأغن موعداً في الأسبوع القادم، عاد بايارد إلى المدرج أ A، حيث تعقب الطلبة الدارسين الذين تدفقوا عبر الأبواب الصفاقة، ودخل أخيراً إلى القاعة ولمح في الأسفل رجلا أصلعَ بنظارات يرتدي ياقة مدورة تحت سترته. يبدو فوكو في الوقت نفسه قوياً وطويلَ القامة، ذا فكّ قوي وأسنان حادة بعض الشيء، ذا هيأة متكبرة لأولئك الذين يعرفون أن العالم قد أدرك قيمتهم، وبرأس حليق بشكل تام. لحق بايارد بفوكو على المنصة: «السيد فوكو؟» كان الرجل الأصلع طويل القامة يجمع ملاحظاته، في استرخاء مميز للمدرس الذي أنهى درسه. التفت فوكو نحو بايارد بلطف، وهو يعرف مقدار الخجل الذي يجب على المعجبين به أن يتغلبوا عليه أحياناً كي يتحدثوا إليه. أخرج بايارد بطاقته. يعرف المفوض بايارد، هو أيضاً، التأثير الذي أحدثته بطاقته. توقف فوكو لحظة، نظر إلى البطاقة وحدق في الشرطي، ثم عاد إلى مذكراته. بطريقة مسرحية، قال فوكو كما لو كان يريد لفت انتباه الحضور الذي كان يتفرق: «أرفض أن تحقق السلطة في هويتي» تصرف بايارد كما لو أنه لم يسمع شيئاً: «الأمر يتعلق بموضوع الحادث».

أدخل الرجل الأصلع مذكراته في حقيبته، وترك المنصة من دون أن ينبس بكلمة. ركض بايارد وراءه: «السيد فوكو إلىٰ أين أنت ذاهب؟ يجب أن أطرح عليك بعض الأسئلة!» تسلق فوكو درجات المدرج بخطوات كبيرة. يجيب من دون أن يلتفت، وكأنه لا يخاطب شخصاً معيناً، وبطريقة جعلت كل الحاضرين يسمعوه أيضاً: «أرفض أن يتم تحديد مكاني من طرف السلطة!» ضحك الحاضرون في القاعة. أمسك بايارد بذراع فوكو: «أريدك فقط أن تعطيني روايتك للأحداث». تجمد فوكو في مكانه، وصمت. تصلب جسده بالكامل. أخذ ينظر إلى يد بايارد الممسكة بذراعه، كما لو كان أخطر انتهاك لحقوق الإنسان منذ الإبادة الجماعية في كمبوديا. حافظ بايارد على إمساكه. حولهم، تعالت بعض الهمسات. بعد دقيقة طويلة، وافق فوكو على الحديث: روايتي، ذلك أنهم قتلوه». ليس بايارد متأكداً مما إذا كان قد فهم بشكل صحيح:

«قتل؟ من هذا؟

- صديقي رولان.

- لم يمتْ!

- لقد مات بالفعل».

حدق فوكو في متحدثه بنظرة شديدة أشبه بنظرة حسير النظر، من وراء نظارته وببطء، وهو يفصل مقاطع الكلمات، تلفظ قائلاً، كما لو كان يصوغ خاتمة عرض طويل وحده يعرف منطقه السري:

- «لقد مات رولان بارت.

- لكن من قتله؟

- النظام بطبيعة الحال!»

استعمال كلمة «نظام» يؤكد للشرطي ما كان يشك فيه: لقد سقط عند اليساريين. إنه يعلم بالتجربة أنهم لا يرددون سوى هذه الكلمات على أفواههم: «المجتمع الفاسد، والصراع الطبقي... النظام»... ينتظر بايارد

التتمة بصبر. فوكو، الشهم، يقبل أن يوضح له الأمر: «لقد سخروا من رولان بارت بعنف، في السنوات الأخيرة؛ لأنه كان يتمتع بسلطة مفارقة في فهم الأشياء كما هي، ويعيد إبداعها في نضارة لم يسبق لها مثيل، لقد تعرض للانتقاد بسبب لغته، لقد عارضوه، وسخروا منه، ورسموا له صوراً كاريكاتورية، وانتقدوه بسخرية لاذعة...»

- هل تعرف أن لديه أعداء؟

- طبعاً! منذ أن كان في الكوليج دي فرانس - أنا من أدخله إلى هنا - لقد تضاعفت مشاعر الحسد ضده. أعداء، لم يكن لديه أكثر من هؤلاء: الرجعيون، البرجوازيون، الفاشيون، الستالينيون وخصوصاً، خصوصاً، النقد القديم العطن الذي لم يغفر له أبداً!

- يغفر ماذا؟

- في كونه تجرأ على التفكير! وفي كونه شكك في أنماطه البرجوازية القديمة، وألقى الضوء على وظيفته المعيارية المشينة، وأظهر ما كانت عليه حقاً: عاهرة قديمة ملطخة بالغباء والتسويات والحل الوسط!

- لكن من، على وجه الخصوص؟

- «هل تريد الأسماء؟ من تحسبني! أنصار بيكارد، بومييه، رامبو، بورنييه! كانوا سيطلقون بأنفسهم عليه الرصاص لو أمكنهم ذلك، اثنتا عشرة رصاصة في ساحة جامعة السوربون تحت تمثال فيكتور هوغو!»

فجأة، ينطلق فوكو، وبما أن بايارد لم يكن يتوقع ذلك، فإن فوكو ابتعد عنه ببضعه أمتار عند الانطلاق. خرج فوكو من المدرج، نزل الدرج، ركض بايارد وراءه، يتعقبه، يصطك وقع خطواتهم على الحجر، نادى بايارد على فوكو من بعيد: «السيد فوكو، من هم هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم؟» فوكو، ودون أن يلتفت: «كلاب، ثعالب، أغبياء في غاية الجهل، بلهاء، سذج، أشخاص عديمو الكفاءة، ولكن خصوصاً، خصوصاً، خصوصاً! الخدم الخانعون للنظام القائم، كُتّاب العالم القديم، قُواد الفكر الميت الذين يرغبون من خلال استهزائهم الفاحش أن يفرضوا علينا إلى الأبد رائحة جثته العفنة»

بايارد، متمسكاً بدرابزين السلم: أية جثة؟» فوكو، متسلقاً الدرج كالبرق: «جثة الفكر الميت!» ثم انفجر في ضحكة ساخرة. بايارد، وهو يبحث عن قلم في جيب معطفه محاولا في الوقت نفسه الحفاظ على هيأته، طلب منه: «هل بمقدورك أن تتهجأ لي اسم رامبو؟».

8

دخل المفوض إلى مكتبة ليشتري بعض الكتب، ولكن لأنه غير معتاد على ذلك وجد صعوبة في التعرف على الأرفف. لم يجد كتباً لرايمون بيكارد. أخبره صاحب المكتبة الذي يبدو على اطلاع نسبي أن رايمون بيكارد قد مات، وهو الأمر الذي اعتقد فوكو أنه لا داعي للإشارة إليه، لكن يمكن للمفوض أن يطلب كتاب «نقد جديد أم دجل جديد». في المقابل، فكك بما يكفي شفرة رينيه بومييه[1]، تلميذ رايمون بيكارد الذي يهاجم النقد البنيوي (على أي حال، على هذه الشاكلة باع له صاحب المكتبة الكتاب، وهو الأمر الذي لم يحقق له تقدماً كبيراً)، وخاصة كتاب رولان بارت بسهولة لرامبو وبرونييه. إنه كتاب أخضر، صغير إلى حد ما، يحمل صورة لبارت تُعرض في هيأة صارمة في إطار بيضاوي برتقالي. خارج الإطار، هناك رسم لشخصية وهي تقهقه في هيأة ساخرة، ويده على فمه، بأسلوب روبرت كرومب. بعد التثبت، بالمناسبة، إنه كرومب. لكن بايارد لم يسمع أبداً الحديث عن القط فريتز، رسوم متحركة مضى عليها ستون عاماً، حيث السود هم الغربان الذين يعزفون على آلة الساكسفون، وحيث البطل هو قط يرتدي ياقة ويدخن سجائر حشيش، ويضاجع كل شيء يتحرك على متن سيارة كاديلاك على طريقة جاك كيرواك، على خلفية أعمال الشغب الحضرية وصناديق القمامة التي تحترق. كرومب شخصية شهيرة، وذلك لطريقته في رسم النساء بأفخاذهن الكبيرة وأكتافهن الشبيهة بكتف حطاب وأثدائهن على شكل قذائف، ومؤخراتهن الشبيهة بمؤخرة فرس. المفوض بايارد غير المستأنس

(١) ناقد أدبي فرنسي وأستاذ محاضر في جامعة السوربون.

بجماليات الرسوم المتحركة لم يقم بأي ربط بين الأمور. لكنه اشترى الكتاب ومعه رينيه بوميه. لم يطلب كتاب رايمون بيكارد؛ لأن المؤلفين المتوفين، في هذه المرحلة من التحقيق، لا يهتم لأمرهم.

يجلس المفوض بايارد في مقهى، يتناول جعة، ويشعل سيجارة من نوع جيتان ويفتح كتاب « رولان بارت بسهولة». أية قهوة تشرب؟ التفاصيل الصغيرة، إنها مهمة لاستغادة الأجواء، أليس كذلك؟ أرى بارت في السوربون، الحانة المقابلة لشامبو، وسينما الفن الصغيرة والمقالة النقدية، في نهاية شارع المدارس، لكن إن صح القول، لست أدري، يمكنك وضعه حيث تريد) يقرأ: «ر.ب (في كتاب رولان بارت، رولان بارت يسمى ر.ب) بدا في شكله القديم منذ 25 عاماً، في كتاب بعنوان درجة الصفر للكتابة. ومنذ ذلك الحين، انفصل شيئاً فشيئاً عن اللغة الفرنسية التي ينحدر منها، حيث شكل لنفسه لغة مستقلة بقواعدها اللغوية ومفرداتها الخاصة».

يسحب المفوض نفساً أطول يرتشف جعته، يقلب الصفحات. في الحانة، يسمع النادل يشرح لزبون، لماذا ستغرق فرنسا في الحرب الأهلية، إذا تم انتخاب فرنسوا ميتران.

«الدرس الأول: بعض عناصر المحادثة.

1. كيف تدعى أنت؟

فرنسي: ما هو اسمك؟

2. ادعى ل.L

فرنسي: اسمي ويليام».

يدرك المفوض بايارد القصد الساخر تقريباً، وأيضاً يجب عليه أن يشعر بداهة أنه على صورة مؤلفي المعارضة الساخرة لكنه يحترس. لماذا، بخصوص بارت « ر. ب R.B»، ويليام يدعى ل L؟ الأمر غير واضح. لوطيون، سلبيون مهووسون.

توجه النادل بالحديث إلى الزبون: «عندما يكون الشيوعيون في السلطة،

فإن كل من يملك المال سيخرجه من فرنسا ليضعه في مكان آخر، حيث لن يدفع الضرائب، وحيث يكون على يقين أنه لن ينزع منه المال».

رامبو وبورنييه:

3. أي أحكام تغلق، تختم، تنظم وتدبر اقتصاد البراغما الخاص بك باعتبارها إخفاء، و / أو استثمار لوجودك؟

فرنسي: ماذا تفعل في حياتك؟

4. أطارد الرموز الصغيرة.

فرنسي: «أنا ناسخ».

أضحكته هذه المحادثة قليلاً على أي حال، لكنه يكره ما يعتبره حدساً كمبدأ للتخويف اللفظي إزاء شخصه. ومع ذلك، فهو يعرف أن هذا النوع من الكتب ليس موجهاً إليه، كتاب للمثقفين، كي تتمكن هذه الطفيليات من المثقفين أن تضحك فيما بينها - أن يسخروا من أنفسهم: أسمى تشريف. المفوض بايارد، الذي ليس معتوهاً، قام بذلك من قبل بخصوص بيير بورديو من دون أن يعرف ذلك.

في منضدة الحانة، تستمر المحاضرة: بمجرد أن يصل المال إلى سويسرا، لن تكون لدينا رؤوس أموال لدفع الأجور، وستندلع حرب أهلية. بهذه الطريقة، سيفوز الشيوعيون - الاشتراكيون!» توقف النادل ليتوجه تلبيةً لطلب زبون آخر. يواصل بايارد القراءة:

«5 - يجد خطابي / يحقق نصيته الخاصة من خلال ر. ب. R.B الكاتب في لعبة المرايا لضمير المتكلم أنا.

الفرنسية: أتحدث بطلاقة رولان بارت».

أدرك المفوض بايارد الفكرة الرئيسة: لغة رولان بارت غامضة. إذن، لماذا يضيع المرء وقته في قراءة أعماله؟ ناهيك، عن كتابة كتاب حوله؟

«6 - تسامي متكامل، دمج هذا الأخير مثل رمز يشكل قطيعة ثالثة » اشتداد الفتى المتحامل، إنها رغبتي.

الفرنسية: أود أيضاً أن أتعلم هذه اللغة.

7 - ر.ب. RB بصفته ماكرو- منطقي ألا يقدم نفسه مثل «سياج شائك» حقل أغنية معلقة أمام تساؤل التعبير الفرنسي؟

الفرنسية: ألا يعد رولان بارت صعباً للغاية بالنسبة إلى رجل فرنسي؟

8 - يلتف وشاح الأسلوب البارتي «حول» النظام بقدر ما يتم توثيقه في تكراره وإطنابه.

الفرنسية: «كلاّ، هذا سهل بما فيه الكفاية. ولكن يجب العمل».

تزداد حيرة المفوض. لا يدري من يكره أكثر: رولان بارت أو الهزليين الاثنين اللذين أرادا السخرية من بارت. يضع الكتاب ويسحق سيجارته. يعود النادل وراء المنضدة. الزبون، كأسه الأحمر في يده، يعترض: «نعم، لكن ميتران سيوقفهم عند الحدود. وسيتم مصادرة الأموال» عبس النادل ووبخ الزبون: «تحسب الأغنياء أغبياء! يستأجرون مُهربي حقائب محترفين. سيقومون بتنظيم قنوات لتصريف أموالهم. سوف يعبرون جبال الألب وجبال البرانس، مثل هنبعل! وكما خلال الحرب! إذا أمكن تهريب اليهود، فيمكن أيضاً تهريب أوراق بنكية، ألا تعتقد ذلك؟» لا يبدو الزبون واثقاً، لكن بما أنه لم يجد شيئاً يرد به يكتفي بهز رأسه، وينهي مشروبه ويطلب مزيداً من الشراب. يتفاخر النادل، وهو يخرج زجاجة نبيذ أحمر مفتوحة: «أجل، أجل، هذا صحيح! أنا، لا يهمني الأمر، إذا فاز الشيوعيون، سأنسحب وسأعمل في جنيف. لن يحصلوا على أموالي. آه، كلاّ، لن يحدث هذا أبداً، لا أشتغل لصالح الشيوعيين، أنا، لقد رأيتني! لا أشتغل لصالح أي أحد! أنا حرّ! مثل ديغول!»

حاول بايارد أن يتذكر من هو هنبعل، ولاحظ بطريقه عفوية أن النادل يفتقر لسلامى الخنصر الأيسر. يقاطع بايارد المتحدث للحصول على بيرة (جعّة)، ويفتح كتاب رينيه بوميه، ويحسب 17 مرة كلمة «هراء» في أربع صفحات ويغلق الكتاب. في هذه الأثناء بدأ النادل موضوعاً جديداً: «لا يمكن لأي مجتمع متحضر الاستغناء عن عقوبة الإعدام!». يسدد بايارد

الحساب، ويغادر تاركاً بضعة نقود للنادل.

يمر بايارد أمام تمثال مونتين من دون أن يراه، يجتاز شارع المدارس، ويدخل جامعة السوربون. يدرك بايارد أنه لا يفهم شيئاً، أو لا يفهم الكثير من الأشياء في كل هذا الهراء. يحتاج إلى شخص ما يحرره من هذه الأشياء، متخصص، مترجم، جهاز إرسال، مثقف، أستاذ، أي شيء. في جامعة السوربون يسأل بايارد أين توجد شعبة السيميولوجيا. يجيب الشخص المسؤول في الاستقبال بهيأة باردة أنه لا وجود لهذه الشعبة. في الساحة، يتحدث إلى بعض الطلاب الذين يرتدون طواويس بحرية زرقاء وأحذية تشبه القارب، ليعرف أين يمكنه حضور درس في السيميولوجيا. لم يعرف معظم الطلاب ما المراد أو أنهم سمعوا بشكل غامض الحديث عن هذا الموضوع. لكن أخيراً، يخبره شاب ذو شعر كثيف يدخن سيجارة حشيش تحت تمثال لويس باستور، بخصوص «السيميو»، يجب الذهاب إلى جامعة فينسين. بايارد ليس متخصصاً في الأوساط الأكاديمية، لكنه يعرف أن فينسين هي كلية اليساريين، حيث يعج مثيرو الشغب المحترفون الذين لا يريدون العمل. بدافع الفضول، يسأل الشاب لماذا هو غير مسجل في الكلية. يرتدي الشاب سترة عريضة بياقة مدورة، وسروال أسود ملفوف كما لو كان ذاهباً لصيد بلح البحر، وبثياب تحمل علامة دوك مارتين الأرجواني. يمص سيجارته ويجيب: «كنت مسجلا هناك حتى سنتي الثانية، وكنت عضواً في جماعة تروتسكية». بدا له التفسير كافياً، لكنه حين رأى نظرة التساؤل لدى بايارد الذي لم يفهم تفسيره، أضاف قائلا: «واه، كانت هناك مشاكل».

لم يلح بايارد. ركب سيارته من نوع 504، وانطلق إلى جامعة فينسين. عند إشارة المرور لاحظ سيارة ستروين سوداء وتذكر «هذه، كانت السيارة الأفضل...»

تدخـل السـيارة 504 محيـط باب دوبـيرسي، وتخرج من باب فينسـين، وتصعد على طول شـارع باريس، وتمر أمام المستشـفى العسـكري، وترفض إعطاء الأسـبقية لسـيارة فويغو الزرقـاء الجديدة تماماً التـي يقودها يابانيون، تـدور حول القلعة وتتجـاوز حديقة الزهور، تغـوص في غابة وتتوقف أمام نوع من الأكواخ التي تبدو شبيهة بكلية عملاقة في الضواحي في السبعينيات على المسـتوى المعماري إلى حد ما وأسـوأ ما يمكن أن تشـيده الإنسـانية على الإطلاق. يكتشـف بايارد الذي يتذكر سنوات بعيدة قضاها في كلية الحقوق في أصاسAssas، مكاناً غريباً تماماً: لكي يصل قاعات الدروس يجب عليه اجتياز تجمع أشبه بسوق مليء بالأفارقة، ويخطو فوق مدمنين في حالة غيبوبة ممددين على الأرض، ويمر بجانب حوض من دون مياه مليء بالقمامة ويسير بجانب جدران متسـخة مغطاة بملصقات ورسـوم يمكن أن يقرأ فيها: «أيها الأسـاتذة، الطـلاب، المـدراء، وموظفو أتـوس Atos: اذهبـوا إلى الجحيم، أيهـا الأوغاد!»، «لا لإغلاق السـوق الغذائي»، «لا للانتقال من فينسـين إلى منطقة نوجنت»، «عاشـت الثورة البروليتارية»، «عاشـت الثورة الإيرانية»، «الماويون: فاشـيون»، «تروتسـكيون: سـتالينيون»، «جاك لاكان: شرطي»، «باديـو: نـازي»، «ألتوسـير: قاتـل»، «دولـوز: مـارس الجنس مـع أمك»، «سـيزو: مارسي الجنـس معي»، «فوكـو: عاهـرة الخميني»، «بـارت: خائن اشـتراكي نصير الصـين»، «الفيلسـوف كاليكليـس: SS»، «ممنـوع الحظر»، «اتحاد اليسـار: قـواد»، «تعال عندي، دعونا نقرأ كتـاب ماركس رأس المال! توقيـع: بالليبار»... يقـترب منه طلاب تفوح منهم رائحـة الماريجوانا الكريهة بعدوانية، ويسلمونه أطناناً من المنشورات: «أيها الرفيق، هل تعرف ما يحدث في الشيلي؟ في السلفادور؟ هل تشعر بالقلق إزاء الأرجنتين؟ والموزمبيق؟ ألا تهتـم بأمر الموزمبيق؟ هل تعرف أين توجـد الموزمبيق؟ هل تريد أن أحدثك عـن تيمور؟ وإلا، نقوم بحملة تبرع لمحو الأمية في نيكاراغوا. هل تسـدد لي ثمن قهوة؟» هنا، يشـعر جـاك بايارد بقليل من الاغـتراب. حين كانت لديه بطاقـة الانتماء إلى الأمة الشـابة، كان فرحاً بذلك، وبهذه الأفواه الصغيرة من

اليساريين القذرين. ألقى بايارد بالمنشورات في الحوض الفارغ من الماء، والذي يُستخدم كصندوق للقمامة. ينزل بسرعة فائقة إلى وحدة التكوين والبحث «ثقافة وتواصل». يستعرض وحدات القيمة المعروضة في الردهة على لوحة من الفلين ويعثر على ما جاء من أجله: «سيميولوجيا الصورة»، رقم القاعة، التوقيت الأسبوعي، اسم الأستاذ، شخص يدعى سيمون هرتسوغ.

10

«سنقوم هذا اليوم بدراسة الأرقام والحروف في جيمس بوند. إذا فكرتم في جيمس بوند، ما هو الحرف الذي يتبادر إلى ذهنكم؟» ساد صمت في القاعة، يفكر الطلاب. على الأقل، جاك بايارد، الجالس في آخر القاعة، يعرف جيمس بوند. «ما اسم رئيس جيمس بوند.» ما اسم رئيس جيمس بوند؟ يعرفه المفوض بايارد! لقد فوجئ برغبته في أن يقول اسمه بصوت عال، لكن سبقه العديد من الطلاب الذين قدموا الإجابة في الوقت نفسه: م - ميم. «من هو م- ميم ولماذا ميم M؟ ماذا يعني هذا الحرف ميم؟ بعد فترة من الصمت. لا أحد أجاب» م - ميم رجل عجوز لكنه شخصية أنثوية، إنها الأم، الأم الحاضنة، الأم التي تغذي وتحمي، الأم التي تغضب حين يقوم بوند بارتكاب حماقات، والتي دوماً تبرهن على حِلم كبير تجاهه. إنها الأم التي يرغب بوند في إرضائها من خلال إنجاز مهامه. جيمس بوند فِعل لكنه ليس متمرداً، وليس وحيداً، وليس يتيماً (إنه كذلك على ضوء سيرته، وليس من الناحية الرمزية: أمه، هي إنجلترا؛ غير متزوج من بلده، إنه ابنها المحبوب) يحظى بدعم الطبقات الاجتماعية، منطق رمزي، بلد بكامله يكلفه بمهام مستحيلة يضطلع بها بكل الفخر الكبير الذي يميز بلده (م - ميم التمثيل الكنائي لدولة انجلترا، ممثل الملكة، يتم التذكير بانتظام أن جيمس بوند هو أفضل عميل لها: إنه الابن المفضل) الذي تزوده بكل الوسائل المادية لإنجاز مهامه. جيمس بوند في الواقع هو الزبدة ومال الزبدة، وهذا هو السبب في

أنه استيهام شعبي، أسطورة معاصرة ذات تأثير قوي: جيمس بوند، الموظف المغامر. العمل والأمن، يرتكب مخالفات، جنح، وجرائم أيضاً، لكنه محمي، لـن يتعرض للتوبيخ. إنها رخصه القتل الشـهيرة، رخصه القتل المشـار إليها برقم تسجيلها، الشيء الذي يقودنا إلى الأرقام السحرية الثلاثة: 007.

الصفـر المزدوج، إنه رمز الحق في القتل، وهنا نرى تطبيقاً عبقرياً لرمزية الأرقـام. كيف يمكننا تمثيـل رخصه القتل برقـم 10؟ 20؟ 100؟ مليون؟ المـوت غير قابل للقياس الكمـي. الموت هو العدم، والعـدم هو صفر. لكن القتـل هو أكثر من مجرد موت، إنه موت يُفـرض قسراً على الآخر. إنه الموت مرتـين، موته المحتـوم، والذي تتزايـد احتمالية وقوعه بسـبب خطورة مهنته (متوسط عمر عملاء الصفر المزدوج منخفض للغاية، يتم التذكير بهذا الأمر في كثـير من الأحيـان)، وخطورة الآخر. الصفر المـزدوج، هو الحق في القتل والتعرض للقتل. بالنسـبة إلى رقم سـبعة / 7، فقط تم اختياره بوضوح لأنه تقليديـاً، من بـين جميع الأرقام، هو أحـد الأرقام الأكثر أناقة، رقم سـحري مُحمّـل بالتاريـخ والرمـوز، لكنه في هذه الحالـة يفي بمعياريـن: عدد فردي، قـسراً، مثل عـدد الـورود التي نقـدم لامـرأة، والأول (عـدد أولي غير قابل للقسمة إلا على واحد وعلى ذاته) للتعبير عن التفرد، والوحدانية، والفردانية التي تتعارض مع التعاوضية واللاشـخصية الناجمة عن اللجوء إلى استخدام رقم التسجيل. تتذكرون سلة «السجين» مع البطل رقم ستة / 6 الذي يكرر يائساً ومتمرداً: « أنا لست رقماً!» جيمس بوند، بدوره هو أيضاً، يتكيف تماماً مع رقمه بسـهولة أكـبر، حيث يمنح هذا الرقم امتيـازات غريبة، ويجعل منه رجـلاً أرسـتقراطياً (في خدمة الملكة، كما ينبغي أن يكـون.) الرقم 007، هو المضاد لرقم سـتة / 6 راضياً عن المكانـة الفائقة التي منحها له المجتمع، فهو يعمـل بتفـاني للحفاظ عـلى النظام القائـم، من دون أن يتسـاءل حول طبيعة ودوافع العدو. بقدر ما رقم ستة / 6 ثوري، بقدر ما رقم سبعة / 7 محافظ. يتعـارض الرقم السـبعة / 7 الرجعي هنا مع رقم سـتة / 6 الثوري، وبما أن معنى كلمة رجعي تفترض مسبقاً فكرة الأجيال (يعارض المحافظون الثورة من خلال العمل على العودة إلى النظام القديم؛ أي النظام القائم)، من المنطقي

أن يَعقُب العدد الرجعي عدد ثوري (باختصار: ألا يكون جيمس 005.) وبالتالي، فان وظيفة الرقم 007 هي ضمان العودة إلى النظام القائم، المنزعج بفعل التهديد الذي يزعزع استقرار النظام العالمي. من جهة أخرى، تتزامن نهاية كل حلقة دوماً مع الرجوع إلى «الطبيعي» ولفهم «النظام القديم»، يؤكد أمبرتو إيكو أن جيمس بوند شخصية فاشية. في الواقع، من الواضح أنه شخص رجعي...»

يرفع أحد الطلاب يده: «ولكن هناك أيضاً حرف ك، Q / الكاف المسؤول عن الأدوات والأجهزة. هل ترى أيضاً دلالة لهذا الحرف؟»

بطريقة فورية مباشرة فاجأت المفوض جاك بايارد. يستمر الأستاذ:

حرف ك - الكاف، q صورة أبوية، لأنه هو الذي يزود جيمس بوند بالأسلحة، وهو الذي يعلمه كيف يستخدمها. ينقل له المهارة والكياسة. بهذا المعنى، كان ينبغي أن يُسمى حرف ف - الفاء، f، مثل أب father - ... ولكن إذا لاحظتم بانتباه المشاهد والأحداث مع حرف الكاف، فماذا ترون؟ جيمس بوند شارداً، وقحاً، لاعبا، لا يستمع (أو يتظاهر بعدم الاستماع.) وفي النهاية، لديكم حرف الكاف الذي يوجه دوماً « أسئلة؟ « (أو أشكال متغيرة في النوع: «هل فهمت؟») لكن جيمس بوند لا يملك أبداً أسئلة، في هيأته الكسولة، استوعب تماماً ما تم تفسيره له؛ لأنه يتمتع بقدرات غير عادية في الفهم. حرف الكاف، إذن، هو كاف الأسئلة questions، أسئلة يتمناها حرف الكاف، ولا يطرحها أبداً جيمس بوند، أو في شكل دعابات، والتي ليست أبداً الدعابات التي ينتظرها حرف الكاف.

ثم يتحدث طالب آخر: «بالإضافة إلى ذلك، حرف الكاف بالإنجليزية يتم نطقها «kiou»، كيو، والتي تعني» الذيل، «queue». إنها حصة التسوق: نقف في طابور في متجر الأدوات، وننتظر خدمتنا، إنه وقت مستقطع لعبي بين سلسلتي عمل.

يقوم الأستاذ الشاب بحركة حماسية: «تماماً! هذا بارع للغاية! فكرة جيدة! تذكروا أن تأويلاً ما لا يستنفذ أبداً العلامة، وأن تعدد المعاني هو هوة

لا قرار لها تصلنا منها أصداء لا نهائية: لا نستنفذ أبداً بشكل تام معنى كلمة ما. ولا حتى معنى حرف، أفهمتم.»

ينظر الأستاذ إلى ساعته: شكراً على اهتمامكم. الثلاثاء القادم، سندرس ملابس جيمس بوند. سادتي، أنا في انتظاركم بحلات رسمية، بالطبع (ضحك في القاعة). والسيدات بملابس السباحة على طريقة أورسولا أندريس Ursula Andress (صفير واحتجاج الفتيات.) إلى اللقاء في الأسبوع القادم!

بينما يغادر الطلاب القاعة، يقترب بايارد من الأستاذ الشاب بابتسامة هادئة لا يستطيع أن يفهمها أبداً هذا الأخير، لكنها تقول: «أنت سوف تدفع ثمناً مقابل الرجل الأصلع.»

11

حتى تكون الأمور أكثر وضوحاً، أيها المفوض، أنا لست متخصصاً في رولان بارت، ولا في السيميولوجيا بحصر المعنى. أنا حاصل على دبلوم الدراسات المعمقة في الآداب الحديثة حول الرواية التاريخية، وأحضر أطروحة في اللسانيات حول أفعال الكلام وأيضاً مكلف بالدروس التوجيهية. في هذا الفصل الدراسي، أقدم دروس متخصصة في سيميولوجيا الصورة وفي العام الماضي، كنت مكلفاً بدرس تمهيدي «مدخل إلى السيميولوجيا» كانت دروساً توجيهية تمهيدية لطلاب السنة الأولى، حيث شرحت لهم أساسيات اللسانيات؛ لأنها أساس السيميولوجيا. تحدثت معهم عن فرديناند دو سوسير ورومان جاكوبسون، وبعض الأشياء عن جون أوستن وأيضاً جون سورل. اشتغلنا أساساً على أعمال رولان بارت؛ لأنها الأسهل كمدخل، ولأنه اختار في الغالب مواضيع للدراسة مستعارة من الثقافة الجماهيرية، الشيء الذي يثير فضول الطلاب أكثر من أعماله النقدية حول راسين أو شاتوبريان على سبيل المثال؛ لأنهم طلاب في مادة التواصل وليس في الأدب. مع رولان بارت، يمكننا قضاء الكثير من الوقت في الحديث عن شرائح

اللحم، وآخر موديل لسيارة ستروين وجيمس بوند. إنها مقاربه أكثر لعبية في التحليل، وهذا من جهة أخرى، تعريف السيميولوجيا إلى حد ما: إنها حقل معرفي يطبق أساليب النقد الأدبي على مواضيع غير أدبية.

- لم يمت.

- عفواً، أسألك؟

- قلت «كان بإمكاننا» لقد تحدثت عن ذلك في الماضي، كما لو أن الأمر لم يعد ممكناً.

- «آه، كلاّ، ليس هذا ما قصدته ...»

يسير سيمون هرتسوغ والمفوض جاك بايارد جنباً إلى جنب في أروقة الكلية. يحمل المدرس الشاب حقيبته بيد واليد الأخرى مرتبكة بحمل كومة من النسخ. يرفض بإيماءة من رأسه حين يريد أحد الطلاب إعطاءه منشوراً، ويصفه الطالب بالفاشي، فيرد عليه المفوض بايارد بابتسامة مذنبة، ويصحح مع بايارد: «حتى لو مات، يمكننا الاستمرار في تطبيق مناهجه النقدية، كما تعلمون...»

- ما الذي يجعلك تعتقد أنه يمكن أن يموت؟ لم أبلغكم بخطورة إصابته وجروحه.

- حسناً، احم، أظن أنه لا يتم إرسال مفوض للتحقيق في جميع حوادث الطرق، لذلك استنتج أن الأمر خطير، وأن ظروف الحادث مزعجة.

- ظروف الحادث واضحة تماماً، ولا تثير حالة الضحية أي قلق تقريباً.

- آه؟ حسناً، آه، أنا سعيد لذلك، أيها المفوض...

- أنا لم أخبرك أنني مفوض.

- كلاّ، أعتقد أن رولان بارت كان مشهوراً بما فيه الكفاية ليتم إرسال مفوض من أجله...

- لم أسمع أبداً الحديث عن هذا الرجل قبل الأمس.»

يصمت الشاب طالب الدكتوراه، ويبدو مرتبكاً، والمفوض راضياً. تمد له

طالبة ترتدي نعلاً وجواربَ منشوراً مكتوب عليه: في انتظار غودار، مسرحيه ذات فصل واحد. يدس المفوض بايارد المنشور في جيبه، ويسأل سيمون هرتسوغ:

« ماذا تعرف عن السيميولوجيا؟»

- «آه، إنها دراسة حياة العلامات في الحياة الاجتماعية؟»

يعيد المفوض بايارد التفكير في كتاب «رولان بارت بسهولة» يصرف بأسنانه.

«وبالفرنسية؟»

- لكن... هذا هو تعريف سوسير...

- شوشير هذا يعرف رولان بارت؟

- آه، كلا، لقد مات، إنه مبتكر السيميولوجيا.

- «احم، أفهم.»

لكن المفوض بايارد لم يفهم شيئاً على الإطلاق. اجتاز الرجلان الكافيتيريا. مبنى أشبه بالمستودعات المدمرة، المشبعة بروائح النقانق، والفطائر والعشب. رجل نحيف طويل القامة يرتدي حذاء سحلي أرجواني يقف على طاولة. يضع سيجارة في فمه، وبيرة في يده، يخاطب الشباب الذين يستمعون إليه، بعيون مشرقة. نظراً لأن سيمون هرتسوغ لا يملك مكتباً، دعا المفوض بايارد للجلوس، وبطريقة عفوية، قدم له سيجارة. رفض المفوض بايارد، وأخرج سيجارة واستأنف حديثه بشكل ملموس، ما الهدف من هذا، هذا...العِلم؟

- «حسناً، آه... لفهم الواقع؟»

تجهّم المفوض بايارد بشكل خفي.

- «بأيّ معنى؟»

أخذ الشاب طالب الدكتوراه بضعة ثوان للتفكير. يقيس قدرة التجريد لدى محاوره المحدودة بشكل واضح، ليكيف إجابته تبعاً لذلك، وإلا سيدوران في متاهة لساعات.

«في الواقع، الأمر بسيط، هناك كثير من الأشياء في محيطنا لها، آه، وظيفة الاستخدام، أفهمت؟»

صمت محاوره بشكل عدائي. في الجانب الآخر من القاعة، يحكي الرجل الذي يرتدي حذاء سحلي أرجواني لتلاميذه الشباب عن حركة مايو 1968، التي بلهجته تبدو وكأنها مزيج من سلسلة ماد ماكس المجنون ومعرض وود ستوك. يحاول سيمون هرتسوغ أن يبسّط الأمر قدر الإمكان: «يتم استخدام كرسي للجلوس، وطاولة لتناول الطعام عليها، ومكتب للعمل، وملابس للتدفئة، وما إلى ذلك، اتفقنا؟»

بعد صمت شديد. واصل سيمون قائلاً:

«باستثناء أنه بالإضافة إلى وظيفتهم المعرفية وفائدتهم، فإن هذه الأشياء تتمتع أيضاً بقيمة رمزية... كما لو كانت هذه الأشياء قادرة على الكلام، إذا صح التعبير: تخبرنا هذه الأدوات بعدة أشياء. يخبرنا هذا الكرسي، على سبيل المثال، الذي تجلس عليه في درجته الصفر من التصميم وخشبه المصقول السيئ وهيكله الحديدي الصدئ، أننا نعيش في مجتمع لا يهتم بالرفاهية أو الجمال ولا يملك المال. إضافة إلى ذلك، هذه الروائح المختلطة بالوجبات السيئة والحشيش تؤكد أننا في مكان جامعي. بالطريقة نفسها، تشير طريقتك في ارتداء الملابس إلى مهنتك: ترتدي بدلة، الشيء الذي يعكس وظيفة إدارية، لكن ملابسك رخيصة، مما يعني راتب متواضع و/ أو عدم اهتمام بالمظهر، وبالتالي بمهنة لا تمثل فيها الهيئة شيئاً إلى حد ما. حذاؤك شديد التلف، في حين أنك جئت في سيارة، وهذا يعني أنك لا تبقى خلف مكتبك، بل تقوم بعمل ميداني. والإطار الذي يخرج من مكتبه لديه كل الحظوظ للتعيين في وظيفة تفتيش».

– احم، أفهم، قال بايارد (ساد صمت طويل استطاع خلاله سيمون سماع الرجل الذي يرتدي أحذية سحلية أرجوانية يحكي لجمهوره المفتون كيف، عندما كان في مقدمة أعضاء الجيش السبينوزي هزم شباب هيغل.) ومع ذلك، فأنا أعرف أين أنا، هذا مكتوب، جامعة فينسين باريس 8. عند المدخل وهناك أيضاً علامة «شرطة» بخط عريض على البطاقة الثلاثية الألوان التي عرضتها

عليك، عندما اقتربت منك في نهاية حصتك، لذلك لازلت لم أفهم إلى ما ترمي إليه.

بدأ سيمون هرتسوغ يتعرق. تذكره هذه المحادثة بالذكريات المؤلمة للامتحانات الشفوية. لا تنزعج، ركز، لا تركز على الثواني التي تطول في الصمت، تجاهل الهيئة المتسامحة بشكل زائف للممتحن السادي الذي يتمتع داخلياً بتفوقه المؤسساتي والمعاناة التي يسببها؛ لأنه عانى منها، هو أيضاً، في الماضي. فكر طالب الدكتوراه الشاب بسرعة، نظر بانتباه إلى الرجل الذي يقف أمامه، وشرع منهجياً، خطوة بخطوة، كما لو يعلمه، وعندما شعر أنه مستعد، انتظر بضع ثوان، ثم قال:

«لقد خُضتَ حرب الجزائر، وتزوجتَ مرتين، انفصلتَ عن زوجتك الثانية، لديك فتاة عمرها أقل من عشرين سنة وعلاقتك معها صعبة، لقد صوتتَ لصالح جيسكار في جولتي الانتخابات الرئاسية الأخيرة، وستصوت لصالحه السنة المقبلة، لقد فقدتَ زميلاً لك أثناء أداء واجباته، وربما بسبب خطئك، على أيّ حال، أنت تلوم نفسك على ذلك أو لا تشعر بالراحة اتجاه الأمر، لكن قيادتك في الإدارة لا ترى أنك مسؤول عن ذلك. وذهبتَ لمشاهدة أحدث أفلام جيمس بوند في السينما، لكنك تفضل مع ذلك فيلم المفتش ميغوري على التلفزيون أو مشاهدة أفلام لينو فونتيرا.»

ساد صمت طويل. في الجانب الآخر من القاعة، يروي سبينوزا المُجَسد تحت هتافات الجمهور كيف تغلب هو وعصبته على جماعة فورييه الوردية.

همس المفوض بايارد بصوت غير مميز: «ما الذي يجعلك تقول هذا؟»

- حسناً، الأمر بسيط جداً! (ساد من جديد الصمت لكن هذه المرة، عرف الأستاذ الشاب كيف يداري الأمر. لم يتذمر بايارد، ظهر ارتجاف طفيف في أصابع يده اليمنى. بدأ الرجل الذي يرتدي حذاء أرجواني في أداء أغنية كابيلا لفرقة الرولينغ ستونز.) عندما جئت لرؤيتي في نهاية الحصة، قبل قليل، في قاعتي الدراسية وقفت بطريقة عفوية وبشكل لم تدرْ فيه ظهرك إلى الباب أو النافذة. ليس في مدرسة الشرطة يتعلم المرء هذه الطريقة، بل في

الجيش. وكون ردة هذا الفعل التلقائي تلازمك، يعني أن تجربتك العسكرية لم تقتصر على خدمة بسيطة، ولكنها بصمت مسارك بها فيه الكفاية لدرجة أنك تحافظ على عاداتها اللاشعورية. وبالتالي، من المحتمل أنك حاربتَ، وبما أنك لست كبيراً في السن، فهذا يعني أنك لم تشارك في حرب الهند - الصينية، فأعتقد إذن أنك أرسلت إلى الجزائر. أنت في الشرطة، وبالتالي قسراً أنت من اليمين، كما يؤكد على ذلك عداؤك المبدئي للطلاب والمثقفين (وهذا جلي منذ بداية حديثنا)، لكن كجندي سابق في الجزائر، عشت الاستقلال الذي منحه شارل ديغول كخيانة، ونتيجة لذلك رفضت التصويت لصالح شابان Chaban، المرشح الديغولي، وأنت عقلاني جداً (صفة تتطلبها مهنتك)، حيث لا تمنح صوتك لمرشح مثل لوبين Le Pen الذي لا وزن له، وليس لديه أي حظوظ للمرور إلى الدور الثاني، لذلك وقع تصويتك بشكل طبيعي على جيسكار. جئت بمفردك، وهو ما يتناقض مع جميع قواعد الشرطة الفرنسية، حيث تنتقل الشرطة دوماً على الأقل بعضوين، إذن حصلت على نظام خاص، امتياز لا يمكن منحه إلا لسبب جاد مثل فقدان زميل في مجموعة ما. كانت الصدمة قوية لدرجة أنك لا يمكن أن تتحمل التعرض لتجربة جديدة ورؤساؤك في العمل يسمحون لك الاشتغال بمفردك. وبهذه الطريقة، يمكنك أن تحسب نفسك مثل المفتش ميغوري الذي، وفقاً لمعطفك الواقي من المطر، يعتبر مرجعاً لك، بطريقة لاشعورية في المقام الأول. (المفوض مولان، بسترته الجلدية، هو أصغر منك سناً حيث لن تتماهى مع شخصيته، احم، لا تملك الوسائل المادية لتلبس مثل جيمس بوند.) ترتدي خاتم الزواج في يدك اليمنى، ولكن لا تزال عليك آثار خاتم في البنصر الأيسر. ربما كنت ترغب في تجنب الإحساس بتكرار التجربة عن طريق تغيير مكان الخاتم في يدك بالنسبة إلى الزواج الثاني، وذلك من أجل تجنب المصير نفسه، إذا جاز التعبير. أليس هذا كافياً؟ هوّن على نفسك، فبما أن قميصك، على ما يبدو، منكمش، في هذه الساعة المبكرة، فهو يشهد على أنه لا وجود لأحد في منزلك يتكفل بكي ملابسك، والحالة هذه، وفقاً للنموذج البورجوازي الصغير الخاص بوسطك السوسيو- ثقافي، فإن زوجتك، لو

أنها تعيش معك، فلن تسمح لك بالخروج بملابس غير مكوية.»

قد يخال المرء أن الصمت الذي ساد بعد ذلك سيدوم أربعاً وعشرين ساعة.

«وفيما يخص ابنتي؟»

كنس طالب الدكتوراه، المتواضع زيفاً، الهواء بحركة من يده:

«سيتطلب الأمر وقتاً طويلاً للشرح.»

في الواقع، لقد استسلم سيمون لاندفاعه الحماسي، ورأى أن إضافة فتاة، تجعل لوحة المفوض بايارد أكثر تناسقاً.

«حسناً، اتبعني.

– معذرة. إلى أين؟ هل تعتقلني؟

– أستدعيك. أنت تبدو لي أكثر غباء من طويليّ الشعر، وأحتاج إلى مترجم لكل هذا الهراء.

– لكن... كلاّ، هذا مستحيل تماماً! لديّ درس يجب تهيئته ليوم غد، ويجب أن أكتب أطروحتي، ولديّ كتاب يجب إعادته إلى المكتبة...

– اسمعني، أيها الرفيق الصغير: ستأتي معي، هل تفهم؟

– لكن... إلى أين؟

– لنستجوب المشتبه فيهم.

– المشتبه فيهم؟ لكن أعتقد أنه حادث سير!

– أقصد استجواب الشهود. دعنا نذهب.»

تردد عصبة من الشباب المعجبين الذين تجمعوا حول الرجل ذي الأحذية السحلية الأرجوانية «سبينوزا يلعن هيغل! سبينوزا يلعن هيغل! يسقط الديالكتيك! تسقط الجدلية!» عند مغادرة الجامعة، أفسح بايارد ومساعده الجديد الطريق أمام جماعة الماويين العازمين على ما يبدو على كسر صرخات أنصار سبينوزا «باديو معنا!»

كان رولان بـارت يقطـن في شـارع سـيرفاندوني، بجوار كنيسـة سـان سـوليس بالقرب من حدائق لوكسـمبورغ. سـأتوقف هناك، على ما أعتقد، أوقـف بايـارد سـيارته 504 أمام المدخـل رقـم 11. أجنبك عملية النسـخ واللصق التي أضحت تقليداً متبعاً، من إرشـادات أوكيبيديا: القصر الخاص الذي صممه المهندس الإيطالي لحساب أسقف بريطاني، إلخ.

إنـه مبنى بورجوازي جميـل، يضم حجراً أبيضاً قويـاً، وبوابة كبيرة من الحديد المسـبوك. أمام البوابة، يشتغل موظف من شركة فانسي لتثبيت لوحة مفاتيح. (لم تعد الشركة تدعى فانسي، وأصبحت منذ زمن تنتمي إلى الشركة العامـة للكهرباء، سـتتحول لاحقاً إلى شركة ألكاطيل، لكـن كل هذا، ليس بمقدور سـيمون هرتسـوغ معرفته.) يجب عبور السـاحة وأخذ السـلم ب، على اليمين، مباشرة بعد مسـكن البواب. كانت لدى بارت وعائلته شُـقتان، في الطابقـين الثـاني والخامس، بالإضافـة إلى غرفتين منفصلتين يسـتخدمهما كمكتب في الطابق السـادس. طلب بايارد المفاتيح من البواب. سأل سيمون هرتسـوغ بايارد عما جـاؤوا من أجله، ليـس لدى بايارد أدنـى فكرة، صعدا السلم؛ لأنه لا يوجد مصعد.

في الشقة الكائنة بالطابق الثاني. يبدو الديكور قديماً جداً، هناك ساعات خشـبية، وهي مرتبـة بعناية ونظيفة جدّاً، بما في ذلك الغرفة التي يسـتخدمها كمكتب، بجانب السرير، يوجد ترانزسـتور ونسـخة مـن كتاب «مذكرات مـن وراء القبر»، لكن بارت كان يشـتغل خاصة في غرفـة خادمته في الطابق السادس.

في الشـقة المتواجدة في الطابق الخامس، اسـتقبل الرجلين الأخ الصغير لبـارت وزوجته، امرأة عربية - يلاحظ بايارد، أنها جميلة، كما يلاحظ كذلك سـيمون - ويدعونهما بالتأكيد إلى تناول الشـاي. يوضح لهم الأخ الصغير أن الشقتين في الطابقين الثاني والخامس متشابهتان. لفترة من الزمن، كان بارت، وأمـه وأخوه الصغير يعيشـون في الطابق الخامس، لكـن عندما مرضت أمّه،

أصبحت ضعيفة لدرجة لا تقوى على صعود الطوابق الخمسة، وبالتالي حين أصبحت الشقة في الطابق الثاني فارغة، اشتراها بارت واستقر فيها مع أمه. كان رولان بارت يقابل الكثير من الناس، وكان يخرج كثيراً، خاصة منذ وفاة والدتها، لكن الأخ الصغير، يقول إنه يجهل كل شيء عن زملائه. يعلم فقط أنه كان يذهب في غالب الأحيان إلى منطقة فلور، حيث كان يحدد مواعيده المهنية، وحيث كان ينضم إلى أصدقائه.

في الطابق السادس، في الواقع، يتعلق الأمر بغرفتين متجاورتين، تم جمعهما لتكوين شقة صغيرة بغرفتين. توجد طاولة وعدة رفوف، وهي بمثابة مكتب وسرير حديدي، ومطبخ صغير، مع الشاي الياباني فوق الثلاجة، كتب في كل مكان، فناجين القهوة بجانب منافض السجائر نصف مملوءة، مرّ عليها مدة من الوقت، ونسخ مبعثرة، وهناك بيانو وقرص وبعض أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية (شومان، شوبير)، وصناديق للأحذية وبطاقات، ومفاتيح وقفازات وبطاقات ومقالات مقتطعة.

يتيح باب أرضي الوصول إلى شقة في الطابق الخامس من دون المرور عبر الدرج.

على الجدار يتعرف سيمون هرتسوغ على الصور الغريبة لكتاب « العتمة المضيئة» آخر كتاب صدر لرولان بارت، ومن بين هذه الصور، توجد صورة صفراء لفتاة صغيرة في حديقة شتوية مع أمها المحبوبة.

يطلب بايارد من سيمون إلقاء نظرة على البطاقات والمكتبة. سيمون هرتسوغ مثله مثل كل الأدباء في العالم، عندما يصلون إلى منزل شخص ما، حتى عندما يأتون على وجه التحديد من أجل شيء محدد، يفحصون بفضول كتب المكتبة: بروست، باسكال، الماركيز دو ساد، قليل من الكُتاب المعاصرين، باستثناء بعض أعمال سوليرز، كريستيفا، وروب غرييه، أو غير ذلك من القواميس والأعمال النقدية، تودوروف، جيرار جنيت، وكتب في اللسانيات، سوسير، أوستن، سورل... على المكتب، أدخلت ورقة في الآلة الكاتبة. يقرأ سيمون هرتسوغ العنوان: يفشل المرء دوماً في الحديث

عما يجب». يتصفح سيمون النص بسرعة. إنه حول الكاتب ستندال. تأثر سيمون وهو يتخيل بارت جالساً على هذا المكتب، يفكر في ستندال، في الحب، وفي إيطاليا، من دون أن يشك أن كل ساعة يقضيها في كتابة تلك المقالة تقربه من اللحظة التي ستصدمه فيها شاحنة غسيل الملابس.

إلى جانب الآلة الكاتبة، يوجد كتاب «أبحاث في اللسانيات العامة» لرومان جاكوبسون، مع إشارة مرجعية أشعرت سيمون بالساعة المتوقفة، الموجودة حول معصم الضحية: حين صدمت بارت الشاحنة، هذا ما كان عقله مشغولا به. لقد كان بالضبط يعيد قراءة الفصل الخاص بوظائف اللغة. بناء على الإشارة المرجعية، استخدم بارت ورقة مطوية على أربعة. بسط سيمون هرتسوغ الورقة. إنها ملاحظات مأخوذة من كتابات وجيزة لم يحاول سيمون فك شفرتها، طوى الورقة من دون قراءتها ووضعها بدقة في المكان المناسب، حتى عندما يعود بارت إلى منزله، يتمكن من العثور على صفحته.

عند حافة المكتب، بعض الرسائل مفتوحة، ورسائل أخرى كثيرة مغلقة، وأوراق مكتوبة بخط اليد بنفس الكتابة الوجيزة، بعض الأعداد من مجلة نوفيل أو بسيرفاتور، مقالات صحفية وصورة مقتطعة من مجلات. سجائر مكدسة مثل الخشب المعقم. شعَر سيمون هرتسوغ بالحزن يكتسحه، بينما كان بايارد يفتش تحت السرير الحديدي الصغير، انحنى كي يشاهد من خلال النافذة. في الأسفل رأى سيارة من نوع DS سوداء متوقفة في طريق مزدوج وابتسم بسبب الرمز، د، س، DS هو شعار، والشعار الأكثر شهرة لكتاب« أسطوريات» لرولان بارت، الشعار الذي تم اختياره ليظهر على غلاف مجموعته الشهيرة من المقالات... سمع تردد ضربات الإزميل التي قام موظف شركة فانسي، وهو يحفر في الحجر الشق الذي يجب أن يحتضن الحلقة المعدنية، للوحة المفاتيح الجديدة. ابيضت السماء، وفي الأفق، وراء المباني لمح أشجار لوكسمبورغ.

أخرج بايارد سيمون من شروده، وهو يضع على المكتب مجموعة

مـن المجـلات التي وجدها تحت السرير. إنها ليسـت أعـداداً قديمة من مجلة لونوفيل أوبسـيرفاتور. في جو من الارتياح الشديد، يصرخ في وجه سيمون: «لقـد كان يحب قضيب الرجل، هذا المثقـف!» في المجلات المعروضة أمامه، رأى سـيمون أغلفتها برجال عراة، شـباب وبعضلات قوية، اتخذوا وضعاً، وهم ينظرون بشـكلٍ وقح. لا أعـراف إذا كان من المعروف، في ذلك الوقت أن بـارت كان مثليـاً. عندما كتـب عمله « مقاطع من خطاب عاشـق»، أكثر الكتـب مبيعاً لـه، كان حريصاً عـلى عدم وصف جنس موضوعـه الغرامي، متفننـاً في اسـتخدام صيغ محايدة من نـوع «الشريك» أو «الآخـر» (والتي لا تستدعي نحوياً أي شيء، تكرار الضمائر بضمير المتكلم، «هو» بما أن في اللغة الفرنسـية المحايـد هو ذكوري). أعـرف أن بارت، على عكـس، فوكو الذي أظهر شـذوذاً جنسـياً أكثر تطلباً، كان متحفظاً للغاية، وخجلاً ربما، على أيّ حال كان حريصاً للغاية على الحفاظ على المظاهر، على الأقل، حتى وفاة أمه. حقـد عليـه فوكو من جهة أخرى، وسـخر منه لهذا السـبب، عـلى ما أعتقد، لكنني لا أعرف ما إذا كانت الشـائعات قد ذاعت بين الناس وفي الأوسـاط الأكاديميـة، أو حتـى إذا كان الأمـر معروفاً لدى الجميع. عـلى أيّ حال، إذا كان سـيمون هرتسـوغ على علم بمثلية بارت، فإنه لم يشعر أنه ملزم، في هذه المرحلة من التحقيق بإبلاغ المفوض بايارد.

في اللحظـة التي كان يبسـط فيها الورقة ضاحكاً بسـخرية من الصفحة الرئيسـة في المجلة المسـماة «قـدم مثلية» أخـذ الهاتف يرن. توقـف بايارد عن الضحـك. وضـع المجلـة على المكتـب من دون أن يكلف نفسـه عنـاء إعادة طي الصفحة الرئيسـة وتوقف. نظر إلى سـيمون هرتسـوغ الـذي هو الآخر نظر إليه أيضاً، بينما الشـاب الوسـيم في الصورة يمسـك بقضيبه وينظر إليهما هما الاثنان، ويسـتمر الهاتف في الرنين. ترك بايـارد الهاتف يرن للحظات ثم فتحه من دون أن ينبس بكلمة، نظر إليه سيمون الذي بقي صامتاً لثوان عدة. سـمع أيضـاً الصمت على الطرف الآخـر من الخط المتصـل، وغريزياً توقف عـن التنفس. عندما قال بايارد «آلو» سُـمعت نقرة عـلى الجانب الآخر تلتها «رنات» تشـير إلى نهاية الاتصال. أغلق بايارد الهاتف في حيرة. سأله سيمون

هرتسوغ بغباء «خطأ؟» في الشارع، من خلال النافذة المفتوحة، سُمع محرك سيارة يشتغل، حمل بايارد المجلات الإباحية وغادر الرجلان، الغرفة. قال هرتسوغ في نفسه: «كان يجب عليّ أن أغلق النافذة، ستمطر.» قال بايارد في نفسه: «شواذ ملعونون، هؤلاء المثقفون...»

«دقوا جرس البواب ليردوا إليه المفاتيح، لكن لا أحد يجيب». عرض عليهم العامل المسؤول على تثبيت لوحة المفاتيح أخذها ليسلمها إلى البواب حين يعود، لكن بايارد فضل الصعود ثانية ليسلمها إلى الأخ الصغير.

حين نزل بايارد، كان سيمون هرتسوغ يدخن سيجارة مع العامل الذي أخذ قسطاً من الراحة. عند خروجهم إلى الشارع، لم يركب بايارد سيارته 504. «إلى أين نحن ذاهبون؟» سأله سيمون هرتسوغ. «إلى مقهى دي فلور» أجاب بايارد. وهل لاحظت عامل تثبيت لوحة المفاتيح؟ سأله سيمون. «يتكلم بلهجة سلافية، أليس كذلك؟» تمتم بايارد: «طالما أنه ليس سائق دبابة، لا أهتم لأمره» عند عبور ساحة سانت سيلبيس، صادف الرجلان سيارة من نوع فويغو زرقاء، وتصنع بايارد صفة خبير، ليقول لسيمون هرتسوغ: «إنها رونو الجديدة، لقد خرجت للتو من المصنع» فكر سيمون هرتسوغ تلقائياً أن العمال الذين صنعوا هذه السيارة ليس بمقدورهم دفع ثمنها، حتى لو كان عددهم عشرة، وشرد في تأملاته الماركسية، ولم ينتبه إلى شخصين يابانيين كانا على متنها.

13

في مقهى فلور، بجانب امرأة صغيرة شقراء، لمحا رجلا ينظر في طمع من وراء نظارته الكبيرة، يبدو مريضاً، ورأسه الصغير يقول بغموض شيئاً ما لبايارد لكن ليس من أجله جاؤوا إلى هنا. يراقب بايارد الرجال الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين، ويتحدث معهم. معظمهم من الفتيان العاهرين

المتعهديـن gigolot[1] الذيـن يتحرشـون في المنطقـة. هـل يعرفـون بارت؟ الـكل. يسـتجوبهم بايـارد واحداً تلو الآخر، بينما يراقب سـيمون هرتسـوغ سـارتر بطرف عينيه. لا يبدو وحيداً على الإطلاق، ولا يتوقف عن السعال، وهـو ينفث سـيجارته. تربت فرنسـواز سـاغان عـلى ظهره بعنايـة. آخر من شـاهد بارت هو شـاب مغـربي: كان الناقد الكبير يتحـدث إلى رجل جديد، لا يعـرف اسـمه، لقـد غادرا معاً في ذلـك اليوم، ولا يعرف مـاذا فعلا أو إلى أيـن ذهبا أو أين يسـكن، ولكنه يعـرف أين يمكن العثور عليه، هذا المسـاء: في حمامـات ديـدرو. إنـه حمام سـونا البخـاري، في محطـة ليون؟ «حمام سـونا بخـاري؟» اندهش سـيمون هرتسـوغ في حين ظهر شـخص أرعـن يرتدي وشـاحاً عـلى صـدره. وتكلم كأنـه لا يخاطب شـخصاً معينـاً: «انظـري إليّ أيتها الأفواه! لم تعودوا تملكون شـيئاً منذ مـدة طويلة! في الحقيقة، أقول لكم ذلك: يجب على البرجوازي أن يسود أو يموت! اشربوا! اشربوا! مشروبكم فيرنيت على نخب مجتمعكم! اسـتمتعوا! اسـتمتعوا! اقتنصوا! ارفضوا! يحيا بوكاسـا!» توقفت بعض المحادثات، ويراقب المعتـادون القادم الجديد بعين كئيبة، يحاول السياح الاستمتاع بهذا المشهد المسرحي والجذاب من دون فهم المراد منه، في حين يواصل النادلون عملهم كما لو أن لا شيء حدث. يكتسح هـذا الشـخص الأرعن القاعـة ملوحاً بذراعـه بحركة مسرحيـة مبالغ فيها، ويتوجه إلى مخاطب متخيل، يصرخ هذا العراف ذو الوشـاح بلهجة منتصرة: «لا حاجة للركض، يا رفيقي، العالم القديم أمامك!»

يسأل بايارد من هذا الرجل، يجيبه أحد القوادين. إنه جان إدرن هالير، أحد الكُتاب الأرسـتقراطيين الذي يُحدث غالباً جعجعة، ويقول إنه سيكون وزيراً، إذا فاز ميتران العام المقبل. يلاحظ بايارد فم الرجل على شكل حرف V مقلوباً، ذا عينين زرقاوين لامعين، ولكنة نمطية للأرستقراطيين أو كبار البرجوازيين الذين يلوذون بالصمت. يسـتأنف بايارد استجوابه: كيف يبدو هـذا الرجل الجديـد الذي كان مـع رولان بارت؟ يصف له الشـاب المغربي

(١) متَعهد: فتى عشيق تتعهده امرأة أكبر سناً منه أو يتعهده رجل شاذ. gigolot

رجلا عربياً بلكنة الجنوب، حلقة صغيرة في أذنه، وشعر يتساقط على وجهه. يتباهى جان إدرن في هرج ومرج، دوماً بصوت عال، بمزايا البيئة، والقتل الرحيم، وأجهزة الراديو و«تحولات» أوفيد. ينظر سيمون هرتسوغ إلى سارتر الذي ينظر إلى جان إدرن. حين أدرك هذا الأخير، أن سارتر موجود في المقهى، ارتعد. حدق إليه سارتر في مظهر تأملي. همست فرانسواز ساغان في أذنه مثل مترجمة فورية. رمش جان إدرن، الشيء الذي يبرز هيأته المتسكعة بشعره المجعد الكثيف، صمت لبضع ثوان، وهو في حالة من الشرود، ثم أخذ يهتف قائلاً: «الوجودية تسمم! يحيا الجنس الثالث! يحيا الرابع! لا يجب تيئيس الأكاديمية الفرنسية!» يشرح بايارد لسيمون هرتسوغ أنه يجب عليه أن يرافقه إلى حمامات ديدرو لمساعدته في العثور على هذا القواد المجهول. يقف جان إدرن هالبير أمام سارتر، ويمد ذراعه في الهواء، ويده مسطحة، ويصرخ ضارباً بحذائه المسطح الأرض: «يحيا ألتوسي» يحتج سيمون هرتسوغ على أن حضوره ليس ضرورياً على الإطلاق. يسعل سارتر ويشعل من جديد سيجارته. يقول بايارد إنه بالعكس من ذلك تماماً، بأن البحث عن هذا المثلي الصغير سيكون مفيداً للعثورعلى المشتبه فيهم. أخذ جان إدرن يغني بعض البذاءات حول موضوع « الاتحاد التحرري الدولي». يقول سيمون هرتسوغ إن الوقت قد فات لشراء ملابس الحمام. يضحك بايارد مستهزئاً ويخبره أنه لا يحتاج إليها. يبسط سارتر صحيفة لوموند، ويبدأ في ملء الكلمات المتقاطعة (بما أنه لم يعد يرى تقريباً، فإن فرانسواز ساغان هي التي تقرأ له الشبكة.) يرى جان إدرن شيئاً ما في الشارع، ويسرع إلى الخارج، وهو يصرخ: «الحداثة! يزعجني اسمك!» إنها بالفعل الساعة السابعة، لقد حلّ الليل، يعود المفوض بايارد وسيمون هرتسوغ للبحث عن السيارة 504، المتوقفة أمام منزل بارت، يمسح بايارد الزجاج الأمامي ثلاث أو أربع مرات، ويسلك اتجاه الجمهورية، تتبعهم سيارة ستروين سوداء وفويغو زرقاء.

يتجول بايارد وسيمون هرتسوغ في خضم أبخرة الحمام البخاري سونا، بمنشفة بيضاء صغيرة مربوطة عند الخصر، وسط أجساد تقطر عرقاً وتتسلل خفية. ترك المفوض بطاقته في غرفة خلع الملابس. إنهم هنا في وضع متخفٍّ، لا يرغبون في تخويف القواد ذي الحلقة في الأذن إذا تعرفوا عليه.

إذا صح القول، يشكلان زوجين موثوقين: العجوز قوي البنية، وصدره مشعر، الذي ينظر بهيأة فاحصة، والشاب النحيل، الحليق، الذي يلقي نظرات خلسة. يثير سيمون هرتسوغ ب هيأةكأنثروبولوجي مرعوب، شهوات الرجال الذين يقابلهم، فيحدقون به لفترة طويلة، ويعترضون طريقه، لكن بايارد، هو الآخر أيضاً، له نصيبه من الإثارة. اثنان أو ثلاثة من الشباب ينظرون إليه نظرات إغراء، وشخص بدين يحدق إليه من بعيد، وهو يمسك، بقبضة يده عضوه الذكري: على ما يبدو، أسلوب الممثل لينو فينتورا له أتباعه. لا يجب أن يغضب بايارد في كون هذه الحفنة من الشواذ يمكن أن تحسبه واحداً منهم. إنه محترف بما فيه الكفاية لإخفاء غضبه، والاكتفاء بإظهار هيأةعدائية نوعاً ما لإحباط أية محاولة للاقتراب منه.

ينقسم المجمع إلى فضاءات مختلفة: حمام بخاري بحصر المعنى، حمام، مسبح، غرفة خلفية ذات أشكال متعددة. الطغمة متنوعة بشكل واسع النطاق، جميع الأعمار، جميع القامات، يتم تمثيل جميع أنواع الأجسام هنا. لكن بالنسبة إلى ما جاء من أجله المفوض ومساعده، ثمة مشكلة: نصف الرجال الحاضرين يرتدون قرطاً، ويصل العدد تقريباً إلى 100 ٪ لمن تقل أعمارهم عن ثلاثين عاماً، وكلهم مغاربة تقريباً. للأسف إن مؤشر الشعر ليس قابلا للاستعمال: أولئك الأشخاص، من بين هؤلاء الشباب، الذين من المحتمل أن تكون لديهم هدب من الشعر يتساقط على الوجه، لا يمكن اكتشافهم في مثل هذه البيئة؛ لأنه عندما يكون شعر المرء مبللاً، فإنه يثبت آلياً إلى الوراء.

يبقى المؤشر الأخير: اللهجة الجنوبية. لكن هذا يفترض، عاجلاً أم آجلاً، إقامة اتصال لفظي.

في زاوية من الحمام البخاري، على مقعد من السيراميك، يُقبّل مراهقان شابان بعضهما البعض، ويستمنيان. بشكل حذر، ينحني من فوقهما بايارد ليتحقق مما إذا كانا يرتديان قرطاً. نعم، كلاهما. ولكن ماذا لو كانا قوادين، ويستمتعان مع بعضهما البعض؟ إنه أمر ممكن، لم يشتغل بايارد في شرطة المخدرات، وليس متخصصاً في الأخلاق. يأخذ سيمون في جولة ليتحرى المكان من كل جوانبه. من الصعب أن يرى المرء من بالداخل، الضوء خافت ويسبب بخار الماء ضباباً سميكاً، وينعزل البعض في غرف خلفية، حيث لا يستطيع المرء مشاهدتهم، إلا من خلال نوافذ ذات قضبان عديدة. يلتقون برجل عربي في حالة من الذهول يتطلع إلى لمس عضو الجميع، واثنين من اليابانيين، ورجلين شابين ذوي شعر ذهني ووشوم كبيرة، شيوخ فاسقين، شباب، ذو مظهر مخملي. يرتدي الناس مناشفهم على أجسادهم أو على أكتافهم، الجميع عراة في المسبح، البعض يتغطى والبعض الآخر لا. هنا أيضاً ثمة جميع القامات والأشكال. يحاول بايارد أن يفرز مرتدي الأقراط، وحين حدد أربعة أشخاص أو خمسة، أشار إلى واحد محدداً إياه لسيمون وأمره بالذهاب للتحدث معه.

يعرف سيمون هرتسوغ أنه من المنطقي أكثر أن يذهب بايارد للحديث مع هذا القواد وليس هو، لكن أمام الوجه الصارم للشرطي، يفهم أنه من غير المجدي مناقشته في الأمر. بشكل أخرق، يقترب سيمون من القواد، ويقول له مساء الخير. يرتجف صوته. يبتسم الآخر ولا يجيب. خارج حجرته الدراسية، سيمون هرتسوغ ذو طبيعة خجولة إلى حد ما، لم يكن أبداً زير نساء مغازل. تمكن من التلفظ بعبارة أو عبارتين تافهتين أدرك على الفور أنها عبارات غير لائقة أو سخيفة. من دون أن ينبس بكلمة أمسكه الآخر من يده، وقاده نحو الغرف الخلفية. سيمون، في حالة من العجز والاستسلام، تبعه. يعرف أنه يجب أن يتصرف بسرعة. سأل بصوت غير مميز: «ما اسمك؟» أجاب الآخر: «باتريك» لا وجود لحرف o أو eu للكشف عن لهجة الجنوب. دخل سيمون غرفة صغيرة، وهو يتبع الرجل الشاب الذي يمسك به من الأرداف وجثا أمامه. غمغم سيمون، في أمل أن يجعله يتلفظ بجملة كاملة

«ألا تريد أن أبدأ أنا، بالأحرى» قال الآخر لا، ومرر يده تحت منشفة سيمون الذي ارتجف. سقطت المنشفة. لاحظ سيمون بدهشة أن عضوه تحت أصابع الرجل الشاب ليس تماماً هي حالة ارتخاء. قرر سيمون أن يلعب ورقته كاملة: «انتظر، انتظر! هل تعرف ماذا أريد؟» سأل الآخر: «ماذا تريد؟» دائماً لا تزال كلماته غير كافية للكشف عن لهجته. « أود أن أمارس الجنس معك!» نظر إليه الآخر مندهشاً. «هل أستطيع؟» في النهاية أجاب باتريك بعبارات خالية من اللهجة الجنوبية: «حسناً، لكن سيكون الثمن غالياً!» جمع سيمون هرتسوغ منشفته وهرب تاركاً إيّاه يقول: «بئس الأمر! ألا تريد أن تفعل ذلك مرة أخرى؟» لو تعين عليه أن يمارس مع عشرات القوادين الذين يدورون في الحمام، فإن الأمسية ستطول مدتها. التقى ثانية بالرجل العربي المندهل الذي حاول أن يلمس عضوه وهو يمر، وكذلك الرجلين ذوي الشاربين، واليابانيين، والرجال الموشومين، والشباب المراهقين، ولحق بايارد في الوقت الذي تردد فيه صوت قوي، متحذلق وأخن: «خادم من النظام يعرض عضلاته القمعية في مكان للسلطة الحيوية؟ ليس هناك ما هو أكثر طبيعي من هذا!»

خلف بايارد، يجلس رجل أصلع بجسد جاف كالجلد المدبوغ وفك عريض، عارياً، وذراعاه على شكل صليب متكئاً على مقعد خشبي، ساقاه متباعدة بشكل عريض، يحصل على نشوته مع شاب نحيل يرتدي قرطاً لكن شعره قصير. هل وجدت أي شيء مثير للاهتمام، أيها المفوض؟ سأل مشيل فوكو، وهو يحذق في وجه سيمون هرتسوغ.

كظم بايارد دهشته، لكن لا يعرف بماذا يجيب. فتح سيمون هرتسوغ عينيه على مصراعيهما. يملأ صدى الغرف الخلفية الصمت بالصراخ والأنين. يقبض أصحاب الشوارب في الظل بعضهم البعض من اليد، وهم يراقبون بايارد وسيمون هرتسوغ وفوكو خلسة. يتجول الرجل العربي ويلامس أعضاء الرجال. يتظاهر اليابانيون بالسباحة بمنشفة على رؤوسهم. يقترب الموشومون من الشباب المراهقين أو العكس. يسأل ميشيل فوكو

بايـارد: «كيف تجد هذا المكان، أيها المفوض؟» بايارد لا يجيب على أي شيء، يسـمع فقط صـدى الغرف الخلفية: «هـاه! هاه!» فوكو: «لقـد جئت تبحث عن شـخص ما، وقد عثرت عليه بالفعل، على ما يبدو». ويشـير إلى سـيمون هرتسـوغ، وهو يضحك: «فيلسـوفك ألسـيبياد![1]» الغـرف الخلفية: «هاه! هـاه!» بايارد: «أبحث عن شـخص رأى بارت قبل الحـادث بوقت قصير.» فوكو، مداعباً رأس الشاب المنهمك بين ساقيه: «كان لدى رولان بارت سرّ، تعـرف..» سـأل بايارد أيّ سر؟ زفـرت الغرف الخلفية بصـوت أعلى. شرح فوكـو للمفوض بايـارد أن بارت كان يتصـور الجنس على الطريقـة الغربية؛ أي في الآن نفسـه مثل شيء، سري، ومثل شيء من الضروري اختراق سره. «رولان بارت» يقول ميشيل فوكو، «إنه الشاة التي أرادت أن تكون الراعي. والـذي كان كذلك! ولم يعد بإمكاننا أن نكـون كذلك بسرعة واقتدار! لكن بشأن كل شيء آخر. بالنسبة إلى الجنس، لقد بقي دوماً الشاة.»

الغـرف الخلفية تهدر: «ها! ها! هـا! ها!» حاول الرجل العربي الملامس أن يضع يده تحت منشـفة سـيمون الذي دفعه بلطـف، كذلك ذهب ليقترب من أصحاب الشـوارب. في الواقع، قـال فوكو كان لدى رولان بارت مزاج مسـيحي. لقـد جاء إلى هنا مثلما ذهب المسـيحيون الأوائـل إلى القداس: من دون فهـم أي شيء لكـن بفـورة من الحماس. لقد آمن بذلـك من دون معرفة السـبب. في الغـرف الخلفية: «أجل! أجـل!» «يثير الشـذوذ الجنسي تقززك، ألـيس كذلك، أيها المفوض؟» (بصوت أعلى! بصوت أعلى!) ومع ذلك أنتَ الذي خلق لنا الجنسية المثلية. لم تكن الجنسية المثلية الذكورية توجد في اليونان القديمـة: كان بإمكان سـقراط أن يضاجع ألسـيبياد مـن دون أن يعد لوطياً، كان لدى اليونان فكرة أكثر سمواً عما يمكن أن يكون إفساداً للشباب...»

قلب فوكو رأسـه إلى الوراء وهو يغلق عينيه، من دون أن يتمكن بايارد أو سيمون من تحديد ما إذا كان يستسلم للذة أو يفكر. ودائماً جوقة الأصوات التي تتعالى من الغرف الخلفية: «أوه! أوه!»

---

(١) خطيب سياسي وقائد عسكري من أثينا القديمة توفي عام 404 قبل الميلاد.

فتح فوكو عينيه، كما لو كان قد تذكر شيئاً ما: «ومع ذلك، كان لليونانيين أيضاً حدودهم. لقد أنكروا على الشاب الصغير نصيبه من المتعة. لم يتمكنوا من منعه، بالطبع، لكنهم لم يتصوروا ذلك، وأخيراً، شرعوا مثلنا: لقد اقتصروا على الإقصاء من خلال مفهوم اللياقة. (الغرف الخلفية: «كلا! كلا! كلا!») اللياقة هي دائماً أكثر الوسائل فعالية في الإكراه، في نهاية المطاف..» يشير فوكو إلى ما بين فخذيه: «هذا ليس جنساً، كما يقول ماغريت ها ها!» ثم يعدل رأس الشاب الذي لم يتوقف عن الامتصاص بدقة: «لكن أنت، أنت تحب أن تمص عضوي، أليس كذلك يا حامد؟». أومأ الشاب برأسه ببطء. نظر إليه فوكو بحنان، وقال، مداعباً خده: «هذا يناسبك جيداً، الشعر القصير.» أجاب الشاب، وهو يبتسم: «شكرا جزيلا لك!»

أصاخ بايارد وسيمون هرتسوغ السمع، وهما غير متأكدين مما سمعاه، لكن حامد أضاف قائلا: «أنت لطيف، يا ميشيل، ولك عضو جميل، هراء!»

15

نعم، رأى بارت قبل بضعة أيام. كلاّ، لم يمارسا الجنس حقاً. لقد سمى بارت هذا الفعل «لواط.» لكن لم يكن فعالاً للغاية. كان بالأحرى عاطفياً. سدد له ثمن عجة بيض في مطعم القبة، وبعد ذلك أصر على أن يرافقه إلى غرفة خادمته. شربا الشاي. لم يتحدثا عن أي شيء خاص، لم يكن بارت ثرثاراً للغاية. كان حالماً. قبل أن يغادر، سأله بارت «ماذا كنت ستعمل لو كنت سيد العالم؟ « أجاب العاهر المتعهد بأنه سيلغي جميع القوانين. فقال بارت: «حتى قواعد النحو؟»

16

لقد ساد هدوء نسبي في ردهات مستشفى لابيتيي سالبيتريير. الأصدقاء المعجبون، المعارف، أو المهتمون برولان بارت، يتناوبون لمدة يومين في الجلوس بجانب سرير الرجل العظيم، يملأون قاعة المستشفى، وهم

يتناقشـون بصوت منخفض، يأخذون سيجارة، وساندويتشات، صحيفة، كتـاب، غاي ديـبرود، أو رواية للكاتب كونديـرا في يدهم، حينها ظهر فجأة ثلاثة أشخاص، امرأة ذات قامة قصيرة، وشعر قصير، مفعمة بالحيوية، يحيط بها رجلان، الأول يرتدي قميصاً أبيض، مكشـوف الصدر، بمعطف أسـود طويل، وشعر أسود متطاير، والآخر، وجهه يبدو كوجه طير، يضع سيجارة بين شفتيه، شعره أبيض.

تخـترق الفرقة المكونة من الأشـخاص الثلاثة الزحام بخطوات حازمة، نشـعر أن شـيئاً ما سـيحدث، يبدو أن عملية القائد الأعلى وشـيكة الوقوع، اندلفـت الفرقـة إلى جنـاح المصابـين في حالـة غيبوبة، يتسـاءل الأشـخاص المتواجـدون مـن أجل بـارت بنظراتهم، وكذلـك الزوار الآخـرون أيضاً. لم تمـر خمـس دقائق حتى سُـمعت أولى الصرخـات: «يدعونه يمـوت! يدعونه يموت!»

تعـود الملائكـة الثلاثـة للانتقـام هائجين من عـالم الموتى: «هـذا مأوى المحتضرين! إنها فضيحة! من هؤلاء الذين يسخرون منا؟ لماذا لم يخبرنا أحد؟ لو أننا كنا هناك!» مؤسـف عدم وجـود مصور في الغرفة ليخلد هذه اللحظة العظيمة في تاريخ المثقفين الفرنسيين: كريستيفا، سوليرز، برنار هنري ليفي، وهـم يضغطـون على موظفي المستشـفى للتنديد بالظروف غـير المواتية التي يُعامل بها شـخص مصاب، شـخصية مرموقة مثـل صديقهم العظيم رولان بارت.

قـد يُفاجـأ المرء بحضور برنـار هنري ليفـي، لكنه بالفعـل كان حاضراً في ذلـك الوقت، إنه يشـارك في جميع الأمور المهمة. سـانده بـارت، باعتباره «فيلسـوفاً جديداً» بعبارات غامضة إلى حد ما، لكنها كانت كلمات رسـمية، وإنْ كان قـد أرهقه من جهة أخرى جيل دولوز بالشـتائم لهذا السـبب. كان بارت ضعيفاً على الدوام، لم يكن يستطيع أن يقول لا، وفقاً لأقوال أصدقائه. حـين أرسـل إليه برنار هنري نسـخة من كتابـه «البربرية بوجه إنسـاني» عند صـدروه عـام 1977، لم يمانـع في الرد بجـواب مهذب اكتفى فيـه، من دون

الخوض في صلب الموضوع، بالثناء على الأسلوب. وبالرغم من ذلك، نشر برنار هنري ليفي الرسالة في مجلة «الأدباء الجدد»، وعمل مع سوليرز، وها هو بعد ثلاث سنوات يصرخ في مستشفى سالبيتريير، معبّراً عن اهتمام بالغ بصديقه الناقد الكبير.

الآن، بينما يواصل هو واثنان من أتباعه فضائحهم، وهو يصرخ على الطاقم الطبي البائس («يجب نقله على الفور! إلى المستشفى الأمريكي! اتصلوا بنيولي!»)، تسلل شخصان يرتديان بدلات سيئة إلى الردهة، ولا أحد اكترث لذلك. يلاحظ جاك بايارد، المتواجد في المكان، حائراً، وفي حالة من الذهول، دواليب الرجل الأسمر الكبير وصياح الرجلين الآخرين. سيمون هرتسوغ إلى جانبه، وهو يقوم بالمهمة التي كلف بها، يشرح له من هم هؤلاء الأشخاص، وهو منحني على أذنه على طريقة مترجم فوري، بينما يسب المنتقمون الثلاثة، وهم يتجولون في ردهة المستشفى في تنسيق مضطرب لن يشك المرء أنه خاضع لحركات تكتيكية مبهمة.

لا زالوا يصرخون («هل تعرفون من هو؟ أيمكنكم التظاهر بأن رولان بارت يمكن علاجه مثل أيّ مريض آخر»)، (دائماً، هؤلاء الناس في البحث عن امتيازات كعلامة اصطفاء..) حينها ظهر ثانية الرجلان، بملابس سيئة في بهو المستشفى قبل أن يختفيا في سرية، كانوا لا زالوا هناك حين جاءت ممرضة مرعوبة، شقراء ذات سيقان رشيقة، لتهمس بشيء ما في أذن الطبيب. تلت ذلك حركة عامة، أخذ الناس يتدافعون، ويتدفقون في الممر، أسرع الجميع إلى غرفة رولان بارت. يستلقي الناقد الكبير على الأرض، وقد أزالوا عنه جهاز التنفس، واقتلعوا كل خيوطه، وسترة المستشفى الخاصة به الرقيقة مثل الورق تكشف أردافه الناعمة. كان يئن حين قلبوه، وأدار عينيه البائستين، لكن حين رأى المفوض جاك بايارد الذي انضم إلى الأطباء انتصب في جهد خارق، وأمسكه من سرته، مرغماً إياه على القرفصاء، ونطق بصوت واضح وإنْ كان ضعيفاً، بصوته الشهير الخافت الشبيه جداً بصوت فيليب نوريت، وقد أصبح صوته مكسوراً كأنه مصاب بفواق متقطع:

خلف الباب، رأى رولان بارت كريستيفا بجانب الممرضة الشقراء، صوب عينيه نحوها لفترة طويلة، تجمد الجميع في الغرفة، الأطباء، الممرضات، الأصدقاء، الشرطة، تجمدوا جميعاً في مكانهم لشدة نظرته المفزعة، ثم فقد وعيه.

في الخارج أدار سائق سيارة ستروين السوداء المحرك، وانطلق محدثاً صريراً في الإطارات. سيمون هرتسوغ الذي بقي في بهو المستشفى، لم ينتبه إلى ذلك.

سأل بايارد كريستيفا «هل أنت، صوفيا؟» أجابت كريستيفا، لا. لكن بينما كان ينتظر بقية جوابها، أضافت وهي تنطق على الطريقة الفرنسية حرفيّ «الجيم» و«الواو» أنا اسمي «جوليا» يكشف بايارد بشكل غامض لهجتها الأجنبية، وهو يقول في نفسه، قد يكون هذا النطق إيطالياً أو ألمانياً، أو ربما يونانياً أو برازيلياً، أو روسياً. رأى بايارد قسوة ملامح وجهها، لم يحب النظرة الثاقبة التي رمته بها، وشعر أن عينيها السوداويتين الصغيرتين تود أن تقول له إنها امرأة ذكية، أذكى منه، وإنها تحتقره لكونه شرطيا مغفلا وغبيا. وبطريقة تلقائية، سأل بايارد: «ما هي مهنتك؟» وحين تعاظمت بازدراء لتجيب «محللة نفسية» استبدت به رغبة في صفعها، لكنه تمالك نفسه. لا يزال لديه اثنان آخران للاستجواب.

أعادت الممرضة الشقراء بارت إلى السرير، لا يزال فاقداً للوعي، وأقام بايارد شرطيين مناوبين للحراسة أمام غرفته، ومنع الزيارات حتى إشعار آخر، ثم توجه نحو رجلين مهرجين.

الاسم العائلي، الاسم الشخصي، السن، والمهنة.

جويو فيليب المسمى سوليرز، أربع وأربعون عاماً متزوج من جوليا كريستيفا.

ليفي برنار هنري، اثنان وثلاثون عاماً، فيلسوف، طالب سابق في المدرسة العليا للأساتذة.

لم يكـن الرجـلان في باريس عندمـا وقع الحادث. كان بارت وسـوليرز قريبين جداً من بعضهما البعض...شـارك بارت في مجلة تيل كيل التي ترأسها فيليب جويو المسـمى سـوليرز، وذهبا معـاً رفقة جوليا كريسـتيفا إلى الصين منذ بضع سنوات... وماذا عساهما يفعلان؟ رحلات دراسية ...؟ شيوعيون قذرون، قال بايارد في نفسه. كتب رولان بارت عدة مقالات مفعمة بالمديح حول أعمال سوليرز... كان بارت مثل الأب لفيليب سوليرز، على الرغم من أنه في بعض الأحيان كان يبدو مثل صبي صغير... وماذا عن كريستيفا؟ قال بارت ذات يوم لو أنه كان يحب النساء، كان سيكون متيماً بجوليا كريستيفا... لقـد أحبهـا... وأنتَ لم تكـن غيوراً يا سـيد جويو؟ هاهاها ... لسـنا في هذا النـوع من العلاقة، مع جوليا.. ثم البائس رولان بارت، لم يكن سـعيداً جدّاً مـع الرجـال... لمـاذا؟ لم يكـن يعرف كيـف يحصل عـلى المتعـة.... لقد كان يسـتمتع دائـماً!... أدرك ذلك. وأنتَ يا سـيد ليفي؟ أنا معجـب به كثيراً، إنه رجل عظيم.

أنتَ أيضاً سـافرت معه؟ كان لدي عدّة مشاريع يجب أن أقدمها له. أي نوع من المشـاريع؟ مشروع فيلم عن حياة شـارل بودلير، لقد كنت أنوي أن أقـترح عليـه دور البطولة، مشروع مقابلة مع الروائي الروسي سولجنسـتين، ومـشروع عريضـة للناتو لتحريـر كوبا. هـل يمكنك تقديم أدلـة تؤكد هذه المشاريع؟ نعم، بالطبع، لقد تحدث مع أندريه غلوكسمان الذي يمكنه الإدلاء بشـهادته. هـل كان لدى بارت أعـداء؟ نعم، الكثير، أجاب سـوليرز. يعلم الجميع أنه صديقنا ولدينا كثيراً من الأعداء. من هم؟ الستالينيون! الفاشيون! ألان باديو! جيل دولوز! بيير بورديو! كورنيليوس كاستورياديس! بيير فيدال ناكيت! آه هيلين سـيزو! (برنار ليفي: آه، حسـناً، إنهن غاضبات من جوليا؟ سوليرز: نعم، كلا.. إنهن يشعرن بالغيرة من جوليا بسبب مارغريت...)

مارغريـت كيـف؟ دوراس. يدوّن بايارد جميع الأسـماء. السـيد جويو، هل تعرف شـخصاً يدعى ميشيل فوكو؟ أخذ سوليرز يدور حول نفسه مثل المخبول، وبشـكل أسرع، وسـيجارته مثبتة على شـفتيه، أخذ يرسـم بجسده

المتوهج منحنيات في ممر المستشفى: «الحقيقة، يا سيدي المفوض؟ ... لا شيء سوى الحقيقة... الحقيقة كاملة ... كان فوكو يشعر بالغيرة من شهرة رولان بارت... ولاسيما الغيرة من كوني أنا سوليرز أحببت بارت... لأن فوكو هو طاغية من أسوأ نوع، سيدي المفوض: مستعبد... تخيل، سيدي، ممثل النظام العام، هوف، هوف، أن فوكو أرسل لي إنذاراً نهائياً... « سيكون من الضروري أن تختار بين بارت وأنا!» ... مثل الاختيار بين مونتين ودي لابويسيه، بين راسين وشكسبير... بين هوغو وبلزاك... بين غوته وشيلر... بين ماركس وإنجلز.. بين ميركس وبوليدور.. بين ماو ولينين... بين بريتون وأراغون.. بين لوريل وهاردي... بين سارتر وكامو (آه، كلا، ليس هم) ... بين دوغول وفينونكور... بين المخطط والسوق... بين روكارد وميتران، بين جيسكار وشيراك...» خفف سوليرز من دورانه، أخذ يسعل، وهو يدخن سيجارته. «مثل الاختيار بين بسكال وديكارت...أوف أوف... بين بلاتيني وتريسور.. بين رونو وبيجو... بين مازارين وريتشيليو ...س س س. وفي الوقت الذي يعتقد فيه المرء أنه سيتوقف أخذ نفساً مرة أخرى.. بين الضفة اليسرى والضفة اليمنى... بين باريس وبكين... بين البندقية وروما... بين موسوليني وهتلر... بين الأحمق والبائس...»

فجأة، سُمع ضجيج في الغرفة. فتح بايارد الباب، رأى بارت الذي كان يهتز في حالة من التشنج، يتحدث في نومه، بينما تحاول الممرضة أن تغطيه. أخذ بارت يتحدث عن «النص المتعدد» على شاكلة «زلازل خفيف» و«كتل من الدلالة « لا تدرك منها القراءة سوى السطح الأملس، الملتحم بشكل خفي بتدفق الجُمل، والخطاب المنساب في السرد، والفطرة الكبرى للغة اليومية.

جلب بايارد على الفور سيمون هرتسوغ ليفسر له هذا المقطع، أخذ بارت يضطرب في سريره. أكثر فأكثر. انحنى عليه بايارد وسأله: «السيد بارت، هل رأيت المعتدي عليك؟» فتح بارت عينيه بغضب، وأمسك بايارد من رقبته وأعلن، بنفس متقطع والقلق يفترسه: «سيتم تقطيع الدال الوصي

إلى سلسلة من الشذرات القصيرة المتجاورة، ندعوها في هذا المقام عبارات وألفاظ بما أنها وحدات في القراءة. ويجب القول إن هذا التقطيع سيكون أكثر تعسفاً، لن يتضمن أية مسؤولية منهجية، بما أنه ينصب على الدال في حين أن التحليل المقترح يتعلق فقط بالمدلول...» يسأل بايارد بنظراته سيمون هرتسوغ الذي يهز كتفيه مستغرباً. تصطك أسنان بارت، يبدو في هيأة مخيفة، يسأله بايارد: «السيد بارت، من هي صوفيا؟ ماذا تعرف؟» ينظر إليه بارت من دون أن يفهم أو فهم الشيء الكثير، وأخذ يدندن بصوت خشن: «النص، في كتلته، شبيه بالسماء، مسطح وعميق في الآن نفسه، بدون حواف ودون معالم؛ مثل العرّاف الذي يقتطع فيه بطرف عصاه مستطيلاً خيالياً ليسائل فيه طيران العصافير، يقسم الشارح - المفسر على طول النص مناطق القراءة ليراقب فيها هجرة المعاني، وبروز الرموز والشفرات، وعبور الاستشهادات» يستشيط بايارد غضباً ضد هرتسوغ الذي يدل وجهه الحائر بشكل لا لبس فيه على أنه غير قادر على ترجمة هذه الرطانة، لكن بارت كان على حافة الهستيريا، عندما أخذ يصرخ، كما لو أن حياته تتوقف على النص: «كل شيء في النص! هل فهمتم؟ استعادة النص ! الوظيفة ! آه، هذا هراء !» ثم يسقط على وسادته ويهمس، كأنه يتلو ترانيم: «العبارة مجرد غطاء لمجلد دلالي، خط قمة النص المتعدد، المعد كمجموعة من المعاني الممكنة (لكن مُنظمة، وتشهد عليها قراءة منهجية) تحت تدفق الخطاب: وبالتالي تشكل العبارة ووحداتها نوعاً أشبه بمكعب ذي عدة أوجه، مستتر بكلمة، أو بمجموعة من الكلمات، بجملة أو فقرة، وبعبارة أخرى باللغة التي ليست سوى سواغه الطبيعي» وأغمي عليه. هزه بايارد لإنعاشه، فكان لزاماً على الممرضة الشقراء إجباره على إراحة المصاب، وأخلت من جديد الغرفة.

عندما طلب بايارد من سيمون هرتسوغ إراحته من هذا الغموض، بادر هذا الأخير إلى القول إنه لا يجب منح كثير من الأهمية لكلام سوليرز وبرنار هنري ليفي، وفي الوقت نفسه، رأى طالب الدكتوراه الفرصة سانحة، لذلك قال بجشع: «يجب البدء باستجواب جيل دولوز».

عند مغادرة المستشفى، اصطدم سيمون هرتسوغ بالممرضة الشقراء التي تسهر على رعاية رولان بارت. «آه، آه آسف، آسف، آنستي» ابتسمت له ابتسامة فاتنة: «لا شششيء سيدي»

17

استيقظ حامد مبكراً. الأبخرة ومواد اليوم السابق التي لا يزال جسده مشبعاً بها انتشلته من نوم سيئ. مصاباً بالدوار، مشوشاً وشارد الذهن، بلا معالم في هذه الغرفة المجهولة، كان يحتاج إلى لحظات قليلة ليتذكر كيف وصل إلى هناك وماذا فعل هناك. تسلل خارج السرير محاولاً ألا يوقظ الرجل النائم بجواره، ارتدى قميصاً بلا أكمام ولبس بسرعة سرواله وذهب إلى المطبخ ليعد قهوة، وهو ينهي تدخين سيجارة حشيش كانت لا تزال من الليلة السابقة في منفضة السجائر على شكل جاكوزي، ثم أخذ سترته بالأبيض والأسود عليها حرف كبير F في مكان القلب، وخرج بعد أن أغلق بقوة الباب.

في الخارج كان الجو جميلاً، وكانت سيارة سوداء من نوع ستروين متوقفة على قارعة شارع مهجور. استمتع حامد بالهواء النقي، وهو يستمع إلى بلوني في جهاز walkman ولم يرَ السيارة السوداء التي اشتغل محركها، وانطلقت خلفه. عبَر نهر السين، مشى بمحاذاة حديقة النباتات، وهو يعتقد أنه بقليل من الحظ سيكون ثمة شخص في مقهى فلور؛ ليسدد له ثمن قهوة جيدة، لكن في مقهى فلور يوجد فقط زملاؤه العشاق المتعهدون gigolots واثنان أو ثلاثة من كبار السن لا يستهلكون أي شيء، وسارتر هناك أيضاً، بدوره، يسعل وهو يدخل غليونه أمام حلقة صغيرة من الطلاب يرتدون سترات مميزة، لذلك طلب حامد سيجارة من أحد المارة يرتدي معطفاً واقيا من المطر، يسير بكلب ذا نظرات حزينة، ويدخن أمام حانة سانت جيرمان التي لم تفتح بعد، مع بعض الشباب الشواذ gigolots الذين يبدون مثله أنهم لم يناموا سوى قليلاً من الوقت، بعد أن شربوا كثيراً من الخمر، ودخنوا

الكثير من السجائر، والذين نسي معظمهم تناول الطعام في اليوم السابق. كان هناك سعيد الذي سأله عما إذا كان قد ذهب إلى مقهى الحوت الأزرق أمس، وهارولد الذي أخبره أنه كاد يضرب أماندا لير في مقهى القصر. وسليمان الذي تعرض لضرب مبرح، لكنه لا يعرف السبب. اتفق الجميع على أن المكان ممل وبغيض، انطلق هارولد إلى مقهى المهرجين في مونبارناس أو في أوديون، لكن لا توجد حصة قبل الثانية بعد الظهر. على الرصيف المقابل، أوقف الرجلان ذوا الشاربين سيارة ستروين السوداء، وطلبا قهوة في حانة ليب. ملابسهما مجعدة ومدعوكة كما لو كانا قد ناما في سيارتهما، ولا زالا يحملان معهما مظلتهما. اعتقد حامد أنه من الأفضل أن يذهب لينام، لكنه لا يرغب في صعود ستة طوابق، لذلك طلب سيجارة من رجل أسود خرج للتو من الميترو، وأخذ يفكر فيما إذا كان سيذهب إلى المستشفى أم لا. أخبر سعيد حامد بأن «بابار» في غيبوبة، لكنه قد يكون سعيداً لسماع صوته، يبدو أن المصابين بغيبوبة يسمعون مثل النباتات حين نسمعهم موسيقى كلاسيكية. أظهر لهما هارولد سترته السوداء ذات وجهين مزدوجين بلون برتقالي. أما سليمان، فقال لهما إنه رأى بالأمس شاعراً روسياً يعرفونه بندوب على جسده، وأنه كان يبدو وسيماً بذلك مما جعله يضحك عند رؤيته. أما حامد، فقرر الذهاب إلى مقهى القبة، وإذا اضطر سيتجول في شارع ذي رين. تبعه الرجلان متناسين مظلتهما لكن النادل لاحقهما، وهو يصيح « السادة! السادة! » لوّح بالمظلات مثل السيوف، لكن لا أحد انتبه إلى ذلك، على الرغم من أن اليوم يبدو الجو مشرقاً. استعاد الرجلان المظلات، واستأنفا تعقب حامد. توقفا أمام كوزموس الذي يلعب لعبة ستالكير تاركوفسكي الروسية (ظل تشيرنوبل) ويتابع فيلم حرب سوفياتي، حيث ابتعد عنهما حامد قليلاً، لكن بما أنه هو بدوره يتسكع أمام محلات الملابس، فليس ثمة خطر في فقدان أثره.

لكن، عاد أحد الرجلين للبحث عن السيارة السوداء ستروين.

شارع بيزرت، بين لافورش وساحة كليشي، يستقبل جيل دولوز المحققين. سيمون هرتسوغ سعيد بمقابلة الفيلسوف الكبير، في منزله. وسط كتبه، في شقة تنبعث منها رائحة الفلسفة والتبغ البارد. التلفاز مشغل، ثمة مباراة في التنس، يلاحظ سيمون وفرة من الكتب حول ليبنتز منتشرة في كل مكان، ويسمع ضربات الكرات بوك، بوك، إنها مباراة بين كونورز–ناستاس.

بصفة رسمية، يتواجد الرجلان في شقة دولوز؛ لأن هذا الأخير متورط في نظر برنار هنري ليفي. لذلك يبدأ الاستجواب بـ «أ/ A» مثل اتهام.

«السيد دولوز، علمنا بوجود نزاع بينك وبين رولان بارت. ما حقيقة هذا النزاع؟» بوك – بوك. يحمل دولوز في فمه سيجارة نصف مستهلكة، ولكن منطفئة. يلاحظ بايارد الأظافر الطويلة بشكل غير طبيعي. «آه، حسناً! آه، كلا. ليس لديّ أي خلاف مع رولان، بصرف النظر عن حقيقية أنه أيد هذا البطلان، ذاك الأبله الكبير بقميصه الأبيض.»

يلاحظ سيمون القبعة الموضوعة على مشجب للقبعات. إضافة إلى قبعة معلقة على مشجب المعاطف في المدخل وأخرى على الصوان، ثمة كثير من القبعات، من كل الألوان، على غرار نمط ألان ديلون في فيلم الساموراي. بوك- بوك.

يستلقي دولوز على كرسيه: «هل ترون هذا الأمريكي؟ إنه المنافس لبورغ. حسناً، لا، المنافس لبورغ، إنه ماك إينور: الخدمة المصرية، الروح الروسية، هاه، احم، احم. (يسعل) لكن كونور (يلفظ كونورز)، هذه اللعبة المسطحة، هذه المجازفة الدائمة، تلك الكرات الماسحة للسطح... إنه أسلوب أرستقراطي للغاية أيضاً. بورغ: اللعب العميق المباغت، يعيد الكرة فوق الشبكة بفضل تقنية الرفع. أي بروليتاري بمقدوره أن يفهم ذلك. بورغ يخترع التنس البروليتاري. ماك إينور وكونورز، بطبيعة الحال، يلعبون مثل الأمراء.

يجلس بايارد على الأريكة، ويشعر أنه سيتعين عليه الاستماع إلى كثير من الهراء.

يبادر سيمون بالاعتراض: «لكن كونورز، إنه النموذج المثالي الأصيل للشعب، أليس كذلك؟ إنه الولد الشرير، والطفل القذر، المشاغب، الغشاش، المتحدي، المتذمر. إنه لاعب سيئ، متشاجر، جذاب بشكل لا يصدق...»

يكبح دولوز نفاذ صبره: «أجل؟ احم، احم، هذا مثير للاهتمام كاعتراض».

يسأل بايارد: هل من الممكن أن شخصاً ما أراد أن يسرق شيئاً ما من رولان بارت. وثيقة. هل لديك فكرة يا سيد دولوز؟»

يلتفت دولوز نحو سيمون: «إنه من غير الأكيد أن السؤال ما هو؟ هو سؤال جيد. قد تكون بعض الأمثلة من قبيل: من؟ كم؟ كيف؟ أين؟ متى؟ أسئلة جيدة.»

يشعل بايارد سيجارة، ويسأل بصبر وخضوع إلى حد ما، «ماذا تقصد؟»

حسناً، من الواضح أنك إذا جئت للبحث عني، بعد مرور أكثر من أسبوع على الوقائع، لتلوّح بتلميحات خاطئة لفيلسوف غبي؛ فذلك لأن حادثة رولان بارت ليست الحادثة الوحيدة، لذلك أنت تبحث عن متهم، بمعنى عن حافز. لكن ثمة طريقاً طويلاً لنصل إلى السؤال لماذا؟ أليس كذلك؟ أعتقد أن مسار السائق لم ينجح؟ سمعت أن رولان بارت استيقظ. ولم يرغب في قول أي شيء؟ لذلك نغير السؤال لماذا؟

في جهاز التلفزة، يُسمع كونورز يزفر في كل ضربة كرة. يلقي سيمون نظرة من النافذة، يرى سيارة فويغو زرقاء متوقفة في الأسفل.

يسأل بايارد لماذا بارت، في تصور دولوز، لم يرغب في الكشف عما يعرف. يجيب دولوز أنه لا يعرف سوى شيء واحد: «مهما حدث، أو مهما كان هذا الشيء الذي قد يحدث، فهناك أدعياء بمعنى أن هناك أشخاصاً

يقولون: بخصوص هذه المسألة، أنا الأفضل.»

يسحب بايارد نحوه منفضة السجائر على شكل بومة فوق مائدة منخفضة «أنت، ماذا تدّعي، سيد دولوز؟»

يحدث دولوز ضجة بين السخرية والسعال: «نحن ندّعي دوماً ما لم نتمكن من تحقيقه أو ما حققناه يوماً ولن يعود ثانية، سيدي المفوض، لكنني لا أعتقد أن هذا هو السؤال الأهم، أليس كذلك؟»

يسأل بايارد: ما هو السؤال الأهم؟

يشعل دولوز سيجارته ثانية: «كيف يتم اختيار المدّعين الطامعين.»

في المبنى، يُسمع صدى امرأة تصرخ. لا يُعرف ما إذا كان من دواعي اللذة أو الغضب. يشير دولوز بأصبعه نحو الباب: «النساء، سيدي المفوض، إنه ليس أمراً معطى، فهُن ليسوا نساء بطبيعتهن. النساء، يملكن صيرورة امرأة» وقف دولوز وهو يزفر قليلاً، بدوره، وذهب ليصب لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر:» نحن، الشيء نفسه.»

بايارد، مرتاباً، يسأل:»هل تعتقد أننا جميعاً الشيء نفسه؟ هل تعتقد أنك أنت وأنا، الشيء نفسه».

يبتسم دولوز: «أجل.. في نهاية المطاف بمعنى من المعاني، نعم.»

بايارد محاولاً إظهار حسن النية، لكن بنوع من التردد والتحفظ: «أنتَ أيضاً هل تبحث عن الحقيقة؟

«آه، الحقيقة... أين يبدأ البحث عن الحقيقة، وأين ينتهي... نحن دائماً في منتصف شيء ما، كما تعلمون.»

يفوز كونورز بالجولة الأولى 2 / 6.

«كيف نحدد وسط المدّعين والطامعين، من هو الجيد والأصلح؟ إذا طرحت السؤال بـ(كيف)، ستسأل لماذا؟ خذ السفسطائيين على سبيل المثال: المشكلة، إذا اتبعنا أفلاطون، فإن السفسطائيين يتطلعون إلى شيء ما لا يحق لهم الحصول عليه.... نعم، إنهم يغشون أولئك الأنذال! يفرك يداه.

« المحاكمات، دوماً ثمة مدّعون طامعون...».

يرتشف كأسه دفعة واحدة، ويضيف، وهو ينظر إلى سيمون: «هذا أمر ممتع مثل رواية».

يرمقه سيمون بنظرة.

19

«آه كلا، هذا مستحيل تماماً، أرفض بشكل قاطع! لن أذهب! هذا يكفي! من المستحيل أن تطأ قدماي قصرك، هناك! لستَ في حاجة إليّ لتفك شفرة كلام ذاك الحثالة! ولست بحاجة لسماع ذلك، وسألخص لك الأمر: أنا خادم مطيع للرأسمال الكبير. أنا عدو الطبقة العاملة. أملك كل وسائل الإعلام. حين لا أطارد الفيل في إفريقيا، فإني أسعى لإيجاد الإذاعات الحرة. أكمم حرية التعبير. أصنع المفاعلات النووية في كل مكان. أنا قواد غوغائي يدعو نفسه بنفسه عند البؤساء المستضعفين. أنا مخبئ الماس المسروق. أحب أن ألعب دور البروليتاريين في الميترو. أحب الناس السود، عندما يكونون أباطرة أو جامعي القمامة، وحين أسمع كلمة الإنسانية، أرسل المظليين. أستخدم صيدليات اليمين المتطرف لتسوية أنشطتي التجارية الصغيرة. أتغوط على الجمعية الوطنية الفرنسية. أنا ...أنا... فاشي كبير!»

أشعل سيمون هرتسوغ سيجارة، وهو يرتجف. ينتظر بايارد أن تنتهي النوبة التي ألمت به. في هذه المرحلة من التحقيق، وعلى أساس الأدلة والعناصر التي يتوفر عليها، فقد كوّن تقريراً أولياً، ويخامره الشك في أن هذه القضية ستتخذ أبعاداً كبرى، لكن ليس إلى درجة استدعائه هناك إلى قصر الإليزيه. مع الشاب.

«على كل حال، لن أذهب، لن أذهب، لن أذهب»، يقول الشاب سيمون.

«سوف يستقبلك السيد الرئيس»

يدخل جاك بايارد، وسيمون هرتسوغ إلى مكتب ذي زاوية مضيئة مع جدران مغطاة بالحرير الأخضر. يبدو سيمون شاحباً، ولكنه يلاحظ بشكل غريزي كرسيين قبالة المكتب الذي يجلس خلفه الرئيس جيسكار، وفي الجانب الآخر من الغرفة، توجد كراسي أخرى مع أريكة معدة حول طاولة منخفضة. فهم الطالب على الفور حدود الخيار: اعتماداً على ما إذا كان الرئيس يرغب في خلق مسافة مع زواره أو على العكس من ذلك، أن يمنح اللقاء نبرة أكثر ترحيباً، يستقبل زواره خلف مكتبه الذي يستخدمه كحاجز أو يجلسهم حول طاولة يلتف حولها الكل لتناول الكعك. يلمح سيمون هرتسوغ أيضاً كتاباً عن كينيدي، تم وضعه بشكل بارز على مكتب يوحي بصورة رئيس دولة شاب وحداثي، والذي يزعم جيسكار بدوره أنه يجسده؟ هناك أيضاً علبتان، واحدة حمراء والأخرى زرقاء، تم وضعهما على مكتب أسطواني، يضمان أوسمة برونزية هنا وهناك، وأكوام من الملفات على ارتفاع منظم بذكاء: أكوام من الملفات تعطي الانطباع بأن الرئيس لا يفعل شيئاً، وأن هذه الملفات تطغى عليه. ثمة العديد من اللوحات الفنية الرائعة التي تزين الجدران. يشير جيسكار، الذي يقف وراء مكتبه الضخم، إلى إحدى اللوحات التي تمثل امرأة جميلة وقاسية، ذات ذراعين ممدودتين، ترتدي ثوباً أبيض رقيقاً مفتوحاً عند البطن، بالكاد يغطي ثدييها الثقيلين: «أنا محظوظ لأنني حصلت على إعارة من متحف بوردو لإحدى أجمل لوحات الرسم الفرنسي: لوحة اليونان على أنقاض ميسولونغي، للرسام أوجين ديلاكروا. لوحة رائعة، أليس كذلك؟ تعرفون ميسولونغي، بالطبع: إنها المدينة التي مات فيها الشاعر اللورد بايرون خلال حرب الاستقلال ضد الأتراك. في عام 1824، أعتقد (يلاحظ سيمون غنج وتأنق، على ما أظن) لقد شن العثمانيون حرباً مروعة، وكانوا في غاية القسوة والضراوة.»

من دون أن يبرح مكتبه، ومن دون أن يقوم بأية حركة لمصافحتهما

دعاهما للجلوس. فيما يخص وضع بايارد وسيمون، استقبلهم الرئيس بعيداً عن الأريكة ودون قطع الكعك، وهو واقف، تابع الرئيس قائلاً: «هل تعرفون ما قاله عني مالرو؟ إنه ليس لديّ أي شعور بمآسي التاريخ». بطرفة عين ينظر سيمون إلى بايارد الذي ينتظر، صامتاً، بلا مبالاة.

يعود جيسكار إلى اللوحة، لذلك يشعر الزائران أنهما مضطران إلى الالتفات لإظهار أنهما يتابعان: «ربما ليس لديّ شعور بمأساة التاريخ، لكنني على الأقل أشعر بعاطفة الجمال المأساوي لهذه المرأة الشابة، الجريحة في خاصرتها، والتي تحمل الأمل بتحرير شعبها!» بجهلهما لإيقاع الخطاب الرئاسي، التزم الرجلان الصمت، الشيء الذي يبدو أنه لا يضايق جيسكار المعتاد على دلالات صمت ينم عن الموافقة المهذبة. عندما استدار الرجل بلغته الناعقة لينظر من خلال النافذة، أدرك سيمون أن هذا البياض هو مرحلة انتقالية، وأننا سندخل الآن في لب الموضوع.

دون أن يستدير مظهراً إلى محاوريه مقدمة رأسه الأصلع، يواصل الرئيس حديثه قائلاً: «لقد قابلت رولان بارت ذات مرة، دعوته إلى الإليزيه. إنه رجل ساحر جداً. قام بتحليل قائمة الطعام لمدة ربع ساعة وقدم عرضاً رائعاً للغاية للقيمة الرمزية لكل طبق. لقد كان الأمر مثيراً للغاية. الرجل المسكين، علمت أنه تأثر كثيراً بوفاة والدته، أليس كذلك؟».

أخيراً يجلس جيسكار ويتوجه بالحديث إلى بايارد: «أيها المفوض، في يوم وقوع الحادث، كان السيد رولان بارت في حوزته، وثيقة سرقت منه. أود منك أن تجد هذا المستند؛ إنها مسألة أمن قومي.»

سأل بايارد: «ما هي الطبيعة الدقيقة لهذه الوثيقة، السيد الرئيس؟»

يميل جيسكار بجسده إلى الأمام، وهو يضع قبضته على مكتبه، ويقول بنبرة حادة: «إنها وثيقة حيوية تعرض الأمن القومي للخطر. إن استخدمت بطريقة سلبية، يمكن أن تسبب أضراراً لا تعد وتعرض للخطر أسس الديمقراطية نفسها. للأسف، لا يمكنني أن أخبرك المزيد عن هذه الوثيقة. يجب أن تتصرف بحذر وتكتم، وسيتم منحك صلاحية مطلقة».

ثـم صوب أخيراً نظره إلى سـيمون: «أيها الشـاب، قيل لي إنك تشـتغل كمرشـد للمفوض؟ إذن أنت على دراية بوسط اللسـانيات الذي ترعرع فيه السيد ورولان بارت؟»

لم ينتظر سيمون إشارة لكي يجيب: «كلا، ليس حقاً»

ألقـى جيسـكار نظرة تسـاؤل على بايـارد، الذي أوضح قائلا: «السـيد سـيمون هرتسـوغ لديه مجموعة من المعلومات قد تكـون مفيدة في التحقيق. يفهـم كيف يعمل هؤلاء الأشـخاص، آه، وما يـدور في محيطهم. ويمكن أن يرى الأشياء التي لن تراها الشرطة.»

ابتسـم جيسـكار: «إذن أنـت عـرّاف مسـتبصر، مثـل آرثر رامبـو، أيها الشاب؟»

تمتم سيمون بخجل: «لا، لا، على الإطلاق.»

أشـار جيسـكار بإصبعه إلى العلبتين الحمراء والزرقاء الموضوعتين على مكتـب خلفهـما، تحـت لوحة اليونـان للرسـام ديلا كـروا: «في رأيـك، ماذا بداخل تلك العلبة؟»

لم يفهم سيمون أنه يجري اختباراً، وقبل أن يفكر فيما إذا كان من مصلحته اجتيازه بنجاح، يجيب لاشعورياً: «ميداليات جوقة الشرف، على ما أعتقد؟»

اتسـعت ابتسـامة جيسـكار بشـكل عريض. قام ليفتح إحدى العلبتين وأخرج منها ميدالية: «هل لي أن أسألك كيف خمنت ذلك؟»

حسـناً، احـم، احـم. الغرفـة بأكملهـا مليئة برمـوز: اللوحـات الفنية، السـتائر، قوالب ناتئة في السقف... كل التفاصيل مصممة للتعبير عن روعة وسـيادة السـلطة الجمهورية. اختيـار ديلاكروا، صورة كينيـدي على غلاف الكتاب الموضوع على المكتب: كل شيء معبر بشـكل دال للغاية. لكن الرمز لا قيمـة لـه إلا إذا تم عرضه. رمز مسـتتر داخل علبة لا طائـل منه، وأود أن أقول أكثر من ذلك، لا وجود له.

«وفي الوقـت نفسـه، أعتقد أنك لن تقـوم بتخزين المصابيـح والمفكات

في هـذه الغرفـة. يبدو لي من غـير المرجح أن هاتين العلبتين سـتكونان بمثابة صناديق للأدوات. وإذا تم اسـتخدامهما لتخزين مقاطع الورق أو الدباسـة، فسـتكون هذه العلب على مكتبك الخاص بالعمل، في متناول اليد. وبالتالي، فـإن المحتـوى ليـس رمزيـاً ولا وظيفياً. ولكن يجـب أن يكون هـذا أو ذاك. يمكنـك تخزين مفاتيحك في تلك العلبة، لكـن أعتقد في قصر الإليزيه، ليس الرئيـس هـو الذي يتكلـف بفتح أو إغـلاق الأبواب، ولا تحتـاج إلى مفاتيح سـيارتك أيضـاً؛ لأن لديـك سـائق. لذلك، لم يتبقَ سـوى حـل واحد: رمز ثابـت، وهـو ما لا يعني شـيئاً هنا في حـد ذاته، ولكنه لن ينشـط إلا في مكان آخـر، خارج هذه الغرفة: الرمز المصغر والمتحرك لما يرمز إليه هذا المكان، ألا وهـو عظمـة الجمهورية. ميدالية، وبالتالي، ربما بالنظر إلى هذا المكان، وسـام جوقة الشرف. احم.»

تبادل جيسـكار نظرة تفاهم واتفاق مع بايارد: «أعتقد أنني أرى ما تود قوله، أيها المفوض.»

21

يرتشف حامد مشروبه البرتقالي، وهو يحكي قليلاً عن حياته في مرسيليا ومحـاوره يثـق بكل كلمـة يقولها من دون أن يسـتمع إليه حقـاً. يعرف حامد نظرة هذا الكلب المدلل: إنه سيد هذا الرجل؛ لأنه يثير فيه الرغبة المجنونة في امتلاكه. قد يستمتع أولا يستمتع، وربما يسعد بذلك قليلاً، لكن من المحتمل أن تكـون المتعة أقل من الشـعور بالقوة الذي يسـتمده من وضعه كموضوع رغبـة، وإنـه لأمـر جيد أن يكون المرء شـاباً وجميـلاً وفقيراً: يمكنـه أن يحتقر بهـدوء. مـن دون أن يفكر في ذلك، أولئـك الذين هم على اسـتعداد للدفع، بطريقة أو بأخرى، من أجل امتلاكه.

وصلـت الأمسـية إلى ذروتها، وكما هو الحال دائماً، شـعور المرء بوجوده خارج المكان، في هذه الشـقة البرجوازية الكبـيرة، في قلب العاصمة، في هذا الشـتاء المنقضي، يشـعره بفرح سيء. إن ما نسرقه يسـاوي ضعف ما نكسـبه

مـن عرق جبينا، لذلـك عاد إلى البوفيه، ليتناول مـن جديد قطعة خبز مطلية بالزبـدة والمربى، الشيء الذي يذكره بشـكل غامض بمنطقـة الجنوب، وهو يشـق طريقه وسـط الناس الذين يرقصون على أغنية غابي يا غابي لباشـونغ. يجد هناك سـليمان الـذي يبتلع قضمات الحلزون محـاولاً الضحك على نكات نـاشر ضعيف يمس مؤخرتـه. بجانبهـم، تضحك امرأة شـابة، وهي تقلب رأسـها بشكل مبالغ فيه: «لذلك توقف.. وتراجع بخطوات إلى الوراء!». في النافذة، يدخن سـعيد الحشـيش رفقة رجل أسود ذي رأس دبلوماسي. تنفخ مكبرات الصوت للإيقاعات الأولى مع أغنية خطوة جانباً، ورجفة هسـتيرية مزيفة تعبر أرجاء الغرفة، يصرخ الناس كما لو كانت الموسيقى تثير حواسهم، وكـما لو كانت موجة من المتعة تسري في أجسـادهم، كما لـو أن الجنوب كان كلبـاً مخلصاً فقدوه وعاد إليهم، وهو يهز ذيله، كما كان بإمكانهم التوقف عن التفكـير أو عـدم التفكير في فضـاء آلة محـددة الإيقاع على ساكسـفون لائغ. ثـم هناك أغاني الديسـكو، وللحفاظ على مزاج رائق؛ تنـاول حامد طبقاً من التبولة مع صلصة الكمأة، وهو يحدد الضيوف الذين من المحتمل أن يقدموا لـه قليلاً مـن الكوكايـين، أو إذا تعـذر ذلك، قليـلاً من المخـدرات. الاثنان يجعلانـه يرغـب في التقبيل، لكن المخدرات تجعلـه ينحني، وهو ما يجعلها في اعتقـاده من دون أهميـة كبيرة. أن يصمد المرء أكبر فـترة ممكنة؛ حتى لا يعود إلى منزلـه. ينضم حامد إلى سـعيد عنـد النافذة. يضيء عمـود المصباح لوحة الإعلانـات، في زاوية شـارع هنري الرابع، الذي يعرض سـيرج غينسـبورغ في بدلـة وربطة عنق، والتـي يمكن أن يقرأ فيها المـرء: «بايارد هذا يغيرك إلى رجل، أليس كذلك السـيد غينسـبورغ؟» لم يتمكن حامـد من تذكر لماذا هذا الاسـم مألوف بالنسـبة إليه، ولأنه يعاني من نقص في الغدد التناسـلية؛ فإنه خرج يبحث عن شراب وهو يتلو بصوت عالي جدوله الزمني للعام الماضي. يتأمل سـليمان سلسـلة مـن المطبوعات الحجريـة المعلقة على الحائـط، والتي تمثـل تدرج قـوس قزح لمجموعة من الـكلاب تأكل في أطبـاق مليئة بأوراق الدولار، متظاهراً بتجاهل الناشر الفاشـل الذي يتلمس أردافه ويشم رقبته. يتعـالى صوت كريسي هيند عبر مكبرات الصـوت ليبلغ المدعوين، وفي جميع

الحالات التوقف عن الأنين. يناقش رجلان ذوا شعر طويل وفاة المغني بون سكوت واستبداله المحتمل داخل مجموعة أس/ داس بسائق شاحنة سمين يرتدي قبعة. يكرر شاب يرتدي بدلة فضفاضة وربطة عنق لأي شخص يريد سماعه، وهو في حالة من الهيجان، أنه يعرف من مصدر موثوق أن الناس رأوا ثديي الممثلة مارلين جوبرت في فيلم «حرب الشرطة» يقال أيضاً إن لينون يعد أغنية مع مكارتني. عاهر متعهد gigolo نسي حامد اسمه جاء ليطلب منه القليل من الحشيش، ويسخر من هذه الأمسية التي يعتبرها أنها تحمل «علامة الضفة اليسرى»، ويشير له عبر النافذة إلى عبقرية قلعة الباستيل:»أترى المشكلة يا صديقي؟ أرغب أن نكون يعقوبيين، لكن لا تزال هناك حدود» قلب شخص كأسه من الشراب الأزرق على السجادة. يتردد حامد في المغادرة للعودة إلى سان جيرمان، لكن سعيد يدعوه إلى الحمام: يدخل في الوقت نفسه إلى الحمام فتاتان ورجل عجوز. وبما أنهم يعرفون أن الأمر لا يتعلق بالتقبيل، بل لشم الكوكايين (وهو ما يتظاهر الرجل العجوز بتجاهله؛ لأنه بوجود هاتين الفريستين، سيستفيد منهما على الأقل خمس دقائق)، واستنتجوا من ذلك أنهم إن ناوروا بمهارة، فسيكون بمقدورهما أن يتدبرا أخذ سطر أو سطرين من المخدرات. سأل شخص من رجل ذي شارب متساقط الشعر، إذا ما كان هو باتريك دوفاير. لكي ينفلت من الناشر البدين، اصطاد سليمان فتاة شقراء بسروال جينز مطاط وجعلها ترقص على إيقاع الروك حول أغنية سلاطين الفرح لفرقة ستريت. الناشر البدين، في حالة من الذهول، ينظر إلى زوجين يستديران حول نفسيهما، وهما يحاولان تشكيل نظرة ساخرة ومتعاطفة في الآن نفسه، ليظهر رباطة جأش لا تخدع أي شخص. إنه وحيد مثلنا جميعاً، لكن هو ليس بمقدوره إخفاء ذلك، وأي أحد في الحقيقة لا يعيره اهتماماً إلا إذا أراد أن يلاحظ أنه متبرم من هذه العزلة.

أبقى سليمان شريكته على الأغنية التالية، رأساً على عقب للمغنية ديانا روس. نزل فوكو إلى السهرة مع هيرفي غيبير في لحظة ذروة مدخل أغنية قتل العرب التي أطلقها الكاهن. يرتدي سترة جلدية سوداء كبيرة بسلاسل،

وقد جرح نفسه عند حلاقة رأسه. يبدو غيبير شاباً جميلا جمالا كاريكاتورياً لدرجة أنه لا يمكن للمرء إن لم يكن باريسياً أن يأخذه على محمل الجد بصفته كاتباً. يطبل سعيد وحامد على باب غرفة الحمام محاولين ملاطفة شاغلي الحمام بكلمات زائفة وذرائع لا معقولة، لكن الباب ظل مغلقاً بشدة، يتعالى من خلفه ضجيج خفي، للفلز وشنب الأسنان، والشهيق...وأغنية أقف على الشاطئ، بمسدس في يدي ... كما هو الحال دائماً عندما يصل إلى مكان ما، يثير فوكو نوعاً من الإثارة المخيفة، باستثناء أولئك المنتشين بالمخدرات الذين يقفزون في كل مكان، وهم يستمعون إلى ما يعتبرونه أغنية شاطئية: النظر إلى البحر، النظر إلى الرمال... انفتح باب الحمام، خرجت الفتاتان مع الرجل العجوز، وهما ينظران إلى هيأةسعيد وحامد ويستنشقان علناً بأبهة رجل المخدرات الاجتماعي والمدني الذي لم ينتشِ بعد بلترات السيروتونين التي ذهبت إلى دماغه، والتي سيستغرق مخزونها على مدى أشهر وسنوات، وقتاً أطول للتجديد، أنا على قيد الحياة، أنا ميت.

في قلب الدائرة التي تكونت من حولهم، يروي فوكو قصة للشاب غيبير كما لو أنه لم يلاحظ الهيجان الذي أثاره حضوره، مستمراً في محادثة بدأت قبل وصولهم: «عند ما كنت صغيراً، كنت أود أن أصبح سمكة ذهبية. اعتادت والدتي أن تقول لي، حسناً أرنبي، لا يمكنك، أنت تكره الماء البارد.» يقول صوت روبرت سميث: أنا غريب! فوكو: «يقذف بي هذا الأمر في هاوية الحيرة، قلت لأمي: أريد أن أكون كذلك لثواني قليلة، أود أن أعرف ما تفكر فيه السمكة الذهبية..» روبرت سميث: «... قتل العرب! قرر سعيد وحامد الذهاب إلى مكان آخر، ربما إلا لانوش la Noche. سليمان، من جهته، عاد إلى الناشر البدين؛ لأنه يجب عليه أن يأكل. أحدق في نفسي، انعكاس في العيون...» فوكو «يجب على شخص ما أن يعترف. هناك دوماً شخص ينتهي به المطاف بالاعتراف...» روبرت سميث: «... الرجل الميت على الشاطئ...» غيبرت: «كان عارياً على الأريكة ومن المستحيل العثور على مقصورة تعمل .....الرجل الميت على الشاطئ...وعندما نجد أخيراً مقصورة ندرك أنه ليس لها رمز مميز...» ينظر حامد من جديد نحو الخارج، من خلال الستارة،

يرى سيارة ستروين متوقفة في الأسفل، ويقول: سأبقى لفترة، أيضاً. أشعل سعيد سيجارة وظهر ظلهما متقطعاً في إطار النافذة المضاءة بأضواء الحفلة.

22

جورج مارشي، لا نعير أهمية لجورج مارشي، عليه أن يعرف ذلك! تمكن دانيال بالافوين أخيراً من التحدث، وهو يعلم أن الكلمة ستسحب منه عن طيب خاطر، أو كرهاً في أقل من ثلاث دقائق، لذلك سرعان ما أدار مونولوجه الغاضب بسرعة، ليقول إن السياسيين شاخوا، وهم فاسدون وخاطئون تماماً.

«لا أتحدث باسمك، سيد ميتران...» لكن مع ذلك.

«ما أرغب في معرفته، وما يثير اهتمامي، هو إلى من يدفع العمال المهاجرون الإيجار الذي يسددون ثمنه... أود... من يجرؤ، كل شهر، أن يطلب من العمال المهاجرين سبعمائة فرنك في الشهر، ليعيشوا في علب القمامة والأحياء الفقيرة؟» هذه قضية مربكة، غير مهيكلة، ومليئة بالأخطاء الفرنسية، التدفق سريع للغاية وهذا أمر رائع. الصحفيون، الذين لا يفهمون شيئاً كالمعتاد، يتذمرون عندما يوبخهم بالافوين لعدم دعوتهم أبداً للشباب (والسخرية البلاغية الحتمية: هي دليل أكبر على ذلك، بما أنك هنا، فأنت أبله صغير!)

لكن ميتران فهم ما يجري. هذا الشاب السوقي يود أن يظهرهم على حقيقتهم، هو والصحفيون حول الطاولة وجميع أقرانهم: بلهاء مُسنون يقبعون في ذواتهم منذ أن ماتوا في نظر العالم، وهم لا يدركون ذلك. يحاول ميتران تأييد موقف الشاب الغاضب، لكن كل محاولة لتفخيم صوته تبدو كعلامة على أبوية في غير محلها.

«أحاول قراءة ملاحظاتي بسرعة... ما يمكنني أن أقدم لكم، على أي حال، هو عبارة عن تحذير...» يعبث ميتران بنظارته، وهو يعض شفتيه، «هذا مُصور، مباشر، إنها كارثة. ما أستطيع أن أقوله لكم هو إن اليأس محفز

لحشد الإرادة، وحين يكون اليأس محفزاً فذلك أمر خطير».

الصحفي بإشـارة من السخرية السادية: «السيد ميتران، تود أن تتحاور مع شاب، لقد استمعت إليه باهتمام كبير...» اخرج من هنا، يا ولدي.

وبالتـالي، بدأ ميتران في الجـدل: «ما يهمني كثيراً هـو أن طريقة التفكير هـذه... وهـذا التفاعل... وأيضـاً التعبير عن الـذات! لأن دانيـال بلافوين يعبر عن نفسـه أيضاً من خلال الكلمة المكتوبة ومن خلال الموسيقى... فهو يملـك حق المواطنة... ويمكن أن يكون مسـموعاً ومفهوماً.» نعم، صعب، الأمـر صعب، «يقولها بطريقته الخاصة! إنه مسـؤول عـن كلماته. إنه مواطن مثل أي مواطن آخر.»

نحـن في 19 مارس 1980، على منصة القناة الفرنسـية الثانية، السـاعة الواحدة والنصف ظهراً وميتران عمره ألف سنة.

23

فيـما يمكـن أن يفكـر بارت وهـو ميت؟ في أمـه، يقولون ذلـك. إن أمه هـي التي قتلتـه. بطبيعة الحال، بطبيعة الحـال، دوماً ومـراراً القضية الخاصة الصغـيرة، الـسر القذر الصغـير. كما يقـول، جيل دولـوز، لدينا جميعـا جَدّة حدثت لها أشياء لا تصدق، وماذا إذن؟

«بسـبب الأسـى والحسرة» نعم، سيدي، سـيموت من الحزن ولا لشيء آخر. انحصر المفكرون الفرنسـيون البؤسـاء في رؤيتك لعالم يُختزل في المجال الحميمـي الأكثر دناءة، والأكثـر تقليدية، والأكثر تمركزاً على الذات بشـكل عميـق. من دون ألغـاز، ودون أسرار، الأم، أم كل الإجابات. خلصنا القرن العشرين من الله، ووضع لنا الأم في مكانه. يا لها من قضية رائعة. لكن بارت لا يفكر في والدته.

إذ اسـتطعت الإمساك بخطوط تسلسـل أحلامه المخنوقة، ستدرك: أن الرجـل الـذي سـيموت يفكر في مـا كان عليـه، ولكن قبـل كل شيء ما كان

يمكـن أن يكـون عليـه، لا شيء آخـر؟ لا يرى ثانيـة حياته بكاملهـا، ولكن الحادث. من أمر بالعملية؟ سـيتذكر أنه تـم التلاعب به، ثم اختفت الوثيقة. أيـاً كان راعـي العملية، فإنه على الأرجح على حافة كارثة غير مسـبوقة. بينما كان بإمـكان رولان بارت الاسـتفادة من أمـه: القليل بالنسـبة إليه، والباقي للعـالم. التغلـب على خجلـه في نهاية المطاف، يـا لها من خسـارة. حتى لو أنه خرج سالماً من الحادث، فإن الأوان كان قد فات للاحتفال بذلك.

لا يفكر رولان بارت في أمه، لسنا في حالة ذهان واضطراب شخصي.

فيـما يفكر رولان بارت؟ ربما يتراءى له انسـياب هذه الذكرى أو تلك، أشـياء حميمية أو تافهة أو أشـياء يعرفها هو فقط. ذات مسـاء. هل كان ضوء النهـار مـا زال مشـعّاً؟ -، كان يجلس هو وميشـيل فوكو في سـيارة أجرة مع مترجمـه الأمريكي الذي قـام بزيارة خاطفة إلى باريس. كان الثلاثة يجلسـون في الخلـف، يتوسـطهم المترجـم وفوكـو كالعـادة يحتكـر المحادثـة، يتحدث بصوتـه النابض بالحياة، الواثق من نفسـه مثل أصوات العصور القديمة، هو الـذي يتحكم في مجـرى المحادثة، كما هو الحال دائـماً، يرتجل محاضرة مختصرة ليـشرح كـم يكره بيكاسـو، والى أية درجة بيكاسـو سيئ وعديـم الجدوى، وهو يضحك، بطبيعة الحال، والمترجم الشـاب يسـتمع بحكمة، في بلده، هو كاتب وشاعر، ولكن هنا يستمع بإجلال إلى كلام هذين المفكرين الفرنسيين اللامعـين، وبارت يعرف بالفعـل أنه ليس كفؤاً لمواجهة طلاقه لسـان فوكو وذلاقته، ولكن يجب عليه أن يقول شيئاً، حتى لا يتفوق عليه فوكو، ويستغل الوقت ليضحك هو أيضاً، لكنه يعلم أن لضحكاته وقع سـيئ. إنه منزعج، لأنـه يبدو مُحرجاً، إنها دائـرة مفرغة، عاش على هذا المنوال طوال حياته، كان يرغب بشـدة في أن يتمتع بثقة النفس التي كان يتمتع بها فوكو، وحتى عندما كان يتحدث أمام طلابه، ويسـتمعون إليه بخشـوع، كان يخفي ضحكه وراء نبرتـه الأسـتاذية. ففـي الكتابة فقط كان يشـعر بالثقة في نفسـه، إنه واثق من نفسـه، وحيـداً، معتكفاً بـين أوراقه، وكتبه، وكُتّابه، بروسـت، شـاتوبريان، ويواصـل فوكو الكلام بسرعة حول بيكاسـو وبالتالي، حتى لا يشـعر بارت

بالهزيمة، يقول إنه أيضاً يكره بيكاسو، وبقول ذلك، يرى أنه يكره نفسه، لأنه كان يرى جيّداً ما يحدث، فمن وظيفته أن يرى ما يحدث، فهو يحط من قيمته أمام فوكو وبلا شك أمام ازدراء المترجم الشاب والجميل الذي أدرك ذلك، يحتقر بيكاسو وينتقده لكن بخجل، نقد تافه، في حين أن فوكو يحتقر بصوت عال بيكاسو، هو أيضاً، يقول إن بيكاسو أدنى من شهرته ومغالى في تقديره، وأنه لم يفهم أبداً ما يميزه لدى الجمهور، ولست واثقاً في أنه لم يفكر في هذا الأمر، على كل حال، صحيح أن بارت كان قبل كل شيء كلاسيكياً، لم يكن يحب أساساً، الحداثة، ولكن في النهاية لا يهم: حتى لو كان يكره بيكاسو، فهو يعرف جيداً أن الأمر لا يتعلق بذلك، ولكن حتى لا يشعر بالهزيمة أمام فوكو، وأنه منذ اللحظة التي أعلن فيها فوكو عن مثل هذا الادعاء في محاربة التقاليد، فإن بارت كان يبدو مثل عجوز أبله، وهو يحتج وبالتالي، حتى لو لم يكن يحب بيكاسو حقاً، فإنه ينتقص من قيمته ويسخر منه الآن، في سيارة الأجرة هاته التي تأخذه إلى مكان يعلمه الله وحده، لأسباب خاطئة.

وهكذا، ربما مات بارت على هذه الشاكلة، مفكراً في هذه الرحلة في سيارة أجرة، أغمض عينيه ومات، حزيناً، ذلك الحزن الذي سكنه دوماً، بسبب الأم أو دونها، وربما فكر أيضاً في حامد. ماذا سيحدث له؟ ماذا عن السر الذي يحتفظ به؟ يغوص ببطء، وبلطف، في نومه الأخير، ولعمري! ليس الأمر مزعجاً، وبينما تخفت وظائفه الجسدية الواحدة تلو الأخرى يستمر عقله في الترحال. فيا ترى إلى أين يأخذه هذا الحلم الأخير أيضاً؟

كان يجب أن يقول، إنه لا يحب راسين، عجباً. « يفخر الفرنسيون بلا كلل أن لديهم راسين (رجل بألفي كلمة) ولا يشتكون أبداً أنهم لا يملكون كاتبا مثل شكسبير. هذا ما كان جديراً بإثارة إعجاب المترجم الشاب. لكن بارت كتب ذلك في وقت لاحق. آه، لو كان يتمتع بمنصب أو وظيفة، آنذاك...

انفتح باب الغرفة ببطء، لكن بارت في غيبوبته العميقة، لم يسمعه.
ليس صحيحاً أنه كاتب «كلاسيكي: في واقع الأمر، لا يحب ضحالة

القرن السابع عشر، وقحطه، شعراء البحر الإسكندري وعداوتهم، تلك الأمثال المحفورة، وتلك الأهواء الفكرية».

لم يسمع الخطوات التي تقترب من سريره.

بالطبع، كانوا بلاغيين بارزين، لكن بارت لا يحب برودتهم ولا طبيعتهم الإنسانية المترددة. أهواء راسين، بف، الأمر الجلل. فيدر Phèdre، أجل، حسناً، مشهد الاعتراف بصيغة نصب الفعل للتمني بقيمة شرطية، حسناً، كان ذلك رائعاً، فيدر التراجيديا التي أعادت كتابة التاريخ في مكان أريان وهيبوليت في مكان ثيسيوس...

لا يعرف بارت أنهم ينظرون إلى رسم القلب الكهربائي الخاص به. لكن برنييس؟ لم يكن تيتويس يحبها، قضية تفقأ العيون. الأمر في غاية البساطة، إنه مثل كورناي...

لا يرى الشخص الذي يفتش في حاجياته.

وماذا عن لابروير، أدبه تعليمي للغاية. على الأقل باسكال تحاور مع مونتين، وراسين مع فولتير، ولافونتين مع فاليري... لكن من يرغب في الحوار مع لابروير؟

لا يشعر بارت باليد التي تحول بدقة مقياس التيار الكهربائي لجهاز التنفس الاصطناعي.

لاروشفوكولد، أجل، على أي حال، بعد كل شيء، يدين بارت كثيراً إلى كتابه الحكم Maximes. لقد كان لاروشفوكولد سيميولوجياً سابقاً لعصره، حيث كان يعرف كيف يفك شيفرات الروح البشرية في علامات سلوكنا... سيد الأدب الفرنسي الأكبر، هذا أقل ما يستحقه... يرى بارت الأمير مارسيلك وهو يتنزه على فرسه بأبهة بالقرب من غراند كوندي، في خنادق في ضواحي سانت أنطوان، تحت أضواء فرقة تورين، وهو يقول لنفسه لعمري، إنه يوم جميل للموت...

ماذا يجري؟ لم يعد بارت يستطيع التنفس. لقد ضاقت حنجرته فجأة.

لكن الآنسة الكبرى، ماري لويس ستفتح أبواب المدينة للسماح بدخول قوات كوندي، ولاروشفوكولد، المصاب في عينيه، أعمى لبعض الوقت، لن يموت، ليس هذه المرة، وسيتعافى...

فتح بارت عينيه. ورأى الممرضة، ظِلّها متقطع ينعكس في دارة الضوء الخافت، مثل صورة مريم العذراء. يختنق بارت، ويريد طلب النجدة، لكن لا يصدر أي صوت من فمه.

سيتعافى، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

تبتسم له الممرضة بلطف، وتضع رأسه على الوسادة لمنعه من النهوض، ولكن ليس لديه القوة في جميع الأحوال. هذه المرة، إنها الخادمة، يعرفها بارت، يود أن يستسلم، ولكن جسده يتشنج رغماً عنه، يريد جسده أن يعيش، دماغه المرعوب يبحث عن الأوكسجين الذي لم يعد يصل إلى الدم، قلبه يشتد من جراء آخر دفعة من الأدرينالين، ثم يتباطأ.

«نحب دوماً، نعاني دوماً، ودوماً سنموت» وفي نهاية المطاف فكرته الأخيرة هي بيت شعري للكاتب كورناي.

24

النشرة الإخبارية، 26 مارس 1980، الساعة الثامنة مساء، باتريك بوافر: «سيداتي وسادتي، مساء الخير، الكثير من المعلومات الملموسة التي... (يتوقف الصحفي باتريك بوافر) التي تهم حياتنا في كل يوم. البعض منها وردي، والبعض الآخر أقل، أترك لكم حرية الانتقاء. (من شقته، بالقرب من ساحة كليشي، يجيب دولوز الذي لا يفوت نشرة الأخبار، بصوت عال، مستلقي على كرسيه: شكراً!»)

20:01 مساء: «أولا، ارتفاع تكلفة المعيشة لشهر فبراير: ٪ 11 يقول رينيه مونيوري وزير الاقتصاد: هذا ليس مؤشراً جيداً. والأفضل على أي حال (كان من الصعب القيام بما هو أسوأ، يقول باتريك بوافر، وأمام جهازه

التلفزيوني، شارع بيفر، يقول ميتران في نفسه الشيء نفسه) من مؤشر شهر يناير. الأفضل أيضاً من مؤشر الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا و... ومعادل لمؤشر سكان ألمانيا الغربية.» (عند ذكر المنافس الألماني، جيسكار، الذي كان يقوم بتوقيع بعض الوثائق في مكتبه في قصر الإليزيه، أطلق ضحكة ميكانيكية من دون أن يرفع عينيه. في غرفة الخادمة، يستعد حامد للخروج، لكنه لم يتمكن من أن يجد جوربه الثاني).

20:08 «الإضرابات أيضاً في قطاع التعليم، غداً مرة أخرى، النقابة المحايدة للمشغلين هي التي تدعو معلمي باريس وإسون للاحتجاج على إغلاق الأقسام للعام الدراسي المقبل.» (فيليب سوليرز، صينية بيرة في يد، وسيجارة في اليد الأخرى، يرغي ويزبد في أريكته: «دولة الموظفين !...» كريستيفا، من المطبخ ترد «لقد هيأت لحم العجل.»)

20:10 أخيراً، هذه معلومات «تفتح النفس نوعاً ما»، إذا جاز لي القول (يرفع سيمون عينيه إلى الأعلى): الانخفاض الحاد في تلوث الهواء في فرنسا منذ سبع سنوات، قال ميشيل دورنانو، وزير البيئة 30٪ انبعاث الكربون، و46٪ أكسيد الكربون. (يحاول ميتران تصنع الاشمئزاز، لكن ذلك لن يغير في شيء في سحنته المعتادة.)

20:11: «الخارج إذن، مع كل ما يحدث اليوم في الشتاء... أفغانستان... كولومبيا...» تتعاقب الدول، لا أحد يستمع، باستثناء فوكو، وجد حامد جوربه.

20:12: «فوز إدوار كينيدي المفاجئ إلى حد ما في الانتخابات التمهيدية لولاية نيويورك...». يأخذ دولوز هاتفه للاتصال بفليكس غوتاري؛ في منزله، يقوم بايارد بكي قميصه أمام التلفزيون المشغل.)

20:13: «عدد حوادث الطرق في ازدياد العام الماضي، يخبرنا الدرك الوطني اليوم 12480 قتيلاً و250.000 حادث في عام 1979...»

وبالتالي، فهذا يعادل مدينة بكاملها مثل قاعة البروفانس التي اختفت العام الماضي في هذه الحوادث. (يتساءل حامد لماذا صالون دي بروفانس.)

أعـداد تدفعنـا إلى التفكـير في عطلة عيـد الفصح... (يرفع سـوليرز إصبعه، ويصرخ: «التفكير!... التفكير، تسمعين جوليا؟.... أليس الأمر عجيباً؟... أعداد تدفع للتفكير، ها ها، !... تجيب كريستيفا: « هيا إلى المائدة!»).

20:15: «حـادث سـير قـد تكـون له عواقـب وخيمة جـدّاً، بالأمس صدمت شاحنة تنقل مواد مشعة مركبة ثقيلة أخرى قبل أن تسقط في خندق. لم يكن هناك أي تسرب إشعاعي بفضل فعالية أنظمة الحماية» (ميتران، فوكو، دولوز، ألتوسير، سيمون، لاكان يقهقهون أمام أجهزتهم الخاصة.

يشعل بايارد سيجارة، ويواصل كيّ ثيابه.)

20:23: «ثـم مقابلـة لفرنسـوا ميـتران في صحيفـة الصليـب بالجمـل الصغـيرة البارزة التي سـتكون له أهمية تاريخية (ابتسـامة ميتران السـعيدة): يبقى جيسـكار رجل عشـيرة، وطبقة ورجل نظام الطوائـف الاجتماعية. في سـجله، ست سـنوات من المرواحة، والرقص الشرقي أمام العجل الذهبي. اللعنة، يقول الملك أوبو.» (هذا هو فرنسوا ميتران الذي يقول ذلك، يوضح باتريك بوافر. يرفع جيسـكار عينيه إلى السـماء.) هـذا لأجل الرئيس. لأجل جـورج مـارشي وعصابته المكونـة من ثلاثـة أفراد، حسـناً: «عندمـا يرغب في ذلـك، يقـول دوماً فرانسـوا ميتران، جـورج مارشي هو ممثـل كوميدي لا يقاوم.» (ألتوسير في شقته في شارع دوليم، يهز كتفيه، وينادي على زوجته في المطبخ.. هل تسـمعين هذا يا هلين؟ لا تجيب.) أخيراً، أجاب فرنسوا ميتران على سـؤال حول بطاقة محتملة لـ ميتران - روكان داخل الحزب الاشتراكي، لقـد اكتفى... (ينزلق لسـان باتري بوافر لكنه يسـتأنف قـراءة الأخبار، غير متأثـر) لقـد اكتفى بالإجابة عن أن هذا التعبـير الأمريكي لم يكن موجوداً في مؤسساتنا في الترجمة الفرنسية.

20:24: «تـوفي عـصر اليـوم... (يتوقف باتريك بوافـر) رولان بارت في مستشـفى لابيتي - سـالبيتريير في باريس. (يتوقف جيسـكار عن التوقيع بالأحرف الأولى، يتوقف ميتران عن التكشـير، يتوقف سـوليرز عن البحث في سرواله عن مبسـم السـجائر، تتوقف كريسـتيفا عن تقليـب لحم العجل

وتركض من المطبخ، يتوقف حامد عن ارتداء جوربه، يتوقف ألتوسير عن تبادل الشتائم مع زوجته، يتوقف بايارد عن كي قمصانه، يقول دولوز لغوتاري: أتصل بك مرة أخرى! »، يتوقف فوكو عن التفكير في السلطة الحيوية، يستمر جاك لاكان في إشعال سيجارته.) لقد وقع الكاتب والفيلسوف ضحية حادث سير منذ شهر. كان.... (يتوقف باتريك) في الرابعة والستين من العمر. اشتهر بأعماله في الكتابة الحديثة وبأعمال حول التواصل. استقبله برنار بيفو في برنامج «فواصل» قدم رولان بارت كتابه شذرات من خطاب عاشق، وهو الكتاب الذي حظي بنجاح باهر (يرفع فوكو عينيه إلى السماء)، وفي المقطع الذي سترونه، يفسر بارت من وجهة نظر سيميولوجية (يرفع سيمون عينيه إلى الأعلى) العلاقات بين العاطفية sentimentalité... (يتوقف باتريك) والجنسانية sexualité. (يرفع فوكو عينيه إلى السماء) يستمع إليه (يرفع لاكان عينيه إلى السماء) رولان بارت (صوت فليب نويرت): «أرى أن ذاتاً – أشدد على كلمة ذات حتى لا أنحاز مسبقاً إلى، نعم، جنس هذه الذات، أليس كذلك – لكن ذاتاً عاشقة، نعم، في الحقيقة سيصعب عليها عملياً ... وعلى نحو فعّال ... التغلب على تنوع الطابو المحرم للعاطفية، في حين أن طابو الجنسانية ينتهك اليوم بسهولة».

برنار بيفو: «هل الوقوع في الحب يعني أن يكون المرء غبياً؟» (يرفع جيل دولوز عينيه إلى السماء.) يعتقد ميتران أنه يجب عليه استدعاء مازارين.) رولان بارت: «آه...نعم، بمعنى من المعاني، هذا ما يؤمن به العالم».

ينسب العالم إلى الذات العاشقة صفتين، أو صفتين سيئتين: الصفة الأولى، غالباً ما تكون سخيفة، في الواقع، هناك غباء من العاشق، يشعر بنفسه بذلك، من جهة أخرى –، وثمة أيضاً جنون العاشق – وبالتالي هذا الجنون، تحكي عنه الخطابات الشعبية بوفرة! – إلا أنه جنون حكيم، أليس كذلك؟ إنه جنون لا يحظى بمجد «الجنون الانتهاك الأكبر» (ينظر فوكو بابتسامة.) نهاية المقطع. يستأنف باتريك بوافر: «إذن، كما نرى ذلك، نعم، جون فرانسوا كاهان، نعم، كان رولان بارت شغوفاً بكل شيء، لقد تكلم

عـن كل شيء، آه رأينـا ذلـك، أجل، في السـينما... في عـدة أدوار... مؤخراً، نعـم، ألم يكـن فعلياً متعدد المواهب؟» (وبالفعل، فقـد لعب دور تاكيراي في فيلـم الأخـوات بروتي للمخـرج أندري تيشـيني، دور متواضـع لم يؤثر على موهبته، يتذكر سيمون.)

جون فرانسـو كاهـان: (جد متحمـس): وهذا يعني، على مـا يبدو، أنه متعدد المواهب! نعم، لقد اهتم بأشياء عديدة، آه، آه، كتب عن الموضة، ربطة العنق والعديد من الأشـياء، كتب عن المصارعة! ...كتب عن راسـين، وعن ميشـليه، وعن التصوير الفوتوغرافي، وحول السينما، وكتب عن اليابان، لذا فهـو كاتب متعـدد المواهب يتدخـل في كل شيء! (يضحك سـوليرز هازئاً، تنظر إليه كريستيفا شزراً.) لكن في الحقيقة: ثمة وحدة في أعماله. عجباً، كتابه الأخير! حول خطاب العاشق ... حول لغة العاشق، حسناً، في الحقيقة كتب رولان بارت دائماً عن اللغة! لكن يحدث أن ... ربطة عنقه... ربطة عنقنا... إنها طريقة للتحدث. (سـوليرز ساخط بشكل غامض: «طريقة للتحدث... تتحدثين !...») إنها طريقة للتعبـير عن الذات، والموضة، والدراجة النارية: إنهـا طريقـة يعبر بهـا المجتمع عن نفسـه. السـينما: بطبيعـة الحـال! التصوير الفوتوغـرافي: أيضاً. بمعنى أن رولان بارت أمـضى في الواقع معظم وقته في مطـاردة العلامات ...! العلامات التي يعـبر بها المجتمع، وجماعة بشرية عن نفسـيهما. التعبير عن مشـاعر شـائعة، غامضة، حتى لو لم يكـن المجتمع على وعي بها! وبهذا المعنى، كان بارت صحفياً عظيماً جداً.

فضلا عن ذلك، كان بارت سيداً ومعلماً لعلم يسمى السيميولوجيا، أي علم العلامات.

وبهـذا، بطبيعة الحـال، كان بارت ناقـداً أدبياً عظيماً جـداً! لأن الظاهرة نفسها: ما هو العمل الأدبي؟ العمل الأدبي، هو ما يعبر به الكاتب عن نفسه. وهذا ما أظهره رولان بارت، هو أن هناك ثلاثة مسـتويات في العمل الأدبي: هناك اللغة - كتب راسـين بالفرنسـية، وكتب شكسـبير بالإنجليزية، هذا ما يسـمى بلغة الكتابة. وهناك الأسـلوب: وهـو نتيجة لتقنيتهـم، وموهبتهم.

لكن بين الأسلوب - الإرادي، إيه نتحكم فيه - واللغة! وهناك مستوى ثالث، وهو: الكتابة. والكتابة، يقول بارت، إنها فضاء... للسياسة بالمعنى الشاسع؛ أي إن الكتابة، هي ما يعبر بها المرء عن نفسه، حتى لو كان الكاتب واعياً بذلك، وهو ما يشكل اجتماعياً، ثقافته، وأصله، وطبقته الاجتماعية، والمجتمع المحيط به... وحتى لو كتب شيئاً في بعض الأحيان، فإن الأمر لا يحتاج إلى التفكير بشأنه - لست أدري، في مسرحية لراسين: «دعنا نذهب إلى شقتنا» أو عبارة بديهية - حسناً كلا! ليس واضحاً هذا الأمر، يقول بارت. حتى لو قال إن الأمر بديهي، فالموضوع معقد ومريب، ثمة شيء ما يتم التعبير عنه في الجوهر.» باتريك بوافر (الذي لم يسمع شيئاً أو لم يفهم شيئاً أو لم يهتم للأمر، وبمنتهى الاقتناع): «لأن كل كلمة يتم تشريحها!».

جون فرانسوا كاهان (الذي لا يخرج عن نطاق الموضوع): «إذن، إذن، بالإضافة إلى ذلك... ما هو رائع، في أعمال بارت، هو أن الرجل كتب أشياء...رياضية جداً، ومحرجة جداً حول الأسلوب، وفي الوقت نفسه أنتج ترانيم حقيقية عن جمال الأسلوب. ولكن لو سمحتم، في الختام، فهو رجل مهم للغاية. رجل يعبر، على ما أعتقد، عن عبقرية عصرنا. سأخبرك لماذا؛ لأن هناك عصوراً تعبر عن نفسها من خلال المسرح، هاه، حقاً. (هنا، يقرقر كاهان بشكل غامض.) عصور أخرى تعبر عن نفسها من خلال الرواية: على سبيل المثال، في سنوات الخمسينيات، مورياك، آه، كامو، آه إلخ. لكن أعتقد أن الستينيات... فرنسا... تم التعبير عن العبقرية الثقافية لفرنسا من خلال الخطاب على الخطاب. على الخطاب الهامشي. سوف ندرك بلا شك أننا ننتج روايات كبيرة... ربما لا، أو مسرحيات كبيرة، وأفضل ما تم إنتاجه، هو طريقة لشرح ما قاله الآخرون أو ما فعلوه وبشرحنا لذلك نجعلهم يقولون ذلك بشكل أفضل وشيء آخر، إننا نقوم بتنشيط خطاب قديم».

باتريك بوافر: «كرة القدم، بعد لحظات قليلة، في حديقة الأمراء، سيلتقي المنتخب الفرنسي مع نظيره - الهولندي (يغادر حامد منزله، يصفق الباب وينزل على الدرج): مباراة ودية أكثر أهمية مما تبدو لأول مرة (يطفئ

سيمون جهازه)؛ لأن الهولنديين كانوا المتأهلين إلى النهائيات، كما تعلمون، البؤساء، في آخر دورتين من كأس العالم (يطفئ فوكو جهازه)، ثم خصوصاً لأن فرنسا وهولندا هم في نفس المجموعة التأهيلية لكأس العالم القادمة سنة 1982 في إسبانيا. (يستأنف جيسكار توقيع وثائقه. يلتقط ميتران هاتفه للاتصال بجاك لانغ) يمكنكم متابعة هذه المباراة بعد النشرة الإخبارية الأخيرة التي سيقدمها لكم هيرفي كلود، حوالي الساعة 50 :10h مساء». (يتقدم سوليرز وكريستيفا إلى المائدة. تمسح كريستيفا دمعة، وتقول: « تستعيد الحياة حقوقها» بعد ساعتين، سيشاهد بايارد وجيل دولوز المباراة.)

25

نحن في يوم الخميس 27 مارس 1980 وسيمون هرتسوغ يقر الصحيفة في حانة مليئة بالشباب الجالسين حول مشروب القهوة منذ ساعات، والتي أقوم بتحديد موقعها في شارع مونتاني سانت جنفييف، ولكن مرة أخرى، بوسعكم تحديد مكانها حيث شئتم، ليس لهذا أهمية حقاً. من العملي ومن المنطقي أكثر أن تتواجد في الحي اللاتيني لشرح وجود الشباب. هناك مسبح إنجليزي صغير، وصوت الكرات التي تصطدم ببعضها البعض تحدث نبضاً في صخب المحادثات في نهاية اليوم.

يشرب سيمون هرتسوغ قهوة، هو أيضاً بدوره، لأنه لا يزال الوقت مبكراً جداً، وفقاً لتصوراته النفسية - الاجتماعية لطلب البيرة. نشرت صحيفة لوموند المؤرخة بتاريخ الجمعة 28 مارس 1980 (لأن في صحيفة لوموند، يكون يوم الغد دوماً قد وصل قبل الفجر) في صفحتها الأولى، تقرير حول ميزانية تانتشر «المضادة للتضخم» (التي تتوقع، يا للمفاجأة تخفيضاً في النفقات العامة) وكذلك تقريراً حول الحرب في التشاد، لكن مع ذلك ذكرت وفاة بارت في الصفحة الأولى، في الأسفل، على اليمين. يبدأ تأبين الصحفي الأدبي الشهير برترناد بوارو ديلبيش بهذه العبارة: «منذ وفاة كامو منذ عشرين عاماً، في حادث سيارة، دفع الأدب ضريبة قاسية جداً لآلهة

الكروم !...» يعيد سيمون قراءة العبارة عدة مرات، ويلقي نظرة في أرجاء القاعة.

حول البليـاردو، يتواجه صبيـان في العشرينيات من العمر تحت انظار فتاة بالكاد، أكملت سن الرشد. يقوم سيمون بتحديد هوية هذه التشكيلة: يطمع الصبي الذي يرتدي أفضل الملابس في الفتاة التي تطمع في الصبي الآخر، الأكثر بذاءة، صاحب الشعر الطويل القذر، الذي لا يسمح ابتعاده المتغطرس من التأكد فيما إذا كان هو أيضاً مهتماً بالفتاة، وإذا ما كان يتظاهر بلا مبالاة تكتيكية يتصورها علامة على التفوق، لا مبالاة شرعية مرتبطة بوضعه كذكر مهيمن يعرف بوضوح أن الفتاة تقع في نطاق حقه، أو إذا ما كان ينتظر فتاة أخرى، أكثر جمالاً، وأكثر تمرداً، وأقل خجلاً، وأكثر تماشياً مع موقفه (من الواضح أن الفرضيتين غير متوافقتين «يتابع بوارو ديلبيش: إذا كان بارت هو أحد النقاد الذين قاموا، مع غاستون باشلار، بتخصيب النقد منذ ثلاثين سنة، فإنه لا يعتبر بمثابة مُنظّر لعلم السيميولوجيا، التي بقيت غامضة، بل باعتباره بطل لذة جديدة في القراءة.» السيميولوجي القابع في أعماق سيمون يهمهم. لذة القراءة، منظور تعيس. سيميولوجيا بقت غامضة، أبله أنت أيضاً. حتى لو، حسناً. أكثر من سوسير جديد، كان بإمكانه أن يكون أندري جيد آخر» يضرب سيمون بكوبه على الصحن، وتسكب القهوة على الجريدة. يتطابق الضجيج الباهت مع ضجيج الكرات، حيث لم يعر أحد أهمية لذلك، باستثناء الفتاة التي استدارت. التقت نظرات سيمون بنظراتها.

يلعب الصبيان بشكل ملحوظ بشكل سيئ، الشيء الذي لم يمنعهما من استخدام البلياردو كأرضية للاستعراض، بهيأة عابسة وإيماءات، وذقن منحني فوق الكرات، ومراحل تأمل شديد تتجسد في جولات لا حصر لها، وحسابات تقنية - تكتيكية من نقطة تأثير الكرة البيضاء حول الكرة الملونة (هي أيضاً تم اختيارها وفقاً لمعايير متعرجة)، تكرار ضربة في الفراغ (المرحلة التي تسمى «سحل» يقول سيمون في نفسه) بقوى حركات متشنجة وسريعة

مستحضراً الرهان المثير للعبة وعدم خبرة اللاعبين، تليها ضربة قوية لا تكفي سرعتها لإخفاء الرعونة. يعود سيمون لقراءة صحيفة لوموند.

قال جون فيليب ليكات، وزير الثقافة والاتصال: «إن جميع أبحاثه في الكتابة والفكر تميل إلى التعمق في معرفة الإنسان لمساعدته على معرفة نفسه، وبالتالي العيش بشكل أفضل في المجتمع» نقرة جديدة على الصحن، بطريقة محكمة. يتحقق سيمون فيما إذا كانت الفتاة قد استدارت (لقد استدارت). على ما يبدو، لم يفسد أحد الوضع في وزارة الثقافة، بقدر ما أنتج هذا الوزير هذه التفاهة. يتساءل سيمون فيما إذا كانت هذه صيغة نمطية قابلة للتطبيق على نطاق واسع على أي كاتب، أو فيلسوف، أو مؤرخ، أو عالم اجتماع، أو بيولوجي... التعمق في معرفة الإنسان، نعم، أحسنت صنعاً، يا رجل، لقد أجهدت نفسك، يمكنك قول الشيء نفسه لسارتر، فوكو، لاكان، ليفي شتراوس، بورديو. يسمع سيمون الشاب الأنيق يجادل بشأن قاعدة في اللعب: «كلاّ، الضربتان في حالة خطأ الخصم لا يمكن جمعهما إذا قمت برمي الكرة لنفسك على ضربتك الأولى.» طالب حقوق في السنة الثانية (ربما كرر عامه الأول) بالنظر إلى الملابس والسترات والقميص، يخمن سيمون أنه في جامعة بانتيون أصاس بباريس. يجيبه الشاب الآخر، ويصر على الكلمات: «حسناً، لا مشكلة، رائع، كما تفضل. أنا لا أكترث، سيان عندي هذا أو ذاك. طالب في علم النفس، السنة الثانية (أو كرر سنته الأولى)، في كلية جسيو بباريس (معتاد على اللعب في المنزل، هذا واضح.) تبتسم الفتاة ابتسامة صغيرة خفية بشكل زائف في وجه الجميع. ترتدي حذاء ملوناً وسروال جينز أزرق، وشعرها طويل مربوط بخيط رقيق وتدخن سجائر خفيفة: طالبة في الآداب الحديثة، السنة الأولى، جامعة السوربون، على الأرجح في السنة الثانية».

«بالنسبة إلى جيل كامل، فتح رولان بارت مجالاً لتحليل وسائل الإعلام والتواصل والأساطير واللغات. ستظل أعمال رولان بارت في أعماق الجميع كدعوة نابضة بالحياة والحرية والسعادة» لم يعد ميتران ملهماً، لكن على الأقل

يستحضر بشكل غامض مجالات اختصاص بارت.

بعـد نهايـة جولـة طويلة «يفـوز طالـب جامعـة أصاس بفـوز خاطف بضربة غير متوقعة (الكرة السـوداء، كما يجب أن تكون وفقاً للقاعدة المتخيلة اخترعها سكان بريتون لجعل متعة اللعب تطول) ويرفع ذراعيه مقلداً بورغ، يحاول طالب كلية جيسيو اتخاذ هيأةمنزعجة، تأتي طالبة السوربون لمواساته، وهي تربت على ذراعه، ويتصنع الجميع الضحك كما لو كان الأمر مجرد لعبة لا أقـل ولا أكثـر. لقد أدلى الجهـاز أيضا ببيان: «بالمثقف الـذي كرس معظم أعمالـه للتأمـل والتفكير الجديـد في التخييل والتواصل، ولـذة النص ومادية الكتابة، نشيد اليوم معبرين عن عميق تقديرنا وخالص الثناء، يعزل سيمون عـلى الفور العنـصر المهم في العبارة: بهذا المثقف نشـيد، ضمنـاً ليس الآخر، الرجـل المحايـد، غير الملتزم، الذي يتناول الغذاء مع جيسـكار أو يذهب إلى الصين مع أصدقائه الماويين».

تدخل فتاة جديدة إلى البار، ذات شـعر طويل مجعد، سـترة جلدية، من نـوع دوك مارتينيس، ترتدي أقراطاً، وجينزا ممزقا. يخمن سـيمون: طالبة في تاريخ الفن، السنة الأولى. قامت بتقبيل الشاب القذر، يلاحظ سيمون بانتباه رد فعل الفتاة ذات الشـعر الطويل المربوط. يقرأ في ملامحها علامات الكدر، وغضبـا مكتوما، وشـعورا بالدونية لا يقاوم يغلي بداخلهـا (من الواضح لا أساس له من الصحة) ويميز في ثنايا فمها، من دون خطأ محتمل، آثار صراع داخـلي مبعثه مرارة الازدراء. مرة أخرى، تلتقي نظراتهم. تلمع عيون الفتاة: للحظة بوهج غامض. تنهض الفتاة، تتوجه نحوه، تنحني على طاولته، تحدق مباشرة في عينيه، وتقول له: «ما بك أيها الأبله؟ هل تريد صورتي؟» سـيمون مرتبـكاً، يتلعثم بعبارات غير مفهومة، ويغوص في قراءة مقال حول ميشـيل روكار.

لم تشهد المدينة الجميلة أورث قط هذا القدر من الباريسيين. لقد أخذوا القطار إلى بايون، وجاءوا لحضور مراسيم الدفن. تهب رياح جليدية على المقبرة، وتهطل الأمطار بغزارة، تجمّع الحاضرون في مجموعات صغيرة، ولم يخطر ببال أحد فكرة أخذ مظلة. سافر بايارد بدوره أيضاً، جلب معه من جديد سيمون هرتسوغ، ولاحظوا الأحياء مبللة في سانت جيرمان. نحن على بعد 785 كلم من منطقة فلور، وعند رؤية سوليرز يعض بعصبية مبسم سيجارته أو برنار هنري ليفي يزرر قميصة، سيعتقد المرء أن طقوس الجنازة ستدوم لفترة أطول. تمكن كل من سيمون هرتسوغ وجاك بايارد، لوحدهما، من التعرف على الجميع تقريباً: هناك مجموعة سوليرز، كريستيفا وبرنار هنري ليفي، مجموعة يوسف، بول وجون لويس، مجموعة فوكو مع دانييل ديفير، ماتيو لندون، هيرفي غيبير، ديدييه إريبون، ومجموعة الكلية: تودوروف، جنيت، ومجموعة فينسين: دولوز، هيلين سيزو، ألتوسير، شاتلييه، الأخ ميشيل وزوجته راشيل، وناشر أعماله وبعض الطلبة، إريك مارتي، أنطوان كومبانيون، رونو كامو، وبعض العشاق القدامى ومجموعة من العاهرين المتعهدين، حامد، سعيد، هارون، سليمان، ورواد السينما: أندري تشيني، أدجاني، ماري فرنس بيزييه، إزابيل هيبير، باسكال غريغوري، توأمان في زي أسود أشبه بزي رواد الفضاء (بعض الجيران الذين يعملون في التلفزيون، على ما يبدو) وبعض القرويين...

كان الجميع في مدينة أورث يحبون رولان بارت. عند مدخل المقبرة، نزل رجلان من سيارة ستروين سوداء وفتحا مظلة. رأى شخص من بين الحاضرين السيارة، وهتف: «انظروا: سيارة ستروين!» اجتاحت همسات الغبطة الجميع الذين رأوا في حضورها تحية تقدير؛ لأن تحت رعاية سيارة ستروين الشهيرة نشر رولان بارت، كتابه «أسطوريات.» يهمس سيمون لبايارد: «هل تعتقد أن القاتل يوجد بين الحضور؟» لم يرد عليه بايارد، يراقب كل شخص حاضر، ويجد فيهم جميعاً دواعي ليكونوا محط اتهام. يعلم بايارد أنه من أجل المضي قدماً في التحقيق،

يجب عليه أن يفهم ما يبحث عنه. ما الذي كان يملكه بارت بهذا القدر من القيمة الثمينة لدرجة أنه لم يسرق منه المخطوط فحسب، بل تم السعي أيضاً إلى قتله؟

27

نتواجد عند فابيوس، في شقته الرائعة في حي البانتيون، شقة كما تخيلتها تماماً، مجموعة من الأثاث الفاخر في كل مكان وأرضية خشبية على شكل قرون مجرية. يجتمع كل من جاك لانغ، وروبرت بادينتر، وريجيس دوبراي، وجاك أتالي، وسيرج ماتي لسرد نقاط القوة والضعف لمرشحهم، من حيث الصورة، و- في ذلك الوقت الذي كان لا يزال فيه المصطلح مبتذلاً إلى حد ما - «التواصل».

العمود الأول فارغ تقريباً. كتب للتو: وضع الجنرال في قائمة الاقتراع. ويشير فابيوس إلى أن هذا الإجراء يعود إلى خمسة عشر عاماً على أي حال. العمود الثاني جوهري على نحو متزايد. بالترتيب التصاعدي للأهمية:

مدغشقر.

هيأة المراقبة

الحرب الجزائرية

قديم جداً (الجمهورية الرابعة أيضاً).

أنياب طويلة جداً (ساخراً).

يخسر دوماً.

من الغريب في ذلك الوقت، أن يتلقى المارشال بيتان، بلطة قتال فرنجية هو وأطر حكومته، المتواضعة بالتأكيد، في فيشي، ولا يتم ذكر ذلك أبداً، لا من قبل وسائل الإعلام (فقدان الذاكرة، كما هو الحال دائماً)، ولا من قبل أعدائه السياسيين (الذين قد لا يرغبون في إزعاج انتخاباتهم بذكريات غير سارة). بالكاد يعزز اليمين المتشدد، وقد أمسى زمرة صغيرة، ما يعتبره الجيل الجديد افتراء.

لكن مع ذلك. ما الذي يحفز هذه الجماعة من الشباب الاشتراكيين،

اللامعين الطموحين، والذين في نظر البعض، مثاليون، أن يحلموا بتعقل وكياسة بغرب مشرق، حتى يدعموا هذا القسم الفرنسي العتيق للشغيلة العالمية، هذا الحطام لـ FDGS هذا الأثر القديم من الجمهورية الرابعة، هذا المغتصب الاستعماري البائد والمعدم (45 حالة إعدام في الجزائر حين كان وزيراً للداخلية، ثم وزيراً للعدل) بدلا من دعم روكار، الذي تحظى بإعجاب بيير موري، وجون بيير شوفينمو، الذي يحظى بدعم المتأورب ديلور والنقابي إدموند مير؟ سيقول مواتي، روكار "لقد كانت الاشتراكية ذاتية التسيير" وليست المفتشية المالية هي التي جاءت إلى لقائنا" لكن مواتي هذا نفسه احتشد في صف ميتران مناصراً إياه عندما قام هذا الأخير، بعد الاعتراف بفوضى 68، بتغيير مسار خطابه على نحو أدق في اتجاه اليسار وأعلن: «أنا أؤمن بتنشئة اجتماعية لوسائل الإنتاج والاستثمار والتبادل التجاري. أنا أؤمن بالحاجة إلى قطاع عام كركيزة أساسية قادرة على قيادة الاقتصاد بأكمله.»

يبدأ الاجتماع الخاص بالشغل. قدم فابيوس المشروبات الساخنة والكعك وعصائر الفواكه على طاولة خشبية كبيرة ملمعة. لتحديد حجم المهمة، أخرج مواتي افتتاحية قديمة لجون دانييل حول ميتران، قام بتقطيعها من صحيفة لونوفيل أوبسرفاتور يعود تاريخها لسنة 1966: «لا يعطي هذا الرجل فحسب الانطباع بعدم الإيمان بأي شيء: بل يشعر المرء أمامه بالذنب لإيمانه بشيء ما. يلمّح، كما لو رغماً عنه، أنه لا وجود لشيء خالص، وأن كل شيء قذر ولا يجوز التعلل بالوهم».

يوافق الجميع، المجتمعون حول الطاولة، على القول ثمة ما يجب القيام به. يتناول مواتي قطع الكعك.

يدافع باديتير عن قضية ميتران: المناورات البغيضة، في السياسة، هي عائق نسبي يرتبط بالبراءة بقدر ما يرتبط بالبراغماتية. قبل كل شيء، أن يكون المرء مكيافيلياً لا يتطابق مع المكيافيلية نفسها، والحل الوسط لا يعني بالضرورة تسوية. إن جوهر الديمقراطية ذاتها يتطلب المرونة والحسابات

الدقيقة. لقد كان ديوجين الكلبي على نحو خاص فيلسوفاً مستنيراً.

"حسنا، وماذا عن هيأةالمراقبة؟" سأل فابيوس.

يحتجّ لانـغ: لن يتـم مطلقـاً توضيـح هـذه القضيـة المظلمـة للاعتداء الـكاذب، وكل شيء مبنـي على شـهادة مشـكوك في صحتها لديغولي سـابق تحـول إلى اليمـين المتشـدد، والـذي غـير روايته للوقائـع عدة مـرات. وأنهم وجدوا، على الرغم من ذلك سيارة ميتران مخترقة بوابل من الرصاص! يبدو لانغ غاضباً حقاً.

«فليكن»، قال فابيوس. سنعمل على نظرية المؤامرة. تبقى الحقيقة أنه لا يبدو، حتى الآن، متعاطفاً بإفراط، ولا اشتراكياً حتى النخاع.

يتذكر جاك لانغ أن جون كاو، قال إنه كان كاهناً وأن اشـتراكيته كانت «القفازات المقلوبة لمسيحيته.»

يتنهد دو بري: «مهما يكن.»

يشعل بادينتير سيجارة.

يتناول مواتي بعض الحلويات.

أتـالي: «لقـد قـرر أن يواجه اليسـار. يعتقـد أنه من الـضروري محاصرة الحزب الشيوعي. لكن هذه المسألة تخيف الناخبين اليساريين المعتدلين.»

دو بري: «كلاّ، ما تسميه ناخباً يسارياً معتدلا، أسميه وسطياً محافظاً».

أو قالـوا راديكالي، إذ لزم الأمر. يصوت هـؤلاء الناس على اليمين على أي حال. إنهم جيسكارديون.

فابيوس: «هل تدمج الراديكاليين اليساريين؟»

دوبري: «بالطبع»

لانغ: «حسناً، وماذا عن الأنياب؟»

مـواتي حسـناً: «حددنا موعـداً عند طبيب الأسـنان في منطقـة باريس. سيجعله ينعم بابتسامة بول نيومان.»

فابيوس: «وماذا عن العمر؟»

أتالي: «التجربة»

دوبري: «وماذا عن مدغشقر؟»

فابيوس: «لا أحد يكترث، لقد نسي الجميع.»

يوضح أتالي: «لقد كان وزيراً للمستعمرات عام 1951، ووقعت المجازر عام 1947. بالتأكيد، لقد قام بتصريحات غاية في السوء، لكن يديه لم تتلطخ بالدماء.»

لم يقل بادينتر شيئاً. وكذلك دوبري، يشرب مواتي شوكولاته الساخنة.

لانغ: «لكن تم عرض ذلك الفيلم، حيث رأيناه بقبعته الاستعمارية أمام أفارقة بتنورة...»

مواتي: «لن يبث التلفزيون مجدداً الصور.»

فابيوس: «إن موضوع الاستعمار ليس جيداً لليمين، ولا يرغب في جعله موضوعاً.»

أتالي: «هذا ينطبق أيضاً على حرب الجزائر. الجزائر، أولاً وقبل كل شيء هي خيانة لديغول. إنها مسألة حساسة للغاية. لن يجازف جيسكار بالتصويت على الأقدام السوداء.»

دو بري: «وماذا عن الشيوعيين؟»

فابيوس: «إذا أخرجنا جورج مارشي من الجزائر، فسوف نخرجه من مسيرشميت في السياسة كما في أي مكان آخر، لا يمكن لأحد أن يهتم كثيراً بإثارة أحداث الماضي.»

أتالي: «وإذا أصر، نذكره بالميثاق الألماني السوفياتي!»

فابيوس: «أحم، حسناً، والنقاط الإيجابية؟»

ساد صمت عميق.

يملأون كؤوس القهوة.

يشعل فابيوس سيجارته.

جاك لانغ: «لكن مع ذلك ما يزال يحظى بصورة رجل الآداب.»

أتـالي: «لا نكترث لذلك. يصوت الفرنسـيون لصالح بادينغييه، وليس لصالح فيكتور هوغو»

لانغ: «إنه خطيب رائع»

دو بري: «أجل»

مواتي: «كلاّ»

فابيوس: «وماذا عن روبيرت؟»

بادينتر: «نعم، ولا»

دو بري: « إنه يثير الحشد في الاجتماعات.»

بادينتـير: «يكون رائعـاً، حيث يكون لديه الوقـت لتطوير فكره، وحين يكون واثقاً من نفسه.»

مواتي: «لكنه ليس جيداً على شاشة التلفزيون.»

لانغ: «إنه رائع في الحديث الثنائي.»

آتالي: «لكن ليس في المناظرة وجها لوجه.»

بادينتـير: «إنه لا يكـون مرتاحاً، عندمـا تتم مقاومتـه، أو عندما يقع في التناقض. يعرف كيف يدافع عن نفسه، لكنه يرفض أن يقاطعه أحد ما. بقدر ما يكون شاعرياً في الاجتماع، مهتماً بالجماهير، بقدر ما يكون مربكاً ومملاً مع الصحفيين.»

فابيوس: «إنه يحتقر، على شاشة التلفزيون، بشكل عام، محاوره.»

لانـغ: «يجـب أن يسـتغرق ما يشـاء مـن الوقـت، وأن يحشـد المزيد من الأنصار، وأن يزن أداءه. في المنصة، يسخن صوته، يختبر مؤثراته، يتكيف مع جمهوره. إنه لا يطاق على شاشة التلفزيون.»

مواتي: «لكن التلفاز لن يتغير من أجله.»

أتالي: «على أي حال، ليس في العام المقبل. عندما نكون في السلطة ...»
الجميع: «... نطرد جون بيير القباش!» (ضحك).

لانغ: «سيتعين عليه تصور التلفزيون مثل اجتماع عملاق. دعنا نقول إن الحشد يجتمع بكثافة وراء الكاميرا.»

مواتي: «كن حذراً، الغنائية في الاجتماعات، إنها لشيء مهم، ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو في الاستوديو.»

أتالي: «يجب أن يتعلم أن يكون أكثر إيجازاً وأكثر مباشرة.»

مواتي: «عليه أن يحقق بعض التقدم. يجب أن يتمرن. سنجعله يكرر ذلك كثيراً.»

فابيوس: «حسناً، أشعر أنه سيحب هذه المسألة.»

28

بعد أربعة أو خمسة أيام في الخارج، قرر حامد أخيراً العودة إلى المنزل على الأقل للتحقق مما إذا كان لديه قميص نظيف في مكان ما، وهكذا صعد، منهكاً الطوابق الستة أو السبعة التي قادته إلى غرفة الخادمة (غرفة صغيرة)، حيث لن يتمكن من أخذ حمامه؛ لأنه لا يتوفر على غرفة استحمام، ولكن على الأقل يتمدد في سريره ليتطهر لبعض ساعات من التعب الجسدي والعصبي وتفاهة العالم والوجود، ولكن عندما أدار المفتاح في القفل، انتابه شعور بجرم غير عادي، ولاحظ أن الباب قد تم كسره، لذا دفع الباب برفق، حيث أحدث صريراً خفيفاً واكتشف مشهد غرفته المنهوبة: السرير مقلوب، والأدراج خارج المزالق، وأعمدة الجدران ممزقة، ملابسه منتشرة على أرضية الغرفة، وثلاجته مفتوحة بداخلها بقت زجاجة بانغا سليمة في الباب، والمرآة مكسرة إلى عدة قطع فوق المغسلة، وعلب مشروبات جيني وسفن آب متناثرة في أرجاء الغرفة، مجموعته من مجلة اليخت ممزقة صفحة بصفحة وكذلك تاريخ فرنسا في القصص المصورة (مجلة الثورة الفرنسية ومجلة أخرى

حول نابليون قد اختفتا)، معجمه لاروس وكتبه متناثرة، أشرطة الكاسيت الموسيقية مبعثرة وجهازه مفكك إلى أجزاء.

يقوم حامد بإرجاع كاسيت موسيقي سوبير ترامب، ويدخله في مشغل الأسطوانات ويضغط على علامة التشغيل لمعرفة ما إذا كان لايزال يعمل، ثم يسقط على فراشه المقلوب وينام، بملابسه، والباب مفتوحا، على أوتار الأغنية، وهو يفكر أنه هو أيضاً بدوره، عندما كان شاباً، كان يرى أن الحياة جميلة، وعجيبة وساحرة، ولكن الآن تغيرت الأمور، وأنه لم يعد يشعر بالمسؤولية أو التشدد.

29

تشكل صف طويل يبلغ عشرة أمتار أمام مدخل ناطحة السحاب، يحرسه حارس صارم، أسود وقوي. لمح حامد من بعيد سعيد وسليمان مع رجل يرتدي لباساً كثير العقد يدعى « الرقيب ". اخترقوا معاً الصف، سلموا على الرقيب باسمه وأخبروه أن رولان، كلا، ميشيل ينتظرهم في الداخل. انفتحت أبواب ناطحة السحاب أمامهم. في الداخل، غمرتهم رائحة غريبة، مثل خليط من روائح الإسطبل، وروائح القرفة والفانيلا وروائح ميناء الصيد. يلتقيان بجون بول غود الذي ترك حزامه في غرفة الملابس، ولاحظوا على الفور في سلوكه أنه منتشٍ تحت تأثير المخدرات. ينحني سعيد باتجاه حامد، ليقول له كلاّ، بالتأكيد، إن سنوات جيسكار، لا تطاق، فالحياة باهظة الثمن، وأنه يحتاج إلى تناول المخدرات. يتعرف سليمان على الشاب بونو فوكس في البار. على المنصة، تشكل فرقة الريغي القوطية مجموعة ضبابية مبتذلة. يرقص الرقيب بميوعة على إيقاع متنافر لآلة الطبل تحت نظرات الفضول الغريبة والكئيبة لبونو فوكس. يتحدث إيف موروسي بكل قواه إلى غريس جونس. تتعرج بعض الراقصات البرازيليات وسط الزبائن، وهن يقمن بحركات فضفاضة من فن الكابويرا البرازيلية، capoeira. يحاول وزير سابق على قدر من الأهمية في ظل الجمهورية

الرابعة أن يلمس ثديي ممثلة شابة حديثة الشهرة. وهناك دوماً هذا الموكب من الفتيان والفتيات الذين يحملون سرطانات البحر الحية على رؤوسهم أو يتجولون بها في الأرجاء، يبقى سرطان البحر، لأسباب مجهولة، الحيوان الرائج في باريس في عام 1980.

عند المدخل، يقدم رجلان بشاربين مفعمين بالحيوية ورقة نقدية من خمسمائة فرنك إلى الحارس ليسمح لهما بالدخول. يتركان مظلتيهما في الحمام، ينادي سعيد على حامد من أجل تناول المخدرات. يلوح له حامد أنه يسترخي ويبرم لفافة مخدرات فوق طاولة منخفضة على شكل امرأة عارية ممددة على يديها وركبتيها، كما هو الحال في شريط مولوكو لحانة الليمون الآلي. بجانب حامد، على أريكة في الزاوية، تشعل أليس سابرتيش سيجارتها، ارتسمت على شفتيها ابتسامة إمبراطورية، وحول رقبتها أفعى (أفعى حقيقية، يقول حامد في نفسه، لكن يعتقد على الفور أن الأمر قد يتعلق بأداة تسلية سخيفة) تميل نحوهم الفتاة وتصرخ في وجههم: »إذن يا أعزائي الصغار، هل الليل جميل؟» يبتسم حامد وهو يشعل لفافة المخدرات، وسعيد يجيب: «عمّا تتحدثين؟».

في الحانة، تمكن الرقيب من أن يجعل بونو يسدد له ثمن مشروب، ويتساءل سليمان بأية لغة يتواصلون، ولكن في الواقع لا يبدو أنهم يتحدثون. دخل الرجلان ذوا الشاربين إلى ركن في الحانة، وطلبا زجاجة فودكا بولونية، زجاجة تحتوي على عشب الجاموس، والتي لها تأثير جذب الشباب من كلا الجنسين إلى طاولتهما، وفي أعقابهم، نجمة أو نجمتين من الدرجة الثانية. بالقرب من البار، فيكتور بيشي، أسمر اللون، بقميص مفتوح، وماسة في أذنه، يتحدث مع فيتاس غيرليتيس، أشقر اللون، بقميص مفتوح، وحلقة مشبكة في أذنه. يحيي سليمان من بعيد شابة عديمة الشهوة تتحدث مع مغني تاكسي غيرل. بجواره مباشرة، تتكئ على عمود خرساني شبيه بعمود الفن الدوري المربع، عازفة الغيتار، ببرودة، وصديقتها تلحس خدها، وتحاول أن تشرح لها كيفية شرب التكيلا في أورلاندو. اختفى الرقيب وبونو. بدأ سليمان عمله بإيف مورووسي.

خرج فوكو من الحمام، وانخرط في مناقشة عاطفية مع مغنية أبّا Abba. نادى سعيد على حامد: «أريد البضاعة، المخدرات، المخدرات الصلبة، الكوكايين، مخدرات سوداء، سيغار، فيل، وحيد القرن، أي شيء، فقط أعثر لي على شيء، تبًّا!» يمد له حامد لفافة مخدرات يمسكها بغضب، ولسان حاله، يقول «هذا ما أصنعه بلفافتك» ويحملها إلى فمه ويسحب باشمئزاز وجشع. في زاوية الحانة، يتآلف الرجلان بود، ذوا الشاربين مع أصدقائهما الجدد ويشربان نخبهما، قائلين: «نازدرافي! «nazdravé» تحاول جين بيركين أن تقول شيئاً لشاب يشبه أخاها، لكن هذا الأخير جعلها تنادي خمس مرات قبل أن تهز كتفها في إشارة إلى العجز. صرخ سعيد في وجه جامد: «ماذا بقي لنا أن نفعل؟ نقوم بزراعة المخدرات؟ هل هذه هي الخطة؟» يدرك حامد أن سعيد سيصبح شخصاً لا يطاق، إذا لم يحصل على المخدرات، لذلك أمسكه من الكتف وقال له «اسمع» وهو ينظر إليه مباشرة كما يفعل مع شخص في حالة صدام أو موقف متصلب وأخرج من جيبه مسدس من حجم A5 مطوي على نصفين. هذه دعوة لتناول الأدامنتيوم، في الحانة التي فتحت حديثاً قبالة حانة ريكس، هذا المساء بالتحديد هناك تاجر سيكون حاضراً هناك، كما هو مسجل على المنشور، تحت ذلك الرأس الكبير الذي يشبه بغموض لوريد، حيث سيقوم بتنشيط أمسية خاصة تشبه أمسية السبعينيات. يطلب من أليس سابريتش قلماً، ويكتب بعناية بأحرف كبيرة اسم التاجر على ظهر المنشور الذي سلمه بأبهة لسعيد الذي وضعه بدقة في الجيب الداخلي لسترته، وانطلق على الفور. في الركن الخاص بهما، يبدو أن الرجلين صاحبي الشاربين اللذين يرتديان ملابس سيئة يستمتعان مع أصدقائهما الجدد، وقد اخترعا كوكتيلا جديداً من باستيس ـ فودكا ـ سوزي، وقد انضمت إنيس دولا فرسونج مصممة أزياء إلى طاولتهم، لكن عندما رأوا سعيد يتجه نحو مكان الخروج، توقفوا عن الضحك، ورفضوا بأدب طلبات عازف الطبل الذي أراد أن يمنحهم قبلة، وهم يهتفون «شقيّ! شقيّ!» وغادروا الحفلة الموسيقية.

في الشوارع الكبرى، يمشي سعيد بحزم من دون أن يرى.خلفه الرجلين

المسلحين بمظلتيهما، اللذين يتبعانه من بعيد. يحسب عدد الخدمات الجنسية التي يجب أن يؤديها في مراحيض الأدامنتيوم للحصول على غرام من الكوكايين. ربما يجب أن يأخذ الأمفيتامينات، إنه أسوأ، ولكنه أرخص. لكن هذا يستمر لفترة أطول. لكنه يثير بعض الضجة. لكنه يجعل المرء يرغب في ممارسة الجنس على أي حال. باختصار. خمس دقائق لإثارة زبون، خمس دقائق للعثور على حجرة فارغة، خمس دقائق في الممارسة، في غضون ربع ساعة يكون كل شيء قد تم، ثلاث ممارسات تكفي، وربما اثنتان إذا وجد رجالاً أغنياء ومحمومين حقاً، إنه يدرك أن الأدامنتيوم يجذب الأناقة والثقل، وليس ذلك النوع من الجنس المثلي الرخيص. إذا كانت الأمور على ما يرام، في غضون ساعة سيحصل على المخدرات. لكن الرجلين من خلفه اقتربا، بينما يستعد لعبور شارع بواسونيير، وجّه الرجل الأول مظلته إلى الأسفل ووخزه في ساقه على سرواله الجينز المغسول بالحجر، بينما الرجل الثاني، حين قفز سعيد وهو يصرخ، مرر يده إلى سترته واختلس المنشور من جيبه الداخلي. وفي اللحظة التي استدار فيها، كان الرجلان قد عبرا بالفعل ممر المشاة، أحس سعيد بألم في ساقه وشعر أيضاً بالاتصال الخشن ليد فوق صدره وعرف أنه يتعامل مع نشالين، وتحقق أنه لا زال يحتفظ بأوراقه (لا يملك مالا) لكنه استفاق من دهشته حين أدرك أنهم سرقوا منه دعوته، تبعهما، وهو يصرخ «دعوتي! دعوتي!» لكن استولت عليه دوخة ودوار شديد، انهارت قوته، واضطرب بصره، ولم تعد ساقاه تقويان على الحركة، توقف في منتصف الطريق ومر يده على عينيه وانهار في قارعة الطريق وسط السيارات التي زمرت بالمنبهات.

في الغد، في صحيفة الباريسي المتحرر، تم التبليغ عن وفاة شخصين: شاب جزائري يبلغ من العمر عشرين سنة، تناول جرعة زائدة في الشارع، وتاجر مخدرات عُذّب حتى الموت في مراحيض فضاء الأدامنتيوم، ملهى ليلي افتتح مؤخراً، حيث قرر محافظ المدينة على الفور الإغلاق الإداري بشأنه.

«يبحث هؤلاء الرجال عن شيء ما» السؤال الوحيد، يا حامد، «لماذا لم يجدوه بعد». يمضغ بايارد سيجارته، ويلعب سيمون بدبابيس ورقية.

سُحق بارت، تسمم سعيد، قُتل تاجره، نُهبت شقته، شعر حامد أن الوقت قد حان للذهاب إلى الشرطة؛ لأنه لم يقل كل شيء عن رولان بارت: في أثناء لقائهما الأخير، ترك له بارت ورقة. يتردد صدى النقر فوق الآلات الكاتبة في المكاتب. يعج شارع المصوغات والحلي بالنشاط البوليسي والإداري.

كلاّ، أولئك الأشخاص الذين فتشوا شقته لم يجدوها. كلاّ، ليست في حوزتهم. كيف يمكنه التأكد من أنهم لم يحصلوا عليها؟ لأنها لم تكن مخبأة في غرفته، ولسبب وجيه: أحرق الورقة.

حسناً.

هل قرأها؟ أجل. هل بمقدوره أن يقول عما تتحدث هذه الورقة؟ بطريقة أو بأخرى. ما موضوع هذه الورقة؟ ساد الصمت.

طلب منه بارت أن يحفظ الورقة عن ظهر قلب ثم يتلفها. على ما يبدو، كان يعدّ أن نبرة الظهيرة وسيلة ذات ذاكرة تقنية تسهل عملية الحفظ. قام حامد بذلك؛ لأنه في الأساس، حتى لو كان بارت كبيراً في السن وقبيحاً بمظهر بطنه وذقنه، فإنه كان يحبه، هذا الرجل العجوز الذي كان يتحدث عن أمه مثل طفل حزين، ثم لأنه شعر بالإطراء كون هذا الأستاذ العظيم عهد إليه بمهمة لم تكن، هذه المرة، ذات طابع جنسي عن طريق الفم، وكذلك أيضاً لأن بارت وعده بمبلغ ثلاثة آلاف فرنك. سأله بايارد: «هل يمكن أن تتلو علينا هذا النص؟» ساد صمت طويل. يتوقف سيمون عن صنع عقد من دبابيس الورق. في الخارج، يستمر صدى الآلات الكاتبة. يقدم بايارد سيجارة إلى الفتى المُتعهد الذي قبلها بردة فعل العشيق المتعهد، على الرغم من أنه لا يدخن هذا النوع من السجائر.

يدخن حامد ويلوذ بالصمت.

يـرى بايارد أن حامـد يملك على مـا يبدو معلومـات مهمة بخصوص مقتل ثلاثة أشـخاص عـلى الأقل، وطالما هذه المعلومـات لم تخرج إلى العلن، فإن حياته في خطر. يعترض حامد بأنه على العكس من ذلك، طالما أن دماغه هـو الوصي الوحيد على هـذه المعلومات، فليس بإمكان أحـد قتله. سره هو ضمان لحياتـه. يريه بايارد صور التاجر الذي تعـرض للتعذيب في مراحيض فضـاء الأدامنتيـوم. يتأمل حامد الصـور لفترة طويلة، ثم يسـتدير في مقعده ويتلو قائلاً: « سـعيد ذاك الذي مثل عوليس سـافر بعيداً / أو مثل تلك التي تغلبـت على غـزل الصوف وتفكيكـه...» يلقي بايـارد نظرات اسـتفهام إلى سـيمون الذي يشرح له أنها قصيدة للشـاعر دو بيلاي: «متى أرى، للأسف، قريتـي الصغـيرة / أدخـن أمام الموقـد وفي أي موسـم...»، يقـول حامد إنه حفظهـا في المدرسـة ولا يـزال يتذكرها، ويبـدو فخوراً بذاكرتـه. يخبر بايارد حامد أنه سيبقيه لمدة 24 ساعة في عهدة الشرطة. يجيب حامد أن عليه القيام بذلك. يشـعل بايارد سـيجارة أخرى بعقب السيجارة السـابقة، وهو يعدل ذهنيـاً تكتيكاتـه. لا يسـتطيع حامد العـودة إلى منزلـه. هل لديه مـكان آمن للنوم؟ أجل، يستطيع حامد أن ينام عند صديقه سليمان في باربيس. يجب أن يدفعهم إلى نسـيانه لفترة من الوقت ولا يخرج إلى الأماكن التي كان يرتادها، ولا يفتـح الباب للغرباء، وأن يكون حذراً عندما يخرج، ويلتفت وراءه كثيراً في الشـارع، وباختصـار أن يتخفـى. يطلـب بايارد مـن سـيمون مرافقته في السـيارة. ينذره حدسه أن العشـيق المتعهد سيفضي بسهولة أكبر بسره لشاب غـير شرطي بدلاً من شرطي عجوز، ثم على عكـس رجال شرطة الروايات أو الأفـلام، لديه قضايا أخرى قيد التحقيق ولا يمكنه أن يكرس ٪100 من وقته لهذه القضية، حتى لو أن جيسكار يضعها في أولى الأولويات، وحتى لو أنه صوّت لصالحه.

أعطـى بايـارد التعليـمات اللازمـة لوضـع سـيارة تحت تصرفهـما. قبل السماح لهما بالرحيل، سأل بايارد حامد، عما إذا كان اسم صوفيا يذكره بشيء ما، لكن حامد يقول: إنه لا يعرف فتاة بهذا الاسم. يأخذهما مسؤول يرتدي الزي الرسـمي له إصبع ناقص إلى المرآب ويسـلمهما مفاتيح سيارة رونو 16

لا تحمل علامات الشرطة. يوقع سيمون على استمارة، يصعد حامد إلى المقعد، ويغادران شارع المصوغات في اتجاه منطقة شاتلي. وراءهما، تنطلق سيارة ستروين سوداء كانت تنتظر بصبر في شارع مزدوج من دون أن يشعر بها أي شرطي في الخدمة.

عند تقاطع الطرق، قال حامد لسيمون (بلهجته الجنوبية): «أوه! أوني فويغو.» إنها زرقاء.

يجتاز سيمون جزيرة المدينة، يمر أمام قصر العدالة، ويدخل إلى منطقة شاتلي. يسأل حامد لماذا رحل إلى باريس. يشرح له حامد أن في مرسيليا، ليس الأمر جيداً بالنسبة إلى الشواذ، في باريس، الأمر أفضل، حتى لو لم تكن باريس هي البلسم الشافي (يسجل سيمون استخدام كلمة « البلسم الشافي»)، يتم التعامل بشكل أفضل مع الشواذ في باريس، لأن كون المرء شاذاً في منطقته، هو أسوأ بكثير من أن يكون المرء عربياً. ثم في باريس، هناك الكثير من الشواذ أغنياء، ويستمتع المرء معهم بشكل أفضل. يمر سيمون إلى منطقة الليمون على مستوى شارع ريغولي وسيارة ستروين خلفهما تقطع الإشارة الحمراء للبقاء بالقرب منهما. في المقابل، توقفت فويغو الزرقاء، يشرح سيمون لحامد أنه يدرّس أعمال بارت في الكلية ويسأله بحذر: «عن ماذا يتحدث ذلك النص؟» يطلب منه حامد سيجارة ويقول له: «في الحقيقة، لا أعرف.»

يتساءل سيمون عمّا إذا كان حامد قد خدعهم، لكن حامد أخبرهم أنه حفظ النص من دون السعي إلى فهمه. كانت المبادئ التوجيهية تنص على أنه إذا حدث شيء ما، فعليه أن يذهب إلى مكان ما، ليقرأ النص على شخص محدد، وليس أي شخص. يسأله سيمون لماذا لم يفعل ذلك. فيسأله حامد ما الذي جعله يعتقد أنه لم يفعل ذلك. أخبره سيمون أنه يعتقد أنه لم يكن ليأتي أبداً إلى الشرطة لو أنه فعل ذلك، يعترف حامد أنه لم يفعل ذلك؛ لأن المكان بعيد جداً، فالشخص لا يسكن في باريس، وأنه لم يكن يملك ما يكفي من المال. الثلاثة آلاف فرنك التي أعطاها له بارت، فضل إنفاقها في أشياء أخرى.

يلاحظ سيمون في مرآة الرؤية الخلفية لسيارته أن سيارة ستروين ماتزال خلفهما. على مستوى شارع ستراسبورغ سانت دنيس، يجتاز ضوءاً أحمر وسيارة ستروين وراءه تقطعه أيضاً. عندما يخفف من السرعة، تتباطأ وراءه أيضاً سيارة ستروين. توقف في طريق مزدوج ليتحقق من الأمر. فتوقفت وراءه سيارة ستروين. شعر أن قلبه بدأ ينبض بقوة. سأل سيمون حامد عما يريد أن يفعله لاحقاً، عندما يكون لديه ما يكفي من المال، إذا حصل في يوم ما على المال. لم يفهم حامد بسرعة لماذا توقف سيمون، لكنه لم يطرح أي سؤال وأخبره أنه يرغب في شراء قارب وتنظيم رحلات للسياح؛ لأنه يحب البحر، ولأنه كان يذهب للصيد في جداول المياه الصخرية مع والده، عندما كان صغيراً (لكن هذا كان قبل أن يطرده والده خارج باب المنزل). ينطلق سيمون من جديد بقوة محدثاً صريراً في إطارات سيارته، ورأى في مرآته الخلفية ضغط هواء السيارة الذي انبعث من سيارة ستروين السوداء في انطلاقتها أيضاً، وهي تقتلع الإسفلت. يستدير حامد، ويرى ستروين سوداء، ومن ثم تذكر السيارة التي كانت تقف في الأسفل مقابل منزله، وليلة الأمسية في الباستيل، وأدرك أنه ملاحق منذ أسابيع، وأنه كان بوسعهم قتله عشرات المرات، ولكن هذا لا يعني أنه لن يقتل في المرة الحادية عشرة، لذلك تمسك بمقبض فوق الزجاج، ولم يقل شيئاً سوى: «انعطف يميناً.»

انعطف سيمون من دون تفكير ووجد نفسه قد توغل في شارع صغير موازٍ لشارع ماجينتا، وما أرعبه أكثر، الآن، هو أنه يلاحظ بأن السيارة خلفه، لا تعطي أية إشارة كي لا تنبه على وجودها خلفه، وحين اقتربت منه، وبفعل تأثير إلهام غامض، كبح سيمون السيارة بقوة واصطدمت سيارة ستروين برونو فويغو16.

خلال بضع ثوان، بقيت السيارتان جامدتان، الواحدة خلف الأخرى، كما لو أنهما فقدتا الوعي، وكان المارة متحجرين أيضاً، لقد فوجئوا بالحادث ثم رأى سيمون رجلاً يخرج من سيارة ستروين وجسم معدني يلمع في يده فاعتقد أنه مسدس، دفع الرجل بقوة السيارة وفكها من السيارة الثانية،

الـشيء الذي أحـدث فرقعة قوية، فقفزت سـيارة فويغـو 16 إلى الأمام عاد الرجل أدراجه، وانطلقت سيارة ستروين بدورها.

يجتـاز سـيمون جميع الأضواء، ويسـتخدم المنبه بشـكل مسـتمر، حيث يعتقـد المـرء بأن صفـارة إنذار يخرق صوتهـا المقاطعة العاشرة، كـما لو كانت تعلن عن قصف وشـيك أو الأربعاء الأول من الشـهر، وخلفه، تتمسـك به سيارة ستروين مثل مقاتل يحوم حول طائرة معادية في مرمى سلاحه. يصطدم سـيمون بسـيارة من نـوع 505، ويضرب شـاحنة ثم ينزلق عـلى الرصيف، ويتفـادى سـحق اثنـين أو ثلاثة من المـارة، ويدخـل إلى سـاحة الجمهورية. خلفه، تتسـلل سـيارة سـتروين بين العقبات مثل الثعبان. يتعرج سيمون في زحمة السـير ويتجنب المشـاة ويـصرخ في وجه حامد: «النـص! اتل النص!» لكن حامد لا يسـتطيع التركيز، يده متشـنجة على المقبـض فوق الزجاج ولا ينبس بأية كلمة.

يقوم سـيمون بجولة في السـاحة محاولاً التفكير. لا يعـرف مكان مخافر الشرطـة في الحي لكنه يتذكر مرقص 14 يوليوز في محطة الإطفاء بالقرب من الباسـتيل، في منطقة ماريس، لذلك يغوص في شـارع فتيات المحنة، ويصرخ في وجه حامد: «عما يتحدث هذا النص؟ ما هو العنوان؟» وحامد، شـاحباً، ينطق بوضوح: «الوظيفة السـابعة للغة» ولكن عندما كان على وشـك قراءة النص، احتكت سـيارة سـتروين بسـيارة فويغو 16، وانفتحـت النافذة من جهـة حامـد، ولمح سـيمون رجلاً ذا شـارب يوجه نحوه مسدسـاً، وقبل أن ينطلـق دوي الفرقعـة، يكبح سـيمون السـيارة بكل قـواه وتتجاوزه سـيارة ستروين حين أطلقت النار، ولكن خلفه صدمته سيارة من نوع 404 وألقى الاصطدام بسـيارة فويغو 16 إلى الأمام، فوجدت نفسها من جديد بمحاذاة سـيارة سـتروين، لذا ينعطف سـيمون إلى اليسـار بـكل قوة، ويدفع سـيارة سـتروين إلى الخط المعاكس، وبمعجزة تتجنب سـيارة زرقاء قادمة في الاتجاه المعاكس، ويهرب سيمون من خلال زقاق يمر عبر السيرك الشتوي، ويختفي في شارع أميلو، الموازي لشارع بومارشي الذي يمتد إلى شارع فتيات المحنة.

هكـذا يعتقد سـيمون وحامد أنهـما تخلصا من مطارديهما، لكن سـيمون لا يـزال يتجـه نحـو الباسـتيل، ليس لديـه فكـرة التخفي في شـوارع منطقة ماريـس الصغـيرة، حيث عندما بدأ حامد في تلاوة النـص ميكانيكياً: «هناك وظيفـة تنفلت من مختلف عوامـل الاتصال اللفظي الثابتـة... والتي بطريقة ما تشـملهم جميعـاً. هـذه الوظيفة، نسـميها...»، في هـذه اللحظـة بالذات، ظهرت سـيارة ستروين من شـارع جانبي، وصدمت مؤخرة فويغو 16 التي اصطدمت بشجرة وسط عواء الفولاذ والزجاج.

لا يـزال سـيمون وحامد في حالة ذهول، عندما خرج رجل ذو شـارب مسلح بمسدس ومظلة من سيارة ستروين التي ينبعث منها الدخان، ويندفع إلى فويغـو 16 ويقتلـع البوابـة المهتـزة في جانـب حامد. يوجه مسدسـه على مسـافة ذراع في وجـه حامـد، ويضغـط على الزنـاد، ولكـن لا شيء يحدث، تعطـل مسدسـه، يحاول مرة أخـرى، طق، طـق، لم يفلح الأمـر، لذلك لوح بمظلتـه المغلقة كرمح، وأراد أن يغرسـها في أضلاع حامـد، لكن حامد حمى نفسه بذراعه وحول رأس المظلة الذي وخز كتفه، دفعه الألم لإطلاق صرخة شـديدة، ثم تحول الخوف إلى حنق شـديد، انتزع المظلة مـن يدي الرجل ذي الشـارب، وفك حزام الأمان في الوقت نفسـه، وانقض على المعتدي غارسـاً المظلة في صدره.

في هـذا الوقـت، اقـترب الرجل الآخر من جانب السـائق. سـيمون في حالـة وعي، ويحـاول الخروج من فويغـو 16 لكن بابه مغلـق، وهو محصور في مقصورة السـائق، وحين وجه الرجل الثاني سـلاحه وصوب عليه، تجمد من شدة الرعب، ونظر إلى الثقب الأسود الذي ستنبعث منه الرصاصة التي ستخترق رأسـه، وكانت لديـه برهة من الوقـت، ليقول في نفسـه «وميض، ثم ظلام»، عندما فجأة شـق زئير محرك الهواء وصدمت سـيارة فويغو زرقاء الرجل الثاني الذي تطاير، وانسـحق فوق الرصيف. نزل رجلان يابانيان من السيارة.

خرج سيمون من السيارة وهو يزحف على يديه وركبتيه نحو حامد الذي

انهار فوق جسـد الرجل الأول، قلبه واكتشـف بارتياح أنـه لا يزال يتحرك. أتى أحد من اليابانيين لدعم رأس العشيق المتعهد الجريح، جس نبضه وقال: «سـم poison» لكن سيمون سـمع في بـادئ الأمر «سـمكة poisson» وأخـذ يفكر في تحليلات بارت حـول الطعام الياباني قبل أن يدرك وهو ينظر إلى حامد، أن سـحنته أصبحت شـاحبة، وعيونه صفراء، وجسـده يضطرب متشنجاً، وصرخ ليستدعي شخص ما سيارة إسعاف، وحامد يريد أن يقول له شـيئاً ما، ينتصب بصعوبة، ينحني سـيمون ويسـأله عن الوظيفة السابعة، لكـن حامـد عاجز تماماً على تلاوة النص، وكل شيء تطاير في رأسـه، تراءت لـه طفولته الفقيرة في مرسـيليا، وحياته في باريـس، الرفاق، لحظات الجنس، حمامات البخار، سـعيد، بارت، سـليمان، السينما، الحلويات في مقهى القبة، وانعكاسـات الأجسـام الذهنية التي كان يفركها، ولكن قبل أن يموت، بينما صـوت صفارات الإنذار يذوي من بعيد، كان لديه برهة من الوقت ليهمس قائلاً: «écho»، «صدى».

31

عندمـا وصل جـاك بايـارد، قامت الشرطـة بتأمين محيط الحـادث لكن اليابانيـين اختفيا، والرجل الثاني ذو الشـارب، الذي صدموه بالسـيارة، هو أيضـاً اختفـى، لا يزال جسـد حامـد ممدداً عـلى الأرض كما هو حال جسـد المعتدي، والمظلة مغروسـة في صدره. يدخن سيمون هرتسوغ سيجارة، وقد ألقـوا بغطـاء عـلى ظهـره. كلا، لم يحدث لـه شيء، كلاّ، لا يعـرف من هؤلاء اليابانيـون، لم يقولـوا أي شيء، لقد أنقذوا حياته وغادروا في سـيارة فويغو. أجل، ربما أصيب الرجل الثاني. يجب أن يكون قوياً جداً ليستيقظ من صدمة كهذه. جاك بايارد، حائراً، يتأمل الحطامين المتشابكين. لماذا سيارة ستروين؟ لقـد توقـف إنتاجها في عام 1975. من ناحية أخرى، فإن سـيارة فويغو هي موديـل بالكاد خرج من المصنع، ولم يتم تسـويقه حتى الآن. ترسـم الشرطة خطوط عريضة حول جثة حامد بالطباشـير. يشعل بايارد سيجارة بوهيمية.

لقد كانت حسابات العشيق المتعهد بالتالي خاطئة: والمعلومات التي احتفظ بها لم تحميه. واستنتج بايارد أن الذين قتلوه لم يكونوا يرغبون في إجباره على الكلام، بل إسكاته إلى الأبد. لماذا؟ يخبره سيمون عن العبارات الأخيرة التي نطق بها حامد. يسأله بايارد عمّا يعرفه عن هذه الوظيفة السابعة للغة. متأثراً، لكن بنبرة متحذلقة تلقائية، يشرح له سيمون: «أن وظائف اللغة هي مقولات لسانية قام بالتنظّير لها سابقاً عالم لسانيات روسي كبير يسمى...»

رومان جاكوبسون.

لم يستمر سيمون كثيراً في العرض الذي كان يتأهب للخوض فيه. تذكر الكتاب الموضوع فوق مكتب بارت، أبحاث في اللسانيات العامة، المفتوح في صفحة وظائف اللغة. وورقة الملاحظات التي استخدمها بارت كإشارة مرجعية.

يشرح سيمون لجاك بايارد أن الوثيقة التي قُتل بسببها أربعة أشخاص، ربما كانت أمام أعينهما، عندما فتشا الشقة الكائنة في شارع سيرفاندوني، ولم ينتبه الشرطي الذي كان يقف خلفهما، والذي ذهب لإجراء مكالمة هاتفية عندما سمع ما يكفي من معلومات. لم يتمكن من رؤية يد الشرطي اليسرى التي ينقصها إصبع.

يعتقد بايارد أيضاً أنه يعرف ما يكفي عن هذا الموضوع، على الرغم من أنه لم يفهم حكاية جاكوبسون هذه، أخذ معه سيمون في سيارته 504 وهرع نحوَ الحي اللاتيني، ترافقه شاحنة مليئة برجال الشرطة النظاميين، بما في ذلك الشرطي ذي الإصبع المقطوع، وصلوا إلى ساحة سان سلبيس وجميع صفارات الإنذار مُشغلة، وأكيد أن في الأمر خطأ.

يوجد رمز رقمي عند بوابة العربات الثقيلة، ويجب عليهم أن يدقوا في نافذة البواب الذي فتح لهم، وهو في حالة من الذهول.

كلاّ، لم يطلب أحد رؤية غرفة الخادمة. لا يوجد شيء خاص يجب الإبلاغ عنه منذ تثبيت جهاز الرمز الرقمي من طرف التقني فاتشي، في الشهر الأخير. أجل، ذلك الرجل صاحب النبرة الروسية، أو اليوغسلافية،

أو ربما يونانية. بالضبط، إنه أمر مضحك، لقد عاد اليوم. قال إنه يريد تحديد التكاليف لتثبيت أجهزة الاتصال الداخلي. كلاّ، لم يطلب مفتاح غرفة الطابق السادس، لماذا؟ المفتاح معلق على اللوحة، مع المفاتيح الأخرى، انظروا. نعم، لقد صعد إلى الطوابق العليا، فقط منذ خمس دقائق.

أخذ بايارد المفاتيح وصعد الدرج كالبرق، يتبعه عدة أفراد من الشرطة، بقي سيمون في الطابق السفلي مع البواب. في الطابق السادس، باب غرفة الخادمة مغلق. قام بايارد بإدخال المفتاح في القفل لكن القفل مسدود بشيء ما: مفتاح من الداخل. المفتاح الذي لم يوجد مع بارت، قال بايارد في نفسه، وهو يضرب الباب صارخاً «الشرطة!» في الداخل، يسمع ضوضاء. خلع بايارد الباب. يبدو المكتب سليماً، ولكن الكتاب اختفى، وكذلك لا وجود لورقة الملاحظات أيضاً، ولا يوجد أحد في الغرفة، النوافذ مغلقة.

لكن فتحة الباب الأرضي التي توصل إلى الشقة الخامسة مفتوحة.

صرخ بايارد على رجال الشرطة، ليعودوا إلى الأسفل، وحين قاموا بالانعطاف ليعودوا أدراجهم، كان ذلك الرجل قد وصل إلى درج الطوابق السفلى، في حين اصطدم رجال الشرطة، من جهة أخرى، بشقيق بارت، ميشيل، الذي خرج من شقته، مذعوراً؛ لأن رجلا غريباً تسلل إلى منزله من السقف، الشيء الذي أتاح للتقني الهارب من شركة فانسي للخدمات أن يتقدم عليهم بطابقين، وفي الأسفل، بطبيعة الحال، سيمون الذي لم يفهم شيئاً دُفع بقوة من طرف الرجل الذي هرب بأقصى سرعة، وعندما أغلق بوابة العربات، فإن الآلية التي قام بتركيبها بنفسه اشتعلت وأغلقت قفل الباب.

وثب بايارد إلى مقصورة البواب والتقط الهاتف. يريد أن يستدعي قوات الدعم، لكنه هاتف ذو قرص دوّار، والوقت الذي يستغرقه لتركيب رقم الاتصال بدا له كافياً كي يتمكن الرجل من بلوغ باب أورليانز أو حتى الدخول إلى أورليانز أصلاً.

لكن الرجل لم يسلك ذلك الاتجاه، يريد الهروب بالسيارة، لكن شرطيين نظاميين كان على أهبة الاستعداد منعوه من الوصول إلى سيارته المتوقفة في

نهاية الشارع، لذلك ركض في اتجاه حديقة لوكسمبورغ، بينما يطلق الشرطيان من خلفه تحذيراتهم الأولية من أجل توقيفه. عبر بوابة العربات يصرخ بايارد «لا تطلقوا النار» نريده حياً بالطبع. عندما تمكن رجاله أخيراً من فتح الآلية التي تعطلت، بالضغط على زر مثبت في الجدار، اختفى الهارب، لكن بايارد أبلغ عن الجريمة، فهو يعلم أن الحي تم تطويقه، وأنه ليس بمقدور الهارب الذهاب بعيداً.

ركض الرجل عبر حدائق لوكسمبورغ بسرعة قصوى، وهو يسمع صفارات الشرطة من خلفه، ولكن المارّة الذين اعتادوا على ممارسة الركض والهرولة وصفارات حراس الحديقة، لم ينتبهوا إلى أن اصطدم الرجل وجهاً لوجه مع ضابط شرطة الذي أراد أن يطرحه أرضاً، لكن الهارب دفعه كما في لعبة الريغبي وأوقعه أرضاً وتخطاه. وواصل هروبه. إلى أين يذهب؟ لا أحد يعلم؟ يغير الاتجاه. الشيء المؤكد أنه يجب عليه مغادرة الحدائق قبل تطويق جميع منافذ الخروج.

يوجد بايارد الآن في شاحنة الشرطة، ويعطي الأوامر عبر الراديو. تنتشر الشرطة في جميع أنحاء الحي اللاتيني. إنه مطوق، لقد انتهى أمره. لكن الرجل الهارب له عدة حلول، لقد اندفع نحو شارع السيد الأمير، وهو شارع ضيق في اتجاه واحد، مما يعيق مطاردته بالسيارة. ولسبب لا يعرفه سوى الهارب، من اللازم عليه أن يعبر إلى الضفة اليمنى. أفضى به السير إلى شارع بونابرت، ويبدأ يسير في اتجاه الجسر الجديد، حيث ينتهي طريقه هناك؛ لأن في نهاية الجسر، توجد شاحنات الشرطة، وعندما التفت إلى الوراء، رأى شاحنة بايارد قادمة لمنعه من الهروب. لقد وقع في المصيدة مثل الفأر، حتى لو قفز إلى الماء، فلن يذهب بعيداً، لكنه يعتقد أن هذه آخر ورقة، يجب أن يستخدمها للنجاة.

صعد على حاجز الجسر وجذب بسرعة ورقة أخرجها من سترته. يقترب منه بايارد، وحيداً. قال له الهارب إن تقدم خطوة واحدة أخرى سيلقي بالورقة في نهر السين. توقف بايارد كما لو كان أمام جدار غير مرئي، «هدوء.»

- تتراجعوا!

- ماذا تريد؟

- سيارة بخزان وقود ممتلئ وإلا أرمي الوثيقة.

- هيّا، ارمها.

قام الرجل بحركة بذراعه. ارتجف بايارد رغماً عنه. «انتظر!» يعلم بايارد أن هذه الورقة يمكن أن تساعده في حل لغز وفاة أربعة أشخاص على الأقل.

هل نتحدث، حسناً؟ ما اسمك؟ لحق به سيمون. عند طرفي الجسر، يُصوب رجال الشرطة سلاحهم نحو الرجل الهارب. لاهثاً، وجسده منكسر من جراء الجهد الذي بذله، يضع يده الأخرى في جيبه. في تلك اللحظة بالضبط، سُمع دوي فرقعة. انقلب الرجل على نفسه. يصرخ بايارد: «لا تطلقوا النار» سقط الرجل مثل الحجر، لكن الورقة، بدورها طارت فوق النهر وجاك بايارد وسيمون اللذان هرعا نحوها، يتأملان متكئين على الدرابزين الحجري، وكأنهم مُنوّمان مغناطيسياً، المنحنيات الرشيقة لسقوطها الهائم في النهر. في نهاية المطاف، هبطت الورقة برفق في الماء وطفت. بايارد، سيمون والشرطة الذين فهموا بشكل غريزي أن هذه الوثيقة كانت هدفهم الحقيقي، جميعهم شاهدوا متحجرين، وهم يحبسون أنفاسهم، الورقة التي انجرفت مع تدفق التيار.

ثم خرج بايارد من أسر هذا السبات التأملي، وبتقديره على أن الأمل لا زال قائماً، خلع سترته، وقميصه، وسرواله، وتخطى حاجز الجسر، وتردد لبضع ثوان. قفز واختفى في بقعة كبيرة لتدفقات الماء.

عندما عاد بايارد إلى السطح، كان على بعد عشرين متراً تقريباً من الورقة، ومن أعلى الجسر، أخذ سيمون والشرطة في الصراخ معاً، ليحددوا للمفوض بايارد اتجاه الوثيقة، مثل المؤيدين الذين يعجون بالصراخ. أخذ بايارد يسبح بكل قوته، يحاول الاقتراب لكن الورقة تتحرك بعيداً، يدفعها التيار، على الرغم من كل شيء، تضيق الفجوة بينهما، سيحصل عليها، إنه على بعد أمتار قليلة منها، يختفون تحت الجسر، يهرع سيمون والشرطة إلى

الجانب الآخر، وينتظرون ظهورهم مرة أخرى، وعندما ظهروا من جديد، بدأ الصراخ ثانية، بعد متر سيتمكن من لمسها، لكن قارب نهري يمر في تلك اللحظة ويحدث موجات صغيرة غمرت الورقة تماماً في الوقت الذي كانت الوثيقة في متناول يد بايارد، غطست الورقة، لذلك غطس بايارد هو أيضاً، وللحظة لا يُرى فيها سوى ملابسه الداخلية التي تبرز وعندما طفا، كان يمسك بالورقة مبللة في يده وعاد بشق الأنفس إلى الضفة تحت صوت الهتافات والهدير.

لكن عندما رُفع بايارد على ضفة النهر، فتح يده ولاحظ أن الورقة ليست أكثر من عجينة بلا شكل، وأن الكتابة قد مُحيت لأن رولان بارت كتب الورقة بقلم حبر. وبما أننا لسنا أمام خبراء، فلن تكون هناك طريقة لإعادة إظهار النص، ولا يوجد ماسح ضوئي سحري، أو ضوء أرجواني، فإن الوثيقة تعد مفقودة بلا رجعة.

جاء الشرطي الذي أطلق النار ليستفسر عمّا يحصل، رأى أن الرجل يخرج سلاحاً من جيبه، ولم يكن لديه الوقت للتفكير، فأطلق النار. يلاحظ المفوض بايارد أن الرجل لديه سلامى مفقودة في يده اليسرى. يسأله عمّا حدث لإصبعه المقطوع، يرد الشرطي بأنه قطع إصبعه، عندما كان يقطع الخشب في منزل والديه، في الريف.

عندما انتشل غواصو الشرطة جثة الرجل الهارب، لم يجدوا في جيب سترته سلاح فقط، بل نسخة من كتاب أبحاث في اللسانيات العامة، وجاك بايارد، الذي بالكاد نشف، سأل سيمون: « اللعنة، لكن من هو هذا الشخص جاكوبسون؟ حينئذ، وأخيراً، تمكن سيمون من استئناف عرضه.

32

رومان جاكوبسون هو عالم لسانيات روسي، ولد في نهاية القرن التاسع عشر، وهو الذي كان وراء ظهور حركة سميت بـ «البنيوية». بعد سوسير (1857 - 1913). وبيرس (1839 - 1914) ومع هلمسليف (1899 - 1965)، فهو

بلا شك أهم المُنظّرين ومؤسسي اللسانيات.

انطلاقاً من صورتي الأسلوب المنحدرة من البلاغة القديمة التي هي الاستعارة (نستبدل كلمة بأخرى بناء على علاقة المشابهة، على سبيل المثال «طائر معدني» للدلالة على طائرة الكونكورد أو «ثور مسعور للإشارة إلى الملاكم جاك لاموتا)، والكناية (نستبدل كلمة بأخرى، أي بأحد لوازمها، على سبيل المثال «شفرة رفيعة» للإشارة إلى مبارز أو «احتساء كأس» للدلالة على شرب السائل الذي يوجد في الكأس- الحاوي للدلالة على المحتوى.)، لقد نجح في تفسير كيفية اشتغال اللغة وفق محورين، المحور النموذجي والمحور التركيبي التعبيري.

بصورة عامة، يكون المحور النموذجي عمودياً، ويتعلق باختيار المفردات: في كل مرة تنطق كلمة، فإنك تختارها من قائمة الكلمات التي تفكر فيها، والتي تقوم بتمريرها في ذهنك. على سبيل المثال، « الماعز»، «الاقتصاد»، «الموت»، «السروال» أنا - أنت - هو، أو ما شابه ذلك.

ثم تُتابع بتسلسل بكلمات أخرى «عن السيد سيغوين»، «مريض»، «بمنجله، «مجعد»، « المُوقّع أسفله»، لتشكيل جملة: هذه السلسلة هي المحور الأفقي، ترتيب الكلمات التي تسمح لك بتكوين جملة، ثم عدة جُمل، وأخيراً تشكيل خطاب discours. هذا هو المحور التركيبي التعبيري.

بعد الاسم، يجب أن تقرر ما إذا كنت ستتابع التسلسل بصفة، أو ظرف، أو فعل، أو روابط التنسيق، أو حرف جر... ويجب عليك اختيار أية صفة، أو أي ظرف، أو أي فعل: تجدد العملية النموذجية في كل مرحلة تركيبية تعبيرية.

يجعلك المحور النموذجي تختار من قائمة كلمات من درجة نحوية مكافئة اسم، أو ضمير، صفة أو جملة موصولة، ظرف، فعل، إلخ.

يجعلك المحور التركيبي التعبيري تختار ترتيب الكلمات: فاعل، فعل، مفعول، أو فعل- فاعل أو مفعول- فاعل- فعل...

مفردات وتركيب.

في كل مـرة تقـوم بصياغـة جملة، تمـارس هاتين العمليتين، مـن دون أن تدرك ذلك - إجمالاً، يقوم المحور النموذجي بحشد القرص الصلب الخاص بك، ويعود المحور التركيبي التعبيري إلى جهازك لترجمة المعطيات وتنفيذها. (لكني أشك في أن بايارد على دراية بمفاهيم الإعلاميات.)

لكن ليس هذا ما يهمنا في هذا السياق.

(يتمتم بايارد.)

قـام جاكوبسـون، من جهة أخرى، بتلخيص عملية التواصل في شـكل رسـم تخطيطـي يتضمن الأقطـاب التالية: المرسـل، والمسـتقبل، والرسـالة، والسياق، والقناة، والرمز. انطلاقاً من هذه الخطاطة حدد وظائف اللغة.

لا يريـد جـاك بايارد أن يعـرف المزيـد، ولكن لأغـراض التحقيق، من الضروري أن يفهم على الأقل النقاط الرئيسة، إذن هذه هي الوظائف:

- الوظيفـة « المرجعيـة » هـي الوظيفـة الأولى والأكثـر وضوحـاً للغة: نسـتخدم اللغة للتحدث عن شيء ما. تشـير الكلمات المسـتخدمة إلى سـياق معين، وواقع معين، وإلى موضوع. يتعلق الأمر بتقديم معلومات عنه.

- تهدف الوظيفة التي تسـمى «انفعالية» أو «تعبيرية» إلى إظهار حضور المرسـل وموقعه فيما يتعلق برسالته: حروف التعجب، ظروف متصلة بصيغ الفعـل، آثـار أحكام القيمـة، اسـتخدام السـخرية... الطريقة التـي يُعبّر بها المرسـل عن المعلومات التي ترتبط بموضوع خارجـي يقدم بذاته معلومات حول المرسل. إنها وظيفة « الأنا.»

- الوظيفة «الإفهامية» هي وظيفة التخاطب. تتوجه إلى المتلقي «أنتَ». تتم أساسـاً بصيغـة الأمر والطلب والحض على الفعـل، أو تتم بنداء دعائي، بمعنى نداء واسـتفهام الشـخص أو الأشـخاص الذين تتوجه إليهم في فعل التخاطـب: «أيها الجنود، أنا سـعيد بكم!»، على سـبيل المثـال. (ويمكنك أن تلاحـظ بالمناسـبة أن الجملة لا تُختزل أبـداً في واقع الأمـر في وظيفة واحدة، ولكنهـا تجمـع بين عـدة وظائف بشـكل عام. عندمـا خاطب نابليـون قواته بعد معركة أوسـترليتز، مزج الوظيفة الانفعالية - «أنا سـعيد» - مع الوظيفة

الإفهامية - جنود/ بكم!

- الوظيفـة «الانتباهيـة» هي الوظيفـة الأكثر متعة، وهـي الوظيفة التي تنظـر إلى التواصل كغاية في حد ذاته. حين تقول «مرحباً» على الهاتف، فأنت لا تقول شيئاً بخلاف «أنا استمع» بمعنى أني في وضعية تواصل. حين تناقش لسـاعات في الحانـة مع أصدقائك، عندما تتحدث عـن الطقس، أو لعبة كرة القـدم في اليوم السـابق، فأنت لا تهتـم حقاً بالمعلومات في حـد ذاتها، لكنك تتحدث من أجل التحدث، من دون هدف آخر سوى الاستمرار في المحادثة. وهذا يعني أن هذه الوظيفة هي بهذا القدر مصدر معظم قراراتنا وخطاباتنا.

- تهدف الوظيفة «الميتا- لسانية» إلى التحقق من فهم أن المرسل والمتلقي يفهمان بعضهما البعض، أي استخدام الرمز نفسه. «هل تفهم؟»، «هل تعرف مـا أعنيه؟»، «هل تعـرف؟»، «دعني أشرح لك...» أو من جهة المتلقي «ماذا تقصـد؟»، «مـاذا يعنـي هذا؟»، إلـخ. كل مـا يتعلق بتعريـف كلمة أو شرح عـرض مـا، كل ما يرتبط بسـيرورة تعلم لغـة، كل خطاب حـول اللغة، كل ميتا- لسـانية تحيل على الوظيفة الميتا- لسـانية. ليس للقاموس وظيفة أخرى سوى الوظيفة ميتا- لسانية.

- وأخيراً، الوظيفة الأخيرة هي الوظيفة «الشعرية». إنها تتصور اللغة في بعدهـا الجمالي. الجناس، والتلاعب بالألفاظ مع جَرَسِيّة الكلمات، الجناس، السـجع، التكرار، آثار الصدى أو الإيقاع، تنشـأ وترتبط بهذه الوظيفة. نجد هذه الوظيفة الشعرية في القصائد، بطبيعة الحال، وأيضاً في الأغاني، في عناوين الصحف، في الخطابات الشفاهية، في الشعارات السياسية والإعلانات. على سـبيل المثال، «شـعار حركة مايو 1968 في فرنسـا»، تحت حجارة الرصف، الشاطئ!، يستخدم الوظيفة الشعرية للغة.

يشعل جاك بايارد سيجارة، ويقول هذه ست وظائف.

- معذرة؟

- هذا العرض يقدم ست وظائف.

- آه، نعم، حسناً.

- أليس ثمة، وظيفة سابعة؟
- احم: احم، حسناً على ما يبدو، أجل.
يبتسم سيمون ببلاهة.

يتساءل بايارد بصوت عال عن المقابل الذي من أجله يدفع المرء مثل هذا الثمن. يشير سيمون أنه لم يطلب أي مقابل، وأنه حاضر هنا كرهاً وعلى مضض، بناء على أمر صريح من رئيس فاشي على رأس دولة بوليسية.

ومع ذلك، عند التفكير في الأمر، أو بالأحرى بإعادة قراءة جاكوبسون، وجد سيمون هرتسوغ أثراً لوظيفة سابعة محتملة، تم تحديدها تحت اسم «وظيفة سحرية أو تعزيمية»، توصف آليتها بمثابة «تحويل شخص ثالث، غائب أو جامد، إلى مرسل إليه، مخاطب متلقي لرسالة إفهامية.» ويعطي جاكوبسون كمثال صيغة سحرية ليتوانية: «فلتجف رموش العين هذه أجل، أجل أجل، يقول سيمون.

ويذكر أيضاً هذه التعويذة لشمال روسيا: «الماء، ملكة الأنهار، الفجر! يقذف بالحزن إلى ما وراء البحر الأزرق، إلى قاع البحر، حيث تدعه يقلق راحة القلب المرهف لخادم الله...» ولاتخاذ خطوة أكثر رزانة واعتدال، يقتبس من الكتاب المقدس: «أيتها الشمس توقفي في تل جبعون Gabaôn، وأنت أيها القمر، توقف في وادي أيالون Ayyalôn. وتوقفت الشمس، وتجمد القمر»(يسوع 12.10)

حسناً، ولكن كل هذا يبدو مجرد قصص وسرديات، بمقدورنا حقاً الحديث عن وظيفة كاملة العضوية، ولا حتى في أفضل الأحوال عن استخدام مُتوهّم للوظيفة الإفهامية، أو استخدام تطهيري في الأساس، وشعري في أفضل الأحوال، وغير فعال على الإطلاق: الاستدعاء السحري لا يفلح سوى في الحكايات، بحكم التعريف. إن سيمون على قناعة بأن هذه ليست الوظيفة السابعة للغة، وعلاوة على ذلك، فإن جاكوبسون لا يستحضرها إلا إرضاء للضمير وتبرئة للذمة، وتوخياً للاستقصاء الشامل، قبل أن يستأنف المسار الجاد لتحليله اللساني. «الوظيفة السحرية أو التعزيمية؟» فضول غير

ذي شأن. تُرّهات ذُكرت بشكل عابر ومحدود. لا شيء يدعو إلى القتل بسبب هذا الأمر على أيّ حال.

33

« إكراماً لروح شيشرون، هذا المساء، أقول لكم ذلك، يا أصدقائي، ستمطر السماء بقياس إضماري! أرى بعض المثقفين الذين قاموا بمراجعة أرسطو في هذا الشأن، وأعلم من يعرف أسلوب كينتيليان، ولكن هل سيكون ذلك كافياً للتغلب على كمائن وفِخاخ المصطلحات في سياق تعرج تركيب المفردات؟ نعيق نعيق، إنها روح كوراكس التي تتحدث إليكم. المجد للآباء المؤسسين! يفوز المنتصر، هذه الليلة، برحلة إلى سيراكيوز. أما المنهزمون... فسوف يقفون أمام الباب محصورين. هذا أفضل من اللغة... وتذكروا أن خطباء اليوم هم منبر الغد. المجد للعقل! يحيا نادي اللوغوس!»

34

يوجد سيمون وجاك بايارد في قاعة نصفها عبارة عن مختبر، والنصف الآخر مستودع أسلحة. أمامهم، رجل يرتدي معطفاً يفحص مسدس الرجل ذي الشارب الذي كان سيفجر دماغ سيمون. (هذا السلاح من نوع «ك» يعتقد سيمون.) خبير القذائف والرصاص، وهو يفحص السلاح، يعلق بصوت عال: «9 مم، 8 طلقات، مزدوج الوظيفة، صنع من الصلب، ذو لون برونزي، مقبض من خشب الجوز، الوزن 730 غ من دون الذخيرة.» يبدو مثل والتر ب. ب. ك، PPK ولكن ذراع الأمان معكوس: «إنه مسدس ماكاروف، مسدس سوفياتي. إلا إذا...»

يقول الخبير إن الأسلحة مثل القيثارات الكهربائية. فاندر، على سبيل المثال، شركة أمريكية تنتج قيثارة تيلي كاستر التي يستخدمها الموسيقي كايت ريتشاردز أو ستراتو كاستر التي استخدمها جيمي هندريكس، وتوجد أيضاً نماذج مكسيكية أو يابانية تم إنتاجها بموجب امتياز، هي نسخ طبق الأصل

من النسخة الأمريكية الأصلية، أرخص وأقل إتقاناً، على الرغم من أنه غالباً ما تكون تكلفتها غالية. هذا المسدس ماكاروف ليس صناعة روسية، بل بلغارية. هذا بلا شك سبب تعطله: الموديلات الروسية موثوق للغاية في فعاليتها، والنسخ البلغارية أقل فعالية.

«لكن، ستضحك، سيدي المفوض»، قال الخبير مشيراً إلى المظلة التي نُزعت من صدر الرجل ذي الشارب. هل ترون هذه الحفرة؟ « الضربة مجوفة. لها تأثير حقنة يتم تغذيتها بجهاز. يكفي الضغط على هذا الزناد المثبت على المقبض، ويُفتح صمام يطلق السائل السام باستخدام أسطوانة الهواء المضغوط. إن آلية الاشتغال بسيطة للغاية. إنها مماثلة لتلك التي استخدمت للقضاء على المعارض البلغاري جورجي ماركوف، قبل عامين، في لندن، هل تتذكر ذلك؟ في الحقيقة، يتذكر المفوض بايارد أن الجريمة نُسبت إلى المخابرات البلغارية. في ذلك الوقت، كانوا يستخدمون سم الريسين. لكن اليوم يستخدمون سُمّاً أقوى، توكسين البوتلينوم، الذي يعمل على تعطيل إرسال العصب العضلي. وبالتالي، يسبب شلل العضلات، ويؤدي إلى الوفاة في بضع دقائق عن طريق الاختناق أو توقف القلب.

بايارد، مستغرقاً في التفكير يلعب بآلية المظلة.

هل يعرف، عن طريق الصدفة، سيمون هرتسوغ بلغاريين في الوسط الجامعي؟ يفكر سيمون.

نعم، إنه يعرف أحد البلغاريين.

35

لقد تم الإبلاغ عن وصول ميشيل، بونياتوفسكي، وأورنانو، إلى مكتب الرئيس. يقف جيسكار، قلقاً، أمام النافذة، في الطابق الأول الذي يطل على حديقة الإليزيه. حين كان أورنانو يدخن، طلب منه جيسكار سيجارة. سكب بونياتوفسكي الذي جلس على أحد الكراسي الكبيرة، في زاوية من الصالة كأس من الويسكي وضعه أمامه على منضدة صغيرة. أخذ

بونياتوفسكي أولاً الكلمة: «كانت لي اتصالات لها علاقة بأندروبوف. لا يقول جيسكار أي شيء؛ لأنه مثل أي رجل سلطة وصل إلى هذا المستوى، يتوقع من معاونيه أن يقوموا بإعفائه من صياغة الأسئلة المهمة. لذلك، يجيب بونياتوفسكي عن السؤال المكتوم: «وفقاً لتصورهم، فإن ك. جي. بي، KGB غير متورطة».

جيسكار: «ما الذي يجعلك تعتقد أننا يمكن أن نعطي مصداقية لهذا الرأي؟»

بونيا: «العديد من العناصر. والعنصر الأكثر إقناعاً هو أنه لن يكون لديهم، في الوقت الراهن، أية نية لاستخدام هذه الوثيقة. أقصد على المستوى السياسي.»

جيسكار: «الدعاية عامل حاسم في تلك البلدان. يمكن أن تكون الوثيقة مفيدة جداً لهم.»

بونيا: «أشك في ذلك. لا يمكن القول إن بريجنيف عزز حرية التعبير كثيراً منذ أن خلف خروتشوف. لا توجد نقاشات في جمهورية الاتحاد السوفياتي الاشتراكي، وإذا كانت هناك نقاشات، فهي نقاشات داخل الحزب، لا يفضي بها إلى الشعب. وبالتالي، فإن المعيار ليس قوة الإقناع، بل التوازن السياسي للقوى.»

أورنانو: «يمكن للمرء أن يتصور جيّداً أن بريجنيف أو عضواً آخر في الحزب يرغب على وجه التحديد، في الاستفادة من الوثيقة على المستوى الداخلي للحزب. إن اللجنة المركزية هي وكر دبابير. وقد يكون لهذه الوثيقة شأن مهم.»

بونيا: «لا أستطيع أن أتخيل أن بريجينيف يرغب في تأكيد تفوقه بهذه الطريقة. ليس في حاجة إلى ذلك. لا وجود لمعارضة هناك. النظام مغلق. ولا يمكن لأي عضو آخر في اللجنة المركزية أن يرعى مثل هذه العملية لمصلحته الخاصة من دون أن يعلم بها جهاز الحزب.»

أورنانو: « باستثناء أندروبوف.»

بونيـا: (منزعجـاً): «أندروبوف هو رجل الظـل في الحزب. لديه الكثير من السـلطة بصفته رئيس جهاز الاسـتخبارات ك. جي. بي K.G.B.، أكثر من أي مركز آخر. لا أستوعب كيف يقدم على مغامرة سياسية.»

أورنانـو: (سـاخراً): «هـذا صحيح، إنه ليـس من طينة الرجـال الذين يمكثـون في الظل. تاليرند، وفوشي، لم يكن لديهما أي طموح سـياسي، وهذا معروف جداً.»

بونيا: «على أي حال، لم يحققوا هذه الطموحات.»

أورنانو: «وهذا أمر قابل للنقاش. في مؤتمر فيينا...»

جيسكار: «على أيّ حال! ماذا هناك أيضاً؟»

بونيـا: «يبدو من غير المرجح بتاتاً أن تكـون المخابرات البلغارية نفذت العمليـة مـن دون موافقة الأخ الأكـبر. من ناحية أخـرى، يمكننا أن نتصور عمـلاء بلغاريين باعـوا خدماتهم لمصالـح خاصة، والتي يتعـين علينا تحديد طبيعتها.»

أورنانو: «المخابرات البلغارية تلجم رجالها نوعاً ما؟»

بونيا: «الفساد متفشي، ولا يُعفى منه أيّ قطاع في المجتمع، والمخابرات ليست بمنأى عن ذلك؟»

أورنانـو: «أتقصد عملاء يقومون بمهـمات إضافية في أوقات فراغهم؟ بصراحة...»

بونيـا: «عمـلاء يشـتغلون لمصلحة جهـات متعددة، هل يبـدو لك هذا الأمر جديداً؟» (يشرب كأسه.)

جيسـكار: وهـو يطفئ سـيجارته في برنيق عاجي صغـير بمثابة منفضة للسجائر): «فليكن الأمر كذلك. هل ثمة شيء آخر؟»

بونيا: (يتمايل على كرسـيه ويداه خلف رقبته): «حسـناً، يبدو أن شـقيق كارتر هو عميل ليبي.»

جيسكار: (مندهشاً) «أيهما؟ هل بيلي؟»

بونيا: «مـن الظاهر أن أندروبوف حصل على هذه المعلومات من وكالة المخابرات المركزية CIA. ويبدو أن هذا الأمر جعله يضحك كثيراً».

أورنانـو (وقد عـاد إلى التركيز في النقاش): «مـاذا نفعل إذن؟ يجب أن نتخلص من هذه القضية، من اللازم وضع حد لهذه الشكوك؟»

بونيـا: «لا يحتاج الرئيس إلى هذه الوثيقـة. إنه بحاجة فقط إلى معرفة أن الخصم المعارض ليست بحوزته.»

لم يـشر أي أحد، عـلى حد علمي، أن اللثغ الشـهير لجيسـكار هو تأكيد لحـالات الانزعاج أو السرور. يقول: «طبعـاً، طبعاً... لكن لو أمكننا العثور عليها... على الأقل تحديد مكانها، وإذا أمكن اسـتردادها، فسـأكون في سلام أكثر. لمصلحة فرنسـا. تخيلـوا لو أن هذه الوثيقة وقعـت، احم، في أيدي غير آمنة... ليس ذلك فحسب... ولكن في نهاية المطاف.»

بونيـا: « إذن علينا أن نوضح أهميتها للمفوض بايارد: اسـتعادة الوثيقة من دون أن يقرأها أحد. دعونا لا ننسى أن أستاذ اللسانيات الشاب سيمون الذي اسـتعان بايارد بخدماته قادر على فك شيفراتها، وبالتالي، استخدامها. وإلا علينـا التأكد من إتلاف جميع نسـخها.(ينهض ويتجه نحو الباب، وهو يتمتم.) إنه يساري. حتماً يساري ...»

أورنانـو: « لكـن كيـف نعرف مـا إذا كانـت الوثيقة قد تم اسـتخدامها بالفعل؟»

بونيا: «حسـب معلوماتي، لو أن شخصاً ما اسـتخدمها، لأدرك الجميع نتائجها بسرعة كبيرة...»

أورنانـو: « لكن مـاذا لو كان متحفظـاً؟ ماذا لو توارى عـن الأنظار؟» جيسـكار (متكئـاً عـلى البوفيه تحت لوحة دلاكـروا، وهو يعبـث بميداليات وسـام جوقة الشرف المرتبة في صندوق): «يبـدو أن هذا أمراً غير محتمل، إن سلطة ما، أيّا كان نوعها، تهدف إلى ممارسة نفوذها.»

أورنانو: (بفضول): «هل هذا ينطبق على القنبلة الذرية؟»

جيسكار: (بنبرة متحذلقة): « خصوصاً القنبلة الذرية.»

إن استحضار نهاية محتملة للعالم يُغرق الرئيس للحظة في أحلام يقظة خفيفة. يفكر في الطريق اليسار 71 الذي يجب أن يعبر منطقة أوفيرن، في مبنى بلدية شاماليير، وفي فرنسا التي يتحمل مسؤوليتها. ينتظر معاونيه باحترام أن يأخذوا الكلمة للحديث. « في انتظار ذلك، يجب أن يتحكم هدف واحد في جميع أعمالنا: منع اليسار من الوصول إلى السلطة.»

بونيا (مستنشقاً زجاجة فودكا): «وأنا على قيد الحياة، لن يكون ثمة وزراء شيوعيون في فرنسا.»

أورنانو: (يشعل سيجارة): «في الحقيقة، يستحسن أن تتمهل، إذا كنتَ تريد أن تجتاز الانتخابات الرئاسية.»

بونيا: (يرفع كأسه): «نازدروفي! بصحتك!»

36

«أيها الرفيق كريستوف، هل تعلم، بالطبع، من هو أعظم سياسي في القرن العشرين؟» لم يتم استدعاء إيميل كريستوف إلى مبنى جهاز الاستخبارات السوفياتية لوبيانكا، لكنه كان يرغب في ذلك.

«بالطبع، الرفيق يوري فلاديميروفيتش. إنه جورجي ديمتروف.»

إن الطابع غير الرسمي الزائف لاجتماعه مع يوري أندروبوف، مدير المخابرات السوفياتية، في حانة قديمة في الطابق السفلي، كما هو حال جميع الحانات في موسكو، لا تطمئنه، وكونهما في مكان عام لا يغير في الأمر شيئاً. يمكن أن يتم القبض على المرء في مكان عام؛ بل وحتى أن يموت هناك أيضاً. إنه يحظى بمكانة مهمة لمعرفة هذه الحقائق.

«إنه بلغاري.» يضحك أندروبوف. من كان يصدق ذلك؟ وضع النادل كأسين صغيرين من الفودكا وكوبين كبيرين من عصير البرتقال على الطاولة، مع قطع كبيرة من الخيار المخلل في طبق صغير، ويتساءل كريستوف، إذا كان

هذا النادل أحد المخبرين في الاستخبارات. حوله، يدخن الناس ويشربون، ويتحدثون بصوت عالٍ، وهذه هي القاعدة الأساسية، عندما تريد التأكد من أن المحادثة لن يتم الاستماع إليها: المكوث في مكان صاخب، يعج بضوضاء عشوائي، حيث لا يمكن لميكروفون محتمل أن يعزل صوتاً محدداً على وجه الخصوص. لو كان يتواجد في شقة، لوجب عليه أن يطلق حنفية المياه للتشويش على التقاط الأصوات. يتناول المزيد من المشروبات، وينظر في وجوه الزبناء. يتعرف كريستوف على الأقل على عميلين في القاعة، لكنه يفترض أن هناك المزيد.

يلح أندروبوف على ديميتروف: «هذا جنون كما لو أن كل شيء مكتوب منذ وقت مبكر من عام 1933، خلال محاكمة حريق الرايخستاغ. المواجهة بين غورينغ، الذي تم استدعاؤه كشاهد، وديميتروف، في قفص الاتهام، تبشر وتمثل العدوان الفاشي القادم، والمقاومة البطولية للشيوعيين وانتصارنا النهائي. لهذه المحاكمة رمزية كبرى عن التفوق الشيوعي من جميع وجهات النظر، السياسية والأخلاقية. يتقن ديميتروف تماماً، بلهجته الإمبراطورية الساخرة، الجدل التاريخي، حتى وهو يغامر بحياته، في مواجهة غورينغ المعروف بشتائمه، وهو يهز قبضته... يا له من مشهد! غورينغ، رئيس جهاز الرايخستاغ، رئيس الوزراء ووزير الداخلية في بروسيا، هل هذا كل شيء. لكن ديميتروف يقلب الأدوار، وغورينغ هو الذي يجب عليه أن يرد على أسئلته. يسقطه ديميتروف من عليائه. يبدو غورينغ مجنوناً من شدة الغضب، يرتجف ويتصرف كطفل حُرم من الحلوى. في المكان المقابل له، في هيأته الإمبراطورية في قفص الاتهام، يعرض ديميتروف أمام أنظار الجميع جنون النازيين. حتى رئيس المحكمة بنفسه أقرّ بذلك. إنه لأمر مضحك للغاية أن يطلب من ديميتروف غفران سلوك غورينغ الكبير». قال له، أتذكر كما لو كان بالأمس فقط: «بما أنك منخرط في الدعاية الشيوعية، فلا يجب أن تُفاجأ إذا كان الشاهد مضطرباً للغاية.» مضطرباً! وأجاب ديميتروف بأنه راضٍ تماماً عن رد رئيس الوزراء. «ها ها! يا له من رجل! يا لها من موهبة!»

يـرى كريسـتوف تلميحات وخطابـات مضمرة ومبهمـة في كل مكان، لكنـه يحـاول تصحيح الأمـور؛ لأنه يعلـم أن درجة البارانويـا لديه تمنعه من تقييم كلمات زعيم جهاز الاستخبارات ك. جي. بي KGB بشكل صحيح. ومـع ذلك، فإن دعوته إلى موسـكو هي في حد ذاتها مـؤشر لا جدال فيه عن ذلك. لا يتسـاءل عما إذا كان أندروبوف يعرف شـيئاً ما. يتسـاءل عما يعرفه. هذه مسألة أكثر تعقيداً للتعامل معها.

«في تلك الأيام، في جميع أنحاء العالم، كان الناس يقولون لم يبقَ في ألمانيا سـوى رجل واحد، وهذا الرجل بلغاري.» كنت أعرفه، كما تعلم، يا إميل، إنه خطيب بليغ بالفطرة. إنه أستاذ.»

بينما كان يسـتمع إلى أندروبوف الذي يثني على ديميتروف العظيم، كان يقيّم الرفيق كريسـتوف وضعه الخاص. لا يوجد شيء أكثر إزعاجاً لشخص على وشـك الكذب من تجاهل مسـتوى معلومات محاوره. في لحظة زمنية أو أخرى، يعرف أنه سيضطر إلى المراهنة.

وحانت هذه اللحظة: أندروبوف، وهو يطوي ملف ديميتروف، يسـأل نظـيره البلغاري للحصول عـلى تفاصيل توضيحية حول آخـر التقارير التي وصلـت إلى مكتبه في مبنى الاسـتخبارات في لوبيانكا. على ماذا تنطوي هذه العملية بالضبط في باريس؟

ها قد بدأنا. يشـعر كريسـتوف بتسـارع نبضات قلبه، لكنه يحرص على عدم التنفس بشـكل أقوى. قضم أندروبوف قطعـة من الخيار المخلل. يجب أن يقرر الآن. إما أن يتحمل مسـؤولية العملية، أو يتظاهر بأنه لا يعلم شيئاً، لكن هذا الخيار الثاني له سـلبيات تكشـف عن انعدام كفاءة المرء، وهو ليس حساباً جيداً في أوسـاط أجهزة الاستخبارات. يعرف كريستوف جيداً كيف تؤثـر الكذبة المدروسـة: يجـب إغراقها في بحر من الحقيقة. الاعتراف بنسـبة 90 ٪ يسـمح من ناحية بإضفاء المصداقية على نسـبة ٪ 10 التي يسـعى المرء إلى إخفائهـا، ومن ناحية أخرى، فإنه يقلل من خطر مغالطة نفسـه. يكسـب الوقـت ويتجنب الخلـط. عندما يكذب المـرء، عليه أن يكذب حول مسـألة

واحدة، مسألة واحدة فقط، وأن يكون صادقاً تماماً في كل شيء آخر. ينحني إيميل كريستوف على أندروبوف ويقول: «الرفيق يوري، هل تعرف رومان جاكسون؟ إنه مواطنك. لقد كتب أشياء جميلة جداً عن بودلير».

37

عزيزتي جيلينكا،

لقد عدت الأمس من موسكو، مرت زيارتي بشكل جيد، هذا على الأقل ما أعتقده. على أيّ حال، لقد عدت. لقد شربنا كثيراً مع العجوز. لقد كان ودوداً وبدا ثملاً في نهاية السهرة، لكنني لم أصدق أنه كان كذلك. أنا أيضاً تظاهرت أحياناً بأنني في حالة سكر لكسب ثقة الناس، أو تخفيض درجة حذرهم. لكنني، كما قد تتصورين لم أخفض من مستوى حذري. أخبرته بكل ما يريد معرفته ما عدا، بطبيعة الحال، الحديث عنك. أخبرته بأنني لم أؤمن بسلطة المخطوط، ولهذا لم أبلغه بالمهمة في باريس؛ لأنني كنت أريد التأكد أولاً. ولكن بما أن البعض في أجهزة استعلاماتي كانوا يؤمنون بسلطته، وقطعاً للشك أرسلت بعض العملاء، وقلت إنهم كانوا متحمسين للغاية. يقال إن دوائر الاستخبارات الفرنسية تحقق في الوقت الحالي، ولكن يبدو أن جيسكار يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. ربما يكون بوسعك استخدام علاقات زوجك لمعرفة ذلك؟ على أيّ حال، يجب أن تكوني حذرة للغاية، والآن والرجل العجوز يراقبني، فلن يكون بمقدوري إرسال المزيد من الرجال إليك.

لقد وصل سائق الشاحنة، والطبيب المزيف الذي أعطاك الوثيقة أيضاً. لن يتمكن الفرنسيون من العثور عليهم أبداً. إنهم يأخذون إجازة في شواطئ البحر الأسود، وهم الوحيدون الذين يمكن أن يعودوا إليك بعد موت العميلين الآخرين اللذين لقيا حتفهما، والآخر الذي بقي لمراقبة التحقيق. أعلم أنه مصاب لكنه صلب، يمكنك الاعتماد عليه. إذا عثرت الشرطة على شيء ما، فسوف يعرف كيف يتصرف. دعني أقدم لكِ نصيحة.

يجب أن تحتفظين بهذه الوثيقة في أرشيف. لقد تعودنا، نحن الآخرين، أن نحفظ ونخفي وثيقة ثمينة لا يمكننا تحمل ثمن خسارتها، والتي لا يجب إفشاء محتواها بأي ثمن. يجب أن تطبعي منها نسخة، نسخة واحدة فقط. وأن تعطيها لشخص جدير بالثقة يتجاهل مضمون الوثيقة. النسخة الأصلية يجب الاحتفاظ بها معك.

وأيضاً شيء آخر، احذري من اليابانيين.

هذه بعض النصائح، عزيزتي جيلينكا، استفيدي منها. آمل أن تكوني بخير، وأن يسير كل شيء كما هو مخطط له، على الرغم من أني أعلم، بفعل التجربة، أن لا شيء يسير أبداً كما هو مخطط له.

والدك العجوز الذي يسهر على رعايتك،

تاتكو

ملاحظة: أجيبني باللغة الفرنسية، إنها الأكثر أماناً والتعامل بها يجعلني أتدرب على الإلمام بها.»

38

توجد إقامات سكنية وظيفية في المدرسة العليا للأساتذة خلف مبنى البانتيون. نتواجد في شقة كبيرة، والرجل ذو الشعر الأبيض، والعينان المفتوحتان، قال منهكاً:

« أنا وحدي.

- أين هيلين؟

- لا أعرف. لقد تشاجرنا أيضاً. لقد أصيبت بنوبة فظيعة لسبب سخيف. أو أيضاً، أنا السبب.

- نحن بحاجة إليك، هل يمكنك الاحتفاظ بهذه الوثيقة؟ لا يجب أن تفتحها، ولا يجب أن تقرأها، ولا يجب أن تخبر أحداً بشأنها، حتى هيلين.

- حسناً.»

مـن الصعـب تخيـل ما تفكـر به كريسـتيفا بخصـوص سـوليرز في عام 1980. أن يتمكـن تأنقـه التاريخي، خلاعته في الرقـص في الحانات، تبجحه المرضي، أسلوبه الهجائي المتطفل وثقافته البرجوازية القذرة من إغراء الشابة البلغاريـة التـي رحلـت، حديثـاً من أوروبـا الشرقيـة في السـتينيات، دعونا نعترف بهذا. بعد خمسـة عشرة عاماً، قد يفترض المرء أنها أقل افتتاناً به الآن، ولكـن مـن يدري؟ ما يبدو واضحاً هو أن ارتباطهم قوي، لقد نجح بشـكل مثالي منذ البداية ولا زال مسـتمراً في النجاح والتألق: فريق موحد، حيث تم توزيع الأدوار بشـكل جيد. يكمن دوره في الإغراء عن طريق الاسـتعراض المتعاظم، وغنج الحياة الاجتماعية وكل الأشياء التهريجية. أما دورها، فالسحر السـلافي السـام، الجليدي، البنيـوي، أسرار عـالم الجامعـة في إدارة المثقفين، القضايا التقنية والمؤسسـية، وحسـب الاقتضـاء، البيروقراطية في صعودهم الاجتماعـي. (هو لا يعرف كيف يملأ صك بريدي. تقول الأسـطورة.) هما معاً، يمتلكان آلة حرب سياسية في طريقها لتعمل، في القرن الموالي، على تأليه مهنة مثالية: عندما تقبل كريسـتيفا تسـلم وسام جوقة الشرف من يد الرئيس نيكولا ساركوزي، فإن زوجها سوليرز الذي كان حاضراً، في الحفل لم يفوت فرصة السـخرية من الرئيس الذي نطق «بارثيس» بدلاً من «بارت» شرطي صالـح، شرطـي سيء، إن شر النفـاق ما داخلته أسـباب الفضيلـة. في وقت لاحق سـيرفع فرنسوا هولاند كريستيفا إلى رتبة قائد. يرحل الرؤساء ويبقى المتوجون بالأوسمة.

ثنائي جهنمي، زوجان سياسيان: لنتذكر هذا في الوقت الحالي.

عندمـا فتحـت كريسـتيفا البـاب ولاحظت أن ألتوسـير قد جـاء برفقة زوجته، لم تسـتطع أو لم ترغب في كبت تكشـيرة استياء وبالمقابل، فإن هيلين، زوجة ألتوسـير، التي تدرك تماماً الاعتبار الذي يوليه لها هؤلاء الناس الذين جاءت إلى منزلهم هذا المسـاء، ابتسـمت ابتسـامة ماكرة، الكراهيـة الغريزية بـين امرأتين انحـصرت بينهما في شـكل من أشـكال العلاقـات الاجتماعية.

ألتوسير، من جهة، يرتدي قناع طفل مذنب، وهو يمد باقة ورد صغيرة. هرعت كريستيفا لوضع الزهور في حوض الغسيل، سوليرز، وقد انتشى بالشراب يرحب بالوافدين، وهو يهتف بعبارات متصنعة: «ولكن كيف، أصدقائي الأعزاء، كنّا في انتظاركم فقط... للجلوس لتناول الطعام... عزيزي لويس، شراب مارتيني... كالعادة؟ نبيذ أحمر! مرحباً!... هيلين... ما الذي يعجبك؟ ... أعرف شراب بلودي ماري!... مرحباً!... جوليا... هل أحضرت الكرفس... عزيزتي؟ لويس! كيف حال الحزب؟؟»

تراقب هيلين الضيوف الآخرين مثل عجوز خائفة، ولم تتعرف على أي شخص باستثناء برنار هنري ليفي الذي شاهدته على شاشة التلفزيون وجاك لاكان الذي جاء مع امرأة شابة طويلة ترتدي بدلة سوداء من الجلد. قام سوليرز بتقديم الضيوف لبعضهم البعض، بينما كانوا يجلسون، لكن هيلين لا تهتم بتذكر الأسماء: زوجان شابان من نيويورك في ملابس رياضية، صينية ملحقة بالسفارة أو فنانة أرجوحة في سيرك بكين، ناشر باريسي، ناقدة نسوية كندية، وعالم لسانيات بلغاري. «طليعة البروليتاريا» تضحك هيلين هازئة في سريرة نفسها.

بالكاد جلس الضيوف حتى بدأ سوليرز، المتملق، نقاشاً حول بولندا: «هذا موضوع خالد!... اتحاد النقابات المتضامن، المناضل جاريزلسكي، أجل، أجل... من الشاعر آدم ميكوفيتش إلى الرئيس ليخ فاونسا، إلى الكاهن فوتيالا... يمكننا التحدث عن ذلك لمائة عام، لألف سنة، سترزح بولندا للأبد تحت نير روسيا... هذا أمر مريح... سيجعل هذا الأمر محادثاتنا خالدة... وعندما لا تكون روسيا، فإن ألمانيا ستكون حاضرة، بالطبع؟ هيّا هيّا، يا رفاق... الموت من أجل غدانسك... الموت من أجل دانزيغ... يا له من تحفيز رائع... كيف تقولون من قبل؟ ... آه، أجل: الأمر أكثر أخلاقية...»

الاستفزاز موجه إلى ألتوسير، لكن الفيلسوف العجوز يغمس شفتيه بعين مغمضة في شراب مارتيني كما لو كان سيُغطس بداخله، لذا أجابت هيلين بشجاعة الحيوانات البرية الصغيرة، في مكانه: «أتفهّم قلقك تجاه

الشعب البولندي: لم يرسلوا على ما أعتقد، أيّ أحد من أفراد عائلتك إلى معسكر أوشفيتز»، وبينما تردد سوليرز في الاستمرار لثانية (ثانية واحدة فقط) إثارة الاستفزاز إزاء اليهود، قررت هيلين أن ترمي بكل أوراقها: «لكن هل تحب هذا البابا الجديد؟ (غطست وجهها في طبقها) لم يخطر ببالي هذا الأمر. (تشدد من نبرة صوتها الشعبية). يبسط سوليرز ذراعيه كما لو كان يرفرف بجناحيه، ويعلن بحماس: «يتناسب هذا البابا تماماً مع ذوقي! (يقضم نبات الهليون). أليس من الرائع عندما نزل من طائرته قبّل الأرض التي ترحب به؟ ... كيفما كان البلد، يركع البابا على ركبتيه، مثل عاهرة رائعة تستعد لابتلاعك، ويقبّل الأرض... (لوّح بنصف قطعة من الهليون). هذا البابا مضاجع، ماذا تريدين أكثر ...كيف لا أحبه؟».

ضحك الزوجان النيويوركيان سويا، أطلق لاكان صرخة صغيرة كالعصفور، وهو يرفع يده، لكنه رفض الحديث في الموضوع. تساءلت هيلين، التي تعرف ماذا تريد بالضبط، ككل شيوعي محنك، «ومن جهته هو، هل تعتقد أنه يحب المتحررين الخلاعيين؟ وفقاً لآخر الأخبار، فهو ليس منفتحاً جداً على الجنسانية (ألقت بنظرها نحو كريستيفا) أعني على المستوى السياسي.»

أطلق سوليرز ضحكة صاخبة تعلن عن استراتيجية اعتاد عليها تسعى إلى التأثير، انطلاقاً من نقطة البداية، في أي شيء لتغيير مسار الموضوع: «لأنه محاط بمستشارين سيئين... فضلاً عن ذلك، أنا على يقين أنه محاط بالمثليين... المثليون هم اليسوعيون الجدد... ولكن في هذه الأمور، فهم ليسوا بالضرورة أصحاب نصيحة صائبة... على الرغم من ... يبدو أن هناك مرضاً جديداً يقضي عليهم... قال الله: تناسلوا تكاثروا... الواقي... يا له من رجس!... الجنس، المطهر... الأجساد الخشنة التي تتوقف عن التلامس...أف، لم أستخدم الواقي الإنجليزي قط في حياتي... ومع ذلك أنت تعرفين نزعتي المحبة للإنجليز...أُلفّ قضيبي مثل شريحة لحم...أبداً لا...»

في هذه اللحظة استفاق ألتوسير:

«إذا كان الاتحاد السوفياتي قد هاجم بولندا، فقد كان ذلك لأسباب استراتيجية قصوى. كان من الضروري بأي ثمن منع هتلر من الاقتراب من الحدود الروسية. لقد استخدم ستالين بولندا كمنطقة عازلة: بالتموقع في الأراضي البولندية، يتحصّن ضد أي غزو قادم...»

تقول كريستيفا: «.... وهذه الاستراتيجية، كما يعلم الجميع، نجحت بشكل رائع». أضاف ألتوسير: «بعد ميونيخ أصبح الميثاق الألماني - السوفياتي ضرورة، ماذا أقول مسألة بديهية».

أصدر لاكان صوتاً كالبومة، سوليرز يشرب ثانية، هيلين وكريستيفا تحدقان في بعضهما البعض، ولازلنا لا نعرف ما إذا كانت الفتاة الصينية تتحدث الفرنسية، ولا كذلك عالم اللسانيات البلغاري والناقدة النسوية الكندية، ولا حتى الزوجان من نيويورك، حتى سألتهم كريستيفا، باللغة الفرنسية، إذا ما كانوا قد لعبوا التنس مؤخراً (لأنهم ثنائي شريك لهم في التنس، هذا ما نكتشفه، وتشير كريستيفا إلى لقائهم الأخير، حيث أظهرت قتالية مبهرة، جعلتها تتفاجأ من نفسها؛ لأنها لا تعرف كيف تلعب بشكل جيد أساساً، ورأت من الأجدر توضيح الأمر)؛ لكن سوليرز لم يدعهم يجيبون، دوماً سعيد بتغيير الموضوع:»آه، بورغ !... المسيح القادم من الصقيع... عندما جثا على ركبتيه على عشب ويمبلدون... بصليبه... وشعره الأشقر... وشريطه... ولحيته... إنه يسوع المسيح على العشب... إذا فاز بورغ ببطولة ويمبلدون، فذلك من أجل خلاص جميع البشر... فهناك الكثير من الأشياء، يجب القيام بها، يفوز كل سنة... لكن كم عدد الانتصارات التي يجب أن يحرزها ليكفّر عن ذنوبنا؟ خمسة انتصارات... عشرة... عشرون... خمسون... مئة... ألف انتصار...»

كنت أعتقد أنك تفضل ماك إينور، قال الشاب النيويوركي بلهجته النيويوركية:

«آه، ماك إينور... الرجل الذي تحب أن تكرهه... الراقص، ذلك اللاعب... ذو السلوك الشيطاني...عبثاً حاول أن يطير في الملعب... ماك

إينور، إنه إبليس...أجمل الملائكة... وإبليس يسقط دوماً في النهاية...»

بينما يشرع في تفسير توارثي، حيث يقارن القديس يوحنا مع ماك إينور (القديس يوحنا)، كريستيفا، بحجة رفع الطبق الأول من المائدة تختفي في المطبخ مع المرأة الصينية. تخلع عشيقة لاكان الشابة حذاءها تحت الطاولة، النسوية الكندية واللغوي البلغاري يتبادلان نظرات استفهام، يلعب ألتوسير بالزيتون مع شراب المارتيني. يضرب برنار هنري ليفي بقبضته على الطاولة، ويقول «يجب أن نتدخل في أفغانستان!»

تراقب هيلين الجميع.

تقول هيلين: «وليس التدخل في إيران؟» يضيف اللغوي البلغاري بشكل غامض: «التردد أم العجائب.» تبتسم النسوية الكندية. تعود كريستيفا مع المرأة الصينية بلحم الخروف المشوي. يقول ألتوسير: «لقد أخطأ الحزب في دعم غزو أفغانستان. لا يجوز غزو بلد بناء على بيان صحفي. السوفيات أكثر مكراً ودهاء، سوف ينسحبون.» يتساءل سوليرز ساخراً: «الحزب، كم عدد الانشقاقات؟» ينظر الناشر إلى ساعته، ويقول: «تأخرت فرنسا»، يبتسم سوليرز، وهو ينظر إلى هيلين، ويقول: «لا يكون المرء جاداً عندما يبلغ من العمر سبعين عاماً» تداعب عشيقة جاك لاكان بقدمها العارية فتحة بنطال برنار ليفي الذي انتعظ بلا تذمر.

انتقلت دفة المحادثة إلى رولان بارت. قدم الناشر تأبيناً غامضاً له. يوضح سوليرز: «لقد أعطاني العديد من المِثليّين، في لحظة أو أخرى، الانطباع الغريب نفسه، انطباع كائن يتآكل من الداخل...» أوضحت كريستيفا لجميع الضيوف البالغ عددهم أحد عشر: «تعلمون أننا كنا قريبين جداً من بعضنا البعض. كان رولان بارت يعشق فيليب و... (بدت متواضعة وغامضة بعض الشيء) لقد أحبني كثيراً»، ويضيف برنار هنري ليفي: «لم يكن من الممكن أبداً تحمل الماركسية اللينينية»، وقال الناشر: »لقد أحب بريشت رغم ذلك»، هيلين، بنبرة سامة: «وماذا عن الصين؟ كيف كان ينظر إليها؟» قطّب ألتوسير جبينه عابساً. رفعت المرأة الصينية رأسها. أجاب سوليرز مسترخياً:

«مملة، ولكن ليست أكثر من بقية العالم». اللغوي البلغاري الذي يعرفه جيّداً: «ما عدا اليابان»، تتذكر النسوية الكندية التي حصلت على شهادة الميتريز تحت إشرافه: «لقد كان بارت لطيفاً ومنعزلاً للغاية»، قال الناشر، بناء على اطلاع ودراية: «نعم، ولا. لقد كان يعرف كيف يحيط نفسه بالأشخاص... حين كان يرغب في ذلك. لقد كان يملك وسائل متعددة، على الرغم من كل شيء». هبطت عشيقة لاكان أكثر فأكثر لمسد خصيتي برنار هنري ليفي بطرف رجلها.

برنار هنري ليفي، غير منزعج: «من الرائع أن يكون لديك عاشق. ما يزال عليك معرفة كيفية الانفصال عنه. أنا، على سبيل المثال، في المدرسة العليا...» تقاطعه كريستيفا، وهي تضحك بحدة: «لماذا الفرنسيون مرتبطون جداً بحياتهم الدراسية؟ يبدو أنه لا يمكنهم البقاء لمدة ساعتين من دون التحدث عن ذلك. أعتقد أنهم من قدامى المحاربين». يؤكد الناشر: «هذا صحيح، في فرنسا، لدينا جميعاً حنين إلى المدرسة». سوليرز، متضايقاً: «يبقى بعض الناس هناك طوال حياتهم». لا يتفاعل ألتوسير. تهمهم هيلين بتذمر في سريرة نفسها ضد هوس البرجوازيين هذا في الانطلاق من حالتهم الخاصة على أنها قاعدة عامة، لم تكن تحب المدرسة، ولم تستمر فيها لفترة طويلة.

يرن جرس الباب، تنهض كريستيفا لتفتح. في الردهة، يمكن رؤيتها، وهي تتحدث مع رجل ذي شارب يرتدي ملابس متسخة. استمرت المحادثة أقل من دقيقة، ثم عادت لتجلس كما لو أن شيئاً لم يحدث، وهي تقول فقط (برزت لُكنتَها لبرهة): «عفواً، بعض الأشغال المملة. تخص عيادتي». تابع الناشر حديثه: «في فرنسا، يؤثر وزن نجاحنا الأكاديمي بشكل مفرط على نجاحنا الاجتماعي». يحدق اللغوي البلغاري في كريستيفا: «لكن لحسن الحظ، ليس هذا هو العامل الوحيد. أليس كذلك، جوليا؟» تجيبه كريستيفا بشيء ما باللغة البلغارية. يبدأ كلاهما في التحدث بلغتهما الأصلية، عبارات مختصرة، يتحدثان بصوت منخفض. في الجو السائد، إذا كان ثمة عداوة بينهما، فلن يتمكن الضيوف الآخرون من اكتشافها. يتدخل سوليرز: «هيا يا

أطفال، لا، للقداسات السرية، ها ها...» ثم يخاطب النسوية الكندية: «إذن، يا عزيزتي، هل اقتربت من إنهاء روايتك؟ أتفق مع أراغون، كما تعلمين، المرأة هي مستقبل الرجل... وبالتالي، مستقبل الأدب... بما أن المرأة هي الموت... والأدب دائماً في جانب الموت...»، وبينما يتأمل بوضوح سوليرز الكندية تنزع قبعتها، طلب من كريستيفا إذا كانت قادرة على جلب التحلية. تنهض كريستيفا، وتبدأ في تنظيف المائدة، تساعدها المرأة الصينية، وبينما يختفيان مرة أخرى في المطبخ، يُخرج الناشر سيجاراً يقطعه إلى لفائف بسكين الخبز. تستمر عشيقة جاك لاكان في الالتواء على كرسيها. يمسك الأمريكي النيويوركي بهدوء بيد زوجته ويبتسمان بأدب. يتخيل سوليرز خطة رباعية مع الكندية ومضارب التنس. يقول برنار هنري لفي، الذي انتعظ مثل غزال، إنه في المرة القادمة يجب أن ندعو الكاتب الروسي سولجينستين. تشتم هيلين ألتوسير: «أيها القذر! لقد تلطخت!» تمسح قميصه بمنشفة مبللة ببعض الماء الفوار. يغني لاكان بصوت منخفض أحد أنواع أغاني الأطفال اليهودية. يتظاهر الجميع بعدم ملاحظة أي شيء. في المطبخ، تمسك كريستيفا المرأة الصينية من الخصر. يقول برنار هنري ليفي لسوليرز: «عندما نتأمل ملياً، في الأمر، فيليب، أنتَ أقوى من سارتر: ستاليني، ماوي، بابوي.... يقولون إنه كان مخطئاً على الدوام، لكن أنتَ!... تغير رأيك بسرعة قبل فوات الأوان لكي لا تقع في الخطأ.» يثبت سوليرز سيجارة في المبسم. يغمغم لاكان: «سارتر، لا وجود له»، يتابع هنري ليفي: «أنا، في كتابي القادم...» يقاطعه سوليرز: «يقول سارتر أن كل مناهض للشيوعية فهو كلب ...أنا أقول إن كل مناهض للكاثوليكية فهو كلب...من جهة أخرى، الأمر في غاية البساطة، لا يوجد يهودي صالح لم يحاول اعتناق الكاثوليكية... أليس كذلك؟ عزيزتي، هل تحضري لنا التحلية؟...» من المطبخ، تجيب كريستيفا بصوت مكتوم أنها قادمة.

يخبر الناشر سوليرز أنه ربما سينشر عمل للكاتبة هيلين سيزو. يجيب سوليرز: «ذاك البائس دريدا... ليست هيلين سيزور من ستبهجه ... هاها....» يود هنري ليفي أن يوضح ثانية: «لدي الكثير من المودة إزاء دريدا.

كان أستاذي في المدرسة... معك، عزيزي لويس، لكنه ليس فيلسوفاً. من الفلاسفة الفرنسيين الذين لا يزالون على قيد الحياة، لا أعرف سوى ثلاثة: سارتر، ليفيناس، وألتوسير»، لم يتفاعل ألتوسير مع هذا الإطراء. تخفي هيلين حنقها الشديد. يسأل الأمريكي: «وبيير بورديو، أليس فيلسوفاً متميزاً؟ يرد هنري ليفي إنه خريج المدرسة العليا للأساتذة، لكنه بالتأكيد ليس فيلسوفاً. يوضح الناشر للأمريكي أن بورديو هو عالم اجتماع يشتغل كثيراً على اللامساواة اللامرئية، ورأس المال الثقافي، والاجتماعي، والرمزي... يتثاءب سوليرز ظاهرياً: «إنه مزعج للغاية... مفاهيمه عن الهابتوس habitus... أجل، لسنا جميعاً متساويين، نبأ عظيم! حسناً! سأفضي لك بسرّ... صمتاً... اقترب...لقد كان الأمر دوماً على هذا النحو، ولن يتغير أبداً... أمر لا يصدق، أليس كذلك؟...»

يستشيط سوليرز غضباً: «العجرفة! العجرفة! الفنان التجريدي! سريعاً!... نحن لسنا إلزا وأراغون، ولا أكثر من سارتر وسيمون دي بوفوار، هذا خطأ!... الزنا محادثة إجرامية... نعم... نعم... لطالما قمنا بذلك... الإلهام، هو دائماً ما ننساه... هنا. الآن. حقاً هنا... حقاً الآن... غالباً ما تكون الموضة حقيقية...» يجول بنظره من الكندية إلى هيلين، ماذا عن القضية الماوية؟ كانت تسلية العصر ...الصين... الرومانسية... حدث لي أن كتبت أشياء تلهب المشاعر، هذا صحيح، فأنا ملقن كبير... الأفضل في البلد...»

جاك لاكان غافل عما يجري، لا تزال قدم عشيقته تداعب فخد برنار هنري ليفي، ينتظر الناشر أن يمر هذا المشهد، تشعر الكندية والبلغاري أنهما مرتبطان بفعل تضامن صامت. تتحمل هيلين بغضب صامت مونولوج الكاتب الفرنسي الكبير. يشعر ألتوسير بشيء خطير يضطرم بداخله.

عادت كريستيفا والفتاة الصينية أخيراً بفطيرة مشمش، وكعكة الكلافوتيس، وأحمر الشفاه الذي وضعاه منذ قليل يومض بضوء لامع. تسأل الكندية كيف ينظر الفرنسيون إلى انتخابات العام المقبل. يضحك

سـوليرز: «فرنسـوا ميـتران لديه قَـدَر ينتظره: الهزيمـة... سـيعيش قَدَره إلى النهاية....» هيلين التي تسـارع دوماً إلى التذكير، سألته: «أنتَ الذي تناولت الغداء مع جيسكار، كيف هو؟»

– مـن هو جيسـكار؟ إنـه نهاية عـرق زائف... هـل تعلم أن جسـياته مستمدة من زوجته أليس كذلك؟... كان عزيزنا بارت على صواب...حين قال إنه فصيلة البرجوازي

الناجح للغاية... آه، لن نكون بمأمن عن حركة جديدة في مايو 68، إذا كنا لا نزال نعيش بعقلية 1968....

– البنايات...في الشارع... يهمس جاك لاكان، منهكاً.

– قـال الأمريكـي: « في بلادنـا، صورته هـي صورة نبيل أرسـتقراطي لامـع، ديناميكي وطموح. لكنه لم يترك أثراً كبيراً على المسـتوى الدولي حتى الآن.

– لم يقصف فيتنام، هذا أمر مؤكد، صر ألتوسـير بأسـنانه، وهو يمسـح فمه.

– ومع ذلك تدخل في الزايير، قال هنري ليفي، ثم إنه يحب أوروبا.

– وهو الأمر الذي يعيدنا إلى قضية بولندا، قالت كريستيفا.

– آه، كلاّ، انتهينـا اليـوم، مـن أمر بولندا! قال سـوليرز، وهو يسـحب مبسم سيجارته.

– أجـل، يمكننـا الحديث عـن تيمور الشرقيـة، على سـبيل المثال قالت هيلـين، هذا يغير الموضوع. لم أسـمع الحكومة الفرنسـية تديـن المجازر التي ارتكبتها أندونيسيا.

– مـا رأيكـم، قـال ألتوسـير، الذي ظهر مـرة أخرى بنشـاط جديد: في دولة تتكون من 130 مليون نسمة، وسوق ضخمة، وحليف مميز للولايات المتحدة في منطقة من العالم، لا تملك فيها الكثير من الحلفاء، أليس كذلك؟

– قالت المرأة الأمريكية وهي تنهي كعكة الكلافوتيس، هذا لذيذ.

- زجاجة كونياك أخرى، أيها السادة؟ قال سوليرز.

الشابة التي تواصل مداعبة خصيتي برنار هنري ليفي سألت فجأة من هو تشارلي الذي يتحدث عنه الجميع في سانت جيرمان: ابتسم سوليرز: «إنه اليهودي الأكثر إثارة للاهتمام في العالم، يا عزيزتي، أيضاً لوطي آخر، بالمناسبة...»

تقول الكندية بدورها إنها تحب أن تشرب الكونياك. يقدم لها اللغوي البلغاري سيجارة تشعلها بضوء الشمعة. تعبث قطة المنزل برجل الفتاة الصينية. ذكر أحد الضيوف الفيلسوفة سيمون فايل، تكرهها هيلين، لذلك يدافع عنها سوليرز. يعتقد الزوجان الأمريكيان أن كارتر سوف يمر إلى الدور الثاني. بدأ ألتوسير في مغازلة الفتاة الصينية. أشعل لاكان إحدى سجائره الشهيرة. يتحدثون عن كرة القدم وعن الشاب بلاتيني الذي يتفق الجميع على أنه لاعب واعد.

شارفت السهرة على نهايتها. ستعود عشيقة لاكان برفقة برنار هنري ليفي. سيرافق اللغوي البلغاري النسوية الكندية. وستعود الفتاة الصينية بمفردها إلى وفدها. سوف ينام سوليرز، وهو يحلم في العربدة الجنسية التي لم تحدث. يبدي لاكان، فجأة، هذه الملاحظة، بنبرة تنم عن منتهى التعب: «من الغريب كيف يمكن لامرأة، حين تكف عن كونها إنسانة، يمكن أن تحطم الرجل الذي في حوزتها وتسحقه... تحطمه وتسحقه، نعم، أعني من أجل مصلحتها، بطبيعة الحال.» ساد صمت أحرج الضيوف الآخرون. قال سوليرز: «الملك هو من تؤثر فيه تجربة الإخصاء الأشد إيلاماً.»

40

يجب توضيح قصة الأصابع المقطوعة هذه، وقرر بايارد ملاحقة الشرطي الذي أطلق النار على البلغاري في الجسر الجديد، ولكن بما أن لديه انطباعاً مزعجاً بأن الشرطة مخترقة من قبل عدو يجهل هويته الحقيقية وحتى طبيعته، فإنه لن يخاطب هيأةالتفتيش العامة، وطلب من سيمون تولي

مسؤولية التعقب. كالعادة، يعترض سيمون، لكنه هذه المرة يعتقد أن لديه اعتراضاً وجيهاً: لقد التقى به الشرطي ذو الأصبع المقطوع في الجسر الجديد، كان سيمون مع عناصر الشرطة الآخرين، حين قفز بايارد إلى الماء وشوهدوا معاً، وهم يناقشون بعد خروجه من الماء.

وعلى الرغم من ذلك، يمكن للمرء التخفي.

كيف يمكن هذا؟

سنقوم بقص شعرك وترتدي ملابس بالية كطالب متأخر في دراسته. هذه المرة، الأمر لا يطاق، إنه متصالح مع نفسه بهذه الشاكلة، سيمون حازم هذه المرة: هذا أمر غير وارد على الإطلاق.

بايارد، الذي يعرف الوظيفة العمومية، تحدث عن قضية الانتقالات الشائكة. ماذا يمكن أن يصبح الشاب سيمون (مازال صغيراً من جهة أخرى، كم عمره؟)، عندما ينهي أطروحته؟ يمكن أن نجد له وظيفة في كوليج بوبيني. أو ربما يمكن تسهيل ترسيمه في جامعة فينسين؟

يعتقد سيمون أن الأمور لا تسير على هذا النحو في وزارة التربية الوطنية، وأن توصية من جيسكار شخصياً (من جيسكار!) لن تجدي نفعاً للحصول على منصب في فينسين (كلية دولوز، وباليبار!) لكنه ليس متأكداً تماماً من الأمر. بالمقابل، من المؤكد أن انتقالا نظاميا ممكن تماماً. لذلك يذهب سيمون عند مصفف شعر، يقص شعره، تقطيع قصير جعله يشعر بالانزعاج، عندما تأمل النتيجة وما آلت إليه هيأته، كما لو كان غريباً عن نفسه، يتعرف على وجهه لكن ليس على الهوية التي بناها بنفسه، من دون أن يدرك ذلك، عاماً بعد عام، وقبل أن يدفع وزير الداخلية ثمن البدلة وربطة العنق. البدلة، على الرغم من ثمنها المعقول، لا تبدو رخيصة، لا محالة كبيرة جداً على الكتفين، وقصيرة في الكاحلين، ويجب على سيمون ليس فقط تعلم عقد ربطة العنق، بل يتوخى الدقة حتى لا يتداخل الجانب الكبير مع الجانب الصغير. ومع ذلك، بمجرد اكتمال تحوله، تفاجأ وهو يحس أمام المرآة، بالإضافة إلى هذا الشعور الغريب الممزوج بالنفور، بنوع من الفضول، والاهتمام بهذه الصورة

عن نفسه، من دون أن يكون هو نفسه، هو، لحياة أخرى، هو بنفسه الذي سيقرر العمل في البنوك أو شركات التأمين، أو في هيأةرسمية، أو في السلك الدبلوماسي. ضبط سيمون بشكل غريزي عقدة ربطة عنقه، وتحت سترته، سحب أكمام قميصه. إنه مستعد للذهاب في مهمة: شيء ما في داخله، أكثر حساسية لمقترحات الوجود المرحة، جعله يحب بشغف هذه المغامرة.

ينتظر سيمون أمام رصيف المصوغات، حتى ينهي الشرطي ذو السلامى المقطوعة خدمته، يدخن سيجارة لاكي ستريك ستدفع فرنسا ثمنها؛ لأن الجانب الآخر الأجمل في هذه الخدمة المطلوبة هو أنه يحق له الحصول على ثمن النفقات التي يؤديها، لذلك احتفظ سيمون بإيصال متجر التبغ (ثلاثة فرنكات).

وأخيراً يظهر الشرطي، مرتدياً ثياباً مدنية، يبدأ سيمون التعقب، سيراً على الأقدام. يتبع الشرطي الذي يعبر جسر سانت ميشيل، ويصعد الجادة إلى أن يصل إلى مفترق الطرق في سانت جيرمان، حيث يستقل الحافلة. أوقف سيمون سيارة أجرة، وهو يتلفظ بهذه العبارة الغريبة « اتبع هذه الحافلة»، ينتابه شعور مضطرب، انطباع بأنه في فيلم ذي نظام غامض يشوش الذهن. ومع ذلك، يمتثل السائق من دون طرح أسئلة، وفي كل محطة، يتعين على سيمون التأكد من أن الشرطي الذي يرتدي ملابس مدنية لم ينزل. يتميز الرجل، وهو في منتصف العمر، ببنية جسدية عادية وقامة متوسطة، حيث يصعب التعرف عليه بسهولة وسط حشد من الناس، لذلك يجب أن يكون سيمون يقظاً، تسير الحافلة باتجاه شارع مونجي وينزل الرجل في سونسييه. يوقف سيمون سيارة الأجرة. يدخل الرجل إلى حانة. ينتظر سيمون دقيقة قبل أن يتبعه. في الداخل، جلس الرجل على طاولة في وسط القاعة. جلس سيمون بجانب الباب، وأدرك على الفور أنه ارتكب خطأ؛ لأن الرجل لا يكف عن النظر في اتجاهه. لا يعني أنه تعرف عليه؛ بل فقط لأنه ينتظر شخصاً ما. لتفادي جذب الانتباه، ينظر سيمون في اتجاه النافذة. يتأمل سيمون نشاط الطلبة الكثيف الذين يدخلون ويخرجون من الميترو، ويقفون وهم يدخنون

السجائر أو يتجمهرون، في حيرة من أمرهم أمام تعاقب الأحداث، سعداء بأن يكونوا معاً، وصبرهم قد نفذ في ترقب المستقبل.

ولكن فجأة، لم يكن الشخص الذي رآه سيمون يغادر المترو طالباً، بل البلغاري الذي كاد يقتله خلال مطاردته سيارة ستروين. يرتدي البدلة المجعدة نفسها، ولم يحلق شاربه. ألقى نظرة تفقدية في الساحة، ثم مشى في اتجاهه. يعرج، ينحني سيمون برأسه على قائمة الطعام. يفتح البلغاري باب المقهى، قام سيمون بحركة غريزية إلى الوراء، لكن البلغاري مرّ أمامه من دون أن يراه وتوجه إلى داخل القاعة ليلتحق بالشرطي.

يبدأ الرجلان محادثة بصوت منخفض. في هذه اللحظة قرر النادل أن يأتي ليرى ماذا يطلب سيمون. طلب المحقق المبتدئ شراب مارتيني من دون تفكير. يشعل البلغاري سيجارة ذات علامة تجارية أجنبية لم يتعرف عليها سيمون. يشعل سيمون أيضاً سيجارة لاكي ستريك، يدخن لتهدئة أعصابه، مقتنعاً بأن البلغاري لم يره، وأن لا أحد تعرف عليه؛ لأن تنكره يحميه. أو أن المقهى بأكمله اكتشف بدلته القصيرة جداً، وسترته الفضفاضة، وهيأته المشبوهة كأحد المحققين الهواة؟ ليس من الصعب، قال في نفسه، إدراك التناقض بين المظهر الذي تزين به والواقع العميق لكينونته. انتاب سيمون شعور فظيع، ربما يكون شعوراً مألوفاً، لكنه أكثر حدة هذه المرة، في كونه محتالاً على وشك اكتشاف أمره. طلب الرجلان البيرة. يبدو أنهما، في ضوء كل ما سبق من اعتبارات، لم يلاحظا سيمون، كما هو الحال إزاء دهشة سيمون، والزبناء الآخرين. حينئذ أعاد سيمون ترتيب أوراقه. يحاول الاستماع إلى المحادثة، مع التركيز على أصوات الرجلين، من خلال عزلها عن أصوات الزبناء الآخرين، مثل مهندس صوت يعزل صوت من بين أصوات الآلات موسيقية أخرى. يعتقد أنه سمع «ورقة» ...«سيناريو»...«اتصال».... «طالب» .... «جهاز».... «سيارررة».... ولكن ربما يكون قد وقع ضحية لعبة آلية اقتراح ذاتي، ربما يسمع ما يريد سماعه، ربما يبني بنفسه عناصر حواره؟ يعتقد أنه يسمع «صوفيا». يعتقد أنه يسمع «نادي اللوغوس.»

في هذه اللحظة، شعر بوجود شخص خلفه، انزلقت صورة أمامه، لم ينتبه إلى تيار الهواء الناجم عن باب المقهى، لكنه يسمع صوت كرسي يتم سحبه، يدير رأسه ويرى امرأة شابة تجلس على طاولته.

مبتسمة، شقراء، ذات وجنتين عاليتين، وبعبوس تقول له: «كنتَ مع الشرطي في مستشفى سالبيترير، أليس كذلك؟» من جديد، أصيب سيمون بالضيق. ألقى نظرة خاطفة داخل القاعة، لا يستطيع الرجلان، المنهمكان في المحادثة، سماعهما. تضيف، وهو يرتجف: «ذاك المسكين السيد رولان بارت.» لقد عرفها، إنها الممرضة ذات السيقان الرشيقة، الممرضة التي وجدت بارت قد أزيل عنه جهاز التنفس، في اليوم الذي جاء فيه سوليرز، برنار هنري ليفي، وكريستيفا لإحداث فوضى في المستشفى. قبل كل شيء، يقول في نفسه، إنها تعرفت عليه، مما خفف من حدة تفاؤله بشأن جودة تنكره، «لقد اغتم جداً»، تتحدث بلكنة خفيفة لكن سيمون اكتشفها «هل أنت بلغارية؟» اندهشت المرأة الشابة. لديها عينان بنيتان كبيرتان. لم تبلغ بعد الثانية والعشرين من العمر. «لكن، كلاّ، لماذا؟ أنا روسية»، من وسط القاعة، اعتقد سيمون أنه سمع ضحكات هازئة. جازف بإلقاء نظرة خاطفة من جديد، يحتسي الرجلان شرابهما. «اسمي أناستازيا.»

لدى سيمون أفكار مشوشة بعض الشيء، لكنه يتساءل مع ذلك عما تفعله ممرضة روسية في مستشفى فرنسي في عام 1980، حتى في الوقت الذي بدأ فيه السوفيات يعرفون بعض الانفراج، لكن ليس إلى درجة فتح حدودهم كثيراً. كما أنه لم يكن يعلم كذلك أن المستشفيات الفرنسية توظف ممرضات من الشرق.

روت له أناستازيا قصتها، وصلت إلى باريس، عندما كانت في الثامنة من عمرها كان والدها يدير وكالة إيروفلت في الشانزليزيه، وقد حصل على ترخيص بإحضار عائلته، وعندما استدعته موسكو لتعيينه في منصب حكومي، طلب اللجوء السياسي، وبقوا، مع أمهم وأخيها الصغير. أصبحت أناستازيا ممرضة، أخوها لازال يدرس في الثانوية.

طلبت الممرضة شاياً. لا يزال سيمون لا يعرف ماذا تريد. يحاول أن يحدد سنها انطلاقاً من تاريخ وصولها إلى فرنسا. تبتسم في وجهه ابتسامة طفولية: «رأيتك من النافذة. قلت يجب أن أتحدث معك»، يسمع صوت سحب كرسي داخل القاعة. ينهض البلغاري للتبول أو للاتصال. يطأطئ سيمون رأسه، ويضع يده على صدغه لإخفاء صورته. تغمس أناستازيا كيس الشاي في كأسها، وينتاب سيمون شعور بأن شيئاً ما أنيقاً في حركة معصم الفتاة الشابة. في منضدة الحانة، يسمع زبوناً يعلق بصوت عال على الوضع في بولندا، ثم مباراة بلاتيني ضد هولندا، ثم لاعب التنس بورغ الذي لا يُقهر في دورة رولاند غاروس. يشعر سيمون أنه بدأ يفقد تركيزه، أصابه ظهور الفتاة الشابة بالاضطراب، تزداد عصبيته مع مرور الوقت، والآن، لا يدري لماذا، يرن النشيد السوفياتي في رأسه، بصوت الصنوج وجوقة الجيش الأحمر. يخرج البلغاري من المرحاض ويعود إلى مكانه.

«اتحاد الجمهوريات الحرة الذي لا ينكسر...»

يدخل بعض الطلاب وينضمون إلى أصدقائهم على طاولة صاخبة. تسأل أناستازيا سيمون إذا كان من الشرطة. صرخ سيمون في بادئ الأمر، بالطبع لا، لست شرطياً، ولكن لسبب لا يعرف دواعيه أشار مع ذلك أنه يؤدي دوراً، دعنا نقول كمستشار للمفوض بايارد. «روسيا العظيمة أتحدث، لكي نقف إلى الأبد!

الطاولة التي توجد في الوسط، يقول الشرطي: «هذا المساء»، يعتقد سيمون أنه سمع البلغاري يجيب بجملة قصيرة تتضمن كلمة «المسيح» هنا يتأمل سيمون الابتسامة الطفولية، ويأمل أن تشع من خلال العواصف الشمس والحرية.

تطلب أناستازيا من سيمون أن يحدثها عن رولان بارت. يقول إنه كان يحب كثيراً والدته والكاتب بروست. تعرف أناستازيا بروست، بطبيعة الحال. فلينين العظيم أنار طريقنا. تقول أناستازيا إن عائلة بارت كانت قلقة؛ لأن مفاتيحه لم تكن معه، لقد أرادوا تغيير الأقفال. وهذا الأمر ترتبت عنه

نفقات. لقد ربانا ستالين على القيم، وألهمنا الإيمان بالشعب. يتلو سيمون هذا المقطع الغنائي على أناستازيا التي تبلّغه أنه بعد تقرير خرتشوف، تم تعديل النشيد لحذف الإشارة إلى ستالين. (كان يتعين انتظار عام 1977، مع ذلك.) مهما كان، قال سيمون في نفسه، لقد خرج جيشنا أقوى من المعارك... نهض البلغاري وارتدى سترته، سيغادر. يتردد سيمون في ملاحقته، لكنه يختار بحذر التركيز في مهمته. ستحدد معاركنا مستقبل الشعب. لقد التقت نظرات البلغاري بنظراته، حين كان على وشك الإجهاز عليه. في حين لم يتواجه من قبل مع الشرطي وجهاً لوجه. حسناً، الأمر أقل خطورة، سيكون أكثر أماناً، ويعرف الآن أن هذا الشرطي ضالع في قضية المخطوط. في طريقه للخروج، حدق البلغاري في وجه أناستازيا التي بادلته ابتسامة جميلة. شعر سيمون أن الموت يدنو منه، تصلب كل جزء من جسده، أطرق رأسه إلى الأسفل، ثم، خرج الشرطي آنذاك. ابتسمت في وجهه أناستازيا أيضاً. إنها امرأة، قال سيمون في نفسه، اعتادت على أن يُنظر إليها. يرى سيمون الشرطي يسير باتجاه شارع مونجي، ويعرف أنه يجب أن يتصرف سريعاً إذا أراد أن لا يفقد أثره، حينئذ أخرج ورقة نقدية من فئة 20 فرنك ليسدد الشاي وشراب المارتيني، ودون أن ينتظر المبلغ المتبقي (لكن أخذ إيصال تسديد المبلغ)، وجر معه الممرضة جاذباً إيّاها من ذراعها. يبدو أنها تفاجأت إلى حد ما، لكنها استسلمت صامتة. «حزب لينين، قوة الشعب». ابتسم لها سيمون بدوره، يرغب في أن يطير؛ لأنه في عجلة من أمره، فهل ترغب الممرضة في مرافقته؟ داخل عقله، ينهي الغناء الرتيب: «... إلى النصر، الشيوعية تقودنا!» إن والد سيمون شيوعي، لكن لا يعتقد أنه من المجدي أن يوضح ذلك للممرضة الشابة التي يبدو أنها تتسلى، يا للحظ، بسلوكه الغريب الأطوار إلى حد ما.

سارا لعشرات الأمتار وراء الشرطي. لقد حلّ الظلام. الجو بارد نوعاً ما. لازال سيمون يمسك بذراع الممرضة. إذا كانت أناستازيا ترى موقفه غريباً أو جريئاً، فإنها لم تبدِ أي شيء. قالت له إن بارت كان محاطاً بالعديد من الناس، الكثير في نظرها، لقد جاء باستمرار الكثير من الناس لزيارته في غرفته. تحول الشرطي في اتجاه شركات التضامن. أخبرته أن في يوم الحادث، عندما وجدوا

بارت ممدداً على الأرض، فإن الأشخاص الثلاثة الذين جاؤوا وأحدثوا فوضى كبيرة، قد كالوا لها سيلاً من الشتائم. توغل الشرطي في شارع صغير، يقود إلى ساحة مريم العذراء. يعيد سيمون التفكير في الصداقة بين الشعوب. يشرح لأناستازيا أن بارت كان متميزاً في الكشف عن الأنظمة الرمزية التي تحكم سلوكياتنا. توافق أناستازيا على رأيه بتجهم. يتوقف الشرطي أمام باب خشبي ثقيل، على أعلى الرصيف قليلاً، واختفى في الداخل. توقف سيمون. لم يطلق أبداً من ذراع أناستازيا. وكما لو أن المرأة الشابة أدركت التوتر الوشيك الوقوع، صمتت. ينظر الشابان إلى البوابة الحديدية، الأدراج الحجرية، الباب الخشبي. تجهمت أناستازيا عابسة. زوجان لم يسمع سيمون وصولهما التفا حولهما. انفتح الباب، رجل شاب، ببشرة شاحبة، وسيجارة في فمه، ووشاح صوفي حول عنقه، حدق في وجهيهما وتركهما يمران.

يتساءل سيمون: «ماذا عساه كان يفعل لو أنه كان شخصية في رواية ما؟» كان سيطرق الباب، بطبيعة الحال، ويدخل وهو يمسك بذراع أناستازيا. في داخل هذا المبنى، قد تكون ثمة حلقة قمار خفية، وكان سيجلس في طاولة الشرطي، ويقابله في لعبة البوكر، بينما أناستازيا بجانبه تحتسي شراب بلودي ماري، وكان سيخاطب الرجل بنبرة واضحة، ليسأله عمّا حدث لإصبعه، وسيجيبه الرجل، من دون دراية، وبطريقة تنم عن الوعيد: «إنه حادث صيد». حينئذ سيحمل سيمون بيده ورق فل أس مع زوج ملكات.

ولكن الحياة ليست رواية، قال في نفسه، وتابعا سيرهما كما لو أن شيئاً لم يحدث. عند نهاية الشارع، عندما التفت أيضاً وراءه، رأى أيضاً ثلاثة أشخاص يقرعون جرس الباب ويدخلون. بالمقابل، لم يرَ سيارة فويغو المنبعجة متوقفة على الرصيف المقابل. بدأت أناستازيا من جديد تحدثه عن بارت: حين كان واعياً طلب مرات عديدة سترته، كان يبدو أنه يفتش عن شيء ما. هل لدى سيمون فكرة عماذا كان يبحث؟ سيمون، مدركاً أن مهمته في هذا المساء قد انتهت، يشعر أنه يصحو. وجد نفسه في حالة ذهول أمام الشابة الممرضة. غمغم، متسائلاً ربما لديها وقت متاح، ليحتسيا شيئاً معاً. ابتسمت أناستازيا (ولم

يتمكن سيمون من تأويل حقيقة هذه الابتسامة): أليس هذا ما سيقومون به؟ دعاها سيمون على نحو مزعج، لتناول شيء ما، مرة أخرى. حدقت أناستازيا في عينيه، ابتسمت أيضاً، كما لو كانت تزايد على ابتسامته الطبيعية، وقالت له ببساطة: «ربما في المرة القادمة». اعتبر سيمون هذا الجواب رفضاً جافاً، وهو على صواب بلا شك؛ لأن الفتاة الشابة تركته، وهي تكرر مرة أخرى، من دون أن تترك له رقم هاتفها. في الشارع، خلفه، اشتعل ضوء سيارة الفويغو.

41

« اقتربوا، يا ذوو الحديث الجذاب، أيها البلاغيون البارعون، الخطباء ذوو النفَس الطويل! حان الوقت لتأخذوا مكانكم في متاهة الجنون والعقل، مسرح الفكر، أكاديمية الأحلام، مدرسة المنطق! تعالوا لتسمعوا صخب الكلمات، وتفتنوا بتشابك الأفعال وظروف الحال، ولتعيشوا شغف المواربات السامة لمروضي الخطاب (اليوم، في هذه الدورة الجديدة، لا يقدم لكم نادي اللوغوس معركة قطع الأصابع فحسب أو معركتين بلا ثلاث معارك، نعم ثلاث معارك في قطع الأصابع، أيها الأصدقاء! ولكي تُشحذ شهيتكم، خلال دقائق. فالمناظرة الثقافية الأولى هي مناظرة بين بلاغيين حول القضية الشائكة التالية، ذات صنف جيو- سياسي: هل ستكون أفغانستان فيتنام للسوفيات؟ المجد للعقل، يا أصدقائي! يحيا الجدل! ولتبدأ الحفلة! وليكن معكم الفعل!»

42

تزفيتان تودوروف رجل نحيف يرتدي نظارات ذو شعر كثيف مجعد. هو أيضاً باحث في اللسانيات يعيش في فرنسا منذ عشرين عاماً، تلميذ لرولان بارت، اشتغل على الأجناس الأدبية (خصوصاً العجائبي)، وهو متخصص في البلاغة والسيميولوجيا.

جاء بايارد لاستجوابه، بناء على توصيات من سيمون؛ لأنه ولد في بلغاريا.

لكون تودوروف ترعرع في بلد توليتاري، شمولي، فإن ذلك قد طور لديه وعياً إنسانياً قوياً للغاية يعرب عنه في نظرياته اللسانية. على سبيل المثال، يعتقد بأن البلاغة لن يكون بمقدورها حقاً الازدهار والتألق إلا في إطار من الديمقراطية؛ لأنها في حاجة إلى فضاء للنقاش، وهو ما لا تتيحه، بحكم طبيعتها، الملكية أو الديكتاتورية. وهو يبني رأيه هذا بالانطلاق من روما الإمبراطورية، ثم أوروبا الإقطاعية، لقد هجر علم الخطاب هدفه في الإقناع وأقلع عن التركيز على تلقي كلام المخاطب، لينصب اهتمامه على الفعل في حد ذاته. لم نعد ننتظر من الخطاب أن يكون فعالاً، بل بكل بساطة أن يكون جميلاً. لقد تمت الاستعاضة عن الرهانات السياسة برهانات جمالية بحتة. وبعبارة أخرى، لقد أصبحت البلاغة شعرية (وهو ما يسمى بالبلاغة الثانية.)

فسر تودوروف لجاك بايارد بفرنسية نقية، لكن بلكنة ثقيلة أن المخابرات البلغارية (KDC) ، على حد علمه، على قدر كبير من الفعالية والخطورة. يستفيدون من دعم الكي جي بي KGB وهم في الواقع قادرون على تدبير عمليات معقدة، ربما ليس إلى درجة اغتيال البابا، لكن على أقل تقدير تصفية أفراد مزعجين، أجل، بلا أدنى شك. وبناء على هذا القول، فإنه لا يرى أي مبرر لأن تتورط المخابرات البلغارية في حادث رولان بارت. بأي صفة سيهمهم شأن ناقد أدبي فرنسي؟ لم يكن رولان بارت يتعاطى للشأن السياسي، ولم يكن له أي اتصال مع بلغاريا. بالتأكيد، لقد ذهب إلى الصين، لكن ليس بمقدورنا القول إنه عاد منها ماوياً maoïste ولا كذلك مناهضاً للماوية antimaoïste. لم يكن مناصراً للكاتب أندريه جيد ولا للشاعر أراغون. صب رولان بارت جام غضبه، في رحلة العودة من الصين، بالدرجة الأولى على أطباق الخطوط الجوية الفرنسية: حتى إنه فكر في كتابة مقال في هذا الشأن.

يرى بايارد أن تودوروف يحدد الصعوبة الأساسية التي يصطدم بها تحقيقه: الدافع. لكنه يعلم أيضاً، لعدم توفر معلومات إضافية، أنه يجب عليه التصرف وفق العناصر الموضوعية التي يتوفر عليها. مسدس، مظلة – وعلى الرغم من أنه لا يرى مبدئياً أي تشابك جيو- سياسي في قتل بارت، واصل

بايارد استجواب الناقد البلغاري حول مخابرات بلده الأصلي.

من يدير المخابرات البلغارية؟ كولونيل يدعى إميل كريستوف، ما هي السمعة التي يحظى بها؟ ليس بالتحديد ليبرالياً. ولكن أيضاً ليس بشكل كبير خبيراً في السيميولوجيا. يتوجس بايارد من أن يسلك طريقاً مسدوداً. قبل كل شيء، لو أن القاتلين من مرسيليا، أو يوغوسلافيان أو مغاربة، فأية خلاصة كان سيخرج بها؟ يفكر بايارد، من دون إدراك، في الناقد البنيوي: يتساءل بايارد فيما إذا كان المتغير البلغاري على مستوى الكلام هو معيار وجيه وملائم. يحصي ذهنياً الدلائل الأخرى التي يتوفر عليها، ولم يستثمرها بعد. ولكي يتأكد، سأل تودوروف قائلاً:

«هل يعني لكم اسم صوفيا Sophia شيئاً ما؟»

- «نعم، إنها المدينة التي ولدت فيها.»

صوفيا Sofia.

إذن يوجد أثر بلغاري.

في هذه اللحظة، ظهرت امرأة شابة جميلة صهباء ترتدي رداء الحمام، وتعبُر الغرفة، حيّت في هدوء الزائر، يميز بايارد لكنتها الإنجليزية، يقول في نفسه، أن هذا المثقف ذا النظارات لا يضجر. يلاحظ ميكانيكياً التواطؤ المثير والصامت الذي يوحّد الطيف الإنجليزي بالناقد البلغاري، علامة على علاقة يؤمن بها وليس فقط مهتم بها، وهو رد فعل احترافي، ناشئ منذ الولادة، أو بفعل عشق غرامي أو كليهما.

طالما هو موجود هناك، سأل بايارد تودوروف! إذا كانت «صدى»، «écho» آخر كلمة نطق بها حامد تعني له شيئاً. ويجيب الناقد البلغاري «نعم، هل لديك أخبار عنه؟»

لم يفهم بايارد.

«إيكو، Eco»، «أمبرتو إيكو Umberto Eco، هل هو بخير؟»

يحمل لويس ألتوسير الورقة الثمينة في يده. إن انضباط الحزب الذي تكون في حضنه، مزاجه كطالب جيد، سنواته كأسير حرب مُروّض، كل هذا منعه من قراءة الوثيقة الغامضة. في الوقت نفسه، نزعته الفردية الشيوعية إلى حدّ ما، شغفه بالألغاز، وميله التاريخي إلى الغش، يدفعه إلى الكشف عن الورقة. إذا فعل ذلك، وهو الذي يتجاهل محتوى الورقة، لكن يشك في ما تنطوي عليه، فإنه سيسجل بصمته في سلسلة الغش الطويلة التي افتتحها ب 17/ 20 عن أطروحة في الفلسفة في المدرسة العليا للأساتذة، كتبها بطريقة غير شريفة. (حلقة مؤسسة بما فيه الكفاية لأسطورته الشخصية كمحتال سيفكر فيها طوال الوقت). لكنه خائف. يعرف عن أي شيء هم قادرون على فعله. يقرر بحكمة (بجبن، يقول في نفسه)، ألا يقرأ الورقة.

ولكن أين سيخفيها؟ ينظر إلى تراكم الفوضى التي تكدست على مكتبه ويفكر في كتاب إدغار ألان بو: أدخل الوثيقة في ظرف مفتوح يحتوي على بعض الإعلانات لمطعم بيتزا، على ما أظن، وربما لمصرف، لا أتذكر كثيراً الإعلانات التي تم توزيعها في صناديق بريدنا في ذلك الوقت، الشيء الأهم، هو أنه يضع هذا الظرف بشكل بارز على مكتبه، وسط خليط من المخطوطات، ودراسات يقوم بها ومسودات مكرسة بشكل أو بآخر لكارل ماركس، للماركسية وبشكل خاص لاستخلاص نتائج «عملية» لنقده الذاتي الأخير المناهض للنظرية، في علاقته المادية الاعتباطية بين « الحركات الشعبية « من جهة، والأيديولوجيات التي اعتنقها من جهة أخرى. هنا ستكون رسالته في مكان آمن. هناك أيضاً بعض الكتب، ميكافييل، سبينوزا، رايمون، أرون، أندري غلوكسمان...يبدو أن هؤلاء المفكرين قد قرأ كتبهم، وهذا ليس هو الحال (غالباً ما يفكر في ذلك في إطار عُصابه المخادع الذي بناه بصبر طبقة بعد طبقة) لمعظم آلاف الكتب التي تزين رفوف مكتبته: أفلاطون (قرأه، على أي حال)، كانط (غير مقروء)، هيجل (تصفحه)، هايديجر (جاب بنظره بعض الصفحات) ماركس (قرأ المجلد الأول من كتابه « رأس المال»، لكنه

لم يقرأ المجلد الثاني) إلخ.

يسمع مفتاح الباب، إنها هيلين تعود إلى المنزل.

44

«عمّ يدور الموضوع؟»

يشبه الحارس جميع الحراس في العالم باستثناء أنه يرتدي وشاحاً من الصوف السميك، أبيض اللون، شاب ذو بشرة شاحبة، عقب سيجارة في فمه وعينه، بلا ترحاب تنظر وراءك كما لو أنك لستَ أمامه، سيئ الخلق، وهو يحاول أن يقرأ أعماق روحك. يعلم بايارد أنه لا يستطيع إخراج بطاقته؛ لأنه يجب أن يبقى متخفياً، ليتمكن من مشاهدة ما يحدث خلف الباب، لذا يستعد لاختراع كذبة سيئة، ولكن سيمون وقد حركة إلهام مفاجئ، سبقه وقال: « إنها تعرف».

صرّ الخشب وانفتح الباب، تنحى الحارس وبإشارة غامضة دعاهم إلى الدخول. دخلوا إلى قبو مقبب تفوح منه رائحة الحجر، والعرق، ودخان السجائر. القاعة ممتلئة مثل حفل موسيقي، لكن الناس لم يأتوا لرؤية بوريس فيان، والجدران لم تتذكر أوتار الجاز التي رددتها فيما مضى. في ميدان العرض، في الضجيج المنتشر لمحادثات ما قبل العرض، ينشد صوت بنبرة بهلوان:

«مرحبا بكم في نادي اللوغوس، أصدقائي، تعالوا للبرهنة، تعالوا للتفكر، تعالوا للثناء ومعاتبة جمال الفعل! أيها الفعل الذي يدرب القلوب، ويتحكم في الكون! تعالوا لمشاهدة عرض المدافعين عن الثقافة، وهم يجادلون من أجل السيادة الخطابية ومن أجل متعتكم الأعظم! «.

ينظر بايارد إلى سيمون بتساؤل. يهمس سيمون في أذنه إنها ليست بداية العبارة التي همس بها رولان بارت، ولكنها الأحرف الأولى: « ن / ل» لـ «نادي اللوغوس» برطم بايارد منذهلا. هزّ سيمون كتفه بتواضع. استمر الصوت في إحماء الغرفة:

« إنه جميل أسـلوبي البلاغي، تفادي التكـرار! وجميلة صورتي البلاغية، الفصـل بين العبـارات! لكن هناك ثمن يجب دفعه. هـذه الليلة، مرة أخرى، سـتعرفون ثمن اللغة؛ لأن هذا هو شـعارنا، ويجب أن يكـون هذا هو قانون الأرض: لا أحـد يتكلم مـن دون رادع! في نادي اللوغوس، لا ندفع لبعضنا البعض بالكلمات، أليس كذلك، يا أعزائي؟ «

اقـترب بايـارد من رجل عجوز ذي شـعر أبيض يفتقد الى سُـلامتين في يده اليسرى. وبنبرة تبدو أقل احترافية، ولكن ليسـت سـياحية أيضاً يسـأله: «ما الذي يحدث هنا؟ « يحدق به الرجل العجوز بلا عدوانية: « هل هذه هي المرة الأولى لك هنا؟» إذن، أنصحك أن تنظر. لا تتسرع في التسـجيل. لديك متسع من الوقت لتتعلم. استمع، تعلم وتقدم.

- أتسجل؟

- يمكنـك دائماً القيـام بمباراة ودية بالطبع، هذا لـن يلزمك بأي شيء، ولكن إذا لم تكن قد شـاهدت أبداً أية دورة، فمن الأفضل أن تبقى متفرجاً. الانطباع الذي تتركه في معركتك الأولى سيضع الأساس لسمعتك. والسمعة عنصر مهم: إنها روحك.»

يسـحب سيجارته المحاصرة بين أصابعه المشوهة، بينما قائد القاعة، غير المرئي، المختفي في زاوية مظلمة تحت أقبية الحجر، يواصل بصوته الجهوري: «المجـد لبروتاغوراس العظيم؟ المجد لشـيشرون؟ المجد للنسر موا! Aigle de Meaux» يسـأل بايارد مرافقه سـيمون من هؤلاء الناس. يخبره سيمون أن النسـر مـوا، هـو ترميز لرجـل الدين الفرنسي، الأسـقف جاك بوسـويه. يرغب بايارد أن يصفعه مرة أخرى.

« لتأكلـوا الحصى مثل ديموسـتيني! يحيا بريكليس! يحيا تشرشـل! يحيا ديغول! يحيا يسوع! يحيا دانتون وروبيسبير! لماذا قتلوا جوريس؟ « هؤلاء، يعرفهم بايارد، ما عدا الاثنين الأولين.

يسـأل سـيمون الرجل العجوز عـن قواعد اللعبة، ويـشرح لهم الرجل العجـوز: جميـع المباريـات هي مبـارزات، يثار موضـوع، يتعلـق الأمر دوماً

بسؤال يقتضي الإجابة عليه بنعم أو لا، أو سؤال من نوع «مع أو ضد»، حيث يمكن للخصمين الدفاع عن مواقف عدائية.

« ترتليان، أوغسطين، ماكسيميليان معنا!» يصرخ الصوت.

يتكون الجزء الأول من الأمسية من مباريات ودية. تجرى المباريات الحقيقية في النهاية. بشكل عام، تجرى دائماً مباراة واحدة، أحياناً اثنتان، وثلاث هذا نادر جداً، ولكنه يحدث. من الناحية النظرية، عدد المباريات الرسمية ليس محدوداً، ولكن لأسباب واضحة على ما يبدو، ويرى الرجل أنه من غير الضروري توضيحها، فإن المتطوعين ليسوا متحمسين في مناظراتهم.

«المناظرة في اتجاهين متعاكسين! فلنبدأ الجدل! ها هما متحدثان بارعان سيواجهان بعضهما البعض حول هذا السؤال الحيوي: هل جيسكار رجل فاشي؟»

صياح وصفير في القاعة. « فلتكن آلهة الطِباق بجانبكم!»

يأخذ رجل وامرأة مكانهما على المنصة، كل واحد خلف منبر، ويواجهان الجمهور ويبدآن في تدوين الملاحظات. يشرح الرجل العجوز لجاك بايارد وسيمون هرتسوغ: لديهم خمس دقائق للاستعداد، ثم يقدمون عرضاً يدافعون فيه عن وجهة نظرهما والنقاط الرئيسة لحججهما، ثم يبدؤون الجدال. مدة اللقاء متفاوتة، وكما هو الحال، في مباراة الملاكمة، يمكن للجنة التحكيم أن تعلن نهاية المباراة في أي وقت. الشخص الذي يتحدث أولاً لديه ميزة؛ لأنه يختار الموقف الذي سيدافع عنه. والآخر يضطر إلى التكيف مع الموقف المعاكس والدفاع عنه. بالنسبة إلى المباريات الودية بين الخصوم من الرتبة نفسها، يتم إجراء قرعة لتحديد الشخص الذي سيبدأ. ولكن في المباريات المعتمدة والمسجلة، التي تجمع بين خصوم من مستويات مختلفة، فإن صاحب الرتبة الأضعف هو الذي يبدأ. هنا، ترون نوع الموضوع، إنه لقاء من مستوى رقم 1. الاثنان، هنا، مجرد متحدثتان. إنها أدنى مرتبة في التسلسل الهرمي لنادي اللوغوس. جنود باختصار. في الأعلى، لديك البلاغيون، ثم المحاضرون، الجدليون، والمشائيون، والخطباء الشعبيون، وفي

القمة السفسطائيون، ولكن هنا نادراً ما نتجاوز المستوى رقم 3.

السفسطائيون، يقال إنهم قليلون جداً، حوالي عشرة، وأنهم جميعاً لديهم أسماء رمزية. انطلاقاً من المستوى رقم 5، الأمر على درجة عالية من التقسيم والتجزؤ. حتى إن هناك من يقول إن السفسطائيين غير موجودين، وأنهم اخترعوا المستوى رقم 7 لمنح رجال النادي نوعاً من الهدف الذي يتعذر تحقيقه، وأنهم تخيلوا بطريقة استيهامية خادعة فكرة الكمال الذي لا يمكن تحقيقه. أنا على يقين أن السفسطائيين موجودون. في رأي، ديغول كان واحداً منهم، بل ربما كان بروتاغوراس العظيم شخصياً. يقال إن رئيس نادي اللوغوس يسمي نفسه هكذا. أنا، بلاغي، كنت خطيباً لمدة عام، لكنني لم أحافظ على هذا المستوى. يرفع يده المشوهة. «لقد كلفني هذا ثمناً باهظاً.»

تبدأ المناظرة، يجب أن يصمت الجميع، ولا يستطيع سيمون أن يسأل الرجل العجوز عما يقصده بـ «المباراة الحقيقية» يراقب الجمهور: في أغلبه ذكوري، جميع الأعمار، وجميع الأنواع ممثلة. إذا كان النادي نخبوياً، فإن الفرز لم يتم على ما يبدو وفقاً للمعايير المادية.

يدوي الصوت الأرن، للمناظر الأولى، ويفسر أن في فرنسا، رئيس الوزراء مجرد ألعوبة، وأن المادة 3-49 تقصي البرلمان الذي ليس له أية سلطة، وأن ديغول كان ملكاً ودياً بالمقارنة مع جيسكار الذي ركز كل السلطات في يده، بما في ذلك سلطة الصحافة، وأن بريجنيف، وكيم إيل سونغ، وهونيكر وشاوشيسكو، على الأقل، فهم يخضعون للمساءلة أمام حزبهم، وأن رئيس الولايات المتحدة يملك سلطة أقل بكثير من سلطتنا، وأنه إذا كان رئيس المكسيك لا يمكن إعادة انتخابه، فرئيسنا، بالعكس، بلى، يمكن ذلك.

في المقابل، المتحدثة الأخرى، في المناظرة، امرأة شابة إلى حد ما. تجيب أنه يكفي قراءة الصحف للتحقق من أننا لا نعيش في نظام ديكتاتوري (وبالتالي، عندما تعنون صحيفة لوموند، مرة أخرى هذا الأسبوع، متحدثة عن الحكومة، « لماذا فشلت في العديد من المجالات »: لقد عرفنا رقابة أكثر شدة...) وتبرهن على ذلك، بالقذف الموجه لجورج مارشي، شيراك، ميتران،

إلخ. بالنسبة إلى نظام ديكتاتوري، فإن حرية الصحافة لها تأثير بشكل كبير. وبما أننا تحدثنا عن ديغول، فلنتذكر ما قيل عنه: ديغول فاشي. الجمهورية الخامسة فاشية. الدستور فاشي. الانقلاب الدائم، إلخ. وتقول في خاتمة كلامها: «بأن القول إن جيسكار فاشي هي إهانة للتاريخ، كمن يبصق على ضحايا موسوليني وهتلر. اذهب واسأل الإسبانيين ما رأيهم. اذهب واسأل جورج سمبران إذا كان جيسكار، هو فرانكو! عار على البلاغة، عندما تخون الذاكرة! تصفيق بحفاوة. بعد مداولة قصيرة، تعلن لجنة التحكيم المرأة المناظرة فائزة. تصافح خصمها الفتاة الشابة، وهي في حالة سرور، وانحنت للجمهور تعبيراً عن الاحترام.

تتعاقب المناظرات، المرشحون سعداء بشكل أو بآخر، يصفق الجمهور، أو يطلق صفارات الاستهجان، هذا يصفر، وذاك يصيح، ثم نصل إلى ذروة الأمسية، «مناظرة قطع الأصابع.»

– الموضوع: الكتابة ضد الشفاهية.

يفرك الرجل العجوز يديه: «آه! ما وراء الفاعل! اللغة التي تتحدث عن اللغة، لا يوجد شيء أكثر جمالاً من هذا. أنا، أحب هذا الموضوع. كما ترون، لقد تم عرض المستوى على السبورة: إنه بلاغي شاب يقابل خطيباً محاضراً ليحل محله. لذا، فالأمر متروك له للبدء. أتساءل عما سيختاره كوجهة نظر. غالباً ما تكون هناك أطروحة أكثر صعوبة من الأخرى، وقد يتم حقاً اعتمادها إذا اقتنعت لجنة التحكيم والجمهور. على العكس من ذلك، قد تكون المواقف الأكثر وضوحاً أقل ربحية؛ لأنه يكون من الصعب على المرء أن يتألق في الحجاج والجدل، سوف يذكر ترّهات والخطاب سيكون أقل إثارة...»

يصمت الرجل العجوز، تبدأ المناظرة، يستمع الجميع في صمت محموم، يتكلم الشاب الطموح بنبرة واثقة:

«لقد شكلت ديانات الكتاب مجتمعاتنا، وجعلتنا نقدس النصوص: ألواح موسى، الوصايا العشر، مخطوطات التوراة، الكتاب المقدس، القرآن،

إلخ. وكان يجب أن يكون هذا الكتاب منقوشاً، حتى يكون صالحاً وصحيحاً. أقول: تقديس أعمى. أقول: خرافات. أقول: مهد الدوغمائية».

لست أنا من يؤكد تفوق الشفاهية، بل الذي خلقنا جميعاً كما نحن، أيها المفكرون، أيها البلاغيون، يا أب الجدل، جدنا جميعاً، الرجل الذي وضع الأسس لكل الفكر الغربي من دون أن يكتب كتاباً.

تذكروا! نحن في مصر، في مدينة طِيبَة، والملك يسأل: ما جدوى الكتابة؟ ويجيب الإله: إنها العلاج النهائي للجهل؛ فقال الملك: بالعكس! في الواقع، سينتج هذا الفن النسيان في روح أولئك الذين تعلموا الكتابة؛ لأنهم سيتوقفون عن ممارسة ذاكرتهم. فالاستذكار ليس ذاكرة والكتاب مجرد تذكرة. لا يقدم المعرفة، لا يمنح الفهم، ولا يوفر الكفاءة.

لماذا يحتاج الطلاب إلى أساتذة إذا كان الجميع يتعلم من الكتب؟ لماذا هم في حاجة إلى أن نفسر لهم ما هو مكتوب في الكتب؟ لماذا توجد مدارس وليس مكتبات فقط؟ ذلك أن الكتابة وحدها لا تكفي أبداً. يعتبر كل فكر حيّاً طالما يتم تبادله، لا يتسم بالجمود، وإلا فهو فكر ميت. يقارن سقراط الكتابة بالرسم: فالكائنات التي يولدها الرسم تقف كل على قدميها كما لو كانت على قيد الحياة، ولكن عندما نسألها، تبقى جامدة متحجرة في وضع مهيب. تلوذ بالصمت. وينطبق الشيء نفسه على المؤلفات المكتوبة (كتابات) نعتقد أنها تتحدث، لكن إذا سألناها؛ لأننا نريد أن نفهم ما تقوله، ستكرر دائماً الشيء نفسه، بالمعنى الحرفي من دون تغيير أية كلمة.

يتم استخدام اللغة لإنتاج رسالة، والتي لن يكون لها معنى إلا بقدر ما هناك مرسل إليه. أتحدث إليكم الآن، أنتم علة وجود خطابي. وحدهم المجانين يتكلمون في الصحراء؛ بل حتى المجنون يتحدث إلى نفسه. ولكن النص، إلى من يتحدث؟ إلى الجميع! إذن لا يتحدث إلى أحد. عندما تتم كتاباته بصورة نهائية، وكل خطاب يتغلغل بلا تمييز في خطابات تتعرف عليه، أو يتخلل خطابات لا علاقة له بها، من دون أن يعرف أي خطابات يجب أن يخاطب أو لا يخاطب. إن نصّاً ما لا يمتلك متلقياً واضحاً هو ضمانة

على عـدم الوضوح، وخطابات غامضة لا طابع لها. كيف يمكن لرسـالة أن تكون ملائمة للجميع؟ حتى الرسالة هي أدنى من أية محادثة: تكتب الرسالة في سـياق، ويتـم تلقيها في سـياق آخر. في مكان آخـر، في وقت لاحق، تتغير وضعيـة المؤلـف ووضعية المتلقـي. تصبح الرسـالة قديمة وقـد عفّى عليها الزمن، تخاطب شـخصاً لم يعد موجوداً، وكذلك مؤلفها لم يعد موجودا، لقد اختفى في غياهب الزمن، بمجرد إغلاقه للظرف.

إذ هـذه هـي القضية: الكتابـة: إنها المـوت. إن مكان النصـوص هو في الكتـب المدرسـية. لا توجـد الحقيقـة إلا في تحـولات الخطاب، والشـفاهية وحدهـا تفاعليـة بـما فيه الكفايـة لتعكس بالسرعـة الحقيقة والمسـار الأبدي للفكر في صيرورته. الشفاهية هي الحياة: أبرهن على ذلك، نبرهن على ذلك، وقد اجتمعنا اليوم للتحدث والاستماع، لتبـادل الأفكار، للنقاش، للجدل، لنخلـق معاً الفكـر الحي، لنتحـد بالكلمـة والفكـرة، توجهنا بنشـاط قوى الديالكتيك، مسـتمتعين بهذا التذبذب الصوتي الذي نسـميه الكلام، والذي لا تشكل إزاءه الكتابة إجمالاً سوى رمزٍ شاحبٍ: ما تشكله المدونة الموسيقية للموسـيقى، لا شيء أكثر من ذلك. وسأنهي بمقولة أخيرة لسقراط، بما أنني أتحدث تحت رعايته: «إنهم أشـباه العلماء، بدلاً من أن يكونوا علماء». هذا ما تنتجه الكتابة. شكراً على اهتمامكم.»

تصفيقـات عريضـة. يبدو الرجل العجـوز متحمسـاً: » آه، آه! إنه مهتم بالثقافة الكلاسـيكية، هذا الفتى. مهارته، إنها ركيزة متينة. سـقراط، الرجل الـذي لم يكتب كتاباً، هو قيمة مؤكدة، في الوسـط الثقافي! إنه نوعاً ما إلفيس elvis البلاغـة، هـاه. أخـيراً، من الناحيـة التكتيكيـة، لقد لعـب دور صمام الأمان؛ لأنه دافع عن الشـفاهية، وهو ما يضفي الشرعية على نشـاط النادي، بطبيعة الحال: التقعير! يجب أن يجيب الآخر الآن. يتعين عليه أن يجد وسـيلة متينة يرتكز عليها، هو الآخر بدوره. أنا، سأتناول الموضوع على طريقة جاك دريـدا: تفكيـك مسـألة السـياق بأكملهـا، هنـا الآن، أن اشرح أن محادثة ما ليست أكثر خصوصية من نص ما أو رسالة ما؛ لأنه لا أحد، عندما يتحدث،

أو عندما يستمع، لا يعرف أبداً من هو ولا ما هو النص أو هي الرسالة؛ لأنه لا أحد، عندما يتحدث، أو عندما يستمع، لا يعرف أبداً من هو ولا من هو محاوره. لا يوجد سياق أبداً، إنه خدعة فظة، السياق غير موجود: هذا هو المسار الصحيح! على أي حال، سيكون هذا هو محور تفكيري للرد والدحض. يجب أن نهدم هذا الصرح الجميل، ثم، حسناً، على المرء أن يكون تماماً دقيقاً وواضحاً: تفوق الكتابة، هذا موضوع يقتضي محاضرة، كما ترون، إنه أمر تقني نوعاً ما، وليس دعابة. أما بالنسبة إليّ أنا؟ أجل، لقد تابعت الدروس المسائية في جامعة السوربون. كنت عاملا. آه! صمتاً! صمتاً! هيا يا فتى، أظهر لنا أنك لم تسرق رتبتك!

صمتَ كل من في القاعة عندما الخطيب المحاضر، وهو رجل متقدم في السن، أشيب، أكثر هدوءاً ورصانة، أقل حماسة وحيوية في لغة جسده، تقدم للحديث. ينظر إلى الجمهور، وإلى خصمه، وإلى هيأةالتحكيم، ويقول فقط، وهو يرفع أصبع السبابة:

«عن أفلاطون.»

ثم صمت، لفترة طويلة بما يكفي لإحداث الانزعاج الذي يصاحب دوماً صمتاً يطول. وعندما شعر أن الجمهور يتساءل عن سبب إضاعة ثوان ثمينة من وقته في التحدث، واصل قائلاً:

«نسبَ خصمي الموقر اقتباسه إلى سقراط، لكنك قمت بتصحيحه بنفسك، أليس كذلك؟»

بياضات.

(كان يقصد أفلاطون. من دون الكتابات التي استمد منها سقراط، فكره ودفاعه الرائع عن الشفاهية في حوارات أفلاطون«فيدروس»، التي صححها لنا خصمي الموقر عملياً في أحكامه، كانت ستبقى مجهولة لنا وغير معروفة.)

بياضات.

«شكرا على انتباهكم» يعود ليجلس في مكانه.

ثم التفت جميع من في القاعة بأكملها إلى خصمه. يمكنه، إذا رغب في ذلك، التحدث مرة أخرى، والرفع من حدة الجدل، لكنه، شاحباً، لم يقل شيئاً. ليس في حاجة لانتظار صدور حكم القضاة الثلاثة، ليعرف أنه خسر.

ببطء وبشجاعة، يتقدم الشاب إلى الأمام، ويضع يده مستوية على طاولة هيأةالمحلفين. تحبس الغرفة بأكملها أنفاسها. الذين يدخنون يسحبون بعصبية سيجارتهم. يعتقد كل واحد أنه يسمع صدى أنفاسه.

يرفع الرجل الجالس في الوسط ساطوراً ويقطع خنصره بقوة.

لم يصرخ الشاب لكنه انحنى، وهو يتألم بشكل فظيع. هُرع على الفور لمعالجته وتضميده في صمت كنائسي. جمعوا طرف الإصبع بالمناسبة، لكن سيمون لم يرَ ما إذا تم رميه أو الاحتفاظ به في مكان ما لعرضه في قوارير بملصقات يكتب عليها التاريخ والموضوع.

يدوي الصوت من جديد: «تحية للمناظرين» يهتف الجمهور برتابة: «تحية للمناظرين.»

في الصمت الذي ساد في القبو، يشرح الرجل العجوز بصوت منخفض: «بشكل عام، عندما يخسر المرء، يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يجرب حظه ثانية. إنه نظام جيد، هذا يجنبنا التحدي القهري.»

45

تنطوي هذه القصة على موطن ضعف، وهو نقطة انطلاقها: غداء بارت مع فرنسوا ميتران. إنه المشهد الكبير الذي لن يحدث. لكنه حدث بالفعل... لن يعرف جاك بايارد وسيمون هرتسوغ أبداً، ولن يعرفوا أبداً ما حدث في ذلك اليوم، وما قيل. بالكاد تمكنوا من الوصول إلى قائمة الضيوف. ولكن أنا، بمقدوري، ربما... بعد كل شيء، كل شيء قضية منهج، أعرف كيفية المضي قدماً: استجواب الشهود، التدقيق، إبعاد الشهادات الهشة، مقارنة

الذكريات المغرضة مع واقع التاريخ. وبعد ذلك، إذا لزم الأمر... تعرفون ذلك جيداً. هناك شيء يجب القيام به بخصوص ذلك اليوم. 25 فبراير 1980 لم يفصح بعد عن كل شيء. وتلك فضيلة الرواية: لم يفت الأوان.

46

«نعم، ما تحتاجه باريس، هو أوبرا.»

يود رولان بارت أن يكون في مكان آخر، لديه أشياء يفعلها أفضل من هذه الأوساط الاجتماعية، ويأسف لأنه قبل ذلك الغذاء، وسيتشاجر مع أصدقائه اليساريين، ولكن على هذه الشاكلة، على الأقل، سيكون جيل دولوز سعيداً. ميشيل فوكو، بالطبع، سيثقل عليه ببعض السخرية المزعجة، وسيجد طريقة لتكرارها.

«لن تتردد الرواية العربية عن مساءلة حدودها، ستسعى إلى كسر الإطار الكلاسيكي، والقطيعة مع رواية الأطروحة...»

إنه الثمن الذي يجب دفعه، بلا شك، لكونه تناول الغداء مع جيسكار، أليس كذلك؟ «بورجوازي كبير ناجح للغاية»، أجل، بالتأكيد، لكن في نهاية المطاف، أولئك الآخرون ليسوا في حالة سيئة أيضاً... هيا... تناول القضية، ووضعيتها في النهاية، على الرغم من كل الصعوبات. من جهة أخرى، مفيدة، هذه البياضات، ماذا هناك؟ أريد شراب النبيذ الأبيض.

«هل قرأت آخر ما كتب ألبرتو مورافيا؟ أنا حقاً أحب كثيراً ليوناردو سسياسيا Sciascia. هل تقرأ باللغة الإيطالية؟»

ما الذي يميزهم؟ لا شيء، مبدئياً.

«هل تحب المخرج السويدي إنغمار بيرغمان؟»

انظر إلى الطريقة التي يقفون بها، ويتحدثون ويرتدون ملابسهم... إنها بلا ريب هابتوس اليمين، كما يقول بيير بورديو.

«ليس بمقدور أي فنان آخر غير مايكل أنجلو، باستثناء، ربما بيكاسو،

أن ينسب لنفسه مثل هذا الرأسمال النقدي. غير أنه لا شيء قد قيل عن البعد الديمقراطي لأثره الأدبي!»

وأنا؟ هل لديّ هابتوس اليمين؟ لا يكفي أن ترتدي ملابس سيئة لتفلت من ذلك. يتحسس رولان بارت مسند كرسيه للتحقق من أن سترته القديمة لا تزال في مكانها. اهدأ. لن يسرقها منك أحد. ها ها! أنت تفكر مثل برجوازي.

فيما يتعلق بالحداثة، يحلم جيسكار بفرنسا إقطاعية. سنرى إذا كان الفرنسيون يبحثون عن سيد أو مرشد.»

يترافع حين يتحدث. إنه حقاً محام. في الأمر مكيدة.

«سيحدث هذا، إنه جاهز تقريباً! وأنت، يا سيدي العزيز، ما الذي تعمل عليه الآن؟»

أشتغل على بعض الكلمات. ابتسامة. يبدو متفهماً. ليس هناك ما يدعو للخوض في التفاصيل. بعض الأشياء عن مارسيل بروست، ما زال محبوباً على الدوام.

«لن تصدقني، لكن لدي عمة عرفت آل غيرمونت.» الممثلة الشابة المثيرة للغاية. من طراز فرنسي رفيع.

أشعر بالتعب. ما أرغب فيه حقاً، هو أن أسلك طريقاً مناهضاً للبلاغة. لكن فات الأوان الآن. يتنهد بارت بحزن. يكره الشعور بالملل، ومع ذلك عرضت عليه العديد من الفرص وقبلها من دون معرفة السبب. لكن اليوم، الأمر مختلف نوعاً ما، ليس الأمر كما لو أنه لم يكن لديه عمل أفضل يقوم به.

«أنا أيضاً صديق ودود للغاية لمشيل تورنييه، فهو ليس شخصاً متوحشاً كما قد يحلو للبعض تخيل ذلك، هاها».

آه، حسناً، لنتناول السمك. من هنا البياضات.

«تعال واجلس يا جاك، لن تقضي، على أيّ حال الوقت بكامله، في طهي الطعام!»

«في» طهي: خذله حرف جر.. أنهى الشـاب مجعد الشـعر ذو رأس أشبه بـرأس الماعـز إعداد إناء الطبخ، وجـاء لينضم إلينا. يتكئ على مسـند كرسي بارت قبل أن يجلس بجانبه.

«إنها وجبة حساء السمك: خليط من السمك، البوري الأحمر، السمك البياض، سـمك موسـى، الإسـقمري، مع قشريات وخـضروات، مع قليل مـن صلصـة الخل ووضعـت القليل مـن الكاري مـع حفنة مـن الطرخون. شهية طيبة!»

«آه، نعـم، جيـد. إنـه رائـق وفي الوقت نفسـه، هـذا يوحد بـين الناس. غالبـاً ما كتب بارت عن الطعـام: البطاطس المقلية، شـطائر اللحم، الحليب والنبيـذ.. لكـن هذا شيء آخـر بالطبع. يبدو هذا بسـيطاً، لكـن هذا مطبوخ ببراعة وإتقان. أحب أن يشعر المرء بالجهد المبذول، والعناية وحب التحضير والإعـداد. وبعـد ذلك، دوماً، إظهـار القوة. لقد سبق وأن نظّر لهذا رولان بارت في كتابه عن اليابان: الطعام الغربي، المتراكم، المبجل، المتضخم إلى حد المهابة، المرتبط بعمليات الوجاهة والاعتبار، يتوجه دوماً إلى الرجل الضخم، الكبير، الغني، السـمين، يتبع الطعام الشرقي الحركة المعاكسة، يتفتح في اتجاه متناهي الصغر: إن مستقبل الخِيار ليس تكديسه أو تكثيفه، ولكن تجزيئه.»

«إنه طبق صيادي منطقة بريتون: تم طهيه على متن سـفينة بمياه البحر. تعمل توابل السلاطة على درء تأثير الملح المسبب للعطش.»

ذكريـات من طوكيو... عود للقسـمة، يفصل، يفـرق، يقضم، بدلاً من أن يقطع ويمسـك، على شاكلة أدواتنا الملعقة والشوكة والسكين، لا يغضب أبداً الطعام...

يتنـاول بارت كأسـاً، وبينـما المدعوون حـول المائدة يأكلـون في صمت رهيـب، يراقـب ذلـك الفتـى ذا الشـفاه الصلبة، وهـو يقضـم قطع السـمك البيـاض محدثـاً امتصاصـاً طفيفـاً كان من الواجب عـلى التربيـة البرجوازية السليمة أن تعاير شكله بدقة في مثل هذه المواقف.

«قلت بأن السلطة هي المِلكية. وهذا ليس خاطئاً تماماً بطبيعة الحال.»

يضع ميتران ملعقته. يتوقف الحضور الصامت عن الأكل، للإشارة إلى الرجل على أنهم يركزون في الاستماع إلى كلامه.

إذا كان الطبخ الياباني يتم دوماً أمام الشخص الذي سيأكل (علامة أساسيه لهذا المطبخ)، فمن المحتمل أنه من المهم بفعل العرض تكريس موت ما نقوم بتكريمه...

يبدو أنهم يخافون من إحداث ضجيج، كما هو الحال في المسرح.

«لكن هذا ليس صحيحاً. تعرفون ذلك أفضل مني، أليس كذلك؟»

لا يوجد طبق ياباني لا يحتوي على مركز (مركز طعام متغلغل في بيوتنا من خلال الطقوس التي تكمن في طلب الوجبة، تحضير أو انجاز الطعام)، كل شيء في الطبق زخرفة لزخرفة أخرى: أولاً؛ لأن على المائدة، على صينية الطعام، ليس الأكل أبداً سوى مجموعة من القطع...

«إن السلطة الحقيقية، هي اللغة.»

ابتسم ميتران، وتغير مقام صوته بشكل ودود لم يشتبه به بارت، وفهم أنه هو الشخص الذي يتوجه إليه بالخطاب. وداعاً طوكيو. هاه، قد حانت اللحظة التي كان يخشاها (لكن يعلم أنه لا مفر منها)، حيث يتعين عليه تقديم الجواب وفعل ما هو متوقع منه، تقليد السيميولوجيين أو على الأقل التظاهر بمظهر المثقف المتخصص على نحو مبهم في اللغة. يقول، على أمل أن تُأخذ عبارته الوجيزة بمعناها العميق: خصوصاً في ظل نظام ديمقراطي.

يهمس ميتران معقباً من دون أن يتوقف عن الابتسام، «حقاً؟»، وهو ما يجعل من الصعب تحديد ما إذا كان طلب توضيح، أو موافقة مهذبة أو اعتراض خفي. يعتقد الشاب ذو رأس الماعز، الذي يتحمل بوضوح مسؤولية اللقاء، أنه من المستحسن التدخل في المحادثة الناشئة، خوفاً من إحباطها في مهدها: «كما قال غوبلز، عندما أسمع كلمة ثقافة، أخرج مسدسي.» ليس لدى بارت الوقت الكافي لشرح معنى المقولة المرتبطة بالسياق، التي قام ميتران بتصحيحها بجفاء: «كلاّ، إنه بَالدور فون شيراخ.» ساد صمت محرج بين الضيوف حول المائدة. «أعرف أنك سوف تغفر للسيد جاك لانغ الذي

إذا كان قـد ولـد أثناء الحـرب، فهو أصغر مـن تذكر ذلك. أليـس صحيحاً، جاك؟» يحدق ميتران مثل ياباني. ينطق «jack جاك» على الطريقة الفرنسـية. لا يعـرف بـارت، في تلك اللحظة لماذا يخالجه شـعور بأن شـيئاً مـا يحاك بينه وبـين الفتـى ذي النظـرات الحادة؟ كما لـو أن ذاك الغداء، قد تـم تنظيمه من أجله فقط، وكما لو أن حضور الضيوف الآخرين هو فقط لإضفاء الشرعية، للتضليـل، أو أسـوأ من ذلك: متواطئـون. ولكن من جهة أخـرى، فإن هذا ليس أول غداء ثقافي ينظمه ميتران: فهو يقوم بذلك مرة واحدة في الشهر. لم ينظم حفلات الغداء الأخرى فقط للتضليل والخداع، يقول بارت في نفسه.

في الخارج، يبدو وكأن عربة تجرها الخيول تمرّ في شارع دي بلو مانتو.

يقوم بارت بتحليل ذاتي سريع: نظراً للظروف والوثيقة المطوية في الجيب الداخلي لسـترته، فإن المنطق يقتضي أن يكون خاضعاً لذعر البارانويا. اختار أن يتكلم مرة أخرى ليخفف إلى حد ما من الحرج الذي وقع فيه الشاب مجعد الشـعر، الدائم الابتسامة، على الرغم من علامات الحسرة والندم البادية على محيـاه: «إن العصور العظمى للبلاغة تتوافق دومـاً مع عصور الجمهوريات، الإثينية، الرومانية، الفرنسـية... سـقراط، شـيشرون، روبسبيير ... بلاغات مختلفة بالتأكيد، مرتبطة بعصور مختلفة، وجميعها، انبسـطت مثل سـجاد على مجمل مسـاحة الخريطة الديمقراطية». بدا ميـتران مهتماً جداً، اعترض قائلاً: «بما أن صديقنا (جاك JAQUES) اعتقد أنه من المناسب استحضار الحرب في الحديـث، فسـأذكركم بـأن هتلـر كان خطيبـاً بليغاً». وأضـاف، من دون إعطاء محاوريه أية علامة على السـخرية التي يمكن أن يتمسكوا بها: «ديغول أيضاً مثله، إنه من نوعه.»

مـع احتمال أن يتعرض لمخاطرة، سـأل بارت: «وماذا عن جيسـكار؟» ميتران، كما لو كان ينتظر هذا منذ البداية، كما لو أن هذه التمهيدات لم يكن لها هدف آخر سـوى توجيه النقاش إلى هذه النقطة بالضبط، اتكأ إلى الوراء على كرسـيه: «جيسـكار هو خبير فني من الطراز الرفيع. نقطة قوته، هي معرفته الدقيقـة عن نفسـه، وإمكانياته، ونقاط ضعفه. يعرف أن لديه نفَسـاً قصيراً،

لكن عباراته تتناغم تماماً مع الإيقاع. فاعل، فعل، مفعول به، نقطة، من دون استخدام فاصلة: ونغوص في المجهول». يتوقف ليترك مساحة لابتسامات المجاملة تشع على وجوه المدعوين، ثم يتابع: «بلا رابط ضروري بين جملتين. كل جملة منها قائمة بذاتها، ناعمة ومليئة مثل بيضة. بيضة، بيضتان، ثلاث بيضات، كمية وافرة، منتظمة مثل بندول الإيقاع في الموسيقى»، متشجعاً بضحكات متحفظة خافتة ومجاملة حول الطاولة، يستعد ميتران: «كتاب الإوالة الجميل! أعرف شخصاً مولعاً بالموسيقى كان يمنح لبندول إيقاعه الموسيقي عبقرية أكثر من بيتهوفن... بطبيعة الحال، العرض يبهج. فضلا عن هذا، هذا تعليمي للغاية. يفهم الجميع أن البيضة هي بيضة، أليس كذلك؟»

جاك لانغ، قلقاً بشأن عمله كوسيط ثقافي، يتدخل: «هذا بالضبط ما يستهجنه السيد بارت في عمله: أضرار الحشو».

يؤكد بارت: «نعم، هذا يعني.. البرهان الزائف بامتياز، المعادلة التي لا طائل منها، أ = أ، راسين هو راسين، إنها الدرجة الصفر للفكر».

ميتران، مغتبطاً بهذا التقارب في وجهات النظر النظرية، لم يفقد مع ذلك تسلسل أفكار خطابه: «حسناً، هذا هو ذاك بالضبط. بولندا هي بولندا، فرنسا هي فرنسا.» يتصنع نبرة تذمر زائفة: «هيّا إذن، بعد هذا الأمر، اشرحوا العكس! أعني بذلك أن جيسكار يملك، بدرجة نادرة فن التحدث عن البديهيات».

رولان بارت، بكلام استرضائي، يشاركه الرأي: «لا يمكن برهنة ما هو بديهي.» تصبح البداهة جوفاء.

يكرر ميتران، معتدّاً بنفسه: «كلاّ، لا يمكن برهنة ما هو بدهي». في هذه اللحظة، سُمع صوت في الطرف الآخر من الطاولة: «يبدو من البديهي، إذا اتبعنا برهانك أن فرصة الفوز لن تفوتك. الفرنسيون ليسوا أغبياء، لن ينخدعوا مرتين بهذا الدجال».

إنه شاب أصلع بفم أشبه بإست دجاجة، إلى حد ما من فصيلة جيسكار،

أخذ الكلمة للحديث، وعلى عكس الضيوف الآخرين، لم يبدِ إعجاباً بالرجل الشاب. التفت ميتران نحوه بشراسة: «آه، أعرف ما تفكر به، لوران! تعتقد، مثل معظم معاصرينا، أنه لا يوجد من هو أكثر منه إبهاراً وروعة في البرهنة.»

يحتج لوران فابيوس بنبرة ازدراء: «لم أقل هذا...»

ميتران، مزمجراً: «لكن بلى! لكن بلى! يا لك من مشاهد تلفزيون رائع! لأن هناك الكثير من المشاهدين الجيدين للتلفزيون مثلك، إن جيسكار هو رائع على شاشة التلفزيون.»

لا يعترض الشاب الأصلع، يتوهج ميتران: «أقر أنه يشرح بشكل مثير للإعجاب كيف تسير الأمور دونه. ألم ترتفع الأسعار في شهر شتنبر؟ عجباً، هذا أمر سخيف». (يدوّن بارت أن فرنسوا ميتران يقول عجباً) في أكتوبر، ارتفاع أسعار البطيخ. في نوفمبر، الغاز والكهرباء. وسكك الحديد والإيجارات. كيف لا تريد ألا ترتفع الأسعار؟ هذا جلي. لاحت على وجهه ابتسامة هازئة، والتوى صوته: «يتعجب المرء من وصوله بسهولة إلى أسرار الاقتصاد، وعلى أثر ذلك يتم اختراق دليل الخبراء في خفايا رجال المال». يصرخ الآن: «هذا صحيح، هذا أمر سخيف! البطيخ البغيض! الإيجار الخائن! يحيا جيسكار!»

تحجر الضيوف، لكن فابيوس أجاب، وهو يشعل سيجارته: «إنك تبالغ.»

استعادت تكشيرة ميتران مظهرها المخادع، وبرنته، الطبيعية، قال، من دون أن يعرف المرء ما إذا كان يجيب الشاب الأصلع، أو ما إذا كان يريد طمأنة جميع الضيوف: «بالطبع، كنت أمزح. حسناً، ليس تماماً. إذن دعونا نستسلم: يتطلب الأمر ذكاء خارقاً لإقناع الآخرين إلى هذه الدرجة بأن الحكم يكمن في كون المرء غير مسؤول عن أي شيء».

توارى جاك لانغ.

يقول بارت في نفسه، إنه أمام فصيلة جميلة لمهووس استحواذي: يريد هذا الرجل السلطة، وقد جسد في خصمه المباشر كل الضغينة والاستياء الذي

كابده إزاء الحظ العاثر الذي عاكسه لمدة طويلة. يبدو أنه غاضب بالفعل من هزيمته المقبلة، وفي الوقت نفسه نشعر أنه مستعد لفعل أي شيء باستثناء الاستسلام. ربما لا يؤمن بانتصاره، ولكن من طبيعته القتال من أجل الفوز، أو أن الحياة من جبلّته على هذه الشاكلة. تعدّ الهزيمة بالتأكيد أكبر مدرسة. بارت، وقد غمرته كآبة خفيفة، أشعل سيجارة بدوره ليستعيد رباطة جأشه. لكن الهزيمة تسبب أيضاً للفرد اعتلالات خطيرة. يتساءل بارت عمّا يريده حقاً هذا الرجل التافه. إصراره ليس موضع نقاش هنا، ولكن ألم يحصر نفسه في النظام نفسه؟، 1965، 1974، 1978... في كل مرة، هزائم مدوية، لا نلومه عليها شخصياً، لذلك فهو يشعر بأن له الحق في الاستمرار في المحاولة ككائن، وككائن، إنها السياسة، بالطبع، ولكن قد تكون كذلك الهزيمة.

تحدث الشاب الأصلع مرة أخرى: «جيسكار خطيب لامع، إنك تعرفه جيداً. بالإضافة إلى ذلك، أسلوبه ملائم للتلفزيون. بهذه الميزة، يكون المرء حداثياً.»

يبدو ميتران متسامحاً بشكل زائف: «لكن، عزيزي لوران، منذ فترة طويلة وأنا مقتنع بذلك. لقد أعجبت بالفعل بمواهبه في العرض، عندما كان يتحدث في منبر الجمعية الوطنية. في ذلك الوقت، أشرت إلى أنني لم أسمع خطيباً أفضل منه منذ... بيير كوت. أجل، راديكالي، كان وزيراً خلال الجبهة الشعبية. ولكن أرى نفسي الآن أحِيد عن الموضوع. السيد فابيوس يبدو صغيراً جداً لدرجة أنه لم يعرف برنامج الحكم المشترك، ثم الجبهة الشعبية... (ضحكات خجولة حول الطاولة). دعنا نعود، إن شئت إلى جيسكار، منارة الفصاحة هذه! وضوح الخطاب، التدفق السلس للكلام الذي تتخلله فترات توقف تجعل المستمعين يشعرون أنهم مدعوون للتفكير، كما في العرض البطيء للصور الرياضية على التلفزيون، فيلقي بك من الكرسي، حيث تعانق كليتيك في حميمية أسطورية للمجهود العضلي، أمام هيأته الرفيعة التي تُهيأ جيسكار ليستوطن شاشاتنا الصغيرة. لا شك أنه أضاف الكثير من العمل لمواهبه الطبيعية. انتهى زمن الهواة! لكنه حصل على مكافآته. معه

نسمع التلفزيون يتنفس الصعداء. انتصار الرئتين الفولاذيتين.»

لا يتأثـر الشـاب الأصلع دومـاً: «عند ظهـوره على التلفزيـون، يمارس تأثيراً كبيراً. يستمع إليه الناس ويصوت له البعض».

يرد ميتران، بتمعن، كما لو يتحدث إلى نفسـه: «أتسـاءل مع ذلك. كنت تتكلم عن أسـلوب في الحديث. أعتقد أنه شيء قديم الطراز. لقد سخرنا من بلاغة السلاسل الأدبية وميول القلب. (يستمع بارت إلى صدى مناظرة عام 1974، لن يندمل جرح المرشـح البائس أبـداً). وعلى نحو صائب في معظم الأحيان. (كما سـيمزق هذا الامتياز أحشـاءه، وكم يتعين على ميتران العمل عـلى ضبط النفس للوصـول إلى مبتغاه...) إنّ تصنع اللغـة يجرح الأذن مثل مسحوق لتجميل العيون».

ينتظـر فابيوس، ينتظر بارت، الجميع ينتظر. اعتاد ميتران على أن ينتظره الجميـع، يتأنى قبل أن يتابع: «ولكن بالنسـبة إلى البلاغي، البلاغي ونصف. بلاغة التكنوقراط تآكلت وابتذلت من قبل. بالأمس كانت ثمينة، وأصبحت سخيفة». من قال مؤخراً: «أواجه مشكلة في ميزان حساباتي؟»

عاد جاك لانغ ليجلس، وهو يتساءل: «ألم يكن روكار من يفعل ذلك؟»

يُظهـر مـن جديد ميـتران غضبه الشـديد: «كلاّ، إنه جيسـكار». صعق بنظراته الشـاب ذا الشـعر المجعد الذي أفسـد تأثير ميتران على الحضور، ثم استأنف حديثه، وكأن شيئاً لم يحدث: «تنتابنا الرغبة في تفحص أنفسنا. أشعر بـألم في الـرأس؟ ألم في القلـب؟ ألم في الكلى؟ ألم في البطـن؟ نعرف أين موطن الداء. لكن ماذا عن ميزان الحسـابات؟ أين الضلع السـادس والسابع؟ غُدّة مجهولة؟ أحد عظام العصعص؟ جيسكار ليس هناك حد الآن».

لم يعد الضيوف يعرفون ما إذا كان يجب عليهم الضحك أم لا. في حالة من الشك، يمتنعون.

يواصل ميتران النظر إلى النافذة: «لديه الحس المشترك، وبوصفه فنياً إلى حد ما، فهو يعرف ويشعر بالسياسة مثل أيّ شخص آخر».

يفهم بارت الغموض الذي ينطوي عليه هذا الإطراء: بالنسبة إلى شخص مثل ميتران، من الواضح أنه اعتراف أسمى، ولكن في شكل من أشكال الفصام الخاص برجل السياسة، المستفيد من تعدد المعاني الوفير، فإن مصطلح «سياسي» ينطوي على ما هو قدحي، بل تجديفي، في تفكيره.

ميتران، الذي لم يوقفه أحد: «لكن جيله يتلاشى في الوقت نفسه الذي يتدهور فيه الاقتصاد. مارغو، وقد أضناه التعب، بدأ يشعر بالملل.»

يتساءل بارت عمّا إذا كان ميتران ثملاً.

فابيوس، الذي يبدو أنه يتسلى أكثر فأكثر، ينادي على رئيسه: « احترس، إنه لا زال يناور، ويعرف كيف يصوب بشكل صحيح. تذكر سهمه: «لا تملك احتكار القلب».

احتبست أنفاس الضيوف.

وخلافاً لكل التوقعات، يرد ميتران بهدوء: «وأنا لا أدعي ذلك! وتأملاتي الفكرية، علاوة على ذلك، تستهدف الرجل العام وأحرص على عدم إصدار أحكام عن الرجل الخاص الذي لا أعرفه». بعد أن سلّم بما يجب عليه، ومن ثم أظهر روح اللعب النظيف، أمكنه أن يختم: « لكننا كنا نتحدث عن التقنية، على ما يبدو لي. لقد شغلت التقنية الكثير من المساحة لديه لدرجة أنه هو بنفسه لا يعرف أين يكمن ما هو غير متوقع. اللحظة الصعبة في حياة ما، حياته، حياتك، حياتي، أية حياة تسعى لتكون طموحة، هي اللحظة التي تنقش فيه العلامة على الجدار الذي يعلمك أنك بدأت في تقليد نفسك.»

عند سماع هذه الكلمات، أكب بارت على كأسه. يشعر بتفجر ضحكة عصبية بداخله، لكنه يتمالك نفسه، وهو يتلو ذهنياً هذه الحكمة: «يضحك المرء لضحكه من غير أن يكون شريكه في ما يضحك من أجله».

الانعكاسية، دوماً.

الفصل الثاني

بولونيا

. 47

16h16

«يـا لها من حرارة، اللعنة!». يتجول سـيمون هرتسـوغ وجاك بايارد في شـوارع مدينـة بولونيا الحمـراء المتعرجة، بحثاً عن ملجأ تحـت الأروقة التي تربـط بعضهـا - البعـض في المدينـة، تجنبـاً للحظات الشـمس الحارقـة التي ينـوء تحتها شـمال إيطاليا في هـذا الصيف من عام 1980. عـلى جدار، كُتب تخليـداً للذكرى، بوسـعهم القـراءة: «نريـد كل شيء! لنأخذ المدينـة!». قبل ثلاث سـنوات، هنـا، قُتل رجال مسـلحون ببندقيـة طالباً، مما أثـار انتفاضة شـعبية حقيقية، اختار وزير الداخلية قمعها عن طريق إرسـال الدبابات: إلى تشيكوسـلوفاكيا، وفي عـام 1977، في إيطاليا. ولكن اليـوم، كل شيء يبدو هادئاً، عادت الدبابات إلى جحورها، ويبدو أن المدينة بأكملها في قيلولة.

«أهنا؟ أين نحن؟

- انظر إلى الخريطة.

- ولكن الخريطة عندك!

- كلا، أعدتها إليك!»

عبر شارع غيرازي، في قلب الحي الطلابي لأقدم مدينة جامعية في القارة، يدخل سيمون هرتسوغ وجاك بايارد إلى قصر بولوني قديم، حيث يوجد قسم الفنون والموسيقى والعروض. هنا يقدم البروفسور، كل أسبوع، محاضرته نصف السنوية، كلما استطاعوا قراءته على لوحة إعلانية ذات عناوين غامضة؛ لكن البروفسور غير موجود، أوضح لهم بواب القسم بفرنسية ممتازة أن الدروس انتهت («كنت أعرف، قال سيمون لبارياد، إنه من الغباء أن نذهب إلى الكلية خلال الصيف!»)، ولكن في جميع الاحتمالات، سيكون في الحانة الصغيرة: «عادة يذهب إلى دروغريا كالزولاري أو إلى أوستريا ديل سول. لكن دروغريا تغلق أبوابها مبكراً. ثم يتوقف الأمر على ما إذا كان البروفسور يرغب في الشراب؟»

يعبر الرجلان ساحة ماجوري الراقية، بكاتدرائيتها غير المكتملة منذ القرن الرابع عشر، نصفها من الرّخام الأبيض، والنصف الآخر من الحجر الرملي، ونافورة نيبتون المحاطة بصفارات الإنذار وحوريات البحر البدينة والفاحشة التي تتلامس صدورها عند امتطاء الدلافين الشيطانية. وجدا حانة أوستريا ديل سول في ممر صغير، مزدحم بالفعل بالطلاب. على الجدار في الخارج، يمكنك أن تقرأ: (اعملوا أقل، اعملوا جميعاً) «بفضل اكتسابه للمفاهيم اللاتينية، تمكن سيمون من فك شفرة اللغة الإيطالية.» يفكر بايارد: «عجزة، لا خير فيهم في كل مكان، العمال في أيّ مكان».

في قاعة المدخل، تنعكس شمس ساطعة على طريقة تعاليم الخيميائي على ملصق كبير. هنا يشرب المرء النبيذ بثمن رخيص، ويمكن إحضار الطعام معه. طلب سيمون كأسين من شراب سانجيوفيز، بينما بايارد يستفسر عن حضور أمبرتو إيكو. يبدو أن الجميع يعرفونه، ولكن كما يقولون: «كلاّ الآن، ليس هنا»، ومع ذلك، قرر الفرنسيان، البقاء قليلاً، في مأمن عن الحرارة المستعرة، على أمل مجيء أمبرتو إيكو بغتة.

في آخر القاعة في فضاء على شكل مثلث، تحتفل مجموعة من الطلاب

بصخب بعيد ميلاد فتاة شابة، قدم لها أصدقاؤها محمصة خبز تعرضها بامتنان. هناك أيضاً في القاعة رجال كبار في السن، ولاحظ سيمون أنهم جميعاً متجمعون عند المنضدة، أو في مدخل القاعة، وأدرك أن الأمر يستغرق وقتاً أقل لنيل طلباتهم؛ لأنه لا توجد خدمة في القاعة. وراء منضدة الحانة، توجد امرأة عجوز ترتدي ملابس سوداء، ب هيأةكئيبة، وتسريحة شعر مشدودة بدقة إلى الوراء، تدير أمور الحانة لوحدها. يخمن سيمون أنها أمّ مدير الحانة، لذلك يبحث عنه، ولا يستغرق وقتاً طويلاً في اكتشافه: حول طاولة في القاعة يجلس رجل كبير طويل القامة يلعب الورق. في طريقته في التذمر وهيأته الكريهة وتصنعه، يخمن سيمون أنه يشتغل هنا. وبما أنه لا يشتغل، على وجه التحديد، وبما أنه يلعب الورق (ورق من نوع غير معروف، أشبه بنوع التارو، يلاحظ سيمون)، إذن هو، المدير. تنادي عليه والدته من وقت لآخر: «لوسيانو! لوسيانو!» فيجيب ببعض الهمهمات.

في الفضاء الصغير في آخر القاعة، يمكن الولوج إلى فناء داخلي صغير بمثابة شرفة للحانة، يلاحظ سيمون وبايارد أن هناك أزواجاً يتبادلون القُبل بلطف وثلاثة شبان بأوشحة تبدو على وجوههم أمارة المتآمرين. يكتشف سيمون أيضاً بعض الغرباء تنعكس هويتهم غير الإيطالية بطريقة أو بأخرى، من خلال الملابس، أو لغة الجسد أو المظهر. بسبب البارانويا التي أصابته إلى حد ما على إثر أحداث الأشهر الماضية، أصبح يخال أنه يرى البلغاريين في كلّ مكان.

غير أن الأجواء لا تتلاءم مع البارانويا، يقوم الشبان بفتح الفطائر الصغيرة التي يحشونها باللحم المقدد والبيستو، أو يأكلون الخرشوف. من الواضح أن الجميع يدخن. لم يرَ سيمون الشبان المتآمرين يتبادلون علبة أو طرداً من تحت الطاولة في الفناء الصغير. يأخذ بايارد كوباً آخر من النبيذ، وسرعان ما اقترب أحد الطلاب منهم من الجزء الخلفي للقاعة، ليقدم لهم كوباً من شراب بروسيكو والقليل من كعكة التفاح. يُدعى إنزو، وهو ثرثار جدّاً ويتحدث الفرنسية أيضاً. يدعوهم للانضمام إلى أصدقائه الذين لا

يتجادلون بمرح حول أمور سياسية، من قبيل «الفاشيون»، «الشيوعيون»، «حزب التحالف»،»حزب التجمع»، وأحزاب فاسدة أخرى تنبعث في كل مكان. يتساءل سيمون عما تعنيه كلمة «بيتشي Pitchi»، التي تتكرر كثيراً في الحديث. تتوقف شابة سمراء ذات بشرة داكنة، لتشرح له بالفرنسية أنهم على هذه الشاكلة ينطقون الحزب الشيوعي باللغة الإيطالية. تقول له إن جميع الأحزاب فاسدة، حتى الشيوعيين الذين هم وجهاء القوم مستعدون للتوافق مع أرباب العمل والتحالف مع الديمقراطيين- المسيحيين، لحسن الحظ أن الألوية الحمراء توصلت إلى تسوية باختطاف ألدو مورو. حسناً لقد قتلوه، ولكنه خطأ البابا، وذاك الخنزير أندريوتي الذي رفض التفاوض.

نادى عليها لوسيانو، الذي سمعها تتحدث مع الفرنسيين، بحركات عريضة: «لكن ماذا تقولين؟ لقد قتلته الألوية الحمراء! لقد قتلوه وألقوه في صندوق عربة مثل عكاز!»

استدارت الفتاة في تطور مفاجئ للأحداث: «أنت كلب! إنهم في حالة حرب، وأرادوا استبداله بالرفاق، والسجناء السياسيين، وانتظروا خمسة وخمسين يوماً لكي توافق الحكومة على التحدث معهم، ما يقرب من شهرين كاملين! لقد رفضت الحكومة حتى استبداله بسجين واحد، لقد قال، أندريوتي، مورو، لقد توسل: يا أصدقائي، أنقذوني، أنا بريء، يجب التفاوض! وكل أصدقائه المخلصين، قالوا: ليس هو، هذا مُخدر، لقد أجبروه، لقد تغير! إنه ليس ألدو الذي عرفته، قالوا: يا لهم من أوغاد!».

وتظاهرت الفتاة بأنها تبصق قبل أن تبتلع كأسها حتى النهاية، ثم استدارت نحو سيمون، وهي تبتسم بينما لوسيانو يعود للعب ورق التارو، وهو يهمهم ببعض الكلمات النابية.

تُدعى بيانكا، ذات عينين سوداويين وأسنان بيضاء، وهي من مدينة نابولي، تدرس العلوم السياسية، وتود أن تكون صحفية، ولكن ليس في الصحافة البورجوازية. أومأ سيمون برأسه وهو يبتسم ببلاهة. يحرز سيمون تقدماً عندما أخبرها أنه يهيئ أطروحته في جامعة فينسين. صفقت

بيانكا بيدها: قبل ثلاث سنوات، عُقدت ندوة كبيرة هنا في جامعة بولونيا، بمشاركة كبار المثقفين الفرنسيين، غوتاري، سارتر، وذلك الشاب بقميص أبيض هنري ليفي... وقد استجوبت سارتر وسيمون دي بوفوار لصالح صحيفة «الكفاح المستمر». لقد قال سارتر، تسرد بيانكا من وحي الذاكرة، وهي ترفع إصبعها: «لا يمكنني أن أقبل أن يُقتل شاب مناضل في شوارع مدينة يحكمها الحزب الشيوعي». وقال، بصفته رفيقاً مرتحلاً: «أقف إلى جانب الشاب المناضل» لقد كان رائعاً! تتذكر أنه تم استقبال غوتاري كنجم موسيقى الروك، في الشارع، كان يبدو وكأنه جون ليون، كان الأمر جنونياً: « ذات يوم، كان يشارك في مظاهرة، والتقى برنار هنري ليفي، وأجبره على مغادرة المسيرة؛ لأن الطلاب كانوا حقاً متحمسين، وأن الفيلسوف ذا القميص الأبيض، كان سيتعرض للضرب، ضحكت بيانكا بصوت عال، وشربت كأس بروسيكو.

لكن إنزو الذي كان يتحدث مع بايارد، جاء للانضمام إلى المحادثة: «الألوية الحمراء؟ لكن، إنهم إرهابيو اليسار، إنهم في النهاية إرهابيون، أليس كذلك؟»

غضبت من جديد بيانكا: «لكن عن أي إرهابيين تتحدث؟ إنهم مناضلون يلجؤون إلى العمل المسلح كوسيلة للعمل، في هذا المقام!».

يضحك إنزو بمرارة: «نعم، ومورو كان خادماً للرأسمالية، أتفهم؟ لم يكن سوى مجرد أداة ببدلة وربطة عنق في أيدي أغنيلي والأمريكيين. أماه، خلف ربطة العنق، كان هناك رجل. آه، لو لم يكتب تلك الرسائل لزوجته، ولحفيده... لكن رأينا فقط الأداة، بلا شك، وليس الرجل. هذا هو السبب الذي جعل أصدقاءه يشعرون بالذعر: لقد قالوا إنه كتب تلك الرسائل تحت الإكراه، فالجميع يعرف حقاً أن الأمر ليس كذلك، وأن تلك الكلمات لم يملها سجان، بل نبعت من أعماق رجل بائس سيموت. وأنتِ، متفقة مع أصدقائه الذين تخلوا عنه: تريدين أن تنسي رسائله، كي يتم نسيان أن أصدقاءك من الألوية الحمراء قتلوا رجلاً مسناً كان يحب حفيده. حسناً!»

توهجت عيون بيانكا. في أعقاب هذا الغضب المفاجئ، لا تملك ملاذا وحيدا للتصعيد سوى التفخيم والكلام العاطفي المثير، بما في ذلك قدر الإمكان مقدار من الحماسة الشاعرية، ولكن ليس أكثر مما ينبغي؛ لأنها تعرف أن كل شاعرية مُسيّسة قد تبدو بمثابة وعظ مسيحي، لذلك تقول: «سوف يتعافى حفيده، وسيتعلم في أفضل المدارس، لن يجوع أبداً، وستتم مساعدته للحصول على تدريب في اليونسكو، أو الناتو، أو الأمم المتحدة، في روما، أو جنيف أو نيويورك! هل زرت نابولي من قبل؟ هل رأيت أطفال نابولي الذين يعيشون في منازل تركتها دولة أندريوتي وصديقك مورو تنهار عليهم؟ كم عدد النساء والأطفال الذين تخلت عنهم السياسات الفاسدة للديمقراطيين - المسيحيين؟».

يضحك إنزو ساخراً، وهو يملأ كأس بيانكا: «محاربة الشر بالشر، أليس كذلك؟»

في تلك اللّحظة، نهض أحد الشباب المتآمرين، وألقى بمنشفته، وغطى الجزء السفلي من وجهه بوشاحه، وتقدم إلى طاولة لاعبي ورق التارو، وأشهر مسدسه في اتجاه مدير الحانة وأطلق النار على ساقه.

انهار لوسيانو وأخذ في النواح.

بايارد غير مسلّح، ومنعه الازدحام الذي أعقب ذلك من الوصول إلى الرجل الذي خرج مهرولا، برفقة صديقيه، شاهراً سلاحه في يده.

وفي طرفة عين، اختفت عصابة الأوشحة.

في الداخل، سادت موجة ذعر شديدة، وهرعت المرأة العجوز من خلف منضدة الحانة نحو ابنها، وهي تصرخ، في حين تعالت أصوات الشباب والمسنيّن في كل اتجاه. يدفع لوسيانو والدته بعيداً. يصرخ إنزو في وجه بيانكا بمرارة ساخرة: «ممتاز، ممتاز! استمري في دفاعك عن أصدقائك من الألوية الحمراء؟ لا بدّ من معاقبة لوسيانو، أليس كذلك؟ هذا المبنى لمالكه الرأسمالي القذر. إنه وكر حقيقي للفاشيين، أليس كذلك؟ هبت بيانكا لمساعدة لوسيانو الملقى على الأرض، وترد على إينزو باللغة الإيطالية، بأنهم

بالتأكيد ليسوا من الألوية الحمراء، وأن هناك مئات المجموعات من اليسار المتشدد أو اليمين المتطرف الذين يمارسون ضرب الركبة بعيارات مسدس 38. قال لوسيانو لأمه: «كفى، يا أمّي!» صرخت الأم المسكينة من شدة الألم. لا ترى بيانكا سبباً وجيهاً لهجوم الألوية الحمراء على لوسيانو، بينما تحاول أن توقف النزيف بقماشة الصحون، أوضح لها إنزو أن محاولة نسب هذا الهجوم إلى اليسار المتشدد أو اليمين المتطرف هو في حد ذاته أمر منذر ببعض المشاكل. قال أحد الأشخاص في الحانة إنه من اللازم استدعاء الشرطة، لكن لوسيانو همهم قاطعاً: كلاّ، لا للشرطة. نظر بايارد إلى الجرح: يقع أثر ثقوب الرصاص فوق الركبة، في الفخذ وبالنظر إلى النزيف، فإن الرصاصة لم تصب الشريان الفخذي. ترد بيانكا على إنزو بالفرنسية، حيث فهم سيمون أنها تخاطبه هو أيضاً: «أنت تعلم جيداً أن هذه هي طريقة استراتيجية لخلق التوتر. هكذا هي الطريقة منذ حدث ساحة فونتانا. يسأل سيمون عن أي شيء يدور الأمر. يشرح له إنزو أنه في ميلانو في عام 1969، قتلت قنبلة خمسة عشر شخصاً في بنك يقع في ساحة فونتانا. أضافت بيانكا إنه خلال التحقيق، قتلت الشرطة مناضل نقابي فوضوي برميه من نافذة مركز الشرطة.» قيل إن الفوضويين هم من فعلوا ذلك، ولكن بعد ذلك فهمنا أنه كان اليمين المتطرف، بتواطؤ مع الدولة، التي فجرت القنبلة لاتهام اليسار المتشدد وتبرير السياسة الفاشية، هذه هي استراتيجية التوتر، إنها مستمرة منذ عشر سنوات، حتى البابا متواطئ «يؤكد إنزو: هذا صحيح، إنه بولوني!» يسأل بايارد: «وهذه، آووه، الضرب على الركبة، هل هذا شائع؟»، تفكر بيانكا، وهي تصنع ضمادة بحزامها لوقف النزيف: «كلاّ، ليس تماماً، ليس حتى بمعدل مرة في الأسبوع، على ما يبدو.»

وبالتالي، بما أن لوسيانو لا يبدو أنه على وشك الموت، فإن الزبائن تفرقوا في الليل، وسلك سيمون وبايارد طريقهما إلى حانة دروغيريا كالزولاري، يقودهم إنزو وبيانكا، اللذين لا يرغبان في العودة إلى منزلهم.

يدخل الفرنسيان إلى شوارع بولونيا كما لو كانا في حلم، المدينة عبارة عن ظلال لأجساد خفية ترقص باليه غريب وفقاً لنمط فن رقص غامض، طلبة يظهرون ويختفون وراء الأعمدة، مدمنو مخدرات ومومسات يرابطون تحت أروقة مقوسة، قوات الشرطة تركض بصمت عبر الفراغ. يرفع سيمون رأسه إلى الأعلى. برجان جميلان من العصور الوسطى يطلان على الباب الذي يؤدي إلى طريق رافينا البيزنطية، لكن البرج الثاني مائل مثل برج بيزا وأقل انحداراً من البرج الأول، إنه البرج المقطوع، البرج الذي وضعه دانتي في الحفرة الأخيرة من الجحيم، عندما كان عالياً ومهدّداً: «تبدو ناطحات السحاب تتمايل في الاتجاه المعاكس، إذا نظر من الأسفل عندما تمر سحابة نحو الجانب الذي يميل » تزين نجمة الألوية الحمراء جدراناً من الطوب الأحمر. تُسمع، من بعيد، صفارات الشرطة والأغاني الحزبية. يدنو متسوّل من بايارد ويطلب منه سيجارة، ويقول له إنه يجب علينا القيام بالثورة، لكن بايارد لم يفهم، ويستمر في طريقه بإصرار، على الرغم من أن صف الأروقة الممتدة، في شارع بعد شارع، يبدو أنه لا ينتهي أبداً. متاهة وإيكاروس في بلد الشيوعية الإيطالية، يقول سيمون في نفسه، عند رؤية الملصقات الانتخابية الموجودة على لوحة الإعلانات الملصقة على الحجر والعوارض الخشبية. وبالطبع، بين هذا الشعب من الأشباح، هناك القطط، السكان الحقيقيون للمدينة.

تتلألأ واجهة حانة دروغيريا كالزوري في الليل الدامس. في الداخل، يشرب الأساتذة والطلاب النبيذ، وهم يتناولون بعض المقبلات. يقول مدير الحانة إنه سيغلق، لكن النشاط السائد يكذب هذا التوقع. يطلب إنزو وبيانكا زجاجة خمر من نوع ماناريزي.

يروي رجل ملتح قصة مضحكة، يضحك الجميع، باستثناء رجل يرتدي قفازات وآخر يحمل حقيبة، يترجم إنزو للفرنسيان: «ذات مساء، كان رجل في طريق عودته إلى المنزل، وكان مخموراً تماماً، وفي الطريق التقى

بإحدى الراهبات، بفستانها وقبعتها، فارتمى عليها، وأبرحها ضرباً. وعندما انتهى من ركلها، رفعها من الأرض وقال لها: ولكن يا باتمان، كنت أعتقد أنك أقوى!» ضحك إنزو، وسيمون. كذلك تلعثم بايارد.

يتحدث الرجل الملتحي مع فتاة ترتدي نظارات ورجل آخر حدد بايارد هويته على الفور على أنه أستاذ؛ لأنه يبدو كطالب ولكنه أكبر سناً. حين أنهى الرجل الملتحي كأسه، أخذ كأساً ثانية من الزجاجة الموضوعة على المنضدة، ولكن من دون أن يملأ كؤوس الفتاة والأستاذ الفارغة. يقرأ بايارد الملصق: خمر فيلا أنتينوري. يسأل النادل إذا كان هذا الخمر من النوع الجيد. إنه نبيذ توسكانيا الأبيض، كلاّ، ليس جيّداً جداً، يرد النادل بفرنسية ممتازة. يدعي ستيفانو ويدرس العلوم السياسية. «هنا الجميع يدرس ويتعاطى للسياسة!» قال بايارد في نفسه، وأضاف النادل، وهو يقدم نخباً: «إلى اليسار!». يشرب بايارد نخباً معه ويكرر: «إلى اليسار!» قلِق صاحب البار: "تمهل مع النبيذ، يا ستيفانو!" يضحك ستيفانو، ويقول للمفوض بايارد: "لا تعره اهتماماً، إنه أبي."

يطالب الرجل الذي يرتدي قفازات بالإفراج عن توني نيغري، ويهاجم منظمة غلاديو السرية، سماسرة اليمين المتطرف هذا، التي تمولها وكالة المخابرات الأمريكية. "أن يكون توني نيغري شريك الألوية الحمراء هو أمر سخيف بنفس سخافة أن يكون تروتسكي شريك ستالين!».

تُعبر بيانيكا عن استيائها: «الستاليون قادمون إلى بولونيا!»

يقترب إنزو من فتاة شابة محاولاً تخمين ما تدرسه، ويكتشف من أول وهلة (علوم سياسية).

تشرح بيانكا لسيمون أنه في إيطاليا، الحزب الشيوعي قويّ جداً، يضم خمسمائة ألف عضو، وعلى عكس فرنسا، لم يستسلم في عام 1944، ومن هنا مبعث العدد الهائل لمسدسات P38 الألمانية المتداولة في البلاد. ومدينة بولونيا الحمراء، هي إلى حد ما الواجهة العريضة للحزب الشيوعي مع رئيسه الشيوعي الذي يعمل لصالح جيوفاني أمندولا، ممثل التيار

الإصلاحي. «جناح اليمين»، قالت بيانكا بعبوس وازدراء. هذه التسوية التاريخية اللقيطة. إنه هو، وحين رأى بايارد سيمون ينصت باهتمام لكل كلمة، رفع كأسه، الأحمر في اتجاهه: «إذن، أيها اليساري، هل أعجبتك مدينة بولونيا هذه؟ ألست هنا أفضل من سوقك في فينسين؟»، كررت بيانكا بعيون مشرقة، فينسين، جيل دولوز! سأل بايارد ستيفانو، النادل، إذا كان يعرف أمبرتو إيكو.

في تلك اللحظة، يدخل رجل هيبي يلبس صنادل إلى الحانة، ويأتي مباشرة ويربت على كتف الرجل الملتحي، يلتفت نحوه الرجل الملتحي، يفتح رجل الهيبي فتحة سرواله بأبهة ويتبول عليه. تراجع الملتحي إلى الوراء مرتعباً، وأخذ الجميع يصرخ، سادت لحظات من الارتباك والفوضى، أُخرج رجل الهيبي من طرف أبناء صاحب الحانة. يلتف الجميع حول الرجل الملتحي الذي يتأوه بامتعاض: « لكني لا أتحدث أبداً في السياسة!» قبل أن يخرج الهيبي قال له: «بالضبط!».

عاد ستيفانو خلف منضدة الحالة، وأشار بيده إلى الرجل الملتحي قائلاً للمفوض بايارد: «أمبرتو إيكو، إنه هو».

يغادر الرجل صاحب الحقيبة ناسياً إياها عند أسفل المنضدة، ولكن لحسن الحظ فإن الزبناء الآخرين يلحقون به ويعيدونها إليه. مرتبكاً، يعتذر الرجل بغرابة، ويختفي في حلكة الليل.

يقترب بايارد من الرجل الملتحي الذي يمسح بطريقة تمثيلية سرواله (لأن التبول قد تخلل القماش بالفعل)، ويخرج بطاقته: «هل أنت السيد أمبرتو إيكو؟ الشرطة الفرنسية». يضطرب إيكو: «الشرطة؟» لكن، يجب توقيف رجل الهيبي، إذن!»، وبالنظر إلى جمهور الطلاب اليساريين المتواجدين في حانة دروغيريا، قرر عدم الاستمرار في هذا الاتجاه. لخص له بايارد أسباب وجوده في بولونيا: طلب رولان بارت من شاب الاتصال بأمبرتو إيكو في حالة حدوث مصيبة، لكن الشاب مات، وآخر كلمة نطق بها هي إيكو Eco. يبدو إيكو متفاجئاً بصدق. رولان بارت، كنت أعرفه جيّداً؛ لكننا لم

نكـن أصدقاء مقربين، هذا فظيع، هذه القصة، لكن، إنها حادثة سـير، أليس كذلك؟.

يـدرك بايـارد أنه سـيتعين عليـه التحلي بمزيـد من الصـبر، لذلك أنهى كأسه، وأشعل سيجارة، وأخذ ينظر إلى الرجل ذي القفازات يلوح بذراعيه، وهـو يتحـدث عن المادية التاريخية، يغازل إنزو طالبة شـابة تلعب بشـعرها، ويشرب سـيمون وبيانـكا نخب «الرغبة في الاسـتقلال الـذاتي»، قال بايارد لأمبرتو إيكو: «فكرْ في الأمر، ثمة سبب وجيه يطلب من أجله رولان بارت الاتصال بك أنت، على وجه التحديد».

ثم أخذ بايارد يستمع إلى إيكو الذي لم يجب عن سؤاله: «رولان بارت، إن درسه العظيم في السيميولوجيا الذي تعلمته، هو أن تشير بإصبعك إلى أي حدث في الكون، وتخبر أنه يعني شـيئاً ما. لقد ردّد دوماً أن السـيميولوجي، عندما يمشي في الشوارع، يتحسس الدلالة، حيث يرى الآخرون الأحداث. كان يعلـم أن المـرء يقول شـيئاً ما في طريقة لباسـه وإمسـاك كأسـه، وطريقة مشـيه... أنت على سـبيل المثـال، بوسـعي أن أقول لك إنـك خضت حرب الجزائر وأنك...»

– لا بأس! أعرف، همهم بايارد متذمراً.

– آه! ممتـاز، وفي الوقـت نفسـه، ما يحبه بارت في الأدب هـو أن القارئ ليس مجبراً على تثبيت معنى، لكن التلاعب بالمعنى. أتفهم؟ هذا رائع. لذلك، أحب بارت كثيراً اليابان: عالم لم يعرف فيه أيّ رمز أو قانون، في نهاية المطاف. لا توجد إمكانية للغش ولا أي رهان أيديولوجي أو سياسي، بل فقط جمالي، وربـما أنثروبولوجي. متعة التأويل الخالـص، المفتوح الخالي من المرجع! كان يقول لي: «وقبل كلّ شيء، حسـناً أمبرتو، يجب تغييب المرجع!» هاها، هاها! لكـن انتبـه، هـذا لا يعني أن المدلول غـير موجود، إيـه! كل شيء له مدلول. (يـشرب جرعة مـن النبيذ الأبيض) كل شيء. لكن هـذا لا يعني أيضاً عوالم لا متناهية من التأويلات. هذا الأمر، إنهم القبلانيون kabbalistes الذين يفكرون بهذا الشـكل! هنـاك تياران: القبّاليـون الذين يعتقـدون أن بإمكان

المرء أن يفسر التوراة بمعاني متعددة وإلى ما لا نهاية لإنتاج أشياء جديدة، وتيار القديس أوغسطين. لقد كان القديس أوغسطين يرى أن نص الكتاب المقدس هو « غابة لا نهائية من المعاني، ويجب أن يُفسر تفسيراً رمزياً ومجازياً يكشف عن معانيه الباطنة »، كما قال سانت جيروم - حيث يمكننا دائماً إخضاعه لقاعدة التزييف، من أجل استبعاد ما لم يسمح السياق بقراءته، مهما كان العنف الهرمينوطقي الذي تعرض له. هل فهمت؟ من المستحيل تحديد ما إذا كان التأويل صحيحاً، أو ما إذا كان الأفضل، ولكن من الممكن القول ما إذا كان النص يرفض تأويلاً لا يتوافق مع سياقه الخاص. هذا يعني أنه لا يمكننا قول أيّ شيء.

«أليس كذلك؟ أعني أن رولان بارت كان أوغسطينياً، وليس قبّالياً».

وبينما يكتسح أمبرتو إيكو فضاءه الرنان في صخب المحادثات، وخشخشة الكؤوس وسط الزجاجات المرتبة على رفوف تاجر النبيذ، وبينما أجساد الطلاب الشباب المرنة، والقوية تتضح بالإيمان بالمستقبل، يراقب بايارد الرجل الذي يرتدي قفازات يخاطب محاوريه حول موضوع غامض.

ويتساءل بايارد لماذا يرتدي الرجل قفازات في درجة حرارة تصل إلى الثلاثين؟

يتدخل الأستاذ الذي كان يحكي له إيكو بعض النكات، باللغة الفرنسية، بشكل سليم: «المشكلة، وكما تعلم ذلك، أمبرتو، هي أن بارت لم يكن يدرس العلامات بالمعنى السوسيري للمصطلح، ولكن باعتبارها رموزاً، إذا لزم الأمر، وفي غالب الأحيان، باعتبارها قرائن. إن تأويل قرينة ما، ليس هو خاصة السيميولوجيا، إنه نزعة متأصلة في كل العلوم: الفيزياء، الكيمياء، الأنثروبولوجيا، الجغرافيا، والاقتصاد، وفقه اللغة...لم يكن بارت سيميولوجياً يا أمبرتو. إنه لم يفهم ما كانت تعنيه السيميولوجيا؛ لأنه لم يفهم خصوصية العلامة التي، على عكس القرينة التي ليست سوى أثر عرضي يكتشفه متلقي، يجب أن ترسل إرادياً من قبل مرسل. لقد كان ناقداً عمومياً ملهماً جدّاً، أي، في نهاية المطاف، كان مجرد ناقد قديم الطراز تماماً مثل رايمون

بيكار، وأولئك الذين كان يحاربهم».

لكن كلاّ، أنت مخطئ، يا جورج: إن تأويل القرائن ليس هو العلوم كلها، بل إنه اللحظة السيميولوجية لكل علم وماهية السيميولوجيا في حد ذاتها. إن كتاب «أسطوريات» لرولان بارت هو تحليلات سيميولوجية رائعة؛ لأن الحياة اليومية خاضعة لقصف مستمر بالرسائل التي لا تبرز دوماً قصدية مباشرة، لكنها تميل في كثير من الأحيان بسبب مقصدها الإيديولوجي، إلى الظهور في ظل «الحياد» الجلي للواقع.

– آه حسناً، بكل تأكيد؟ لا أفهم سبب رغبتك في التشبث على إطلاق اسم السيميولوجيا على شيء ليس في النهاية سوى مجرد ابستمولوجيا عامة.

– لكن، هذا بالضبط ما أتحدث عنه، السيميولوجيا، إنها تقدم أدوات لمعرفة جدوى العلوم، إنها قبل كل شيء، تعلّم التأمل في العالم، في كليته كمجموعة من الوقائع الدالة.

– «في هذه الحالة، قد نقول أيضاً على الفور إن السيميولوجيا هي أم جميع العلوم.!»

أبعد أمبرتو يده وفتح راحة كفيه، والابتسامة تعلو وجهه: «أجل!»

أحدث صوت الزجاجات التي يفتحها الزبناء سلسلة من الأصوات بوب، بوب، بوب، وأشعل سيمون بأناقة ولطف سيجارة بيانكا. يحاول إنزو تقبيل طالبة شابة تتملص منه، وهي تضحك. ستيفانو يوزع الخمر على الجميع.

يرى بايارد الرجل الذي يرتدي قفازات يضع كأسه من دون أن ينهيه ويخرج إلى الشارع. إن الحانة مصمّمة على نحو جعل المنضدة المغلقة تمنع ولوج الزبناء إلى القاعة الخلفية، الشيء الذي جعل بايارد يستنتج أنه لا يوجد مرحاض متاع للزبناء. لذلك، ووفق كل الاحتمالات، لا يريد الرجل ذو القفازات أن يتصرف مثل الهيبي، وذهب ليتبول في الخارج. لدى بايارد بضع ثوان لاتخاذ قرار. أمسك ملعقة صغيرة ملقاة على المنضدة وخرج وراءه.

لم يذهب الرجل ذو القفازات بعيداً، توجد العديد من الأزقة المظلمة في الحي.

إنه في الجدار المقابل، يقضي حاجته، عندما أمسكه بايارد من شعره وسحبه إلى الوراء وطرحه أرضاً، وهو يصرخ في وجهه: هل تحتفظ بقفازاتك للتبول؟؟ ألا تحب أن تتسخ يداك؟ الرجل ذو بنية جسدية متوسطة لكنه مذهول لدرجة أنه لا يستطيع أن يقاوم، ولا حتى يصرخ، لذا أخذ يلف بعينيه في حالة رعب. شلّ بايارد حركته بالضغط بركبته على صدره وأمسك يديه. شعر بايارد بشيء رخو تحت جلد القفازات في اليد اليسرى، نزع القفازة واكتشف سلامتين ناقصتين، الخنصر والبنصر.

«وماذا بعد؟ أنت أيضاً، تحب قطع الخشب؟»

سحق بايارد رأس الرجل على الرصيف الرطب.

«أين سيعقد الاجتماع؟»

قرقر الرجل ذو القفازات بكلمات غير مفهومة، لذا خفف بايارد من الضغط عليه وسمعه يقول: «لا أعرف! لا أعلم!»

لا يبدو بايارد المصاب ربما بعدوى أجواء العنف الذي يخيم على المدينة، على استعداد للتحلي بالصبر. أخرج الملعقة الصغيرة من جيب سترته، وثبتها ضاغطاً بعمق تحت عين الرجل الذي أخذ يصرخ مثل عصفور مفزوع. خلفه، يسمع سيمون يركض، وهو يصرخ: «جاك! جاك! ماذا تفعل؟». أمسك سيمون بكتفيه، لكن بايارد أقوى بكثير من أن ينجح في منعه «جاك! اللعنة! هل أنت مريض؟»

غرز الشرطي الملعقة في محجر عينه.

لم يكرر جاك بايارد سؤاله.

يريد بايارد أن يضيق عليه الخناق إلى أقصى حد وبأسرع وقت ممكن، مستفيداً من تأثير المفاجأة. يسعى إلى الفعالية والنجاعة كما كان الحال في الجزائر. قبل مرور أقل من دقيقة، كان الرجل ذو القفازات ينوي قضاء

أمسية هادئة، والآن ظهر له فرنسي من العدم يحاول اقتلاع عينه، وهو يتبوّل على نفسه.

عندما شعر بايارد أن الرجل المرعوب يبحث عن مخرج لإنقاذ عينه وحياته، وافق بايارد أخيراً على توضيح سؤاله.

«نادي اللوغوس، تباً! أين يوجد؟» أخذ الرجل ذو الأصابع المقطوعة يتمتم: «أركيجينازيوز! أركيجينازيوز!» لم يفهم بايارد.»أركي ماذا؟ إنه المقر القديم للجامعة، خلف ساحة ما جوري. تم بناؤه من قبل أنطونيو موراندي، إنه فظيع لأنه...»

عرف بايارد، من دون أن يلتفت، صوت أمبرتو إيكو الذي سأل: «لكن لماذا تعذب هذا الرجل المسكين؟»

يوضح بايارد قائلاً: «هناك اجتماع لنادي اللوغوس، هنا، في مدينة بولونيا»

أصدر الرجل ذو القفازات هسيساً أجش.

سأل سيمون: «ولكن كيف تعرف ذلك؟».

لقد حصلت أجهزة استخباراتنا على هذه المعلومات.

«أجهزة استخباراتنا؟ الاستخبارات العامة، تقصد؟»

يفكر سيمون في بيانكا التي بقيت داخل حانة دروغيريا، ويود أن يوضح للجميع أنه لا يعمل في دائرة المخابرات العامة الفرنسية، ولكي يعفي نفسه من عناء توضيح أزمة الهوية التي بدأ يشعر أنها تكبر في أعماقه، فضل أن يلوذ بالصمت، وأدرك أيضاً أنهم لم يأتوا إلى مدينة بولونيا لمقابلة أمبرتو إيكو فقط. ولاحظ أن إيكو لم يسأل عن أي شيء بخصوص نادي اللوغوس، لذلك طرح هو بنفسه السؤال: «ماذا تعرف عن نادي اللوغوس، السيد إيكو؟»

أخذ إيكو يداعب لحيته، وأصبح صوته صافياً، ثم أشعل سيجارة.

قامت المدينة الأثينية على ثلاث ركائز: قاعة الألعاب الرياضية، المسرح،

ومدرسة البلاغة. لا زلنا نحافظ على آثار لهذا التقسيم الثلاثي حتى اليوم في مجتمع العرض الذي يرفع ثلاثة أصناف من الأفراد إلى مصاف المشاهير: الرياضيون، والممثلون أو المطربون، المسرح القديم لم يكن يحظى بالتميز) ورجال السياسة. من هذه الفئات الثلاث، كانت الفئة الثالثة حتى الآن هي الأقوى دائماً (حتى لو رأينا أنه مع رونالد ريغان، الفئات ليست دوماً مقاومة للاختراق)؛ لأنها تتملك مقاليد السيطرة على السلاح الأكثر قوة: اللغة.

منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا، كان امتلاك اللغة يمثل دوماً رهاناً سياسياً أساسياً، حتى خلال المرحلة الإقطاعية، والتي يبدو أنها تكرس قانون القوة المادية والتفوق العسكري. يشرح مكيافيللي للأمير أنه ليس بالقوة نحكم، بل بالهيبة، وهذا ليس الشيء نفسه: الهيبة هي نتاج خطاب القوة. لذلك، الشخص الذي يمتلك الخطاب، من خلال قدرته على إثارة الخوف والحب، هو في الواقع سيد العالم، إيه!

وعلى أساس هذا الافتراض المسبق النظري للنموذج ما قبل ميكيافلي، وكذلك للتصدي للتأثير المتنامي للمسيحية، أسست طائفة من الهراطقة مجمع لوجيا في القرن الثالث ميلادي.

في وقت لاحق، أنشأ مجمع لوجيا فروعاً في إيطاليا، ثم فرنسا حيث أخذ اسم نادي اللوغوس في القرن الثامن عشر، خلال الثورة.

«يعتمد على بنية هرمية وتطور كمجتمع سرّي مجزأ بدقة، وعلى رأسه زعماء وكلية تضم عشرة أعضاء يلقبون أنفسهم بالسفسطائيين، ويترأسهم بروتاغوراس ماغنوس، ويمارسون مواهبهم البلاغية التي يستخدمونها أساساً لخدمة طموحاتهم السياسية. وتحوم شكوك حول بعض البابوات، كليمنت السادس، والبابا بيوس الثاني على أنهم كانوا على رأس المنظمة. يقال أيضاً إن شكسبير، ولاس كاساس، روبرتو بيلارمينو (المحقق في محاكم التفتيش الذي أشرف على محاكمة غاليلي، أتعلم ذلك؟)، لابويسيه، كاستيجليون، بوسيه، الكاردينال دي ريتز، كريستين ملكة السويد، كازانوفا، ديدرو، بومارشيه، ساد، دانتون، تاليران، بودلير، زولا،

راسبوتين، جوريس، موسوليني، وتشرشل، مالابرت كانوا أعضاء في نادي اللوغوس».

يشير سيمون إلى أن هذه اللائحة لا تضم سوى رجال السياسة.

يشرح إيكو: «في الواقع، هناك تياران رئيسان داخل نادي اللوغوس: (أنصار المحايثة) (النصانيون) الذين يجدون متعة في المناظرة الخطابية كغاية في حد ذاتها، والوظيفيون، الذين يعتبرون البلاغة وسيلة لتحقيق غايات. تنقسم الوظيفية نفسها إلى تيارين فرعيين: أنصار ميكافيلي وأنصار شيشرون. بصورة رسمية، يسعى الفرع الأول ببساطة إلى الإقناع العاطفي، والفرع الثاني إلى الإقناع العقلي، هذا الأخير له دوافع أكثر من أخلاقية، ولكن في الواقع، إن التمييز بينهما غير واضح؛ لأن الاثنين على حد سواء، يسعون إلى امتلاك السلطة أو المحافظة عليها، لذلك...»

سأله بايارد: «وماذا عنك أنت؟»

أمبرتو إيكو: »أنا؟ أنا إيطالي، يعني...»

سيمون: «مثل ميكافيلي أو مثل شيشرون».

يضحك إيكو: «نعم، صحيح. على أي حال، أفضل أن أكون من أنصار المحايثة، على ما يبدو».

طلب بايارد من الرجل ذي القفازات كلمة السر للدخول. صاح الرجل الذي تعافى قليلاً من أثر الرعب: « لكن، يا إلهي، إنه سرّ».

خلف بايارد، ثمة إنزو، بيانكا، ستيفانو ونصف زبناء قبو النبيذ، الذين أثارتهم الضوضاء، فجاءوا لرؤية ما يجري، لقد استمعوا جميعاً إلى عرض أمبرتو إيكو الصغير.

سأل سيمون: «هل هو اجتماع مهم؟» أجاب الرجل ذو القفازات إن هذا المساء المستوى سيكون عالياً؛ لأن هناك شائعة تقول إن سفسطائياً، بل برتاغوراس الأكبر خصيصاً سيحضر هناك. طلب بايارد من إيكو أن يرافقهم، لكن إيكو رفض قائلاً: «أعرف هذه الاجتماعات. كنت أتردد على

نـادي اللوغوس عندما كنت شـاباً، كما تعلم! حتى إنني صعدت إلى المنبر، وكـما تـرون، مـن دون أن أفقد أصبعـاً»، يُظهـر يديه بفخر. كبـح الرجل ذو القفازات استياءه بمرارة، «لكن لم يكن لدي الوقت لأبحاثي، لذلك توقفت عن الذهاب إلى الاجتماعات وحضور المناظرات. لقد فقدت رتبتي منذ وقت طويل. قد يدفعني الفضول لأرى ما يفعل المُناظرون اليوم، لكن سأعود غداً إلى ميلانـو، سـآخذ قطار الحادية عشرة، ويجب أن أنهـي تهيئة محاضرة حول الوصف الفني للنقوش البارزة في الجزء الأول من عصر النهضة في إيطاليا».

لا يستطيع جاك بايارد إجباره، لكن قال له بنبرة أقل إلزامية على قدر ما استطاع: «ما زال لدينا أسئلة نودّ طرحها عليك، سيد إيكو، حول الوظيفة السابعة للغة».

نظـر إيكـو إلى بايـارد، ثـم نظـر إلى سيمون، وبيانـكا، والرجـل ذي القفازات، وإنزو وصديقته الجديدة، وزميله الفرنسي، وستيفانو وأبيه، الذي خرج أيضاً، ثم حدق في الحشد الصغير من الزبناء الذين تجمعوا في الزقاق.

«حسـناً، تعـال، قابلني في المحطة عند السـاعة العـاشرة صباحاً في قاعة الانتظار، القاعة المخصصة للدرجة الثانية».

ثم يعود أدراجه إلى المتجر لشراء الطماطم، وعلب التونة، ويختفي أخيراً في الظلام بحقيبة بلاستيكية صغيرة وحقيبة عمله كأستاذ.

قال سيمون: «سنحتاج إلى مترجم».

بايارد: «اللّمسة السحرية ستفي بالغرض».

سيمون: «لا يبدو لائقاً جداً، أخشى ألّا تكون فعالة بشكل جيد للغاية».

بايارد: «حسناً أحضر صديقتك».

إنزو: «أنا أيضاً، أريد أن أحضر!»

زبناء حانة دروغيريا: «نحن أيضاً نريد الحضور معكم!»

لـوّح الرجـل ذو القفـازات، الـذي لا زال طريحـاً عـلى الأرض، بيـده المشوهة:

«لكن، إنها حفلة خاصة! لا يمكنني إدخال الجميع.»

صفعه بايارد.»حسناً، أليست شيوعية هذه! دعنا نذهب.»

وفي ليلة حارة في مدينة بولونيا، انطلقت مجموعة صغيرة في اتجاه المقر القديم للجامعة. من بعيد، يبدو الموكب أشبه إلى حدّ ما بفيلم للمخرج فيليني، ولكن من غير الواضح إذا ما كان «الحياة الرغدة» أو»الطريق».

0h070

أمام مدخل قصر أركيجينازيو، هناك حشد صغير يسارع الخطى، وحارس يشبه جميع الحراس باستثناء أنه يرتدي نظارة شمسية من نوع غوتشي وساعة برادا، وبدلة فيرزاتشي، وربطة عنق أرماني.

تحدث الرجل ذو القفازات إلى الحارس، وهو خاضع لسيطرة سيمون وبايارد. قال: « نحن هنا من أجل نادي اللوغوس. الرمز هو خمسون سنتا.»

الحارس، مرتاباً، سأل: «كم عددكم؟»

استدار الرجل ذو القفازات، وحسب: «احم...اثنا عشر.»

كبح الحارس ابتسامة مرحة، وأخبره أن هذا لن يكون ممكناً.

ثم تقدم إنزو وقال: «اسمع يا رجل، البعض منا جاء من بعيد لحضور اجتماع الليلة، البعض جاء من فرنسا، هل تفهم؟»

لم يتراجع الحارس. لا يبدو أن حجة الفرع الفرنسي أثرت فيه تأثيراً بالغاً.

«إنك تخاطر بإثارة أزمة دبلوماسية. بيننا هنا أشخاص من رتبة عالية.»

نظر الحارس بازدراء إلى المجموعة، وقال إنه لا يرى سوى حفنة من الحثالة، وقال: «كفى!»

يلح إنزو: هل أنت كاثوليكي؟ «نزع الحارس نظارته» يجب أن تعرف أن الرداء لا يصنع الرّاهب. كيف تحكم على شخص، بسبب الجهل، أغلق بابه في وجه المسيح؟

تجهم الحارس، ورأى إنزو أنه يتداول الأمر مع نفسه، فكر الرجل لثواني

طويلة، وفكر في إشاعة بروتاغوراس الأكبر المتنكر، ثم في نهاية المطاف، أشار إلى المجموعة المتكونة من اثني عشر: «حسناً، تعالوا.»

دخلت المجموعة إلى القصر، وتسلّقت درجاً حجرياً مزيّناً بعدد كبير من رموز أعلام النبلاء. يقودهم الرجل ذو القفازات إلى المسرح التشريحي. يسأل سيمون لماذا خمسون مئة؟ يشرح له الرجل ذو القفازات أن الأحرف الأولى لنادي اللوغوس في اللاتينية؛ تعني خمسين ومئة، هكذا، من السهل حفظ ذلك.

اندلفوا إلى غرفة خشبية رائعة، مصممة مثل مدرج دائري، ومزينة بتماثيل خشبية لأطباء التشريح والأطباء المشهورين، وفي نهاية الغرفة، هناك لوح رخامي أبيض، كان يتم فوقه تشريح الجثث. في نهاية الغرفة، هناك تمثالان مسلوخان، من الخشب أيضاً، مركونان في خشبة المسرح التي يتصدرها تمثال امرأة في ثوب سميك يفترض بايارد أنها رمز للطب، ولكن من الممكن أن تجسد العدالة، إذا كانت معصوبة العينين.

مُلئت المدرجات على نطاق واسع، وجلست هيأةالتحكيم تحت التماثيل المسلوخة، في وضعية الترأس، خيم صخب في أرجاء القاعة، بينما يستمر الجمهور في الوصول إلى القاعة. تجر بيانكا سيمون من كم قميصه، وهي متحمسة جداً: (انظر! إنه أنطونيوني! هل رأيت فيلمه «المغامرة» إنه فيلم رائع جداً! أوه، لقد جاء برفقة مونيكا فيتي! كم هو جميل! وهناك، أترى، ذلك الرجل، في هيأةالتحكيم، الجالس في الوسط؟ إنه «بيفو»، مدير إذاعة أليس، Alice إنها إذاعة حرّة شائعة جداً في مدينة بولونيا. إن برامجه الإذاعية هي التي أثارت الحرب الأهلية قبل ثلاث سنوات، وهو الذي عرّفنا بجيل دولوز، غوتاري، وميشيل فوكو. وهناك! إنه باولو فابري وعمر كالابريس، وهما زميلان لأمبرتو إيكو. إنهما سيميائيان مثله، وهما من المشاهير أيضاً. وهناك! أرماندو فرديغليون، سيميولوجي آخر، ولكن بالإضافة إلى ذلك، فهو محلل نفسي. وهناك! إنه رومانو برودي، وزير الصناعة السابق، دكتور بطبيعة الحال، ماذا يفعل هنا؟ هل مازال يؤمن بالتسوية التاريخية، يا له من مهرج أخرق؟).

قال بايارد لسيمون: «انظر هناك» يشير إلى لوسيانو، جالساً في المدرجات مع والدته العجوز، واضعاً ذقنه على عكاز ويدخن سيجارة. وفي الطرف الآخر من القاعة، يجلس الشباب الثلاثة الذين يرتدون الأوشحة وأطلقوا النار عليه. يتظاهر الجميع بأن لا شيء حدث. لا تبدو عصابة الأوشحة قلقة. يا له من بلد مضحك، يقول بايارد في نفسه.

لقد تجاوزنا منتصف الليل. تبدأ الجلسة، دوى صوت، إنه صوت بيفو الذي يتحدث، رجل إذاعة أليس Alice الذي ألهب بولونيا عام 1977، يتلو أنشودة للشاعر بترارك، التي ختم بها ميكيافيلي كتابه «الأمير»: «إن الشجاعة ستثور ضد الغضب الأعمى، وستعجل باندلاع المعركة؛ لأن القيم العريقة التي تميز قلوب الإيطاليين لم تمت بعد».

تشع عيوب بيانكا بلهيب أسود. يرفع الرجل ذو القفازات صدره وراحة كفيه على وركيه. يضع إنزو ذراعه تحت خصر الطالبة الشابة التي غازلها في حانة دروغيريا. يصفر ستيفانو من شدة الحماس. يخيم لحن النشيد الوطني في المدرج الدائري. يبحث بايارد عن شخص في الزوايا المظلمة، لكن لا يعرف من بالضبط. لم يتعرف سيمون وسط الجمهور على الرجل الذي يحمل حقيبة، والذي كان في حانة دروغيريا، لأنه كان مشغولاً بالبشرة السمراء لبيانكا، وصدرها الذي ينبض تحت قميصها.

يثير بيفو موضوعا للمناظرة، عبارة لأنطونيو غرامشي ترجمتها لهم بيانكا:

«تكمن الأزمة على وجه التحديد في كون أن القديم يموت، وأن الجديد ليس بمقدوره أن يولد.»

يفكر سيمون في العبارة؛ لا يهتم بايارد ويمعن النظر في القاعة. يراقب، لوسيانو بعكازه ووالدته. ينظر إلى أنطونيوني ومونيكا فيتي. لم يرَ فيليب سوليرز وبرنار هنري ليفي القابعين في زاوية للتخفي. يتناول سيمون الإشكالية في ذهنه: «بالضبط « ما الأمر؟ يجادل عقله: نحن في أزمة. نحن عالقون. آل جيسكار يحكمون العالم. يُقبّل إنزو صديقته الطالبة على شفتيها. ما العمل؟

يقف المرشحان على جانبي طاولة للتشريح، كما لو كانا وسط حلبة، في موقع أسفل قليلاً؛ وهما واقفان، يمكنهما بسهولة الالتفات لمخاطبة الجميع.

وسط إطار المسرح التشريحي، تلمع الطاولة الرخامية ببياض خارق للطبيعة.

خلف بيفو، عادة ما يتم تأطير المنبر من طرف أستاذ (منبر حقيقي كما هو الحال في الكنيسة)، ترعى التماثيل المسلوخة المشهد، حارسة لبوابة الخيال.

المرشح الأول، شاب بلكنة تعود لمنطقة بوجليا جنوب إيطاليا، يرتدي قميصاً مفتوحاً، وحزاماً مشبكاً فضياً كبيراً، يبدأ عرضه.

إذا فقدت الطبقة المهيمنة القبول والرضا؛ بمعنى إذا لم تعد طبقة حاكمة، بل فقط مهيمنة ومالكة فقط لقوة إكراه، فإن هذا يعني على وجه التحديد أن الكتلة الجماهيرية العريضة تجردت عن الأيديولوجيات التقليدية، وأنها لم تعد تؤمن بما كانت تؤمن به سابقاً...

جال بيفو ببصره في أرجاء القاعة؛ توقف نظره للحظة على بيانكا.

وخلال هذه الفترة من خلو العرش على وجه التحديد، يتم تعزيز بروز ما يسميه أنطونيو غرامشي؛ الظواهر المرضية الأكثر تنوعاً.

ينظر بايارد إلى بيفو الذي ينظر إلى بيانكا. في الظل، يدل سوليرز صديقه برنار هنري ليفي على المفوض جاك بايارد، لئلا يعرفه أحد، ارتدى هنري ليفي قميصاً أسود.

يسأل الشاب المُناظر القاعة، وهو يدور ببطء. يدرك المرء جيّداً الظاهرة المَرَضية التي أشار إليها غرامشي؛ أليس كذلك؟ إنها الظاهرة نفسها التي تهددنا اليوم. يأخذ وقتاً للتفكير؛ ويصرخ: «الفاشية!»

بإشراك الجمهور الحاضر في تمثل الفكرة ذهنياً قبل أن يتلفظ بالكلمة، فإن الأمر يبدو كما لو أنه، في تلك اللحظة، كان يلد بالتخاطر أفكار جميع الذين يستمعون إليه، ويخلق عن طريق الإيحاء ما يشبه التشارك الذهني الجماعي. عبَرت فكرة الفاشية القاعة، مثل موجة صامتة. حقق الشاب

المُناظر على الأقل هدفاً أساسياً): تثبيت رهانات الخطاب. ويا للجحيم، التهويل من شأن رهانات الخطاب إلى أعلى مستوى ممكن: الخطر الفاشي، البطن ما زالت ولاّدة، إلخ.

يضع الرجل ذو الحقيبة حقيبته في حضنه.

سيجارة سوليرز المغروزة في مبسم سيجارة العاجي تتوهج في الظلام.

ومع ذلك، هناك فرق بين الحاضر وعصر غرامشي، لم نعد اليوم نعيش تحت التهديد الفاشي، لقد استفحلت الفاشية بالفعل في قلب الدولة. إنها تعج هناك مثل اليرقة، لم تعد الفاشية نتيجة كارثية لدولة في أزمة، وطبقة مهيمنة فقدت السيطرة على الجماهير. إنها ليست كذلك جزاء، بل الاستخدام الماكر والفعل المساعد للطبقة الحاكمة لاحتواء ضغط القوى التقدمية. لم تعد فاشية انتساب بل فاشية مخزية، فاشية الظل، فاشية رجال الشرطة الفاسدين، ليس الجنود، ولا كذلك حزب الشباب لكن فاشية العجزة، فاشية السماسرة المريبين والسريين المكونة من الجواسيس المتواطئين مع الزعماء العنصريين الذين يريدون تغيير كل شيء، حتى لا يتغير شيء سوى خنق إيطاليا في يد عصابة قاتلة. إنه ابن العم الذي يحكي نكات مزعجة على الطاولة، ولكننا مع ذلك ندعوه إلى وجبات عائلية. لم يعد موسوليني. إنها الدعاية الثانية.

تعالت هتافات عدائية من المدرجات، لا يملك الشاب ذو اللكنة الجنوبية سوى أن يختتم: في شكلها الخفي، وغير قادرة على فرض نفسها بالكامل، لكن متغلغلة بما يكفي في جميع مستويات جهاز الدولة لمنع أية مرحلة انتقالية لهذه الأخيرة (يمتنع الشاب ذو لكنة الجنوب بحذر عن إبداء رأيه في التسوية التاريخية)، فإن الفاشية لم تعد تمثل التهديد الذي يخيم على أزمة ستستمر، بل هي الشرط الأساس لاستدامة الأزمة. لن يتم حل الأزمة التي تغرق فيها إيطاليا منذ سنوات حتى يتم اجتثاث الفاشية من أجهزة الدولة. ولأجل ذلك، يقول، وهو يرفع قبضته، «الصراع مستمر!»

تصفيقات.

عبثاً يدافع خصمه عن فكرة طوني نيغري القائلة إن الأزمة لم تعد لحظة

ظرفية وربما دورية، نتاج اختلال وظيفي أو اختناق نظام، بل محرك الاحتراق الداخلي الضروري لرأسمالية متحولة ومتعددة الأشكال مجبرة على ممارسة الفرار إلى الأمام باستمرار للتجدد والعثور على أسواق جديدة، وإبقاء القوى العاملة تحت الضغط، مع الإشارة بالمناسبة إلى الأعراض المرضية التي تتجلى في انتخاب تاتشر والانتخاب، الوشيك لريغان، والذي تستمر هزيمته بأغلبية صوتين مقابل صوت واحد. في رأي الجمهور، كِلا المُناظرين قدّما أداء بجودة عالية وبرّرا رتبتهما كجدليين (المستوى الرابع من بين المستويات السبعة المدرجة). لكن الشاب ذا لكنة الجنوب استفاد، إلى حد ما، من حافز علاوة الفاشية.

إنها مثل المناظرة التالية: «الكاثوليكية والماركسية». أحد المواضيع الكلاسيكية الإيطالية الكبرى.

يتحدث المُناظر الأول عن القديس فرنسيس الأسيزي وجماعة الصدقة، وفيلم الإنجيل وفقاً للقديس ماثيو بازوليني، وعن الكهنة - العمال، ولاهوت التحرير في أمريكا الجنوبية، وعن المسيح الذي طرد الباعة من الهيكل، ويختتم بجعل يسوع أول ماركسي - لينيني أصيل.

نجاح باهر في القاعة؛ تصفق بيانكا مثل الطلبة، تشعل عصابة الأوشحة لفافة حشيش. ويفتح ستيفانو زجاجة نبيذ أحضرها لجميع الأغراض.

يتحدث المُناظر الثاني عن أفيون الشعوب، فرانكو والحرب الإسبانية، بيوس الثاني عشر وهتلر، التواطؤ بين الفاتيكان والمافيا، عن محاكم التفتيش، والإصلاح المضاد أو الإحياء الكاثوليكي، الحروب الصليبية كمثال بارز عن الحروب الإمبريالية، ومحاكمات جان هوس، برونو وغاليلي. ولكن بلا طائل. تحمّست القاعة، نهض الجميع، وبدأوا في غناء بيلا تشاو- مرحباً يا جميلة، على الرغم من أن هذه الأغنية لا علاقة لها بالسياق. يفوز المُناظر الأول بثلاثة أصوات مقابل صفر، تحت ضغط الجمهور، لكنني أتساءل عما إذا كان بيفو مقتنعاً تماماً. تغني بيانكا بأعلى صوتها. ينظر سيمون إلى مواصفات بيانكا التي تغني مفتوناً بملامحها الدمثة والمتقلبة لوجهها المشع. (يرى أنها تشبه

كلوديا كاردينال). إنزو والطالبة يغنيان. لوسيانو ووالدته يغنيان. أنطونيوني ومونيكا فيتي يغنيان. سوليرز يغني. بيارد وهنري ليفي يحاولان فهم كلمات الأغاني.

تجمع المُناظرة الثانية امرأة شابة ضد رجل مسن، ينصب الموضوع على كرة القدم والصراع الطبقي. تشرح بيانكا لسيمون أن البلاد بكاملها اهتزت على إثر فضيحة «التوترنيرو - فضيحة كرة القدم الإيطالية عام 1970»، وهي قصة التلاعب بنتائج المباريات شارك فيها لاعبون من يوفنتوس ولازيو وبروجيا، وأيضاً فريق بولونيا.

ومرة أخرى أيضاً، وعلى عكس التوقعات، فإن المرأة الشابة هي التي فازت في المناظرة من خلال الدفاع عن فكرة أن اللاعبين هم بروليتاريون مثل الآخرين، وأن مديري النادي يسرقون ثمار قواهم العاملة.

توضح بيانكا لسيمون أنه بعد فضيحة التلاعب بنتائج المباريات، تم إيقاف باولو روسي، المهاجم الشاب في المنتخب الوطني الإيطالي لمدة ثلاث سنوات، ونتيجة لذلك لن يتمكن من لعب كأس العالم في إسبانيا. يستحق ما حصل له، قالت بيانكا، لقد رفض القدوم إلى نادي نابولي. يسألها سيمون عن سبب ذلك. تنهدت بيانكا؛ لأن نادي نابولي فقير للغاية لدرجة أنه لا يستطيع التنافس مع النوادي الكبرى. لن يأتي أبداً أي لاعب كبير إلى نادي نابولي.

بلد غريب، قال سيمون في نفسه.

يتقدم اللّيل، ونصل إلى لحظة مناظرة قطع الأصابع. إن صمت التماثيل، غاليلي، أبقراط، علماء التشريح الإيطاليين، التماثيل المسلوخة والمرأة الجالسة يتناقضون بشكل صارخ مع صخب الأحياء. يدخن الناس ويشربون، ويتحدثون ويتزهون.

يستدعي بيفو المُناظرَين. عالم جدلي يتحدى مشائية (أرسطو طاليسية).

يأخذ رجل مكانه حول طاولة التشريح. إنه أنطونيوني. يراقب سيمون مونيكا فيتي التي تلفّ وشاحاً من الشاش مطبع بشكل دقيق، وهي تحيط

المخرج الكبير بنظرات الإعجاب والمحبة.

وفي مقابله، امرأة متصلبة، صارمة، بتسريحة شعر جميلة، إنها والدة لوسيانو التي تنزل من المدرجات.

سيمون وبايارد ينظران إلى بعضهما البعض. ينظران إلى إنزو وبيانكا: هما بدورهما يبدوان أنهما متفاجئان إلى حدّ ما.

يطرح بيفو الموضوع: «المثقفون والسلطة.»

على الأقل واحد من المناظرَين أقل رتبة، لذلك يبدأ عالم الجدل.

للبدء في مناقشة الموضوع، الأمر متروك للمُناظر الأول في طرح الإشكالية. في القضية الحالية، من السهل تحديد الإشكالية: هل المثقفون حلفاء أم أعداء للسلطة؟ كل ما على المرء فعله هو الاختيار مع أو ضد؛ يقرر أنطونيوني انتقاد الطبقة التي ينتمي إليها، والتي يتكون منها التجمع. إن المثقفين متواطئون مع السلطة. فليكن ذلك.

المثقفون: موظفو البنيات الفوقية الذين يساهمون في بناء الهيمنة. إذن، أنطونيو غرامشي مرة أخرى: جميع الناس هم مثقفون، بالتأكيد، لكن لا يشغل جميع الناس وظيفة المثقفين في المجتمع، التي تكمن في بذل جهود لتحقيق الرضا التلقائي للجماهير. «مثقف عضوي أو مثقف تقليدي»، فإن المثقف يندرج دوماً ضمن منطق «اقتصادي – طائفي.» عضوي أو تقليدي، فإن المثقف دوماً في خدمة سلطة ما، في الحاضر، والماضي أو المستقبل.

خلاص المثقف في تصور غرامشي؟ التفوق على الذات في الحزب. ينفجر أنطونيوني في ضحك ساخر. ولكن الحزب الشيوعي نفسه فاسد للغاية! كيف يسمح الحزب بخلاص أيّ شخص اليوم؟ التسوية التاريخية، هذا هراء! تؤدي التسويات إلى تنازلات.

المثقف الهدام؟ يا له من أمر مهم! يتلو عبارة من فيلم لمخرج آخر: «ينطلق المرء وكله طموح في التنديد، فينتهي به المطاف إلى أن يصبح ضالعاً في الجريمة.»

تحية مسرحية.

تصفيقات حارة.

تأخذ المرأة العجوز الكلمة.

«كل ما أعرفه.»

هـي أيضا تبدأ الاستشـهاد بمقولة، لكنهـا تختار قولة باولـو بازوليني: «إني أتهم» التي نشرها عام 1974 في صحيفة «مراسـل المساء» وظلت عبارة أسطورية:

«أعرف أسـماء المسـؤولين عـن مذبحـة ميلانو، -1969 أعرف أسـماء المسـؤولين عن مذبحتي بريشيا وبولونيا، 1974. أعرف أسماء الشخصيات المهمة الذين، بمساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وعُقداء يونانيين والمافيا، شـنوا حملة صليبية مناهضة للشـيوعية، ثم أعادوا بناء عذرية معادية للفاشـية. أعرف أسـماء أولئك الذين، بين قداسـين، أعطوا تعليمات وأكدوا حمايتهـم للجنـرالات القدامـى، والفاشـيين الجـدد مـن الشـباب، وأخـيراً المجرمين العاديين. أعرف أسـماء الأشخاص الجادين والمهمين الذين يقفون وراء الشـخصيات الكوميديـة، أو وراء الشـخصيات الباهتة. أعرف أسـماء الأشـخاص الجاديـن والنافذين الذين يقفون وراء الأشـخاص المأسـاويين الذيـن قدمـوا أنفسـهم كقتلـة وكجماعات قتلـة مأجورين. أعـرف كل هذه الأسماء وأعرف كل هذه الحقائق والاعتداءات على المؤسسات والمذابح التي أدينوا بها.»

زمجرت العجوز، وتردد صوتها المرتجف في أرجاء قصر أركيجينازيو.

«أعـرف؛ لكـن لا أملـك أدلـة ولا حتى قرائـن؛ أعـرف لأنني مثقف وكاتـب يسـعى جاهـداً لمتابعـة كل ما يحـدث، ومعرفة كل مـا يُكتب في هذا الخصـوص، وأتخيـل كل شيء لا يعرفه المرء أو يتم السـكوت عنه، كل شيء يربط بين الحقائق حتى البعيدة، ويجمع بين الأجزاء المختلفة والمشـتتة لوضع سـياسي متماسـك بالكامل، والتي تعيد إرسـاء المنطق، حيث يسود التعسف والجنون والغموض.»

بعد أقل من عام على نشر هذا المقال، تم العثور على بارلو بازوليني مقتولاً، ومعنفاً حتى الموت في شاطئ أوستيا.

توفي غرامشي في السجن، وسُجن طوني نيغري بدوره. يتغير العالم؛ لأن المثقفين والسلطة في حالة حرب مع بعضهم البعض. تفوز السلطة على الدوام، ويدفع المثقفون الثمن بأرواحهم أو بحريتهم؛ لأنهم أرادوا التصدي للسلطة، وتراهم يموتون في الأوحال، ولكن ليس دائماً، وعندما ينتصر المثقف على السلطة، حتى بعد وفاته، فآنذاك العالم يتغير. يستحق الرجل اسم المثقف، عندما يتحدث باسم من لا صوت لهم.

أنطونيوني، الذي يراهن على سلامته الجسدية، لم يدعها تختتم. استشهد بميشيل فوكو الذي يقول إنه يجب علينا أن «نضع حدّاً للأبواق». فالأبواق لا تتحدث من أجل الآخرين، بل نيابة عنهم.

لذا وثبت المرأة العجوز على الفور ووصفت فوكو بالوغد الحقير: ألم يرفض التدخل هنا في إيطاليا، في قضية قتل الأب التي هزت البلاد بأكملها قبل ثلاث سنوات، وهو الذي أصدر آنذاك كتاباً حول قتل الأب. «أنا بيير ريفيير؟ ما جدوى المثقف، إذا لم يتدخل في كل ما يدخل ضمن مجال خبرته واختصاصه بالضبط؟»

في الركن المظلم، يضحك سوليرز وهنري ليفي بسخرية، على الرغم من أن هنري ليفي يتساءل عن مجال اختصاص سوليرز.

أنطونيوني، بالمقابل، يقول إن ميشيل فوكو، أكثر من أي شخص آخر، كشف عن زهو هذا الموقف، وفي هذه الطريقة التي يمتلكها المثقف (يستشهد بفوكو مرة أخرى) لإضفاء القليل من الجدية على نقاشات مبتذلة لا طائل منها. «فوكو، بدوره، يُعرّف نفسه على أنه باحث وليس بمثقف. ينضوي في إطار التقليد الطويل للبحث، وليس إثارة الجدل. لقد قال: ألا يأمل المثقفون، من خلال الصراع الأيديولوجي، أن يمنحوا أنفسهم وزناً أكبر من الوزن الذي يتمتعون به في الواقع؟»

تكلمت العجوز بصوت خافت. وأخذت تقصف: إن كل مثقف، لو

قام على نحو سليم بأعمال دراسية لاستكشاف الأحداث التي هو مؤهل لها، والتي يجب أن تكون رسالته، حتى لو كان في خدمة السلطة، فإنه يعمل ضد السلطة؛ لأنه كما قال لينين (تلقي نظرة على الجمهور بأكمله، وهي تدور بطريقة مسرحية حول نفسها)، الحقيقة دائماً ثورية.

لنأخذ ميكيافيلي. لقد أهدى كتابه «الأمير» للورينزو دي ميديشي لا يجب على المرء أن يكون أكثر لطفاً. ومع ذلك، إن العمل الذي يمثل ذروة الوقاحة السياسية يُعتبر بياناً ماركسياً نهائياً: لقد كتب قائلاً: «لأن أهداف الشعوب أكثر صدقاً من أهداف القادة؛ البعض يريد أن يضطهد، والبعض الآخر لا يريد أن يُضطهد.» في الواقع، لم يكتب ميكيافيلي كتاب «الأمير» لدوق فلورنس، بما أن الكتاب تم توزيعه في كل مكان. عندما نشر كتاب «الأمير» كشف عن حقائق كان بالإمكان أن تظل خفية، ومحفوظة للاستخدام الداخلي للأقوياء حصراً: إنه فعل تدميري، فعل ثوري. لقد سلّم أسرار الأمير إلى الشعب. لقد تخلّصت خفايا البراغماتية السياسية من المبررات الإلهية والأخلاقية الزائفة. خطوة حاسمة في التحرر البشري، مثل كل خطوات إبطال صفة القداسة. بفعل التزامه في أن يكشف الحقائق ويفسر، يعلن المثقف الحرب على المقدس. وبذلك، فهو دوماً محُرر.

يعرف أنطونيوني كلاسيكياته، يرد الضربة: لم يكن لدى ميكيافيلي فكرة صغيرة عن البروليتاريا، لدرجة أنه لم يستطع حتى التأمل والتفكير في حالتها، واحتياجاتها وتطلعاتها. لذلك، كتب على هذا النحو: «كلّما أقلعنا عن تجريد عامة الناس من ممتلكاتهم وشرفهم، كلما عاشوا في غاية الرضا»، حتى أنه كان عاجزاً في قفصه الذهبي أن يتخيّل أن الغالبية العظمى من البشرية كانت (ولا تزال) مجردة تماماً من الممتلكات والشرف، وبالتالي يمكن أن تكون محرومة من ذلك...

تقول المرأة العجوز إن هذا هو جمال المثقف الحقيقي: ليس عليه أن يريد لنفسه أن يكون ثورياً لكي يكون كذلك. وليس في حاجة إلى أن يحب ولا حتى يعرف الشعب، كي يخدمه. إنه بالطبيعة وبالضرورة شيوعي.

تخلى أنطونيوني قائلاً بإزدراء، إنه يجب شرح هذا التصور لهيدجر.

قالت له العجوز: إنه من الأفضل أن يعيد قراءة أعمال كورزيو مالابرت.

يتحدث أنطونيوني عن مفهوم المعلم السيئ.

تقول المرأة العجوز: إنه إذا كان ثمة حاجة لنحدد من خلال صفة ما، بأن المعلم هو سيئ، فذلك يعني أن المعلم هو أساساً، جيّد.

شعر أنه لن تكون هناك ضربة قاضية هذه المرة. لذلك ينهي بيفو المناظرة. يحدق الخصمان في بعضهما البعض، وتتصلب ملامحهما، وفكاهما مطبقان ويتعرقان لكن تسريحة شعر العجوز دوماً جميلة.

الجمهور منقسم وحائر.

يصوت مستشاري بيفو، الأول لصالح أنطونيوني، والآخر لصالح أم لوسيانو.

يتعلق الجمهور بقرار بيفو تشد بيانكا على يد سيمون وتضغط بقوة. يسيل لعاب سوليرز قليلاً.

يصوت بيفو لصالح المرأة العجوز.

أصبحت مونيكا فيتي شاحبة.

يبتسم سوليرز.

لم يعترض أنطونيوني.

يضع يده على طاولة التشريح. ينهض أحد معاوني بيفو، وهو رجل نحيف، طويل القامة، مسلح بقطّاعة صغيرة ذات شفرة زرقاء.

عندما سقطت القطاعة على أصبع أنطونيوني، اختلط صدى العظم المقطوع مع صدى الصدمة على الرخام وصراخ المخرج.

هبت مونيكا فيتي لتضميد يده بوشاحها الشاش، بينما التقط المعاون بتكرم الإصبع الصغير وسلمه للممثلة.

أعلن بيفو بصوت عال: «الثناء على المُناظرين» ترد القاعة بصوت

واحد: «الثناء على المبارزين.»

تعود والدة لوسيانو لتجلس بجانب ابنها.

تمرّ عدة دقائق، كما لو كنا في نهاية فيلم، حين بدأت الأضواء تشتعل وبدأنا نعيش العودة إلى العالم الحقيقي كصحوة شائكة بطيئة، وحين كانت الصور لا تزال تتراقص أمام الأعين قبل أن يكتشف أول المتفرجين أرجلهم المخدرة من التعب، فينهضون لمغادرة القاعة.

يفرغ المسرح التشريحي ببطء، ويجمع بيفو ومعاونوه أوراق الملاحظات في مجلدات ورقية، ثم يغادرون بطريقة رسمية. تنحل جلسة نادي اللوغوس في الليل.

يسأل بايارد الرجل ذو القفازات عما إذا كان بيفو هو بروتاغوراس الأكبر.

يهز الرجل ذو القفازات رأسه نافياً مثل طفل. يعتلي بيفو المنبر (المستوى 6)، لكنه ليس سفسطائياً (المستوى 7، الأعلى). كان يعتقد الرجل ذو القفازات أن أنطونيوني هو بروتاغوراس الأكبر، حيث قيل عنه إنه كان سفسطائياً سابقاً في سنوات الستينيات.

يختفي سوليرز وبرنار هنري ليفي بهدوء. لم يرهم بايارد يخرجون؛ لأن في الازدحام الذي تكوّن عند الباب، تخفوا بواسطة الرجل الذي يحمل حقيبة على كتفه. عليه أن يتخذ قراراً. قرر على كل حال أن يتبع أنطونيوني. استدار وألقى بصوت عالٍ، ببضع كلمات، أمام الجميع، لسيمون: «غداً العاشرة صباحاً، في المحطة، لا تتأخر!»

03h22

انتهت القاعة من الخلو من شاغليها. غادر أناس حانة لادروغيريا. يريد سيمون أن يكون آخر من يخرج بدافع من حدس. ينظر إلى الرجل الذي يرتدي القفازات يغادر. ينظر إلى إينزو والطالبة الشابة يغادران معاً. ويلاحظ

بارتيـاح أن بيانـكا لم تتحرك، حتى إنه افترض أنها تنتظره. هما آخر من تبقى. نهضـا ومشـيا في اتجاه الباب، ببـطء ولكن عندما كانا يهمان بمغـادرة القاعة، توقّفـا. غاليـلي، أبقراط والتماثيـل الأخرى يراقبونهم. التماثيل المسـلوخة بلا حـراك تماماً. الرغبة، والكحول وانفعال الاغـتراب والتعاطف الذي يحظى به الفرنسيون في غالب الأحيان عندما يسـافرون إلى الخارج منحوا سيمون الخجول جرأة – آه، الخجول جدّاً جرأة، يعلم أنه لن يحصل عليها في باريس.

أمسك سيمون بيد بيانكا.

أو ربما كان العكس؟

أخـذت بيانكا سيمون من يده، ونزلـت الدرجات وصولاً إلى خشـبة المسرح. دارت حول نفسـها والتماثيل تتوافد أمام عينيها، مثل عرض مصور من الأشباح، ومثل صور متحركة.

أدرك سـيمون في هذه اللحظة الدقيقة، أن الحياة هي لعبة لعب الأدوار والأمـر متروك لنا للعب بأفضل طريقة ممكنـة، أو أن تُولّد روح دولوز فجأة زخماً في جسده الشاب المرن، الرقيق ببشرته الناعمة وأظافره القصيرة؟

وضـع يـده على أكتاف بيانكا، وسـحب قميصها المقـور من فوق، وهو يهمس في أذنها، مدفوعاً بإلهام مفاجئ، كما لو أنه يتحدث إلى نفسه:

«أرغـب في السـاحة المختفيـة تحت ثياب هـذه المرأة، والتـي لا أعرفها، ولكني أشعر بها، وطالما لم أكتشفها، فلن أكون سعيداً...»

ارتجفت بيانكا بسرور. همس لها سيمون بثقة لم يعهدها في نفسه: «لنبني ترتيباً»

قبلته بلهفة.

قلَبهـا إلى الوراء وجعلها تسـتلقي على طاولـة التشريح. رفعت تنورتها وفتحـت سـاقيها، وقالت لـه: «ضاجعنـي كآلـة». وبينما ثدياها يـبرزان من تحت ثوبها، بدأ سـيمون ينزلق بتدفق في مسـاحة ترتيبه. ولسـان – آلته ولج في داخلهـا مثل قطعة غيـار في فتحة، وفم بيانكا ذو الاسـتخدامات المتعددة

أخذ ينفخ فقاعة هواء مثل عاصفة رياحية منتجة تنفساً قوياً وإيقاعياً ينعكس صـداه - «جـداً، جـداً!»، في ضربـات قلـب قضيـب سـيمون. تئـن بيانكا، ينتصب قضيب سـيمون، يلعق سـيمون جسـد بيانكا، تلمس بيانكا ثدييها، تنتصـب الأعضاء الذكرية للتماثيل المسـلوخة، يسـتمني غاليـلي تحت ثوبها، وأبقراط تحت رداءها «نعم، نعم!» تمسـك بيانكا بقضيب سـيمون السـاخن والصلب في الآن نفسه، كأنه خرج للتو من مصهر الحديد والصلب «تدخله في فم آلتها». ينشـد سـيمون كما لو كان يتكلم مع نفسـه، نقلاً عن أرسـطو، وكأن شـيئاً لم يكن: «إن الجسـد تحت الثياب هو مصنع ساخن.» يقوم مصنع بيانـكا تلقائياً بترطيب صيرورة عضـوه الجنسي. يتردد صدى أنينهم المختلط في المسرح التشريحي المقفر.

لم يكـن مقفـرا تمامـاً: عـاد الرجـل ذو القفازات ليشـاهد الشـابين. رآه سيمون مختبئاً في زاوية في مدرجات المدرج. رأته بيانكا وهي تقبّل سيمون.

يـرى الرجل ذو القفـازات في الظلام عين بيانكا السـوداء، تلمع وهي تراقبه أثناء تقبيلها لسيمون.

في الخارج، بدأ ليل مدينة بولونيا أخيراً منعشـاً، أشـعل بايارد سـيجارة منتظـراً أنطونيـوني، الكريم والمنهك القوى، أن يتحـرك. في هذه المرحلة من التحقيـق لا يسـتطيع أن يقول مـا إذا كان نادي اللوغوس هـو قضية مثقفين متنوريـن غير مؤذين أو خدعة أكثر خطورة، لها صلة بموت بارت، وبموت العشـيق المُتعهـد، وله صلة بجيسـكار، والبلغاريين واليابانيـين. يرن جرس الكنيسـة أربـع مرات. أخذ أنطونيوني يسـير متبوعاً بمونيـكا فيتي، والاثنان يتبعهما بايارد. يجتازون بصمت المعارض التي تحدها المتاجر الأنيقة.

مقوسـة على طاولـة التشريح، تهمس بيانكا لسـيمون بقوة حتى يتمكن الرجل ذو القفازات المخبأ في المدرجات من سماعها: « ضاجعني كآلة «يتمدد سـيمون فوقهـا، ويدخل قضيبـه في فرجها، ويلاحظ بسرور أنه يفرز سـائله المنـوي المتدفـق بتوتر، وعندما غـاص بداخلها أخيراً، أحسّ آنذاك بالسـائل الخالـص والمائـع، من دون تقطع، منزلقاً فوق الجسـد الممتلئ والمقوس لفتاة

مدينة نابولي التي تتحرك تحته.

بعد أن صعد في اتجاه شارع فاريني وأمام كاتدرائية سان ستيفانو ذات الكنائس السبع (التي شيدت على مدار العصور الوسطى)، جلس أنطونيوني على مقعد حجري. يمسك يده المبتورة في يده السليمة، مطأطئاً رأسه، لكن بايارد ظل بعيداً بمسافة عنه تحت الأقواس، مدركاً أنه يبكي. تقترب مونيكا فيتي، يبدو أن لا شيء يشير إلى أن أنطونيوني يشعر بوجودها، خلفه مباشرة، لكن يعلم بوجودها، وأيضاً بايارد يعرف أنه يعلم بقربها منه. ترفع مونيكا فيتي يدها، لكن يدها تظل معلقة في الهواء، مترددة، بلا حراك فوق الرأس المطأطئ، مثل رسم لهالة متداعية ومضطربة. بايارد، وراء عموده، أشعل سيجارة. يتنشق أنطونيوني الهواء. تبدو مونيكا فيتي مثل حلم حجري.

تتخبط بيانكا أكثر فأكثر تحت وطأة جسد سيمون الذي تمسك به بتشنج، وهي تصرخ: «الآلة معجزة!» بينما قضيب سيمون يتحرك في داخلها بقوة محرك احتراق داخلي. من مخبئه، يهلوس الرجل ذو القفازات متخيّلاً تهجين قاطرة وحصان بري. يتورم المسرح التشريحي باتصالهم، ويشهد الاهتزاز الأصم والمتقطع، في الواقع إن الآلات المرغوبة لا تكف عن اختراق بعضها البعض، وهي تسير، ولا تسير إلا وهي تعمل على الاختراق. «دوماً يتطعم النتاج بالمنتج، وأجزاء الماكينة هي على حد سواء الوقود.»

كان لدى بايارد الوقت لإشعال سيجارة أخرى، ثم سيجارة أخرى. قررت مونيكا فيتي أخيراً، وضع يدها على رأس أنطونيوني الذي ينتحب الآن من دون أن يتمالك نفسه. أخذت تداعب شعره بحنان غامض وأنطونيوني يبكي ويبكي، لم يعد بمقدوره التوقف. تحدق بعينيها الرماديتين الجميلتين في رقبة المخرج، وبايارد بعيد لدرجة أنه لا يستطيع تمييز تعابير وجهها بوضوح. ومع ذلك، حاول اختراق الظلام، وعندما اعتقد أخيراً أن بمقدوره الاطلاع على تجليات الشفقة في ملامح وجهها كما أوحى له عقله المنطقي، أشاحت مونيكا فيتي ببصرها بعيداً، ورفعت عينيها نحو المبنى الضخم للكاتدرائية. ربما بالفعل سرحت بها أفكارها بعيداً، إلى مكان آخر. ومن بعيد، يُسمع

صوت مواء قطة، قرر بايارد أن الوقت قد حان للخلود إلى النوم.

على طاولة التشريح، الآن بيانكا هي من تقوم بدور الحصان الحديدي ممتطية سيمون المستلقي على لوح رخامي، وكل عضلات الشاب قد تصلّبت لإعطاء المزيد من الراحة لضربات الفتاة الإيطالية. «ليس هناك سوى إنتاج واحد، وهو إنتاج الواقع.» تنزلق بيانكا فوق سيمون بسرعة أكبر وأقوى وصولاً إلى نقطة الاصطدام والتلاقي بالهدف، وحين انصهرت الآلتان المرغوبتان في بعضهما البعض في إطلاق العنان للذرات وصولا إلى الذروة، أصبحتا أخيراً جسداً من دون أعضاء: «لأن الآلات المرغوبة هي الفئة الأساسية لاقتصاد الرغبة، تنتج بنفسها جسداً من دون أعضاء ولا تميز بين عملاء أجزائها...» تتشابك عبارات دولوز في عقل الشاب عندما تشنج جسده، وخفق جسد بيانكا بشدة وتوقفت وانهارت فوقه، ليمتزج عرقها بعرقه، وهو منهك.

تسترخي الأجساد، وهي تهتز من شدة الرعشات المتبقية.

«ولذلك، فالاستيهام ليس فردياً أبداً، وإنما هو استيهام جماعي.»

لم يتمكن الرجل ذو القفازات من المغادرة. إنه منهك، هو أيضاً، لكن ليس من شدّة التعب الرائع. وإنما طيف أصابعه يؤلمه.

«يقف المصاب بالفصام على حافة الرأسمالية: إنه النزوع المتطور، وفائض الإنتاج، والبروليتاريا والملاك المهلك.»

تشرح بيانكا لسيمون انفصام دولوز، وهي تلفّ سيجارة حشيش. في الخارج تُسمع أولى صرخات الطيور. واستمر الحديث حتى الصباح. كلاّ، لم تنخدع الجماهير، لقد رغبت في الفاشية في لحظة كهذه، وفي ظل هذه الظروف... وأخيراً نام الرجل ذو القفازات في صفوف المدرجات.

8h420

غادر أخيراً الشابان أصدقاءهما من تماثيل الخشب، وأخذا يستنشقان

الهواء الدافئ في ساحة ماجوري. عبرا نافورة نيبتون، بدلافينها الشيطانية، وحورياتها الفاحشة. يشعر سيمون بالدوار من شدة التعب والكحول والمتعة ولفافة الحشيش. لقد مر أقل من أربع وعشرين ساعة منذ وصوله، وحتى الآن هو راض ومسرور، بإقامته في مدينة بولونيا. ترافقه بيانكا إلى المحطة. يصعدان معاً عبر شارع الاستقلال، الشارع الرئيس في وسط المدينة بمحلاته التجارية النائمة. تشم الكلاب علب القمامة، يخرج الناس بحقائب في أيديهم: إنه يوم عطلة، والجميع يذهب إلى المحطة.

إنها التاسعة صباحاً. إنه يوم 2 غشت 1980. يعود أصحاب عطلة شهر يوليوز. ويستعد أصحاب عطلة شهر غشت للسفر.

تلف بيانكا لفافة حشيش، ويرى سيمون أن من اللازم أن يغير قميصه. يتوقف أمام متجر أرماني، ويتساءل عما إذا كان بإمكانه أن يضيف ثمن القميص إلى النفقات.

في نهاية الشارع الطويل، يوجد باب المعرض الضخم، الذي يتكون من نصف منزل بيزنطي (في المظهر) والنصف الآخر عبارة عن قوس قروسطي، والذي تحته رغب سيمون، من دون معرفة السبب الحقيقي، وأيضاً كأن وقت موعد الذهاب إلى المحطة لم يحن بعد، قاد بيانكا نحو السلالم الحجرية عند سفح الحديقة، وتوقفا أمام نافورة غريبة، جدار سلالمها مرصعة بزخارف، وأخذا يتناولان لفافة الحشيش، وهما يتأملان تمثال منحوت لامرأة عارية قبالة حصان وأخطبوط ومجموعة من المخلوقات البحرية، لم يتمكنا من التعرف عليها. شعر سيمون إلى حد ما بالانتشاء. ابتسم في وجه التمثال، وهو يفكر في الكاتب ستندال، الشيء الذي يعيده إلى رولان بارت: «يفشل المرء دوماً في التحدث عمّا يحبه.»

تعج محطة بولونيا بالسائحين الذين يرتدون سراويل قصيرة، وأطفال يقفزون من مكان لآخر. يسترشد سيمون ببيانكا التي تأخذه إلى قاعة الانتظار، حيث وجد أمبرتو إيكو هناك وجاك بايارد الذي أحضر له حقيبته الصغيرة من الفندق الذي أقاموا فيه، والذي لم ينم فيه في آخر المطاف.

يصطدم سيمون بطفل يركض خلف أخيه الصغير وكاد يفقد توازنه. يسمع إيكو يشرح للمفوض بايارد: «سيكون هذا الأمر بمثابة القول إن ذات الرداء الأحمر ليست قادرة على تخيل عالم يتم فيه اجتماع يالطا ويعقب فيه ريغان كارتر.»

على الرغم من النظرة التي ألقى إليه بايارد، وأدرك سيمون أنها نداء استغاثة، لم يجرؤ سيمون على مقاطعة الأكاديمي الكبير. لذا نظر حوله واعتقد أنه رأى إنزو وسط الحشود مع عائلته. يقول إيكو لبايارد: (باختصار، بالنسبة إلى ذات الرداء الأحمر التي ارتأت إمكانية وجود عالم ممكن لا تتحدث فيه الذئاب، فسيكون العالم «الحالي» هو عالمها، العالم الذي لا تتحدث فيه الذئاب.) يشعر سيمون بموجة قلق تجتاحه، ويعزو ذلك إلى تأثير لفافة الحشيش. يعتقد أنه يرى سيتفانو مع امرأة شابة تبتعد في اتجاه الممرات. «يمكننا قراءة الأحداث التي تم سردها في الكوميدية الإلهية على أنها» ذات مصداقية «مقارنة بموسوعة القرون الوسطى والأساطير مقارنة بموسوعتنا نحن» يشعر سيمون وكأن كلمات إيكو ترتد في رأسه. يعتقد أنه يرى لوسيانو ووالدته يحملان حقيبة كبيرة مليئة بالطعام. من أجل طمأنة نفسه، يتحقق من أن بيانكا تجلس بجانبه. يتمتع برؤية سائح ألماني، أشقر بقبعة من نوع تيرولين، وكاميرا كبيرة حول عنقه، وسروال جلدي، وجوارب عالية، وهو يجلس خلفها. في صخب الأصوات الإيطالية التي يتردد صداها تحت سقف المحطة، يركز سيمون على عزل العبارات الفرنسية لإيكو: «من ناحية أخرى، إذا قرأنا الرواية التاريخية نجد فيها حكاية ملك فرنسا رونسيبالدي، فإن المقارنة مع العالم صفر في الموسوعة التاريخية تولد شعوراً بعدم الارتياح ينذر باحتمال حدوث إعادة ترتيب للتفكير التعاضدي: من الواضح أنها ليست رواية تاريخية، بل رواية عجائبية.»

عندما اتخذ سيمون أخيراً قراره بتحية الرجلين، اعتقد أنه يتوهم نفسه أمام عالم السيميائيات الإيطالي، لكنه يرى أن بايارد فهم على الفور أنه وفقاً

للتشـخيص الذي أقره بنفسـه عند أسـفل التمثال، كان إلى حد ما تحت تأثير المخدرات.

يخاطبـه إيكـو كما لو أنـه يتابع بدايـة المحادثـة: «ماذا يعنـي في أن ندرك عنـد قـراءة رواية ما أن ما يحدث فيهـا هو أكثر «حقيقة » ممّـا يحدث في الحياة الحقيقية؟» يعتقد سيمون أنه في رواية، يعض بايارد شفته أو يهز كتفيه.

ثم صمت إيكو أخيراً، وخلال وقت وجيز، لم يكسر أحد الصمت.

يعتقد سيمون أنه يرى بايارد يعض شفته.

يعتقد أنه يرى الرجل ذو القفازات يمر من وراء ظهره.

مـاذا تعرف عن الوظيفة السـابعة للغة؟ سـيمون، وقـد اختلطت عليه الأمور، لم يدرك على الفور أنه ليس بايارد، وإنما إيكو هو الذي يطرح السؤال. يلتفت بايارد نحوه. يدرك سيمون أنه مازال يمسك بيد بيانكا. ينظر إيكو إلى الفتاة بشـكل شهواني قليلاً (يبدو كل شيء خفيفاً). يحاول سيمون أن يلملم شـمله: «لدينا كل الأسـباب التي تدعـو للاعتقاد بأن بـارت وثلاثة آخرين قُتلـوا بسـبب وثيقة تتعلق بالوظيفة السـابعة للغة.» يسـمع سـيمون صوته، وهو يشعر كأن بايارد هو من يتحدث.

يستمع إيكو باهتمام لقصة المخطوط المفقود الذي يُقتل الناس من أجله. يرى رجلا يمرّ يحمل باقة من الورود في يده. يسرح عقله للحظة، وقد تراءت له رؤية راهب مسموم.

في وسـط الحشـد، يعتقـد سـيمون أنه يتعرف عـلى الرجل الـذي يحمل الحقيبة في الليلة الماضية. يجلس الرجل في قاعة الانتظار ويدس حقيبته، تحت مقعده. يبدو أنه ملأها مثل برميل للفرقعة.

الساعة العاشرة صباحاً.

لم يرغـب سـيمون في أن يهين إيكو مذكّـراً إياه بأن هناك سـت وظائف للغـة فقط في نظرية جاكوبسـون، يعرف إيكـو ذلك تماماً، لكنـه، في تصوره ليس الأمر صحيحاً تماماً.

يقر سيمون بأن هناك رسماً تخطيطيا ل «وظيفة سحرية أو تعزيمية» في بحث جاكوبسون، لكنه كما يذكر إيكو أن جاكوبسون لم ينظر إليها بما يكفي من الجدية، ليحتفظ بها في تصنيفه.

لا يدعي إيكو أن الوظيفة «السحرية» توجد بالمعنى الدقيق للكلمة، ومع ذلك يمكن للمرء أن يجدها بلا شك في أعقاب أعمال جاكوبسون، شيء ما مستوحى من أعماله.

أوستن، فيلسوف بريطاني، قد نظّر بالفعل لوظيفة أخرى أطلق عليها «الوظيفة الأدائية» والتي يمكن تلخيصها بالصيغة التالية: «حينما يعني القول الفعل.»

يتعلق الأمر بالقدرة التي تملكها بعض الملفوظات في تحقيق (إيكو يقول «تفعيل») ما تتلفظ به من خلال فعل التلفظ بذلك الكلام. على سبيل المثال، عندما يقول العمدة «أعلنكما الآن زوجاً وزوجة» أو عندما سيد إقطاعي في حفلة تدريع فارس من خلال نطق عبارة «أجعلك فارساً» أو عندما يقول القاضي «أدينك»، أو عندما يقول أيضاً رئيس الجمعية «أعلن افتتاح المجلس» أو ببساطة عندما تقول لشخص ما «أعدك بذلك»، إن فعل نطق هذه العبارات هو الذي يجلب تحقيق ما تتلفظ به.

بطريقة ما، هذا هو مبدأ الصيغة السحرية، «الوظيفة السحرية» عند جاكوبسون.

في أعلى الجدار، تشير ساعة الحائط إلى 10.02 صباحاً.

يترك بايارد المجال لسيمون ليقود المحادثة.

يعرف سيمون نظريات الفيلسوف أوستن لكنه لا يرى في ذلك أي هدف لقتل الناس.

يقول إيكو إن نظرية أوستن لا تقتصر على هذه الحالات القليلة، لكنها امتدت إلى حالات لغوية أكثر تعقيداً، وعندما لا يكتفي ملفوظ بتأكيد شيء ما حول العالم، بل يهدف إلى إثارة فعل ما، سواء أتحقق أم لم يتحقق، من خلال

حقيقة بسيطة تتمثل في كون هذا الملفوظ تمت صياغته. على سبيل المثال، إذا أخبرك أحد ما أن «الجو حار هنا»، فقد تكون ملاحظة بسيطة على درجة الحرارة، ولكنك تفهم بشكل عام أنه يتوقع تأثير ملاحظته عليك لتسارع إلى فتح النافذة. وبالمثل، عندما يسألك أحد «هل لديك ساعة الآن؟»، فإنه لا يتوقع كجواب عن سؤاله نعم أو لا، ولكن في الواقع أن تخبره إلى كم تشير الساعة.

وفقاً لتصور أوستن، يعد التحدث فعلا كلامياً بما أن هذا يكمن في قول شيء ما، ولكن يمكن أن يكون أيضاً فعلاً تمريريـاً، أو الفعل الحاصل بالقول، الذي يتجاوز التبادل اللفظي الخالص؛ لأن هذا القول يحدث شيئاً ما بالمعنى الذي ينتج به أفعالا. يتيح استخدام اللغة إمكانية المراقبة ولكن أيضاً، كما نقول بالإنجليزية إمكانية الأداء والإنجاز (to perform، يقول إيكو بلكنته الإيطالية.)

لا يدرك على الإطلاق بايارد مغزى قول إيكو، ولا إلى أي شيء يلمّح إليه، وكذلك سيمون لم يدرك القصد من كلامه.

غادر الرجل الذي يحمل الحقيبة، ولكن سيمون يعتقد أنه يرى الحقيبة تحت المقعد (ولكنها لم تكن بهذا الحجم؟) يقول سيمون في نفسه. لقد نسيها مرة أخرى، وأن هناك بالتأكيد أناساً مشتتي الذهن، بحث عنه وسط الحشد، لكنه لم يره.

تشير ساعة الحائط إلى الساعة 10.05 صباحاً.

يواصل إيكو شروحاته: «ومع ذلك دعونا نتخيل لبرهة أن الوظيفة الإنجازية لا تقتصر على الحالات القليلة المذكورة. دعونا نتخيل وظيفة للغة تسمح، بطريقة أكثر شمولا بإقناع أي شخص بفعل أي شيء في أي موقف.»

الساعة 10.06 صباحاً.

«من يملك المعرفة وامتلاك مثل هذه الوظيفة، سيكون في الواقع سيد العالم. لن يكون لقوته حدود. سيكون قادراً على الفوز في كل الانتخابات، وإثارة الحشود، وإحداث الثورات، وإغواء جميع النساء، وبيع جميع أنواع المنتجات التي

يمكن أن يتخيلها المـرء، وبناء إمبراطوريات، وخداع العالم بأسره، والحصول على كل ما يريده في أي ظرف من الظروف.»

تشير الساعة إلى 10.07 صباحاً.

بدأ بايارد وسيمون يفهمان وظيفة اللغة.

قالت بيانكا: «هل سـيكون بمقـدوره الإطاحة ببروتاغـوراس الأكبر وتولي رئاسة نادي اللوغوس.»

يجيبها إيكو مبتهجاً: «نعم، أعتقد ذلك.»

يسأل سيمون: « ولكن بما أن جاكوبسون لم يتحدث عن وظيفة اللغة هذه...»

إيكـو: «ربـما فعل ذلـك في نهاية المطاف؟ ربما توجد نسـخة غير منشـورة من كتابه أبحاث في اللسانيات العامة يعرض فيها بالتفصيل هذه الوظيفة؟»

تشير الساعة إلى 10.08 صباحاً

قال بايارد بصوت عال: «وإن بارت كانت بحوزته هذه الوثيقة.»

سيمون: «وقد قتلوه ليسرقوا منه الوثيقة؟»

بايارد: «كلا، ليس ذلك فقط. بل لمنعه من استخدامها».

إيكو: «إذا كانت الوظيفة السابعة موجودة وإذا كانت في الواقع نوعاً لوظيفة إنجازية أو تأثيرية، فإنها سـتفقد الكثير من سـلطتها، إذا عرفها الجميع. إن معرفتنا بآليـة متحكمـة ومخادعـة لا تحمينا بالضرورة من سـطوتها - انظروا إلى الإشـهار، والتواصل؟: يعرف معظم الناس كيف تشتغل هذه الآليات، وأية وسائل تستخدم ولكن على الرغم من ذلك، هذه المعرفة لا تضعفها...»

بايارد: «والشخص الذي سرقها يريد استخدامها حصرياً لصالحه.»

بيانكا: «على أي حال، ليس أنطونيوني، هو السارق.»

يدرك سيمون أنه يحدق بنظره إلى الحقيبة السوداء المنسية تحت المقعد منذ خمس دقائق. تبدو له ضخمة، ينتابه شعور أنها تضاعفت ثلاث مرات من حيث الحجم، لا بد أنها تحتوي على أربعين كيلوغراماً أو أنه لا يزال تحت تأثير المخدرات.

إيكـو: «إذا كان ثمة شـخص يرغب في تملك الوظيفة السـابعة لنفسـه، فيتعين عليه التأكد من عدم وجود نسخ أخرى.»

بايارد: «كانت هناك نسخة في منزل رولان بارت...»

سـيمون: وكان حامد نسخة متنقلة، كان يحمل النسخة بداخله.» يشعر سيمون أن الإبزيم الذهبي للحقيبة هو عين تنظر إليه مثل قابيل في القبر.

إيكو: «ولكن من المحتمل أيضا، أن اللص عمل نسخة لنفسه خبأها في مكان ما.»

بيانـكا: «إذا كانـت وثيقـة ذات قيمـة كبـيرة، فـلا يمكـن المخاطـرة بفقدها...».

سـيمون: «وأيضاً ثمة مخاطرة إذا صنع منها نسـخة وسـلمها لشـخص ما...» يعتقد أنه يرى أطيافاً من الدخان تتصاعد من الحقيبة.

– إيكـو: «أصدقائي، سـأضطر إلى ترككم! سـيغادر القطار في غضون خمس دقائق.»

ينظر بايارد إلى السـاعة الجدارية. إنهـا 10:12 صباحاً « كنت اعتقد أن قطارك سيغادر في الساعة الحادية عشرة صباحاً؟»

صحيـح، لكـن فكـرت في النهاية، سأسـتقل القطـار الذي قبلـه. بهذه الطريقة سأكون في ميلانو في وقت مبكر!»

يسأل بايارد: «أين يمكننا أن نجد الفيلسوف أوستن هذا؟»

إيكـو: «لقد مات. ولكن هناك تلميذه الذي اسـتمر في العمل على هذه القضايا المتعلقـة بالفعل الإنجازي، والتمريري، والتأثيري... إنه فيلسـوف أمريكي متخصص في اللغة يدعى جون سورل.»

بايارد: «وأين يمكننا أن نجد جون سورل هذا؟»

إيكو: «لكنه... في أمريكا!»

10h14 صباحاً. يصعد عالم السيميولوجيا الكبير إلى قطاره.

ينظر بايارد إلى لوحة الإعلانات.

10h17 صباحـاً. يغادر قطار أمبرتو إيكو محطة بولونيا. يشـعل بايارد سيجارة.

H1810 صباحـاً. يخبر بايارد سـيمون أنهم سيسـتقلون قطار السـاعة الحادية عـشرة صباحاً إلى ميلانـو، حيث يتعـين عليهـم من هناك السـفر إلى باريس. سـيمون وبيانـكا يودعان بعضهما البعض. يذهـب بايارد للحصول على التذاكر.

10h19 صباحا. سـيمون وبيانكا يتبادلان القبلات وسـط الحشـد في حجـرة الانتظـار. تطول القبلـة، ومثل معظـم الأولاد، يبقي سـيمون عينيه مفتوحتين، وهو يقبّل بيانكا، يعلن صوت أنثوي عن دخول القطار إلى محطة أنكونابال.

10h21 صباحـاً. بينـما كان يقبل بيانكا، لمح سـيمون شـابة شـقراء في مرمـى نظره. الشـابة عـلى بعد عشرة أمتار. اسـتدارت نحوه، وابتسـمت في وجهه. انتفض سيمون في مكانه.

إنها أناستازيا.

يقول سيمون في نفسه أن نبتة الحشيش كانت بالتأكيد قوية، وأنه متعب جداً ولكن كلاّ، تلك القامة، وتلك الابتسـامة، ذلك الشـعر، إنها أناستازيا. ممرضة مستشفى سـالبيتريير، هنا في مدينة بولونيا. وقبل أن يتمكن سيمون، في حالـة من الرهبـة، من المناداة عليهـا، ابتعدت الشـابة وخرجت من محطة القطار، فقال آنذاك سـيمون لبيانكا «انتظريني هنا!» وركض خلف الممرضة ليتأكد من حقيقة الأمر.

لحسن الحظ، لم تنصع بيانكا وتبعته أيضاً. وهذا ما سينقذ حياتها.

10h23 صباحـا. اجتـازت أناسـتازيا الممـر الدائـري أمـام المحطـة، وتوقفت واستدارت مرة أخرى، كما لو كانت تنتظر سيمون.

10h24 صباحـاً. عند الخروج من المحطة. بحث سـيمون بنظراته عن أناسـتازيا وحدد مكانها عند نهاية الشارع الذي يحيط بالمدينة القديمة، لذلك

عبَر بخطوات سريعة مشاتل الزهور وسط الممر الدائري. تتبعه بيانكا على بعد أمتار قليلة.

10h25 صباحاً. تنفجر محطة بولونيا.

10h25

وقع سيمون على الأرض. اصطدم رأسه على العشب. تطاير عليه صوت ارتطام الزلزال الذي حدث مثل سلسلة من الأمواج. ملقى على العشب، يلهث، وقد لفه الغبار، واكتوى بمطر من الحطام الكثيف، وصمّ أذنيه صوت الانفجار، عاش سيمون، مضطرباً، التجربة الحسية لانهيار المبنى الذي تداعى خلف ظهره، كما هو الحال في الحلم، عندما يسقط المرء في هاوية لا قرار لها، أو عندما يشرب حتى الثمالة، ويشعر أن الأرض تهتز تحت أقدامه. لقد اعتراه شعور بأن مشاتل الزهور هي بمثابة صحن طائر يدور في جميع الاتجاهات. عندما تباطأ المشهد حوله في النهاية، اغتنم الفرصة محاولاً التحرك. تبحث عيناه عن أناستازيا، لكن مرمى مجال نظره محتجب بلوحة إعلانية (إشهار مشروب فانتا) ولم يتمكن من تحريك رأسه. لكن يعود إليه السمع شيئاً فشيئاً، يسمع صراخاً باللغة الإيطالية ومن بعيد صفارات الإنذار الأولى.

يشعر سيمون أن أحداً يقلبه. إنها أناستازيا التي تديره على ظهره وتفحصه. يرى سيمون وجهها السلافي slave الجميل يتراقص في زرقة سماء مدينة بولونيا الباهرة. تسأله إذا كان مصاباً ولكنه عاجز عن الإجابة؛ لأنه لا يعرف، ولأن الكلمات عالقة في حنجرته. أخذت أناستازيا رأسه بين يديها وقالت له (وبرزت لُكنتها في هذه اللحظة): «اااانظر إليّ. لست مصصاباً. كل شيء على ما يرام. تمكن سيمون من النهوض».

تهشم الجناح الأيسر بأكمله في المحطة. في حجرة الانتظار، لم تبق سوى كومة من الحجارة والعوارض. تطاير أنين طويل لا شكل له من أحشاء المبنى المبقور الذي كشف سقفه الممزق عن هيكله العظمي الملتوي.

لمح سيمون جسد بيانكا أمام مشاتل الزهور. زحف إليها ورفع رأسها.

لقـد أصيبت ببعـض الكدمات ولكنها عـلى قيد الحياة. إنها تسـعل. أصيبت بجـروح في جبينهـا والـدم يسـيل على وجهها. همسـت بيانـكا قائلـة: «ماذا حدث؟» وفي ردّ فعل هو، في تلك اللحظة، لفتة وجودية، تقوم يدها بتفتيش محفظـة الكتف الصغيرة التي لا تزال تحملها فوق ثوبها الملطخ بالدماء. تأخذ سيجارة وتطلب من سيمون: «اشعلها لي من فضلك.»

ومـاذا عـن بايـارد؟ يبحـث عنـه سـيمون وسـط الجرحـى، والناجين المذعوريـن، تنـزل الشرطـة مـن سـيارات فيـات ويقفز رجـال الإنقـاذ من سـيارات الإسـعاف الأولى مثل المظليـين. لكن في هذا الباليـه المربك المكتظ بدمى في حالة هستيرية، لم يعد يتعرف على أي شخص.

ثم فجأة، رأى الشرطي الفرنسي بايارد، يخرج من تحت الأنقاض مغطى بالغبـار، ضخماً، يعطي انطباعاً عن القوة والاسـتياء الهادئ والأيديولوجي، يحمل شـاباً فاقـداً للوعي فـوق ظهره، وهـذا الظهور الطيفي في وسـط هذا المشهد الحربي أثر في سيمون الذي أخذ يفكر في شخصية جان فالجون.

همست بيانكا: «أنا متأكدة من أنه غلاديو...»

يرى سـيمون شـكلا ملقى على الأرض، مثل حيوان ميت، ويدرك أنها ساق بشرية.

بين الآلات المرغوبة والجسد من دون أعضاء ينشأ صراع واضح.

يهز سـيمون رأسه، يتأمل الجثث الأولى التي يتم إجلاؤها على نقالات، إما حية أو ميتة، وكلها ممدودة بأذرعها المعلقة أو المجرورة على الأرض.

« كل علاقـة بـين الآلات، كل إنتاج للآلة، كل ضجيـج الآلة أصبح لا يطاق للجسم من دون أعضاء.»

التفـت سـيمون نحو أناسـتازيا وفكر أخيراً أن يطرح عليها سـؤالا، في تصوره، يجب أن يُفسر أسئلة أخرى: «لصالح من تعملين؟»

فكـرت أناسـتازيا لبضع ثـوان ثم ردت عليـه بنبرة احترافيـة لم يعهدها فيها: «لا أعمل لصالح البلغاريين.»

وتختفـي أناسـتازيا، عـلى الرغـم مـن نشـاطها التمريضي، مـن دون أن تعرض مسـاعدتها على رجال الإنقاذ في علاج الجرحى. تركض نحو الجادة، وتعبر الطريق وتختفي تحت الأقواس.

في هـذه اللحظـة بالتحديد، انضم بايارد إلى سـيمون، كما لو أن كل هذا قـد تم تصميمه بدقة، كما هو الحال في مسرحية، يقول سـيمون في نفسـه، إن القنبلة التي أضيفت إلى لفافة الحشيش زادت من جنونه وهذيانه.

قال بايارد، مبرزاً تذكرتين إلى ميلانو: «سنسـتأجر سـيارة. لا أعتقد أنه سيكون هناك قطارات للتنقل اليوم.»

أخذ سيمون سيجارة من بيانكا ووضعها على شفتيه. حوله، تعم فوضى شـاملة. يغلق عينيه ويستنشق الدخان. إن وجود بيانكا ممددة على الإسفلت جعلـه يفكر مرة أخرى في طاولـة التشريح، والتماثيل المسـلوخة، وفي أصبع أنطونيوني وفي جيل دولوز ورائحة الاحتراق تطفو في الهواء.

« تحت الأعضاء، يشـعر باليرقات والديدان المقرفة، وفعل إله يدمره أو يخنقه بإخضاعه للنظام.»

الفصل الثالث

إيثـاكـا

48

ألتوسـير مذعـوراً، عبثا فتش جميـع أوراقه، لم يعثر عـلى الوثيقة الثمينة التي سُـلمت لـه، والتي أخفاهـا في ظـرف الإعلانات، وضعه بشـكل بارز عـلى مكتبه. على حافة انهيار عصبي، لأنـه، ومن دون الاطلاع على مضمون الوثيقة، يعرف أنه من الأهمية بمكان ضرورة أن يعيدها إلى الأشخاص الذين عهدوا بها إليه وأنه يتحمل مسؤولية كاملة عن ذلك، فتش في سلة المهملات الورقيـة، بحث أدراج مكتبه وأفرغ رفوف كتبه التي هزها الواحد تلو الآخر وألقاها على الأرض بغضب. اجتاحه غضب شـديد ضد ذاته ممزوجاً بشـك جنينـي عندما قرر أن ينادي «هيلـين! هيلين!» ركضت هيلين مهرولة، قلقة. هل، بالصدفة، تدرك... ظرف مفتوح... إشهار... بخصوص بنك أو مطعم بيتـزا...، لم يعد يعرف شـيئاً... هيلين، بعفويـة: «آه نعم، أتذكر، إعلان، لقد رميته».

توقف الزمن بالنسـبة إلى ألتوسـير. لم يطلب منها أن تكرر ما قالت، ما الجدوى من ذلك، لقد سمعها جيّداً. الأمل الوحيد، على أي حال، «ماذا عن القمامـة؟» لقد أُفرغـت الليلة الماضية، وأخذها جامعـو القمامة هذا الصباح.

تردّد أنين طويل في الكينونة الداخلية للفيلسوف ألتوسير وتوترت عضلاته، ينظر إلى زوجته هيلين العجوز التي تحملته كثيراً لسنوات عديدة، ويعرف أنه يحبها وأنه معجب بها ويشفق عليها، وهو غاضب من نفسه، ويعرف ما سبّب لها من معاناة بسبب نزواته، وخياناته وسلوكه غير الناضج، وحاجته الطفولية في دفع زوجته لتأييد اختيار عشيقاته، ونوباته الهوسية - الاكتئابية («نوبات الهوس الخفيف» كما يقولون)، ولكن الآن، هذا الأمر لا يطاق، طفح الكيل، هذا شيء أكبر مما يستطيع التسامح بشأنه، هو، المحتال غير الناضج، ارتمى على زوجته، وهو يصرخ كالحيوان وقبض على حنجرتها بيده التي ضيقت الخناق عليها كملزمة حداد وضغط بقوة، وهيلين مندهشة، تفتح عينيها على مصراعيها، لكنها لا تحاول الدفاع عن نفسها، وبالكاد تضع يديها على يديه، ولكن من دون أن تصارع حقاً، ربما رغم كل شيء تعرف أن هذا ما يحصل على أيّ حال أو تتمنى أن تقاتل، أن ينتهي هذا الأمر بطريقة أو بأخرى، وأن هذه المشاجرة قد تكون أفضل من المشاجرات الأخرى، وكذلك ألتوسير كان سريع الغضب، عنيفاً جداً، يتملكه عنف وحشي، ربما أرادت هيلين أن تعيش وتتذكر في هذه اللحظة جملة أو جملتين من ألتوسير، هذا الرجل الذي أحبته، «لا يتخلى المرء عن مفهوم مثلما يتخلى عن كلب»، ربما، لكن ألتوسير خنق زوجته مثل كلب، باستثناء أن الكلب، هو ألتوسير، هو الحيوان الضاري، الأناني، عديم المسؤولية والمهووس. وحين خفف الضغط على حنجرتها، كانت قد ماتت، طرف من اللسان، طرف صغير بائس من اللسان، يبدو، قد خرج من فمها، وعيناها الجاحظتان تحدق في قاتلها، أو في السقف أو في فراغ الوجود.

«قتل ألتوسير زوجته لكن المحاكمة لن تُجرى؛ لأنه سيحاكم في حالة جنون أثناء حدوث الواقعة. نعم، لقد كان غاضباً، ولكن أيضاً، لماذا لم يقل شيئاً لزوجته؟ إذا كان ألتوسير ضحية لنفسه»، فذلك لأنه عصى أولئك الذين طلبوا منه الصمت. كان يجب عليك أن تتحدث، أيها المعتوه، على الأقل إلى زوجتك. الكذب ثمين جدّاً لدرجة أنه لا يجب استخدامه بهذا السوء. كان من اللازم عليه أن يخبرها، على الأقل: «لا تلمسي هذا الظرف، فهو ذو قيمة

كبيرة جداً، فهو يحتوي على وثيقة ذات أهمية أساسية عهد بها إليّ فلان أو فلان (هنا، بمقدوره أن يكذب) بدلا من هذا، ماتت هيلين، وألتوسير الذي أُعتبر مجنوناً، سيُخلى سبيله بسبب بطلان الدعوى. سيُودع في مؤسسة لبضع سنوات، ثم سيغادر شقته في شارع أولم، وسيستقر في المقاطعة رقم عشرين، حيث كتب هذه السيرة الذاتية الغريبة جداً، «المستقبل يدوم طويلا»، حيث يمكن أن يقرأ فيها المرء هذه العبارة الجنونية الموضوعة بين قوسين: «لقد منحني ماو مقابلة، لكن لأسباب تتعلق بالسياسة الفرنسية»، ارتكبت حماقة، أكبر حماقة في حياتي، بعدم التوجه إلى هناك... (أنا من يؤكد على ذلك).

49

«بصراحة، علاقتنا بإيطاليا، يجب وضع حدّ لذلك!» يمشي أورنانو بخطى واسعة إلى المكتب الرئاسي رافعاً يديه إلى السماء. «ما هذا الذي يجري بحق السماء، في مدينة بولونيا؟ هل هذا مرتبط بقصتنا؟ لقد تم استهداف رجالنا؟»

يفتش بونياتوفسكي في البار. «من الصعب قول ذلك. قد تكون مصادفة؛ قد يكون اليسار المتشدد أو اليمين المتطرف، وقد تكون أيضاً إحدى عمليات الحكومة. لا يدري المرء أبداً ما يحدث مع الإيطاليين.» يفتح عصير طماطم.

جيسكار، جالساً خلف مكتبه، يغلق صحيفة لاكسبريس التي كان يتصفحها، ويضم يديه في صمت.

أورنانو (رفساً بالأرجل): «صدفة، هذا هراء! إذا كانت - أقول إذا - جماعة ما، أيّا كانت، حكومة، وكالة جهاز، منظمة لديها الوسائل والإرادة لتفجير قنبلة قتلت خمسة وثمانين شخصاً لعرقلة تحقيقنا، فإذن، أعتقد أننا نواجه مشكلة، الأمريكيون لديهم مشكلة، الإنجليز لديهم مشكلة. الروس لديهم مشكلة. هذا إذا لم يكن هم المشكلة بعينها، بطبيعة الحال.»

سأل جيسكار: «أعتقد أن ما حصل مشابه لأسلوبهم، أليس كذلك، ميشيل؟»

يبحث بونياتوفسكي عن ملح الكرفس.»إن القتل العشوائي بهذا العدد الكبير من الضحايا المدنيين، يدفعني إلى الاعتراف على أيّ حال بأن هذه بصمات اليمين المتطرف. بالإضافة إلى ذلك، وجود تلك العميلة الروسية أناستازيا التي أنقذت حياة الشاب سيمون.»

أورنانو: (يقفز فزعاً): «الممرضة أناستازيا؟ كذلك، هي التي وضعت القنبلة»:

بونياتوفسكي (يفتح قنينة فودكا): «ولماذا تكشف نفسها في المحطة، إذن؟»

أورنانو (موجهاً أصابع الاتهام إلى بونياتوفسكي كما لو كان مسؤولا شخصياً): «لقد تحققنا من الأمر، لم تعمل قط في مستشفى سالبيتريير.»

بونياتوفسكي (يمزج مشروبه بلودي ماري): «لقد تبث إلى حدّ كبير، أن رولان بارت لم يكن يملك الوثيقة في المستشفى. في جميع الاحتمالات، سارت الأمور على النحو التالي: خرج بارت بعد تناول الغداء مع ميتران، صدمته سيارة الغسيل التي كان يقودها البلغاري الأول؛ تظاهر البلغاري الثاني أنه طبيب، فحص بارت، وسرق منه أوراقه ومفاتيحه. كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الوثيقة كانت مع أوراقه.»

أورنانو: «ولكن ماذا حدث في المستشفى؟»

بونياتوفسكي: «رأى الشهود دخولَ متسللين يتطابق وصفهم مع البلغاريين الذين قتلوا العاهر المُتعهد، gigolo.»

أورنانو (يحاول ذهنياً تقييم قضية البلغاريين المتورطين في هذه القضية): «ولكن بما أنه لم يعد يملك الوثيقة؟»

بونياتوفسكي: «لقد جاءوا بلا شك لإنهاء المهمة.»

أورنانو، مرهقاً بشدة، توقف عن اللف والدوران وكما لو، أن شيئاً ما قد جذب انتباهه، أخذ يمعن النظر في زاوية من لوحة دي لاكروا.

جيسكار (ممسكاً بسيرة جون كينيدي قال، وهو يفركها بيديه: «لنفترض

بأن رجالنا هم من كانوا هدف الاعتداء الذي حدث في مدينة بولونيا»

بونياتوفسكي (مضيفاً الصلصة الحارة): هذا يدل على أن رجالنا كانوا على الطريق الصحيح «أورنانو: ماذا تقصد؟»

بونياتوفسكي: «إذا كان المراد من الاعتداء هو القضاء على رجالنا، فإن ذلك بهدف منعهم من اكتشاف شيء ما.»

جيسكار: «أيكون ذلك الاعتداء من صنيعة ذلك النادي، نادي اللوغوس؟»

بونياتوفسكي: «أو شيء آخر.»

أورنانو: «إذن هل نرسلهم إلى الولايات المتحدة؟»

جيسكار (متنهّداً) «ألا يملك هاتف، هذا الفيلسوف الأمريكي؟»

بونياتوفسكي: «يقول الشاب سيمون إن هذا السفر سيكون فرصة للكشف عن ملابسات هذه القضية إلى حد ما».

أورنانو: «نعم، أنا متأكد من أن هذا الأحمق الصغير يريد أن يضمن رحلة على حساب الجمهورية.»

جيسكار (حائراً كما لو أنه يمضغ شيئاً ما): «بالنظر إلى المعلومات التي يتوفر عليها، ألن يكون من الصواب أن نرسلهم إلى مدينة صوفيا؟»

بونياتوفسكي: «بايارد شرطي ممتاز، لكنه ليس جيمس بوند. ربما يمكننا إرسال فريق من قسم الرجال السريين؟»

أورنانو: «للقيام بماذا؟ لقتل البلغاريين؟»

جيسكار: «أفضل أن أترك وزير الدفاع بعيداً عن هذه القضية.»

بونياتوفسكي (محدثاً صريراً بأسنانه): «وكذلك لا يجب أن نخاطر بخلق أزمة دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي.»

أورنانو (يحاول تغيير الموضوع): «بالحديث عن الأزمة، كيف سار الأمر مع طهران؟»

جيسكار (مستأنفاً تصفح صحيفة لاكسبريس): «مات الشاه، الملاليون يرقصون.»

بونياتوفسكي (سكب لنفسه فودكا خالصة): «جيمي كارتر في ورطة. لن يطلق الخميني الرهائن أبداً».

ساد صمت مطبق.

كتب رايمون أرون في صحيفة لاكسبريس: «من الأفضل ترك القوانين تنام عندما ترفضها الأخلاق، سواء عن حق أو عن خطأ». يقول جيسكار: «يا لها من حكمة.»

جثا بونياتوفسكي على ركبة واحدة أمام الثلاجة.

أورنانو: «آه، وماذا عن الفيلسوف الذي قتل زوجته؟»

بونياتوفسكي: «لا أحد يكترث لذلك. إنه شيوعي، لقد ألقينا به في مارستان.»

ساد صمت مطبق. يخرج بونياتوفسكي قطع الثلج.

جيسكار (بنبرة عسكرية): «لا يجب أن تؤثر هذه القضية على الحملة الانتخابية.»

بونياتوفسكي (الذي أدرك أن جيسكار قد عاد إلى الموضوع الذي يشغله: «لا يمكن العثور على السائق البلغاري والطبيب المزيف.»

جيسكار (ينقر بإصبع السبابة على لوح كتابة جلدي): «لا يهمني السائق ولا اكترث للطبيب، ولا أبالي بهذا... نادي اللوغوس. أريد الوثيقة. فوق مكتبي.»

50

عندما علم بودريار أن ما يفوق ثلاثين ألف زائر حضروا افتتاح الهيكل الاستثنائي المعدني لمركز جورج بومبيدو عام 1977 من قبل جيسكار في هضبة بوبورغ، والذي أطلق عليه فوراً اسم «مصفاة تكرير النفط».

أو»نوتردام الأنابيب» كاد «يجثو على ركبتيه» وابتهج كطفل، مثل فتى لعوب للنظرية الفرنسية كما هو حاله، في كتاب صغير بعنوان تأثير بوبورغ - الانفجار والردع:

«أن تصبح الكتلة الجماهيرية (الزوار) المنجذبة بواسطة الهيكل الإنشائي متغيرا مدمراً للهيكل نفسه - لذا، إذا كان المصممون أرادوا ذلك (ولكن كيف يأملون ذلك؟)، وإذا كانوا قد برمجوا الأسس لوضع حد للهندسة المعمارية وللثقافة دفعة واحدة - فإن هضبة بوبورغ هي الموضوع الأكثر جرأة والحدث الأنجع في القرن.»

يعرف سليمان جيّداً حي ماريه وشارع بوبورغ، حيث يصطف الطلاب عند افتتاح المكتبة. إنه يعرف ذلك، لأنه رآهم بالفعل عند خروجه من نادي ليلي، متعباً من الإفراط في السهر ليلاً، ومتسائلاً كيف يمكن لعوالم مختلفة إلى هذه الدرجة أن تتسلل سوياً من دون أن تتلامس فيما بينها.

ولكن اليوم، هو من يقف في الطابور. يدخن، ومُشغل الموسيقى في أذنه، محاصراً بين طالبين منغمسين في كتبهما. خفية، يحاول أن يقرأ عناوين الكتب. يقرأ الطالب الذي أمامه كتاباً لميشيل دي سيرتو، بعنوان اختراع الحياة اليومية. يقرأ الآخر وراءه مثالب الولادة للكاتب سيوران.

يستمع سليمان لأغنية المشي على القمر لبوليس

يتقدم الطابور ببطء. قيل له إن الأمر قد يستغرق ساعة.

«أخضعوا بوبورغ! الشعار الثوري الجديد. لا طائل من حرقه. لا طائل من الاعتراض عليه. هيا! هذه هي أفضل طريقة لتدميره. لم يعد نجاح بوبورغ لغزاً: يذهب الناس إلى هناك بسبب هذا النجاح، إنهم يندفعون إلى هذا المبنى الذي تكشف هشاشته بالفعل عن كارثة، من أجل هدف وحيد هو إخضاعه.»

لم يقرأ سليمان أعمال بودريار ولكن عندما حان دوره، ومن دون أن يعرف أنه قد يشارك في هذا النوع من برنامج ما بعد الحركة الطلابية لأحداث مايو 1968 عبَر الباب الدّوار.

عبَر صالة أشبه بقاعة للصحافة، يعاين فيها الناس ميكرو فيلم على أجهزة العرض، وأخذ المصعد للوصول إلى غرفة للقراءة، تبدو مثل ورشة ضخمة للنسيج، فيما عدا أن العمال لا يقومون بجز القمصان التي يجمعونها بآلات الخياطة ولكنهم يقرؤون الكتب ويدونون ملاحظات في دفاترهم الصغيرة.

يرصد سليمان أيضاً شباباً جاءوا لمغازلة فتيات وصعاليك من أجل النوم.

إنه الصمت الذي أثار إعجاب سليمان، ولكن أيضاً سقف على ارتفاع عال: نصف مصنع، ونصف كاتدرائية.

خلف جدار زجاجي كبير، يبث تلفزيون ضخم صوراً من التلفزيون السوفياتي. بعد لحظات قليلة، تتحول الصور إلى قناة أمريكية. يسترخي متفرجون من مختلف الأعمار في كراسي حمراء. هذا أمر مقرف إلى حد ما. لا ينشغل سليمان بالفضاء، ويبدأ يطوف على الرفوف.

كتب بودريار: «لدى الناس رغبة في الاستيلاء على كل شيء، ونهب كل شيء، وأكل كل شيء، والهيمنة على كل شيء. الرؤية، فك الشفرة، التعلم لا يؤثر عليهم. التأثير الهائل الوحيد، هو تأثير الهيمنة السياسية. إن المنظمين (والفنانين والمثقفين) خائفون من ضعف الإرادة هذا الذي لا يمكن السيطرة عليه؛ لأنهم لا يتطلعون أبداً لأي شيء سوى تعلم الجماهير عرض المواهب الثقافية».

في الداخل، في الخارج، في الفناء الأمامي، في السقف، توجد مراوح هوائية في كلّ مكان. إذا تجاوز هذه المغامرة، فسوف يربط سليمان، مثل الجميع، هوية مركز بوبورغ، هذه السفينة المستقبلية الضخمة بصورة الريح.

«لم يتوقعوا أبداً هذا الافتتان الفاعل، المدمر، استجابة عنيفة وأصيلة لهبة ثقافية غامضة، وجاذبية لها كل خصائص اقتحام وانتهاك أماكن مقدسة.»

يشاهد سليمان بعض العناوين بشكل عشوائي. «هل قرأت رينيه شار» للكاتب جورج مونان. «راسين وشكسبير» لستندال. « وعد الفجر» للكاتب

غـاري. «الروايـة التاريخيـة» لجـورج لوكاش. «تحـت الـبركان. الفردوس المفقود». بانتاغرويل. (هذا الكتاب يعني له شيئاً ما.)

يمر أمام كُتب جاكوبسون من دون أن يراها.

اصطدم برجل ذي شارب.

«آه معذرة»

ربما جاء الوقت لتجسـيد شـخصية البلغاري حتـى لا ينتهي به المطاف مثل شريكه، جندي مجهول سقط في حرب سرية أصبح دعاتها أكثر وضوحاً ولكن نتائجها لا تزال غامضة.

دعنـا نقول إنه يدعى نيكولاي، على أي حال، يبقى اسـمه الحقيقي غير معروف. مع زميله، تابع مسار المحققين الذين قادوهم إلى الفتيان المتعهدين. قتلـوا منهـم اثنين. لا يعرف حتى الآن مـا إذا كان يجب أن يقتل ذلك الرجل اليوم، إنه غير مسلح. لقد جاء من دون مظلته، يهمس شبح بودريار في أذنه: «يكمـن الذعـر في التباطؤ، عندما لا يوجد دافع خارجي.» سـأله نيكولاي: «مـا الذي تبحث عنه؟» سـليمان، الذي لا يثق في الغربـاء منذ وفاة صديقيه، ينهـض ويجيب: «لا شيء.» ابتسـم له نيكولاي: «هـذه الكتب مثل أيّ كتب أخرى، من الصعب العععثور على ما تريد.»

51

مازلنا نتواجد في مستشفى باريس، ولكن هذه المرة لا يمكن لأي شخص دخول الغرفة لأنه هنا، معقل القديسة آن، مارستان الطب النفسي، وألتوسير تحت تأثير المسكنات. ريجيس دو براي وإتيان باليبار وجاك دريدا يقفون عند الباب ويناقشون المسار الذي يجب اعتماده لحماية أستاذهم العجوز. بيرفيت، المدعي العام، هو أيضاً تلميذ سـابق في المدرسـة العليا للأساتذة، إلا أن ذلك لا يعني أنه سيتصرف بشهامة، لأنه طالَب بالفعل اللجوء إلى محكمة الجنايات في الصحف. من ناحية أخرى، يتوجب على الرجال الثلاثة أن يستمعوا بصبر

إلى إنكار الطبيب الشجاع دياتكين، الطبيب النفسي الذي تابع حالة ألتوسير لسنوات، والذي في نظره ليس من الوارد إطلاقاً، ماذا أقول، جسدياً، وتقنياً، بل مستحيل (أستشهد بقوله) إن يكون ألتوسير قد خنق زوجته.

يصل فوكو فجأة. ونظراً للطابع الذي تتسم به فرنسا أنه إذا كنت أستاذاً في المدرسة العليا للأساتذة من عام 1948 إلى عام 1980، فلديك إذن بين تلامذتك و/ أو زملائك دريدا، فوكو، ريجيس دو براي، باليبار، جاك لاكان. وأيضاً برنار هنري ليفي.

يسأل فوكو عن آخر المستجدات، قيل له إنه ردد مراراً وتكراراً: «قتلت هيلين، ماذا بعد ذلك؟»

يأخذ فوكو دريدا جانباً، ويسأله عما إذا كان قد فعل ما طلب منه القيام به، أومأ دريدا برأسه. يراقبهم ريجيس دو براي خلسة.

يقول فوكو إنه لم يكن ليقوم بشيء من هذا القبيل، وعلى أيّ حال لقد رفض عندما طلب منه ذلك. (التنافس بين الجامعات يفرض ذلك، يتذكر بالمناسبة أنه طلب منه ذلك قبل دريدا. ما الأمر؟ لا يزال من السابق لأوانه قول ذلك. لكنه رفض، لأنه يتعين على المرء ألاّ يخون صديقاً حتى لو تعلق الأمر بصديق عجوز بكل ما ينطوي عليه هذا الأمر من ملل وحقد دفين.)

يقول دريدا، إنه من اللازم المضي قدماً. وأنه كانت هناك مصالح على المحك. سياسات.

يرفع فوكو عينيه إلى السماء.

وصل برنار هنري ليفي. طُرد بأدب عند الباب.

وبطبيعة الحال، سيعود من النافذة.

في هذه الأثناء، ينام ألتوسير. من أجله، يأمل طلابه السابقون ألاّ يحلم.

«كرة المضرب على الملاعب الحمراء الطينية ومشاهدة عالم مباشر على العشب ها قد عرفت الطريقة التي يجب أن يتقدم بها اللاعب، ويسدد ضربة لا يستطيع الخصم إرجاعها. ضرب الكرة بشكل مستقيم في اتجاه الخط. ضرب الكرة من دون تحريك المضرب. ضرب الكرة قبل أن تنزل إلى الملعب. يرد اللاعب الكرة إلى ملعب الخصم في خط مستقيم بورغ ضد كونورز، وغييرمو فيلاس ضد ماك إنور...»

يجلس سوليرز وكريستيفا في مقهى صغير في حديقة لوكسمبورغ، تأكل كريستيفا فطيرة بالسكر على مضض، في حين أن سوليرز يناجي نفسه بلا كلل، وهو يشرب قهوة بالقشدة.

يقول سوليرز:

«فيما يتعلق بقضية المسيح، هناك شيء مميز إلى حد ما؛ ذلك إنه هو يقول إنه سيعود.»

وكذلك:

«كما يقول بودلير: لقد أخذ الأمر مني وقتاً طويلا، كي أصبح معصوماً من الخطأ.»

تحدق كريستيفا في قشدة الحليب التي طفت على سطح الكأس.

«نهاية العالم بالعبرية، أبوكاليبس هي احتفال، هذا يعني الاكتشاف.»

تتقوس كريستيفا بجسدها لمقاومة الغثيان الذي اجتاح صدرها.

«إذا كان إله الكتاب المقدس قد قال أنا في كل مكان، فإننا سنعلم بذلك...»

تحاول كريستيفا التفكير بطريقة منطقية. تتلُو في نفسها ذهنياً: «لكن مع ذلك العلّامة ليست هي الواقع.»

يقترب منهكاً ناشر يعرفهم، يعرج، وسيجارة جيتان في فمه، يتنزه مع طفل صغير، جاء لإلقاء التحية عليهم، سأل سوليرز على أيّ عمل

يشـتغل «في الوقـت الحالي» وبطبيعة الحـال، لا يتوقف سـوليرز عن العمل: «رواية مليئة بالصور والشـخصيات... مئات الملاحظات المستقاة من أرض الواقـع... حـول حرب الجنسـين... لا أرى كتابـاً أكثر منه اسـتنارة وتعدداً ونقداً وبساطة.»

كريسـتيفا التـي لازالـت في حالة من التنويـم المغناطيسي بسـبب قشرة القشـدة، تكبـح مشـاعر الغثيـان. باعتبارها محللة نفسـية، تقوم بتشـخيص حالتها: ترغب في أن تلفظ ذاتها.

«رواية فلسفية، بل وميتافيزيقية. ذات واقعية ساخرة وشاعرية.»

نكـوص طفولتـي مرتبط بصدمة نفسـية. ولكن هي كريسـتيفا: سـيدة نفسها. لقد تمالكت نفسها.

ألقى سـوليرز بفيض من المعطيات إلى النـاشر الذي تجهم ليظهر اهتماماً فائقاً، في حين أن الطفل الصغير الذي يرافقه يجره من كم قميصه: «سـيتم في هذا الكتاب وصف المنعرج المرضي الشديد للنصف الثاني من القرن العشرين بتداعياته السرية والحقيقية. ويمكننا رسم صورة كيميائية له: الأجساد النسوية السلبية (ولماذا)، والأجساد الإيجابية (وكيف)».

تمد كريسـتيفا يدها ببطء إلى الكأس. تدخـل إصبعاً في العروة. وتتناول السائل البني.

«سـيتم عرض الفلاسـفة في هذا الكتـاب في نطاق حدودهـم الخاصة، والنساء في نوباتهم الهستيرية وحساباتهم، ولكن أيضاً في اعتباطيتهم الحرة.»

تغلق كريسـتيفا عينيها في لحظة الابتلاع. تسمع زوجها يستشهد بمقولة لكازانوفا: «إذا كانت اللذة موجودة، وإذا لم يكن بمقدورنا الاستمتاع بها إلا في الحياة فقط، فإن الحياة هي إذن سعادة.»

يقفز الناشر من مكانه: «ممتاز! جيّد جدّاً! جدّاً!»

يفتح الطفل عينيه مندهشاً.

يتحمـس سـوليرز وينتقـل إلى السـرد بصيغـة الحـاضر: «هنـا، لا يبدو

المتدينون الأكثر ورعاً والمتدينات بأحسن مظهر، المصابون بالهوس الاجتماعي والمعتلّون اجتماعياً يحتجون على السطحية، وتتعطل الصناعة المذهلة أو تميل تماماً إلى تشويه الحقيقة، ويبدو الشيطان غير سعيد، بما أن اللذة يجب أن تكون مدمرة، والحياة مصيبة. «

تنساب القهوة بداخل كريستيفا مثل نهر الحمم الدافئة. وتشعر بالقشدة في فمها، وفي حلقها.

يريد الناشر طلب كتاب آخر من سوليرز بعد الانتهاء من هذا الكتاب.

يروي سوليرز للمرة الألف حكاية عنه وعن فرنسيس بونج؛ يستمع الناشر بأدب. آه، هؤلاء الكُتاب الكبار! دائماً يعيدون نشر هواجسهم، ويعجنون دوماً مادة موضوعاتهم...

تعتقد كريستيفا أن الرُهاب لا يكتفي، بل ينزلق تحت اللسان، وأن موضوع الرهاب هو كتابة أولية، وعلى العكس من ذلك، فإن أيّ تمرين، في الكلام، بقدر ما هو كتابة، فهو لغة الخوف. وقالت كريستيفا في نفسها «الكاتب: مريض بالرهاب ينجح في التعبير مجازياً، لكي لا يموت من الخوف وأيضاً لكي يحيا في العلامات.»

سأل الناشر: «هل لديك أخبار عن ألتوسير؟» فجأة، صمت سوليرز. «بعد بارت، هذا فظيع. يا لها من سنة!» ينظر سوليرز بعيداً لكي يجيب: « نعم، عالَم جنوني، ماذا تريد؟ ولكن هذا هو قدر الأرواح الحزينة» لا يرى سوليرز عيون كريستيفا التي انفتحت مثل ثقبين أسودين. انصرف الناشر مع الطفل الذي أصدر أصواتاً خفيفة.

ظل سوليرز واقفاً، صامتاً للحظة. تتخيل كريستيفا رشفة القهوة تتشكل مثل ماء راكد في معدتها. لقد مرّ الخطر، لكن القشدة لا زالت هناك. في قعر الكأس، بقي الغثيان. يقول سوليرز: «أنا بارع في خلق الفوارق» تفرغ كريستيفا الكأس في جرعة واحدة.

ينزلون إلى البركة الكبيرة، حيث يلعب الأطفال بالقوارب الخشبية التي يستأجرها آباؤهم بالساعة مقابل بضع فرنكات.

تسأل كريستيفا عما إذا كانت ثمة أخبار عن لوي ألتوسير. يرد عليها سوليرز بأن الكلاب تشدد الحراسة، لكن برنار تمكن من رؤيته. مخبولاً تماماً. يبدو أنه عندما وجدوه، ظل يردد: «قد قتلت هيلين، فماذا بعد ذلك؟» هل يمكنك تخيل حدوث شيء كهذا؟ فماذا... بعد... ذلك؟ أليس هذا مذهلاً؟ يتذوق سوليرز الحكاية بجشع. تقوده كريستيفا إلى تأملات أكثر واقعية. يريد سوليرز أن يطمئن نفسه: نظراً لحالة الفوضى في الشقة، إذا كانت النسخة لم يتم إتلافها، فإنها ضاعت بشكل لا رجعة فيه. وفي أسوأ الأحوال، سينتهي بها الأمر في صندوق وسيعثر عليها الصينيون بعد مائتي عام من دون فهم محتواها وسيستخدمونها لإشعال غليون الأفيون.

«كان والدك على خطأ. لا لنسخة أخرى، في المرة القادمة.

– إن الأمر بلا جدوى، ولن تكون هناك مرة قادمة.

– ستكون دوماً مرة قادمة يا سنجابي.»

تفكر كريستيفا في رولان بارت. يقول سوليرز: «لقد عرفته أكثر من أي شخص آخر.»

ترد كريستيفا ببرودة: «لكنني أنا من قتله.»

يتلو عليها سوليرز مقولة إمبادوقليس: «إن الدم الذي يسبح في القلب هو بمثابة فكر. ولكن بما أنه لا يستطيع الاستمرار في الحديث لأكثر من بضع ثوان من دون إبراز ذاتيته، يصرّ بأسنانه ويهمس: لم يذهب موته سدى. سأكون ما سأكون عليه.»

ثم استأنف مناجاة نفسه، وكأن شيئاً لم يحدث: «بالطبع، لم تعد رسالة الوظيفة السابعة ذات أهمية... آه آه، هذه القضية الصغيرة ليست واضحة أوه، أوه... الرأي العام بحكم تعريفه ليس لديه ذاكرة، إنه بتول، إنه غابة عذراء... ونحن أيضاً مثل السمك في الهواء... وليس من المهم أن يخطئ ديبورد بشأني، حيث ذهب إلى حد مقارنتي بكوكتو... من نحن أولاً، وأخيراً؟».

تتنهد كريستيفا. تقود سوليرز نحو لاعبي الشطرنج.

سوليرز مثل طفل، لديه ذاكرة آنية تستغرق ثلاث دقائق، لذا انهمك في متابعة مباراة الشطرنج يتقابل فيها رجل عجوز مع شاب، وكلاهما يرتدي قبعة بيسبول تحمل شعار فريق من نيويورك؛ بينما يقوم الشاب بشن هجوم بهدف واضح لهزم خصمه، يهمس الكاتب في أذن زوجته: «انظري إلى هذا الرجل العجوز، إنه ذكي مثل القرد، أوه، أوه، ولكن إذا بحثوا عني، يجدونني، مهلا، مهلا».

يصلهم صوت ضربات كرات التنس من الملاعب المجاورة.

حان دور كريستيفا لسحب زوجها من كم قميصه؛ لأنه حان الوقت للذهاب.

يعبُرون غابة الأرجوحات، ويتوجهون إلى مسرح غينيول الصغير. يجلسون على مقاعد خشبية وسط الأطفال.

الرجل الذي يجلس خلفهم مباشرة هو رجل ذو شارب يرتدي ملابس رثة.

يرتب سترته المجعدة البالية.

يثبت مظلته بين ساقيه.

يشعل سيجارة

ينحني على كريستيفا ويهمس بشيء ما في أذنها.

يلتفت سوليرز ويصرخ بمرح: «مرحباً سيرغي!» التقطت كريستيفا ترحيب زوجها، بلا مبالاة، وقالت: «اسمه نيكولاي.» أخرج سوليرز سيجارة من علبة جلدية زرقاء وطلب ولاّعة من الرجل البلغاري. الطفل الجالس بجانبه يراقبه بفضول. يخرج سوليرز لسانه له. ينفتح الستار، يظهر غينيول! «مرحبا يا أطفال! مرحباً، غينيول!» يشرح نيكولاي لكريستيفا باللغة البلغارية، أنه تتبع أثر صديق حامد. لقد قام بتفتيش منزله (من دون إحداث أي شيء مثير للانتباه هذه المرة) ومن المؤكد رسمياً، أنه لا وجود

لأية نسخة من الوظيفة السابعة للغة. ولكن هناك شيء غريب يحدث: في الآونة الأخيرة يمضي سليمان أيامه في المكتبة.

بما أن سوليرز لا يتحدث البلغارية، فهو يتابع في غضون ذلك الوقت المسرحية. العرض الموجز للمسرحية يتقابل فيه غينيول مع لص ملتح، من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك دركي ينطق حرف الراء مثل سيرغي. تدور الحبكة حول نزاع بسيط، ذريعة لحركات قتالية تقليدية متعددة بضربات العصا. بصورة عامة، يجب على غينيول أن يستعيد قلادة الماركيزة، التي سرقها اللص. يشك سوليرز على الفور في أن الماركيزة أعطته القلادة بإرادتها الحرة مقابل ثمن يتمثل في تلبية رغباتها الجنسية.

تسأل كريستيفا عن أي نوع من الكتب يطلع عليها سليمان.

يسأل غينيول الأطفال عما إذا كان اللص قد ذهب من هنا.

يرد نيكولاي بأنه رأى سليمان يتصفح بشكل أساس كتباً في اللسانيات والفلسفة، ولكن وفقاً له، فإن العاهر المُتعهد، لا يعرف حقّاً ما يبحث عنه.

يجيب الأطفال «نعممممم!»

تقول كريستيفا في نفسها وفقاً للمعلومات الواردة، فهذا يعني أنه يبحث عن شيء ما. وحين تريد أن تترجم المعلومات لسوليرز، يقول هذا الأخير: «نعممم!» يوضح نيكولاي: يقرأ سليمان خصوصاً الكُتاب الأنجلوساكسونيين: تشومسكي، أوستن، سورل، وكذلك كاتب روسي، جاكوبسون، وألمانيان، بوهلر وبوبر، وفرنسي إميل بنيفينست.

القائمة معبرة بما يكفي بالنسبة إلى كريستيفا.

يطلب اللص من الأطفال خيانة غينيول.

يصرخ الأطفال: « لا!» يقول سوليرز، بمزاح: «نعم!» لكن صرخته تتبخر وسط صراخ الأطفال.

يوضح نيكولاي أيضاً، أن سليمان اكتفى بتصفح بعض الكتب، ولكنه قرأ على وجه الخصوص أوستن.

تستنتج كريستيفا أنه سيحاول الاتصال بجون سورل.

يقترب اللص خلسة وراء ظهر غينيول، مسلّحاً بعصا. يريد الأطفال تحذير غينيول: «احترس! احترس!» ولكن في كل مرة يستدير فيها غينيول، يختبئ اللص. يسأل غينيول الأطفال عما إذا كان اللص في مكان قريب. يحاول الأطفال تحذيره، لكنه يبدو مثل الأطرش ويتظاهر بعدم الفهم، مما يجعل الجميع في حالة هستيرية. يصرخون، ويصرخ معهم سوليرز: «خلفك! خلفك!»

يتلقى غينيول ضربة بعصا. يسود صمت قلق في القاعة. يُعتقد أنه مغمى عليه لكن في الواقع كلاّ، إنه يتظاهر فقط، أوف، إنه غريب الأطوار.

تفكر كريستيفا.

عن طريق خدعة، يضرب غينيول بدوره اللص بقوة. وحرصاً على إتمام عمله بطريقة جيدة، ينهال عليه بالضرب بالعصا (في العالم الحقيقي، لا أحد يستطيع تحمل مثل هذه الضربات في الرأس، يقول نيكولاي في نفسه.)

يوقف الدركي اللص ويهنئ غينيول.

يصفق الأطفال بقوة. لا ندري ما إذا كان غينيول قد أعاد القلادة، أو احتفظ بها لنفسه في نهاية المطاف.

تضع كريستيفا يدها على كتف زوجها، وتصرخ في أذنه: يجب أن أذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية.»

يحيي غينيول الحضور: «إلى اللقاء يا أطفال!»

الأطفال وسوليرز: «إلى اللقاء يا غينيول!»

الدركي: «إلى اللقاء يا أطفال.»

سوليرز ملتفتاً: «مرحباً سيرغي»

نيكولاي: «إلى اللقاء السيد كريستيفا»

كريستيفا مخاطبة سوليرز: «سأذهب إلى إيثاكا.»

يستيقظ سليمان أيضاً في سرير ليس سريره، ولكن باستثنائه وحده، لا يوجد شخص آخر داخل الغرفة، سوى بصمة جسد كما لو كان مرسوماً بالطباشير في الفراش الذي لا زال دافئاً. في واقع الأمر وبناء على حقيقة السرير. إنه على فراش موضوع على الأرض في غرفة شبه عارية من دون نافذة، غارقة في الظلام، على الجانب الآخر من الباب تصله أصوات ذكورية ممزوجة بالموسيقى الكلاسيكية. يتذكر تماماً أين هو ويعرف هذه الموسيقى. (إنها موسيقى ماهلر.) يفتح الباب، ومن دون أن يكلف نفسه عناء ارتداء ملابسه، يدخل إلى الغرفة.

إنها غرفة كبيرة طويلة، تحدها نافذة زجاجية كبيرة تطل على باريس (في اتجاه بولون وسان كلاود)؛ لأننا في الطابق الثامن. حول طاولة صغيرة، يوجد ميشيل فوكو، مرتدياً ثوب كيمونو أسود، يشرح لشابين يرتديان ملابس داخلية، صورة أحدهم مستنسخة في ثلاث صور معلقة على عمود مجاور للأريكة، أسرار الحياة الجنسية للفيل.

أو بشكل أدق، يعتقد سليمان أنه فهم، كيف تم إدراك النشاط الجنسي للفيل والتعليق عليه في فرنسا في القرن السابع عشر.

يدخن الشابان سجائر يعرف سليمان أنها محشوة بالأفيون؛ لأن هذه هي التقنية التي اعتمدوها لتخفيف حدة الانتشاء. وما يثير الاستغراب هو أن فوكو لم يكن بحاجة أبداً لاستخدام هذه التقنية طالما يتحمل جيّداً جميع أنواع المخدرات: إنه قادر على أن يكون أمام آلة الكتابة في وقت مبكر منذ التاسعة صباحاً بعد ليلة كاملة تحت تأثير حبوب الهلوسة. هم، يبدو أنهم يواجهون صعوبة أكثر. يحيون سليمان مع ذلك بصوت غليظ. يقترح عليه فوكو إعداد كأس قهوة، لكن في هذه اللحظة بالتحديد، يُسمع ضجيج كبير في المطبخ ويظهر شاب ثالث، يبدو حزيناً ويحمل قطعة من البلاستيك في يده. إنه ماثيو ليندون الذي كسر ماكينة القهوة للتو. لم يتمكن الاثنان الآخران كبت ضحكات مسلولة. فوكو، في حالة من الهدوء، يقترح إعداد الشاي.

يجلس سليمان ويبدأ دهن الكعك بالزبدة بينما الأصلع الكبير الملتف في ثوب الكيمونو الأسود يستأنف عرضه حول الفِيلَة.

بالنسبة إلى فرانسوا دي سال، أسقف مدينة جنيف في القرن السابع عشر، ومؤلف كتاب مدخل إلى حياة التقوى يعتبر الفيل نموذجاً للعفة: مخلص ومعتدل، لا يعرف سوى شريكة واحدة يقيم معها علاقة مرة واحدة كل ثلاث سنوات لمدة خمسة أيام، بعيداً عن الأنظار، قبل أن يغتسل لفترة طويلة لتطهير نفسه. هيرفي الوسيم بملابسه الداخلية يهمهم وراء سيجارته، إنه يعرف الأخلاق الكاثوليكية وراء حكاية الفيل بكل فظاعتها والتي يبصق عليها على الأقل رمزياً؛ لأنه يفتقر إلى اللعاب فيسعل بدلا من ذلك. يتشنج فوكو في ثوبه الكيمونو: «في الحقيقة! ما هو مثير للاهتمام للغاية، هو أننا نجد من قبل في أعمال بلينيوس الأكبر التحليل نفسه لعادات الفيل. لذلك إذا قمنا بجينيالوجيا لهذه الأخلاق، كما يقول باحث آخر، فإننا سندرك أن جذورها ربما تعود لعصر ما قبل المسيحية، أو على الأقل في عصر لا يزال تطورها جَنينياً إلى حد كبير.» يبدو فوكو مبتهجاً.» كما ترون، نحن نتحدث عن المسيحية، كما لو كانت المسيحية موجودة، لكن المسيحية والوثنية ليستا وحدات نظامية تامة ذات كيان تام التشكيل، أجساد فردية واضحة تماماً. لا يجب أن نتخيل كتلا محكمة الإغلاق تظهر فجأة وتختفي فجأة تماماً، من دون تأثر أو اختراق أو تحول.»

ماثيو ليندون، الذي ظل واقفاً، في يده قطعة من ماكينة القهوة التي تكسرت، يتساءل: «ولكن، أوّاه، ميشيل ما الذي ترمي إليه؟»

يبتسم له فوكو بابتسامته المشرقة: «في الواقع، لا يمكن التعامل مع الوثنية باعتبارها وحدة ذات كيان. ناهيك عن المسيحية أيضاً! علينا أن نراجع مناهجنا، هل تفهم؟»

يقضم سليمان كعكته ويقول: «قل لي إذن، ميشيل ندوتك في جامعة كورنيل، هل مازلت تذهب إلى هناك؟ أين توجد هذه البلاد بالضبط؟»

فوكو، المغتبط دوماً بالإجابة عن الأسئلة كيفما كانت، ومن دون أن

يتفاجأ بأن سليمان مهتم بندواته، يجيبه بأن كورنيل هي جامعة أمريكية كبيرة تقع في بلدة صغيرة في شمال الولايات المتحدة الأمريكية، تدعى إيثاكا مثل إيثاكا، جزيرة عوليس. يجهل فوكو لماذا قبل الدعوة؛ لأن هذه الندوة عن اللغة، المنعطف اللغوي، كما يقولون هناك، وهو لم يعد يعمل منذ فترة طويلة على ذلك (كتابه الكلمات والأشياء، يعود لعام 1966)، ولكنه في نهاية المطاف قبِل الدعوة ولا يحب التراجع، لذا فإنه سيذهب إلى هناك. (في الواقع إنه يعرف جيداً، أنه يحب الولايات المتحدة الأمريكية.)

عندما مضغ سليمان جيّداً كعكته، أخذ رشفة من الشاي الساخن. أشعل سيجارة، نحنح وسأل: «هل تعتقد أنني أستطيع أن أسافر معك إلى الولايات المتحدة الأمريكية؟».

54

«لكن كلا، يا عزيزي، لا يمكنك القدوم معي. هذه ندوة مخصصة للأكاديميين فقط وأنت تكره أن يُطلق عليك السيد كريستيفا.»

تخفي ابتسامة سوليرز جرحاً نرجسياً يخشى ألّا يندمل أبداً.

هل تتخيل مونتين، بسكال، فولتير يقدمان أطروحة؟

لماذا لا تزال هذه الدمى من الأمريكيين تصرّ على تجاهله، وهو العملاق بين العمالقة، الذي سنقرأ أعماله، ونعيد قراءتها مرة أخرى في عام 2043؟ هل يمكنك أن تتخيل شاتوبريان، بلزاك، هوغو؟ ذات يوم، هل يجب أن نطلب الإذن بالتفكير؟

والشيء المضحك هو أنهم وجهوا الدعوة إلى دريدا، بالطبع. لكن هل تعلمون، أيها الأصدقاء الشماليون الأعزاء أن معبودكم هذا الذي تقدسونه، لأنه كتب كلمة الاختلاف différence بحرف a لتصبح différance إرجاء (العالم يتفكك، العالم ينحل، يتفسخ ويذوب.) كتب تحفته، التشتيت (العالم يتشتت)، تكريماً للأرقام، والذي لا أحد لا في نيويورك ولا في

كاليفورنيا وجد داعياً أو سبباً لترجمته! آه، حقّاً، إنه شيء مضحك وأكثر غرابة!

يضحك سوليرز، وهو يضرب بطنه. ههههه! من دونه، لا وجود لجاك دريدا! آه، لو عرف العالم هذه الحقيقة... آه، لو عرفت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك... تستمع كريستيفا بصبر لهذا الخطاب الذي تعرفه من قبل.

هل بوسعنا أن نتخيل فلوبير، بودلير، لوتريامونت، رامبو، ملارميه، كلوديل، بروست، بريتون أرطو يجتازون أطروحة؟ يتوقف سوليرز فجأة ويتظاهر أنه يفكر، لكن كريستيفا تعرف مسبقاً ما سيضفيه: «هناك أطروحة واحدة للكاتب سيلين، لكنها أطروحة طبية، من جهة أخرى تحفة أدبية.» (النص الفرعي: هو قرأ أطروحة سيلين الطبية. كم من الأكاديميين الذين يمكنهم قول الشيء نفسه؟)

ثم تحرك من مكانه ليحتك بزوجته، مدخلا رأسه تحت ذراعها، وتصَنّع صوت ديك قائلا:

«ولكن لماذا تريدين أنتِ أن تذهبي إلى أمريكا، يا سنجابي العزيز؟»

إنك تعرف لماذا. لأن سورل سيكون هناك.

وأيضاً الآخرون جميعاً! انفجر سوليرز غاضباً.

تشعل كريستيفا سيجارة، وتتفحص النمط المطرز للوسادة التي تتكئ عليها، برسومات وحيد القرن من قماش كلوني الذي اشتروه، ذات مرة هي وسوليرز، في مطار سنغافورة. طوت كريستيفا ساقيها، وشعرها مربوط على شكل ذيل حصان يداعب النبات الأخضر بجوار الأريكة تنطق بصوت منخفض وتتلفظ بشكل مبالغ فيه بلكنتها البسيطة: «أجل الآخرون.»

لكي يكبح جماح عصبيته، يتلو سوليرز تسبيحته الشخصية الصغيرة:

«فوكو عصبيّ جدّاً، حسود وعنيف. ماذا عن جيل دولوز؟ يصرصر أكثر من اللازم. وماذا عن ألتوسير؟ مريض جدّاً (هاها!). وماذا عن دريدا؟ مستتر أكثر من اللازم في خفائه المتعاقب (هاها!). يكره جاك لاكان.

ليس لديه مشكلة مع الشيوعيين الذين يوفرون الأمن في جامعة فينسين: (فينسين مكان لمراقبة المسعورين.)»

الحقيقة، تعرفها كريستيفا، ذلك أن سوليرز يخشى ألّا ينتهي به المطاف ضمن جماعة الثريا.

والآن، العبقرية التي أُسيء فهمها تسعى إلى تشويه سمعة الأمريكيين، وأعمالهم حول «دراسات المثليين والمثليات» نسويتهم الشمولية، وافتتانهم بالتفكيك أو الموضوع الصغير لحرف a الاختلاف - الإرجاء، بينما من الواضح أن اسم موليير غير معروف عندهم تماماً!

ونساؤهم!

«النساء الأمريكيات؟ منبوذات في معظمهن: المال، والشكاوى والرواية العائلية، والعدوى النفسية الكاذبة لحسن الحظ، في نيويورك، هناك نساء من أمريكا اللاتينية والصينيات وعدد قليل من النساء الأوروبيات.» لكن في بلدة كورنيل! اهه اللعنة، كما قال شكسبير.

تشرب كريستيفا شاي الياسمين، وهي تتصفح مجلة في التحليل النفسي باللغة الإنجليزية.

يدور سوليرز حول مائدة الغرفة الكبيرة، غاضباً، أكتافه مدسوسة مثل الثور: «فوكو، فوكو، هذا كل ما لديهم في رأسهم.»

ثم ينهض فجأة، مثل عداء سريع وقد انكسر نصفه الأعلى بعد الوصول إلى خط النهاية: « مهلا، بحق الجحيم، ولماذا أكترث لهم؟ أعرف الموسيقى، يجب أن أسافر، وأقدم محاضرات وأتحدث باللغة الأنجلو- أمريكية للمستعمر، وأشارك في ندوات مملة، « أن نكون معاً « نتحدث بإطناب، نكون أكثر إنسانية.»

كريستيفا، وهي تضع كوبها تتحدث معه بلطف: «سوف تنتقم يا عزيزي.»

سوليرز محموماً، أخذ يتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم الثاني، وهو

يتحسس معصمه: «لديكَ سهولة في الكلام بفصاحة، إنه أمر صارخ ومزعج (تفضل أن تكون متعثراً ولكن بئس الأمر) ...»

تأخذه كريستيفا من يده.

يبتسم لها سوليرز، ويقول: «يحتاج المرء أحياناً إلى التشجيع.»

تبتسم له كريستيفا وترد عليه: «هيا، تعال، سنقرأ جوزيف دي مايستر.»

55

شارع المصوغات، يكتب بايارد تقريره على الآلة الكاتبة، بينما يقرأ سيمون كتاباً لتشومسكي حول النحو التوليدي، والذي يجب أن يعترف أنه لم يفهم الكثير في هذا الكتاب.

في كل مرة يصل فيها بايارد إلى نهاية الخط، يقوم بتشغيل جهاز التحكم بيده اليمنى لإعادة الأسطوانة، بينما بحركة من يده اليسرى، يمسك فنجان قهوة، ويأخذ رشفة ويسحب سيجارته ويضعها على حافة منفضة السجائر الصفراء التي تحمل شعار الباستيس 51. قرقعة، تاك، تاك، تاك، تاك، تاك، تاك، قرقعة، تاك، تاك، تاك وهكذا دواليك.

ولكن فجأة توقف صوت تاك، تاك، وقف بايارد على كرسيه المبطن بالجلد، التفت نحو سيمون وسأله:

«بالمناسبة ما أصل اسم كهذا، كريستيفا؟»

56

كان سيرج مواتي يلتهم شرائح السافانا عندما وصل فرنسوا ميتران. يستقبله فابيوس وهو ينتعل حذاء شبشب في فندقه الخاص في البانتيون. لانغ، بادينتر، أتالي، دو براي ينتظرون بهدوء وهم يشربون القهوة. يلقي ميتران وشاحه على فابيوس مزمجراً: «صديقك ماوري هنا. سأمسح به الأرض!» لا يدع مزاجه المتعكر مجالا للشك، ويدرك الشباب المتآمرون أن

جلسـة العمل سـتكون صعبة. يكشر ميتران عن أنيابه: «روكار! روكار!» لا أحد يعترف. «لقد فشلوا في مدينة ميتز وفجأة يريدون ترشيحي للانتخابات الرئاسـية بالضغط على نطاق واسـع من أجل التخلص منّي!» تنهد ملازموه الشـباب. يمضغ مواتي السافانا بحركة بطيئة. يخاطر الشاب المغامر ذو رأس الطـير بالتحـدث: «السـيد الرئيـس...» لكن فرنسـوا ميتران التفـت نحوه، بأنفـاس بـاردة، رهيبـة، وهـو يضغـط بإصبعـه على صـدره ويدفعـه قائلا: «اخـرس، أتـالي...» يتراجـع أتالي إلى الحائط، بينما يسـتمر المرشـح المفترض قائلا: «إنهم جميعاً يريدون أن أفشـل ولكن بمقدوري بكل سـهولة أن أحبط خطتهم: يكفي فقط ألا أترشـح، هاهـا! وأن أدع هذا المعتوه روكار يتعرض لهزيمـة مذلـة من قبـل الأبله جيسـكار. روكار، جيسـكار، سـتكون حرب المعتوهين! عظيم! رائع! اليسـار الثاني، هراء، دو براي! ترهات على الطريقة الفرنسـية! روبرت، خذ قلماً، سـأملي عليك بياناً صحفياً! أتنازل! أمتنع، لن أشارك. هاها! الحيلة الرائعة!...» يزمجر: «الفشل! ماذا يعني هذا؟ الفشل؟»

لا أحـد يجرؤ على الإجابة ولا حتى فابيـوس، الذي يعرف أحياناً كيف يواجـه رئيسـه، ولكن لن يكـون جريئاً للغايـة للتـورط في موضوع غامض كهذا. من ناحية أخرى، كان السؤال بلاغياً بحتاً.

يجـب عـلى ميـتران تسـجيل بيـان مهمتـه. لقـد قـام بتحضـير خطابـه الحـماسي المبتذل، إنه خطاب سـطحي، وتقليدي، إنه سـخيف. يتحدث عن الركـود والميـاه الراكدة. حديث بلا حمـاس، خال من أية رسـالة وبلا نفس، فقط عبـارات ضخمة وجوفـاء. يتعرّق على صورة الغضـب البارد للخاسر الأبـدي. ينتهي التسـجيل في صمت كئيـب. يحرك فابيـوس بعصبية أصابع قدميه. يمضغ مواتي شريحة السـافانا كما لو كانت قطعة إسـمنت. يتبادل دو بـراي وباديـنـتر نظرات بـلا تعابير. ينظر أتـالي من خلال النافـذة إلى شرطية مرور تكتب محضراً لسيارة مواتي رونو 5. وحتى جاك لانغ يبدو حائراً.

يـصرصر ميـتران بأسـنانه. يرتدي القنـاع الـذي ارتداه طـوال حياته، ليتشـمع داخل هـذه المشرحة التـي يلجأ إليهـا دوماً لإخفـاء الغضب الذي

يفترس أحشـاءه. ينهض، يبحث عن وشـاحه ويغادر مـن دون أن يودع أي شخص.

يطول الصمت لعدة دقائق أخرى.

«مواتي، شاحباً، على أي حال، سيغيلا هو أملنا الوحيد.»

جاك لانغ، خلفه، يتمتم: « كلا، لا يزال يوجد شخص آخر.»

57

«لا أفهـم كيـف أمكـن أن يفشـلوا في إصابتـه في المـرة الأولى. لقد كان يعـرف أنـه كان يبحث عن وثيقة تتعلـق بهذا اللغوي الروسي جاكوبسـون. يرى كتاب جاكوبسون على المكتب، ولم يلقِ نظرة؟

أجل، في الواقع، يبدو الأمر غير قابل للتصديق.

« وكأنـه بالصدفة، كان هناك فقط عندما وصلنا إلى منزل رولان بارت، في حين كانت أمامه أسابيع للعودة إلى الشقة، بما أن المفتاح كان في حوزته.»

يستمع بايارد بينما طائرة البوينغ 747 تقلع بهيكلها الطويل على مدرج الإقلاع. جيسـكار هـذا البورجوازي الفـاشي الكبير، وافق أخـيراً على دفع ثمن رحلتهم، ولكن ليس لدرجة دفع تكاليفها على متن طائرة الكونكورد.

يؤدي المسار البلغاري إلى جوليا كريستيفا.

بيد أن كريستيفا سافرت من جهة أخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

إذن، نحن لا نستحق سوى نقانق مقلية على متن خطوط تعمل بالكابل.

طبعاً، هناك طفل يبكي في الصف.

جـاءت مضيفة الطيران تطلب من بايارد إطفاء سـيجارته لأن التدخين غير مسموح به أثناء الإقلاع والهبوط.

أخـذ سـيمون كتاباً بعنوان « القارئ في الحكايـة « ليقرأه خلال الرحلة. يسـأله جـاك بايـارد إذا كان يعلـم بوجـود أشـياء مثـيرة للاهتـمام في كتابه،

وبالأشياء المثيرة للاهتمام يقصد أشياء مفيدة في التحقيق، وربما أيضاً ليس هذا فقط، في الواقع. يضع سيمون عينيه على الصفحة ويقرأ: «أنا أعيش (أقصد: أنا الذي يكتب، أنوي أن أعيش في العالم الوحيد الذي أعرفه)، ولكن في اللحظة التي أصوغ فيها نظريات عن العوالم السردية الممكنة، أقرر (انطلاقاً من العالم الذي أملك عنه تجربة مادية مباشرة) أن أختزل هذا العالم إلى تجربة سيميائية لمقارنته بالعوالم السردية.»

شعر سيمون بموجة حرارة مفاجئة، بينما تلوّح المضيفة بذراعيها لمحاكاة تعليمات السلامة. توقف الطفل عن البكاء، لقد افتتن بحركات الرقص هذه التي تقوم بها مضيفة الطيران.

بصورة رسمية، ذهبت جوليا كريستيفا إلى جامعة كورنيل، في بلدة إيثاكا، ولاية نيويورك، للمشاركة في ندوة لم يحاول بايارد فهم عنوانها ولا حتى موضوعها. كل ما يحتاج إلى معرفته هو أن هذا الشخص جون سورل، الفيلسوف الأمريكي الذي كلمهم عنه أمبرتو إيكو، هو أيضاً، من بين المدعوين إلى الندوة. لا يتعلق الأمر بخطة تهريب البلغارية بالأسلوب المتبع مع أيخمان. لو أراد جيسكار اعتقال قاتل رولان بارت، بما أن كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن كريستيفا متورطة في هذه العملية، لكان قد منعها من الإقلاع خارج البلد. يتعلق الأمر بفهم ما يُحاك. إلى جانب ذلك، أليس هذا هو الحال دائماً؟

بالنسبة إلى صاحبة الرداء الأحمر، إن العالم الحقيقي هو العالم الذي تتحدث فيه الذئاب.

والعالم الذي يجب فيه استعادة هذه الوثيقة اللعينة.

يحاول المفوض بايارد أن يفهم: هل الوظيفة السابعة هي كتيب إرشادات؟ هل هي تعويذة سحرية؟ دليل استخدام؟ حلم جنوني في الأوساط السياسية والفكرية الضيقة التي ترى فيه الفوز بالجائزة الكبرى لمن سيستولي على هذه الوظيفة السابعة للغة؟

في المقعد المجاور له، المنفصل بالممر، يأخذ الطفل الصغير مكعباً، ذا

أوجه متعددة الألوان، ويبدأ في التلاعب به في جميع الاتجاهات.

في الواقع، يتساءل سيمون، ما الفرق الأساس بينه وبين صاحبة الرداء الأحمر أو شيرلوك هولمز؟

يسمع بايارد يتساءل بصوت عال، أو ربما يتحدث إليه: «لنفترض بأن الوظيفة السابعة للغة هي في الواقع هذه الوظيفة الإنجازية والأدائية. وأنها تتيح لأولئك الذين يتحكمون فيها بإقناع أي شخص، وفي أي ظرف من الظروف، مفهوم. على ما يبدو، الوثيقة مكتوبة على ورقة، دعنا نقول على وجهي الورقة، كلا الجانبين، ومكتوبة بخط صغير. كيف يمكن لكتيب إرشادات يحتوي على موضوع بهذه القدرة المذهلة أن يُكتب في مساحة صغيرة جداً، أي دليل تقني، لغسالة صحون أو جهاز تلفزيون أو ليسارتي من نوع 504 فهو مكتوب في عدة صفحات.»

يصرصر سيمون بأسنانه، أجل، من الصعب تخيل ذلك. كلا، لا يمتلك تفسيراً لو كان يملك تفسيراً، ولو على أبسط مستوى ضئيل في الحدس لما هو مُضمن في هذه الوثيقة، لكان قد تم انتخابه رئيساً من قبل، ولكان قد نام مع جميع النساء.

بينما كان سيمون يتحدث، كان بايارد يراقب لعبة الطفل. بحسب ما استطاع ملاحظته، ينقسم المكعب إلى مكعبات أصغر يجب تجميعها وفق الألوان من خلال إجراء عمليات التدوير العمودية والأفقية. يحاول الطفل استخدام ذلك من خلال تطبيق شديد الاهتياج.

في كتاب القارئ في الحكاية، يتناول أمبرتو إيكو حالة الشخصيات الخيالية التي يسميها «الشخصيات الافتراضية» لأنها تنضاف إلى الناس في العالم الواقعي. رونالد ريغان أو نابليون هم جزء من العالم الحقيقي الواقعي، لكن شيرلوك هولمز ليس كذلك. ولكن أي معنى يجب منحه لتأكيد قول من قبيل أن «شيرلوك هولمز متزوج» أو أن «هاملت مجنون؟» هل بوسعنا التعامل مع شخصية افتراضية كشخص حقيقي، واقعي؟

يستشهد أمبرتو إيكو بمقولة للكاتب فولي، سيميولوجي إيطالي قال: «أنا

موجود، إيها بورفاري، كلاّ». يشعر سيمون بمزيد من القلق.

ينهض جاك بايارد للذهاب إلى الحمام ليس لأنه يريد أن يتبوّل حقاً، بل لأنه يرى سيمون منغمساً في قراءة كتابه، لذلك ربما يريد تحريك ساقيه، خصوصاً وأنه شرب كل قنينات الكحول الصغيرة.

بالتوجه نحو الجزء الخلفي من الطائرة، يعثر بايارد على ميشيل فوكو، يتبادل الحديث مع شاب عربي يضع سماعات على رقبته.

لقد رأى بايارد برنامج الندوة ولا يجب أن يفاجئه ذلك، لأنه يعلم أن ميشيل فوكو مدعو، لكنه لم يستطع كبح فعل المفاجأة ابتسم فوكو في وجهه بابتسامته الشريرة.

«أنت لا تعرف سليمان، أيها المفوض بايارد؟ كان صديقاً حميماً لحامد. بطبيعة الحال، لم تسلط الأضواء على الظروف التي أحاطت بموته؟ شاذ، لا يشكل موته شيئاً، أليس كذلك؟ أم لأنه عربي؟ هل يعتبر هذا عامل إضافي؟» عندما عاد بايارد إلى مكانه، وجد سيمون نائماً، رأسه مائل إلى الخلف، بشكل غير مريح كسِمة للناس الذين يحاولون النوم جالسين. وهذه عبارة أخرى لأمبرتو إيكو مستشهداً، بحماته، أكملها سيمون قبل أن ينام: «ماذا كان سيحدث لو لم يتزوج صهري ابنتي؟»

يحلم سيمون. بايارد في هيأة حالمة. يصطحب فوكو صديقه العربي سليمان إلى الحانة، في الطابق العلوي، ليحدثه عن محاضرته عن الأحلام الجنسية في العصور اليونانية القديمة.

يطلبان كأسين من الويسكي مَن المضيفة التي تبتسم بقدر ما يبتسم الفيلسوف.

وفقاً لتصور الكاتب أرتيميدور، أحلامنا الجنسية هي بمثابة نبوءات. من الضروري إقامة تطابق بين العلاقات الجنسية المعيشة في الحلم والعلاقات الاجتماعية في الواقع. على سبيل المثال، أن تحلم بأنك تنام مع عبد، هو إشارة جيّدة: طالما العبد مِلك لنا، وهذا يعني أن تراثنا سينمو. أن تنام مع امرأة متزوجة، إنها علامة سيئة: يجب على المرء ألا يمس ممتلكات الغير. أن ينام

المرء مع أمه، علينا أن ننظر في الأمر. وفقاً لتصور فوكو، لقد كانت الأهمية التي نسبها الإغريق إلى أوديب مبالغ فيها إلى حد كبير. في جميع الحالات، وجهة النظر هي الرؤية القائلة بالرجل الحر النشط. أن يضاجع المرء (رجل، امرأة، عبد، فرد من العائلة) هذا أمر جيد، أن يضاجع المرء نفسه، هذا أمر سيء. والحالة الأسوأ، والأكثر مخالفة للطبيعة، هي حالة المثليات اللائي يمارسن الولوج (مباشرة بعد العلاقات الجنسية مع الآلهة والحيوانات والجثث.)

«لكل فرد معاييره الخاصة، وكلها معايير معيارية»، يضحك فوكو، ويطلب كأسين آخرين من الويسكي، ويقود سليمان إلى المرحاض الذي قبل عن طيب خاطر (لكنه رفض إزالة جهاز الموسيقى.)

لا نملك أية وسيلة لمعرفة ما يحلم به سيمون؛ لأننا لسنا داخل رأسه لنعرف ما يجول في خاطره، أليس كذلك؟

رأى بايارد فوكو وسليمان يصعدان الدرج إلى البار في الطابق العلوي للطائرة. مدفوعاً بحافز غير معقول إلى حدّ ما، عاد لفحص مقاعدهم الفارغة. توجد كتب في جيب لوحة فوكو وبعض المجلات على مقعد سليمان. فتح بايارد صندوق الأمتعة فوق المقاعد وأخذ الحقائب التي يفترض أنها للرجلين. جلس في مكان ميشيل فوكو لتفتيش حقيبة الفيلسوف وحقيبة الظهر للعاهر المُتعهد سليمان. هناك أوراق، كتب، قميص بديل، أشرطة. لا يوجد أثر للوثيقة المطلوبة بداهة، لكن بايارد يعتقد أنه ربما لم يُكتب بخط كبير في أعلى أول صفحة «الوظيفة السابعة للغة»، لذا أخذ الحقيبة وعاد إلى مكانه لإيقاظ سيمون.

الوقت الذي تطلب فيه الأمر كي ينهض سيمون ويفهم الوضع، ويندهش لوجود فوكو على متن الطائرة، ويعبر عن سخطه بسبب ما طلب منه بايارد، حيث وافق رغم ذلك، على تفتيش أمتعة ليست له، كانت قد مرت عشرون دقيقة، عندما كان سيمون قد شرع يؤكد لبايارد أنه لا يوجد في أغراض فوكو أو سليمان أيّ شيء له علاقة على نحو مباشر أو غير مباشر

بالوظيفة السابعة للغة، رأى الرجلان فوكو يعود من جديد، وينزل على الدرج.

سوف يعود إلى مكانه، ويدرك في وقت أو آخر أن أمتعته قد اختفت. من دون الحاجة إلى التشاور، تصرف الرجلان كفريق متمرس. تخطى سيمون بايارد وخرج إلى الممر، حيث التقى به فوكو، وحين دخل بايارد إلى الممر الموازي، على الجانب الآخر وصعد إلى القسم الخلفي من الطائرة دار حول المكان ليصل إلى صف فوكو.

وقف سيمون أمام فوكو الذي حين وصل إليه، توقع منه أن يسمح له بالمرور، لكن سيمون لم يبتعد، لذا رفع فوكو عينيه إلى الأعلى ومن خلف نظارته القصيرة النظر، تعرف على الشاب.

هه، أنت هنا؟ الغلام ألسيبياديس!

- السيد فوكو، يا لها من مفاجأة !... ! إنه لشرف كبير، أحب ما تقوم به من إنجازات، ما الكتاب الذي تعمل عليه في الوقت الحالي؟ ... دوماً أعمال حول الجنس؟

أغمض فوكو عينيه.

صعد بايارد إلى الممر الآخر ولكنه صادف مضيفة الطيران أغلقت أمامه الممر بعربة للمشروبات الصغيرة. تُقدم بهدوء كؤوس الشاي وكؤوس النبيذ للركاب، وهي تحاول أن تبيع لهم بعض المواد المعفاة من الرسوم الجمركية، بينما بايارد يتخبط خلفها.

لم يستمع سيمون إلى جواب فوكو، لأنه يركز على سؤاله التالي. خلف فوكو، نفذ صبر سليمان. «هل نتحرك؟» اغتنم سيمون الوضع: آه ألديك رفيق؟ تشرفت بمقابلتك، سعيد بلقائك! أنت أيضاً يدعوك فوكو الغلام ألسيبياديس، هاها، همهمة. هل زرت الولايات المتحدة الأمريكية من قبل؟

يمكن لبايارد دفع المضيفة إذا لزم الأمر، لكن لا يمكنه تخطي العربة ومازال هناك ثلاثة صفوف يجب عبورها.

يسـأل سـيمون هل رأيـت الآن بيرفيـت؟ يا له مـن حثالة، هـاه. نحن نفتقدك في جامعة فينسين، هل تعلم؟

أمسك فوكو بلطف، ولكن بحزم، سيمون من كتفيه، وقام بخطوة أشبه بخطوة التانغو واستدار حوله، حيث وجد سيمون نفسه بين فوكو وسليمان، وهـو مـا يعني، عمليا، أن فوكو قد مرّ، وأن لا شيء يفصله عن مكانه سـوى بضعة أمتار.

وصـل بايارد أخيراً إلى فضاء المراحيض في الجزء الخلفي للطائرة، حيث أتاح له ممر بالانعطاف إلى الممر المقابل، وصل إلى مقعد فوكو لكن هذا الأخير قادم للالتقاء به وسيراه، وهو يضع الحقائب في مكانها.

سـيمون الذي، لا يحتاج إلى نظارات ليرى ويعرف حقيقة الوضع، رأى بايارد قبل فوكو، فصرخ سيمون قائلا: «هركولين بارين!»

انتفـض الركاب. التفت فوكو نحوه. فتح بايارد الخزنة، دس الحقيبتين، وأغلق الخزنة. حدق فوكو في سيمون. ابتسم سيمون ببلاهة، وأضاف قائلا: «نحن جميعاً هركولين بارين، أليس كذلك، يا سيد فوكو؟»

تجنب بايارد فوكو معتذراً كما لو كان عائداً من المرحاض. شـاهد فوكو بايارد يمر، هز كتفيه، وعاد الجميع أخيراً إلى مكانهم.

«من هو، هركولين اللعين هذا؟»

إنـه شـخصية خنثوية عاش في القرن التاسـع عشر، وعـاش العديد من المصائب. قام فوكو بتحرير ونشر مذكراته. لقد جعل منه قضية شـخصية إلى حد ما، ليشـجب التحديد المعياري للسـلطة الحيوية التي ترغمنا على اختيار جنسـنا ونشـاطنا الجنسي غير معترفة سوى بخيارين فقط، رجل أو امرأة، في كلتا الحالتين جنسـية مغايرة، على عكس اليونانيين، على سـبيل المثال، الذين كانوا أكثر ارتياحاً بشأن هذه القضية، حتى لو كانت لديهم معاييرهم الخاصة بهم، والتي كانت...

- حسناً، حسناً!

- من هو الشاب الذي يرافق فوكو؟

تسير بقية الرحلة بسلاسة. يشعل بايارد سيجارة. تُذكر المضيفة المفوض بايارد بأن التدخين ممنوع أثناء الهبوط، لذا فإن المفوض يُجهز على القنينات المتبقية.

نعرف أن الشاب الذي يرافق فوكو يدعى سيلمان، لكننا لا نعرف اسمه العائلي، وفي لحظة دخول الأراضي الأمريكية، يراه سيمون وبايارد يتحدث مع العديد من رجال الشرطة المسؤولين عن مراقبة جوازات السفر، لأن تأشيرته غير سليمة قانونياً، أو بالأحرى، ليس لديه تأشيرة على الإطلاق. يتساءل بايارد كيف أمكن السماح له بالسفر في مطار رواسي. يحاول فوكو التوسط لصالحه ولكنه لم يفلح في الأمر، فالشرطي الأمريكي ليس معتاداً على المزاح مع الأجانب، لذا أخبر سليمان فوكو بعدم انتظاره والقلق بشأنه، فهو سيتدبر أمره بشكل جيد؛ ثم غابوا عن أنظار سيمون وبايارد الذين هرعوا إلى قطار في ضواحي المطار.

إنهم لم يصلوا على متن سفينة مثل سيلين في رحلة إلى آخر الليل لكن خرجوا من تحت الأرض من محطة ماديسون سكوير غاردن، وقاموا بالتوغل في قلب مانهاتان، ليس بالأمر الهين: يرفع الرجلين، في ذهول، أعينهم ويتأملون خط ناطحة السحاب ووميض الضوء في الشارع الثامن، وقد اعتراهم في الآن نفسه شعور بعدم الواقعية وشعور بألفة أقل مع المكان. سيمون قارئ قديم لمجلة سترونغ، يتوقع أن يظهر الرجل العنكبوت (سبايدر مان) من فوق سيارات الأجرة الصفراء أو أضواء الإشارات الحمراء. (لكن الرجل العنكبوت هو شخصية « افتراضية »، إنه أمر مستحيل). أحد السكان الأصليين الذي بدأ مستعجلا توقف فجأة ليعرض عليهم مساعدته، وهذا أربك الباريسيين الذين لم يعتادوا على مثل هذا الاهتمام في ليل نيويوركي، يصعدون باتجاه الشارع الثامن وصولا إلى محطة سلطة الميناء، مقابل المبنى العملاق الذي يضم صحيفة نيويورك تايمز، كما تشير إلى ذلك الحروف القوطية العملاقة على الواجهة بوضوح، ثم يستقلون الحافلة إلى إيثاكا.

وداعاً يا أرض ناطحات السحاب الساحرة.

نظراً لأن الرحلة تستغرق خمس ساعات والجميع متعب، أخرج بايارد من حقيبته مكعباً صغيراً ذا جوانب متعددة الألوان، وبدأ يلعب به. لم يستطع سيمون تجاوز الأمر: «هل سرقت مكعب روبيك للطفل الصغير؟ « أنهى بايارد سطره الأول، بينما الحافلة تخرج من نفق لينكولن.

58

«التحول المتصاعد للمنعطف اللغوي»

جامعة كورنيل، إيثاكا، خريف 1980

(منظم المؤتمر: جوناثان كالر.)

قائمة المشاركين:

- نعوم تشومسكي:

النحو التوليدي

- هيلين سيزو

دموع زهرة الخبيزة

- جاك دريدا

عزف منفرد

- ميشيل فوكو

لعبة تعدد المعاني في نقد الحلم عند أرتيميدور.

- فيليكس غوتاري

النظام الاستبدادي للدال

- لوسي إيريغاري.

التمركز الذكوري وميتافيزيقا الجوهر.

- رومان جاكوبسون

البقاء على قيد الحياة، بنية الكلام

– فريدريك جيمسون

– اللاشعور السياسي: السرد بوصفه فعلا اجتماعياً رمزياً

– جوليا كريستيفا

اللغة، ذاك المجهول

– سيليفر لوترينغر

إيطاليا: الاستقلال الذاتي – سياسات ما بعد الحداثة

– جان فرانسوا ليوتار

خطاب ما بعد الحداثة

– بول دي مان

حبات الكرز فوق الكعك: التفكيك في فرنسا

– جيفري ميهلمان

بلانشو، رجل الغسيل

– أفيتال رونيل

«لأن الرجل يتكلم، يعتقد أنه قادر على التحدث عن اللغة»– غوته وما بعد الخطاب

– ريتشارد رورتي

فيتجنشاين ضد هيدجر: صدام القارات؟

– إدوارد سعيد

منفى في الشارع الرئيس

– جوهان سورل.

كذب أم مدجاة: أداء حروف الفاء في الأعمال التخيلية

– غاياتري سبيفاك

هل يجب على التابع أن يصمت في بعض الأحيان؟
- موريس زاب
الصيد للحصول على المكمل في العالم التفكيكي.

59

« لن يأتي جيل دولوز، أصحيح ذلك؟
- كلا، لكن بإمكان ضد أوديب أن يلعب الليلة، أنا متحمس للغاية؟
- هل استمعت إلى أغنيتهم الجديدة؟
- أجل، إنها رائعة بأسلوب لوس أنجلوس.»

تجلس كريستيفا على العشب بين ولدين. تقول وهي تداعب شعرهم: أنتم رائعون يا أولاد.»

يحاول أحد الولدين تقبيلها على عنقها. تدفعه وهي تضحك. يهمس الآخر في أذنها: « هل تقصدين، نحن من السكان الأصلانيين، أليس كذلك؟ تطلق كريستيفا ضحكة خافتة. تشعر وكأن صعقة كهربائية تخترق جسمها السنجابي. في قبالتهم، انتهى طالب آخر من إعداد لفافة حشيش وأشعلها. فاحت رائحة العشب الجميلة في الهواء. تستنشق كريستيفا بعض النفحات، تشعر بالدوار قليلا، تلقي موعظة بحكمة وفخامة: «كما يقول سبينوزا، كل إنكار هو تعريف.» تكلم الشباب الثلاثة ما بعد الهبيين في الموجة الجديدة، بحماس، وفي حالة من الابتهاج: «واو، يا للروعة، قولي ذلك ثانية! ماذا قال سبينوزا؟»

في الحرم الجامعي، العديد من الطلاب المشغولين بدرجات مختلفة يجيئون ويذهبون، ثم يَعبُرون الحديقة الكبيرة بين المباني القوطية والفيكتورية الكلاسيكية الجديدة. يطل أحد الأجراس على الموقع، الذي ينتصب هو الآخر على تل يطل على البحيرة والوديان. قد يكون في وسط المجهول، ولكن على الأقل في الوسط. تقضم كريستيفا ساندويتش في النادي، لأن

الرغيف الفرنسي، الذي تحبه كثيراً، لم يصل بعد إلى مقاطعة أونونداغا النائية، الحاضرة: سيراكيوز، في عمق ولاية نيويورك، في منتصف الطريق بين مدينة نيويورك وتورنتو، المنطقة السابقة لقبيلة كايوجا التي كانت مرتبطة باتحاد الإيروكواس، حيث تقع بلدة إيثاكا الصغيرة التي تضم جامعة كورنيل المرموقة. تعبس كريستيفا وتقول: «ما لم يكن العكس هو الصحيح.»

ينضم إليهم شاب رابع خرج من قاعة الضيافة بحزمة ألمنيوم في يد، وكتاب لجاك دريدا بعنوان علم الكتابة في اليد الأخرى (لكنه لم يجرؤ على سؤال كريستيفا عما إذا كانت تعرف جاك دريدا.) جلب معه بعض قطع الكعك الطازج الذي أعده بنفسه. تشارك كريستيفا بطيب خاطر في هذه النزهة المرتجلة، وهي تشرب قليلا من شراب التيكيلا. (وكتصرف صائب بالطبع، الزجاجة مخبأة في كيس ورقي.)

تشاهد كريستيفا مرور الطلاب، وهم يحملون الكتب تحت أذرعهم، أو عصي الهوكي، أو حقائب الغيثار.

رجل عجوز ذو جبهة كبيرة، وشعر خشن ممشوط إلى الوراء، كما لو كان يحمل أدغال كثيفة فوق رأسه، يتمتم وحده تحت شجرة. إلى جانب ذلك، تبدو يداه، التي يلوح بها أمامه، مثل الأغصان.

امرأة شابة ذات شعر قصير تبدو تقريباً مثل تركيبة من شخصية كرويلا في فيلم مئة وواحد مرقش ومرقش والسفيرة الموهوبة فانسيا ردغريف، يبدو أنها العضو الوحيد في مظاهرة غير مرئية. تصرخ بشعارات لم تفهمها كريستيفا. تبدو غاضبة جداً.

يلعب مجموعة من الشباب كرة القدم الأمريكية. يتلو أحدهم مقطعاً لشكسبير، بينما يشرب الآخرون النبيذ الأحمر مباشرة من القنينة. (غير مخبأة في كيس ورقي، إنهم متمردون.) يرسلون الكرة إلى بعضهم البعض، مع الحرص على تدوير طلقاتهم بشكل جيد. لا يتمكن الشخص الذي بحوزته القنينة من الإمساك بالكرة بيد واحدة (يمسك بسيجارة)، حيث ابتعد عنه الآخرون. إنهم بالفعل في حالة سكر.

التقت نظرة كريستيفا بنظرات رجل الشجيرة ذي الجبهة الكبيرة، وكل واحد منهما أطال النظر إلى الآخر للحظة وجيزة، ثم للحظة طويلة حتى لا تكون تلك النظرات عديمة الأهمية.

جاءت الشابة الغاضبة لتقف أمام جوليا كريستيفا، وتقول: «أنا أعرف من أنتِ عودي إلى منزلك، أيتها العاهرة.» ينظر أصدقاء كريستيفا إلى بعضهم البعض، مندهشين، يقهقهون، ثم يردون بنبرة متحمسة للغاية: «هل أنتِ ثملة؟ من تظن نفسك بحق الجحيم؟» تبتعد المرأة وتنظر إليها كريستيفا، وهي تستأنف مظاهرتها المنفردة. إنها متأكدة من أنها لم ترها قط في حياتها.

تلتقي مجموعة أخرى من الشباب مع لاعبي كرة القدم، وتتغير الأجواء على الفور، كريستيفا متسائلة عن مصدر هذه الأجواء، ترى أن المجموعتين أظهرت كلتاهما على الفور عداء صريحاً.

يرنّ جرس الكنسية.

تنادي المجموعة الجديدة بصوت عال على المجموعة الأولى. وعلى حد ما سمعته كريستيفا، يصفونهم بمصاصي الفرنسيين. لم تفهم كريستيفا على الفور إذا كان الأمر يتعلق بإبدال ينوب مناب عبارة مجرورة (المصّاصون الذين لهم سمة، بالإضافة إلى ذلك، أن يكونوا فرنسيين)، أو اسم مضاف (يمارسون الجنس الفموي مع الفرنسيين) ولكن بما أن المجموعة المستهدفة تبدو أنجلوساكسونية (لأن كريستيفا لاحظت أنها تتقن بعض القواعد في كرة القدم الأمريكية)، فإنها تعتقد أن الفرضية الأكثر احتمالا هي الفرضية الثانية. تجدر الملاحظة أن التباساً يؤثر حتى في اللغة الإنجليزية: فرنسي «french» «french suckers» «مصاصو الفرنسيين»، حيث كلمة فرنسي يمكن أن تكون صفة في وضعية نعت مقدم كلامياً وكذلك اسماً مطلقاً لحالة المضاف إليه.)

ومهما يكن من أمر، ترد المجموعة الأولى بشتائم مماثلة «عليكم القيام بتحليل لمؤخراتكم» وما من شك في أن الوضع كان سيتدهور، لو لم يتدخل

رجل في الستينيات من عمره ليفصل بينهما وهو يصرخ (بالفرنسية، بشكل مدهش): «اهدؤوا أيها الحمقى البؤساء!» ثم أخذ أحد الشباب العاشقين لكريستيفا يهمس لها، وكأنه يبهرها بفهمه للموقف: « هذا هو بول دي مان. إنه فرنسي، أليس كذلك؟ توضح كريستيفا: «كلاّ، إنه بلجيكي.»

يغمغم رجل الشجيرة تحت شجرته: «الشكل الصوتي للغة...»

أتعبت الشابة التي تتظاهر لوحدها، رئتيها من فرط الصراخ، كما لو كانت تساند أحد الفريقين: «لسنا بحاجة إلى دريدا، لدينا جيمي هندريكس!»

مشتت الذهن بشعار كرويلا ريدغريف المثير للقلق إلى حد ما، لم يسمع بول دي مان الصوت الذي تعالى خلف ظهره، قائلا له: استدر يا رجل وواجه عدوك.» ظهر رجل يرتدي بدلة تويد خلفه، يتذبذب في سترة واسعة جداً، وذراعاه طويلتان وشعره مصفف إلى الجنب بخصلة على عينيه، وبهيأة ممثل للعب دور ثانوي في فيلم سيدني بولاك، ولكن بعيون ثاقبة تمحصك حتى النخاع.

هذا الرجل، هو جون سورل.

يراقب رجل الشجيرة ذو الجبهة الكبيرة كريستيفا التي تراقب المشهد. يقظة. مركزة، تدع الشابة السيجارة تحترق عند طرف أصبعها. تتراوح عيون رجل الشجيرة من جون سورل إلى كريستيفا، ومن جوليا كريستيفا إلى سورل.

يحاول بول دي مان أن يبدو ساخراً ومتسامحاً في الآن نفسه، ولم ينجح بشكل تام في لعب دور الرجل المرتاح، لكنه يقول: «السلام، يا صديقي! ضع سيفك جانباً وساعدني في الفصل بين هؤلاء الأطفال.» ومن دون أن يعرف أحد السبب، غضب سورل الذي تقدم نحو بول دي مان، وانتاب الجميع شعوراً بأنه سيضربه. أمسكت كريستيفا بقوة ذراع الشاب الذي اغتنم الفرصة ليمسك بيدها. ظل بول دي مان ساكناً، مذهولاً، منبهراً بالجسد المُهدد الذي يتقدم نحوه ورعب فكرة التصادم ولكن، بينما يقوم بحركة لحماية نفسه أو- من يدري؟ - للدفاع عن نفسه، دوى صوت ثالث

لم يخف نغمـة بهجته الزائفة إلى حد ما قلقاً هسـتيرياً: «عزيزي بول دي مان! عزيزي جون سورل! مرحباً بكم في كورنيل! أنا سعيد لأنكم جئتم!».

إنه جوناثان كالر، الشاب الباحث الذي نظم المؤتمر. سارع جوناثان إلى مد يده إلى سـورل، وهـذا الأخير مد له يده على مضض، يـده ناعمة ونظرته الشـزراء مصوبة على بول دي مان حيث قال له بالفرنسـية: «خذ أولاد جاك دريـدا وارحـل الآن.» أخـذ بول دي مـان المجموعة الصغيرة معـه، وانتهى الحادث، قبّل الشاب كريستيفا كما لو أنهم نجوا من خطر كبير، أو على الأقل كما لو كانوا قد عاشـوا محنة شديدة وكريستيفا قد لا تكون بعيدة عن التفكير في الشيء نفسه - على أي حال استسلمت لذلك.

زأر هدير محرك في الليل الذي حلّ. توقفت سيارة لوتس اسبريت محدثة صوتـاً بإطاراتها. خرج منها شـاب أنيق في الأربعينيات، وسـيجارة في فمه، طاقيـة بوب على رأسـه، حقيبة نقـود حريرية، وتوجه مباشرة إلى كريسـتيفا. «مرحبـاً، أيتها الحسـناء!» قبّل يدها. التفتت كريسـتيفا نحو الشـباب، وهي تشير بإصبعها إلى الشاب: «يا أولاد، أقدم لكم موريس زاب، أكبر متخصص في البنيوية وما بعد البنيوية، والنقد الجديد، وقضايا أخرى كثيرة.»

ابتسـم موريس زاب وأضاف، محدثاً ما يكفي من مسـافة مع ذاته حتى لا يلام على الفور بالغرور (لكن بالفرنسـية على أي حال): «وأول أسـتاذ ذو راتب بستة أرقام!»

قال الشباب «واو، يا للروعة، وهم ينفثون دخان لفافة الحشيش».

ضحكـت كريسـتيفا ضحكتهـا الواضحـة وسـألت: «هـل هيـأت لنا محاضرتك حول سيارات الفولفو؟»

تصنّع موريس زاب نبرة تأسف: «كما تعلمين أعتقد أن العالم ليس جاهزاً.» ألقى نظرة على سورل وجوناثان كالر اللذين ظلا يتحدثان في الحديقة، لم يسمع سـورل يشرح لكالر أن جميع المشـاركين هم سـيئون ما عدا هو وتشومسـكي، ولكنـه مع ذلك أقلع عن الذهـاب، لتحيتهم وقال لجوليا كريسـتيفا: «على أيّ حال، سأراك لاحقاً، يجب أن أتحقق من الحجز في فندق هلتون».

- ألا تنام في الحرم الجامعي؟

- يا إلهي، كلاّ، يا له من رعب!

ضحكت كريستيفا. إن إقامة تيلورايد في كورنيل التي تستقبل المشاركين الأجانب تتوفر على شقق لا تشوبها أية شائبة. موريس زاب، في نظر البعض، رفع مستوى حياته المهنية الأكاديمية إلى مقام الفنون الجميلة. وحين صعد موريس زاب إلى سيارته لوتس أدار المحرك وتفادى الاصطدام بحافلة قادمة من نيويورك وهبط من التل، وهو يقود بسرعة كبيرة، قالت كريستيفا في نفسها إن الناس ليست على خطأ.

ثم رأت كريستيفا سيمون هرتسوغ والمفوض جاك بايارد ينزلان من الحافلة، وابتسمت بدورها.

لم تعد تهتم برجل الشجيرة الذي يراقبها على الدوام تحت شجرته، لكنه هو أيضاً لا يرى كذلك أنه بنفسه يراقبه شاب نحيف من طراز ناس شمال إفريقيا. يرتدي العجوز ذو الجبين الكبير بدلة مخططة من قماش سميك، يبدو أنها مقتبسة من رواية كافكا، وربطة عنق صوفية. يغمغم ببضعة كلمات تحت شجرته، حيث ليس بمقدور أحد فهمه، ولكن حتى لو حاولنا ذلك، فإن قلة من الناس هنا من يمكنه فهم كلامه؛ لأنه يتحدث باللغة الروسية. يضع الشاب العربي جهاز الموسيقى على أذنيه. ترقد كريستيفا على العشب متأملة النجوم. طوال خمس ساعات من السفر، لم يتمكن بايارد من تعديل سوى وجه واحد من مكعب روبيك. يكتشف سيمون مندهشاً جمال الحرم الجامعي، ولم يكف عن التفكير في فضاء جامعة فينسين التي بالمقارنة مع جامعة كورنيل، بدت له أشبه بسلة المهملات العملاقة.

60

«في البداية، كانت الفلسفة والعلم يسيران جنباً إلى جنب إلى حدود القرن الثامن عشر، لكي يحاربا بصورة عامة، النزعة الظلامية للكنيسة، ثم تدريجياً وانطلاقاً من القرن التاسع عشر، مع الرومانسية وما إلى ذلك، بدأنا

نعود إلى روح الأنوار، وبدأ الفلاسفة يقولون في ألمانيا وفي فرنسا (ولكن ليس في إنجلترا): إن العلم ليس بمقدوره كشف سر الحياة. وإن العلم غير قادر على كشف سر النفس البشرية. فالأمر متروك للفلسفة وحدها لتولي الأمر. ونتيجة لذلك، وجدت الفلسفة الكونية نفسها ليس فقط معادية للعالم، بل وأيضاً لمبادئه: الوضوح، الصرامة الفكرية، وثقافة البرهان. وأصبحت أكثر فأكثر فلسفة باطنية، وبصورة متزايدة ذات أسلوب حرّ، وروحانية باطراد (باستثناء الفلسفة الماركسية)، وعلى نحو متزايد أكثر حيوية (مع برغسون، على سبيل المثال.)

ويبلغ هذا النزوع ذروته مع هايدجر: الفيلسوف الرجعي، بالمعنى الكامل للكلمة، ورأى أن الفلسفة ضلت طريقها منذ قرون، وأنه يجب العودة إلى السؤال الجوهري الذي هو سؤال الوجود، لذا كتب عمله الموسوم ب الوجود والزمان، حيث يقول إنه سيبحث عن الكينونة. إلا أنه لم يجدها أبداً، هاها، لكن حسناً. على أيّ حال، فهايدجر هو الذي ألهم هذا النمط من الفلاسفة ذوي الأسلوب الإشكالي، الفلاسفة المولعين بالتعابير الجديدة المعقدة، والاستدلال الغامض، والتمثيلات العرجاء والاستعارات المفرطة التي يعد اليوم جاك دريدا الوريث لها.

في حين ظل الإنجليز والأمريكيون مخلصين لفكرة أكثر علمية للفلسفة. هذا الاتجاه، هو ما نسميه الفلسفة التحليلية، التي يدعو إليها جون سورل.»

(طالب مجهول، جمع الملاحظات في الحرم الجامعي.)

61

يجب أن يكون المرء صادقاً، الطعام رائع جدّاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وخصوصاً في مقصف جامعة كورنيل المخصص للأساتذة، والذي من حيث جودة الطهي، هو أشبه بالمطعم، حتى لو كانت الخدمة ذاتية.

في وقت الغذاء، نجد معظم المشاركين مشتتين في قاعة الطعام وفقاً

لجيوسياسة لم يتقنها بايارد وسيمون بعد، ولم يتمكنوا من احتوائها. تتكون الغرفة من طاولات تتسع لستة إلى ثمانية أشخاص، ولا توجد أية طاولة مملوءة تماماً، لكن سيمون وبايارد استشعرا أن في الأمر ما هو مريب، ثمة معسكرات واضحة.

«أود لو حصلت على ملف شخصي لكل هذا الأسطول الحاضر هنا» قال بايارد لمرافقه سيمون، وهو يختار طبقاً ساخناً مع شريحة لحم ضلع مع الهريس، والموز المهروس والحلوى البيضاء. فأجابه بالفرنسية الطاهي الأسود الذي سمعه: «هل ترى الطاولة قرب الباب؟ ذلك هو ركن التحليلات. إنهم في منطقة معادية وعددهم قليل، لذلك يظلون مجتمعين.» يوجد سورل، تشومسكي وكرويلا ريدغريف، والتي تسمى في الواقع كاميلي باليا، متخصصة في تاريخ الجنسانية، مما يجعل منها منافساً مباشراً لميشيل فوكو الذي تكرهه بكل جوارحها. في الجانب الآخر، بالقرب من النافذة لديك تشكيلة جميلة ومنظمة، كما يقال بالفرنسية une belle brochette: ليوتار، غوتاري، هيلين سيزو، وفوكو في الوسط، تعرفه بالطبع، الأصلع الكبير الذي يتحدث بصوت عال، أليس كذلك؟ كريستيفا هناك، مع موريس زاب وسيلفير لوترينغ، مدير مجلة سيميائيات النص. في الزاوية، لوحده، الرجل العجوز بربطة عنق صوفية وشعره الغريب، لا أعرف من هو. (مظهره مضحك، قال بايارد في نفسه.) السيدة الشابة ذات الشعر الأرجواني خلفه، كذلك أيضاً لا نعرف من هي. ألقى مساعد الطباخ البورتوريكي بنظرة وعلق قائلا بنبرة محايدة: «أكيد أنهم أنصار هايدجر.»

بدافع مهني أكثر مما هو اهتمام حقيقي، يريد جاك بايارد أن يسأل إلى أيّ مدى تتفاقم الخصومات بين الأساتذة. واستجابة لذلك، يشير الطاهي الأسود إلى طاولة تشومسكي التي يمر أمامها شاب برأس أشبه بالفأر. نادى عليه سورل من بعيد:

«اسمع، جيفري، يجب أن تترجم لي المقطع الأخير من هراء ذلك الأحمق؛ اسمع جون، أنا لست عاهرتك. يجب أن تفعل ذلك بنفسك، أتفهمني؟»

- «جيّد جداً، أيها الأحمق، لغتي الفرنسية جيدة بما يكفي لهذا القرف.»

انفجر بالضحك الطباخ الأسود ومساعده البورتوريكي، وهما يتراشقان بالأيدي. لم يفهم بايارد معنى الحوار، لكنه أدرك المقصود. وراءه، نفذ صبر الناس: «هل يمكنك التقدم من فضلك؟» عرف سيمون وبايارد الشاب العربي الذي يرافق ميشيل فوكو. لديه طبق من دجاج الكاري، بطاطس بنفسجية، بيض مسلوق ومهروس الكرفس، ولكن لا يملك ترخيص لذلك يتم إعادته إلى صندوق الأداء. يراه فوكو ويريد أن يتوسط لصالحه، لكن سليمان يشير إليه أنه بخير وعلى ما يرام، وفي الواقع، بعد مفاوضات قصيرة يمر بصينيته.

ذهب بايارد ليجلس مع سيمون على طاولة الرجل العجوز الجالس بمفرده.

ثم يرى بايارد جاك دريدا يصل، والذي عرفه من دون أن يراه على الإطلاق سابقاً: رأسه مدسوس بين كتفيه، فك جيل، له شفتان رقيقتان ذو أنف معقوف، بدلة سروال قصير، وقميص مفتوح، وشعر فضي منتصب فوق رأسه مثل اللهب. أخذ لنفسه الكسكس مع النبيذ الأحمر. يرافقه بول دي مان. توقفت طاولة سورل عن الحديث، وكذلك فوكو. أشارت إليه هيلين سيزو ولكنه لم يرها، فتشت عيناه على الفور على سورل في القاعة ووجده. ظل واقفاً لبرهة، صينية طعامه في يده، ثم تقدم للانضمام إلى أصدقائه. قبلته هيلين سيزو ربّت غوتاري على ظهره، صافحه فوكو مبدياً دوماً بعض الاستياء (نتيجة لمقال قديم كتبه دريدا بعنوان «الكوجيتو وتاريخ الجنون»، أشار فيه، بصورة عامة، إلى أن فوكو لم يفهم شيئاً بخصوص ديكارت.) جاءت الفتاة الشابة ذات الشعر الأرجواني: لتحيته: تدعى أفيتال رونيل، متخصصة في غوته ومعجبة كبيرة بالتفكيك.

يراقب بايارد حركة الأجساد وتعابير الوجوه. يأكل بعض النقانق في صمت، بينما سيمون يشرح له برنامج الندوة الذي ينظر إليه: «هل رأيت؟ هناك محاضرة حول جاكوبسون. هلا ذهبنا؟»

أشعل بايارد سيجارة، وتحدوه الرغبة في أن يقول أجل.

62

«آه الفلاسفة التحليليون، هم أُجراء حقيقيون. إنه غييرمو فيلاس، هل رأيته؟ إنهم مملون بشدة، يقدمون تعريفاً لجميع المصطلحات لساعات طوال، بالنسبة إلى كل، استدلال أو برهنة، لا ينسون أبداً طرح الفرضية، ومن ثم فرضية الافتراض، وهكذا دوليك. إنهم مجموعة من المَناطقة الملعونين. للوصول إلى نتيجة ما، يكتبون عشرين صفحة ليشرحوا لك أشياء تتطلب عشرة أسطر. ومن الغريب، أنهم يوجهون في غالب الأحيان نقداً للفلاسفة الكونيين، متهمين إياهم على وجه الخصوص بالانحراف في الخيال الجامح، وعدم التقيد بالصرامة الفكرية، وعدم تعريف المصطلحات، وممارسة الأدب وليس الفلسفة، والافتقار إلى عقل رياضي، وواصفين إياهم بالشعراء، أي، أشخاص غير جادين أقرب إلى الهذيان الصوفي (على الرغم من أنهم جميعاً ملحدين، هاه.) ولكن حسناً، بصورة عامة، الكونيون، أي أكثر من ماك إنرو. مع الفلاسفة الكونيين، على الأقل، لا يشعر المرء بالضجر.»

(طالب مجهول، تم جمع الملاحظات في الحرم الجامعي.)

63

عادة، ومن المفترض أن يتوفر سيمون على مستوى جيد في اللغة الإنجليزية، ولكن الغريب في الأمر أن يكون عادياً في فرنسا، من حيث إتقان لغة أجنبية، يكشف سيمون عن نقص كبير في هذا الأمر.

لذا، فإن سيمون لم يفهم سوى جملة واحدة من ثلاث جمل من محاضرة موريس زاب. ليكون المرء منصفاً في حقه، يجب القول إن الموضوع، حول التفكيكية ليس مألوفاً جداً له، وينطوي على مفاهيم صعبة أو على الأقل غامضة. ولكن على أي حال، في الواقع، يأمل سيمون العثور في محاضرة موريس على بعض العناصر التوضيحية.

لم يأت جاك بايارد وابتهج سيمون: كان سيصعب عليه تحمل الأمر.

ومـع ذلك، بما أن بيـت القصيد ينفلت منه إلى حد كبير، فإنه يبحث عن المعنـى في مـكان آخر: في إيقـاع النبرة السـاحرة لموريـس زاب، في قهقهات الحاضريـن (كل متدخـل يرغـب في ترسـيخ انتمائه بـلا مجـال للمنازعة هنا والآن في هـذا المدرج - «أيضاً مدرج آخر» يقول سيمون في نفسـه، ضحية لارتـكاس بنيـوي هذيـاني سـيئ يكمـن في البحث عـن موتيفـات «تيمات» متكررة)، وفي أسـئلة الحاضرين التي لا يشكل محتواها الرهان الحقيقي أبداً، بـل مجرد محـاولات، إن لم تكن للأسـتاذ المنافس، فعلى الأقـل لتحديد موقع وموقـف إزاء الحاضرين الآخرين كمحاور شرعـي يتمتع بروح نقدية يقظة وقدرات فكرية فائقة (باختصار، من أجل التمييز، كما يقول بورديو.) يعرف سـيمون، في نبرة كل سـؤال، حالة المرسـل، طالب جامعي، طالب دكتوراه، أسـتاذ، متخصـص، منافـس،» يكشـف بسـهولة المزعجـون، الخجولـون، الأغبيـاء، المتغطرسـون، والأكثر شـيوعاً، أولئك الذين لم يطرحوا سـؤالهم، مسـهبين في مناجـاة لا نهايـة لها، مخموريـن بخطابهم الخـاص، تحركهم تلك الحاجـة الملحة لإبداء رأيهم. من الواضح أن شـيئاً ما وجودي على المحك في مسرح الدمى هذا.

ولكـن على الرغم من كل ذلك، فقد فهم مقطع لفت انتباهه: «إن أصل الخطأ النقدي هو الخلط الساذج بين الأدب والحياة.» هذا يشغل باله، لذلك طلـب من جـاره، وهو رجل إنجليزي في الأربعينيات مـن عمره، إذا لم يكن مـن قبيل المصادفة أنه لا يسـتطيع أن يضمن له نوعاً مـن الترجمة الفورية، أو عـلى الأقـل تلخيصاً له، وبـما أن الرجل الإنجليزي، على غـرار نصف الحرم الجامعي وثلاثة أرباع هؤلاء الذين حضروا المؤتمر، لديهم مسـتوى جيد جداً في اللغـة الفرنسـية، يشرح لـه، وفقاً لنظريـة موريس زاب، هنـاك، في أصل النقد الأدبي، خطأ منهجياً أصلياً، يتمثل في الخلط بين الحياة والأدب (ازداد اهتـمام سـيمون) في حـين أن الأمـر ليس كذلك، وبأن شـيئاً كهـذا لا يعمل بالطريقـة نفسـها «الحياة شـفافة وواضحة، والأدب مبهـم (غامض)، يقول الرجل الإنجليزي. (هذا أمر قابل للنقاش، يقول سـيمون في نفسـه.) الحياة نظـام مفتـوح، والأدب نظام مغلـق. الحياة عبارة عن أشـياء، والأدب عبارة

عن كلمات. الحياة هي تلك الأشياء التي نقصد الحديث عنها: عندما ينتابنا الخوف على متن طائرة، فإن الموضوع يخص الموت. عندما نغازل فتاة، فإن الموضوع يتعلق بالجنس. لكن في مسرحية هاملت حتى الناقد الأكثر غباء يدرك أن الأمر لا يتعلق برجل يريد قتل عمه، بل يدور الموضوع حول شيء آخر.»

وهذا ما يطمئن سيمون إلى حد ما، هو الذي ليس له فكرة عما يمكن أن تتحدث عنه مغامراته.

باستثناء اللغة، بالطبع، امم.

يواصل موريس زاب محاضرته بطريقة دريدية بشكل متزايد، لأنه، الآن، يؤكد أن فهم رسالة يعني فك شفرتها، بما أن اللغة هي رمز. يبد أن "كل فك تشفير هو ترميز لغوي جديد. " لذا، بصفة عامة، لن يكون بمقدورنا أبداً أن نكون متأكدين من أي شيء، ولا سيما أن يفهم اثنان من المحاورين بعضهما البعض؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يتأكد من أنه يستخدم الكلمات تماماً بالمعنى نفسه الذي يستخدمه محاوره (بما في ذلك، التواصل في اللغة نفسها.)

يا لها من متاهة، قال سيمون في نفسه.

ويستخدم موريس زاب هذه الاستعارة المذهلة التي ترجمها له الرجل الإنجليزي: «إن المحادثة هي في الأساس مباراة في التنس نلعبها بكرة معجونة تأخذ شكلا جديداً في كل مرة تعبُر فيها الشبكة.»

يشعر سيمون أن الأرض تخسف تحت قدميه؛ يخرج ليدخن سيجارة ويصادف سليمان.

ينتظر الشاب العربي نهاية المحاضرة للتحدث إلى موريس زاب. يسأله سيمون عما يريد أن يسأله لموريس زاب. يجيب سليمان أنه ليس من عادته أن يطلب مهما كان الأمر من أي شخص أي شيء.

64

«نعم، لذا من الجلي، أن المفارقة هنا، هو أن ما يسمى بالفلسفة الكونية قد حققت اليوم نجاحاً أكبر في الولايات المتحدة الأمريكية مقارنة مع أوروبا. هنا، يُعتبر دريدا، دولوز فوكو نجوم عليا في الأوساط الأكاديمية، بينما في فرنسا لا ندرس أعمالهم في الأدب ونستهجنها في الفلسفة. هنا، نُدرس أعمالهم باللغة الإنجليزية بالنسبة إلى الشُعَب الإنجليزية. كانت النظرية الفرنسية أداة انقلاب لثورة أتاحت لهم الانتقال من وضع غير مجد إطلاقاً في العلوم الإنسانية إلى حقل معرفي يشمل جميع الحقول الأخرى، لأنه بما أن النظرية الفرنسية تنطلق من فرضية أن اللغة هي أساس كل شيء، فإن دراسة اللغة تعني دراسة الفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس... وهنا، يكمن المنعطف اللغوي الشهير. لذلك، غضب الفلاسفة وبدأوا بدورهم في العمل على اللغة، أنصار سورل وتشومسكي يقضون جزءاً كبيراً من وقتهم في الحط من شأن الفرنسيين، من خلال إيعاز صريح من أجل الوضوح، «ما يتم تصوره بشكل سليم يُعبر عنه بوضوح» والعديد من عبارات تبديد الضلال والخداع من قبيل «لا شيء جديد تحت الشمس»، كما قال بالفعل كونديـاك، والفيلسوف الأثيني أناكاجوراس لم يكرر شيئاً آخر، لقد قاموا جميعاً بتقليد نيتشه، إلخ. يشعرون أن الأضواء سُرقت منهم من طرف مشعوذين، ومهرجين، ودجالين، فمن الطبيعي أن يغضبوا، ولكن يجب القول إن فوكو مع ذلك أكثر إثارة للجنس من تشومسكي.»

(طالب مجهول، تم جمع الملاحظات في الحرم الجامعي.)

65

لقد تأخر الوقت، تخلّل اليوم مجموعة من المحاضرات كان الجمهور غفيراً وشديد الاهتمام، وخف الصخب في الحرم الجامعي مبدئياً. هنا وهناك تُسمع ضحكات الطلاب السكارى في الليل.

يستلقي سليمان بمفرده في الغرفة التي يتقاسمها مع فوكو، يستمع إلى

جهـاز الموسـيقى، عندما طـرق أحد في الباب: «سـيدي هنـاك مكالمة هاتفية لك.»

يجرؤ سـليمان بالمجازفة بحذر في الممر. لقد تلقى من قبل عروضاً أولى، ربـما يرغب مشـتر محتمـل في المزايدة من أجـل الحصول على وثيقـة الوظيفة السابعة. يلتقط سليمان جهاز الاستقبال المثبت في الحائط.

إنـه فوكو، مذعوراً على الهاتف، يتكلم بصعوبة: «تعال وخذني! فعلتها مجدداً. أضعت اللغة الإنجليزية ولم أعد قادرا على التواصل بها.»

لا يعرف سـليمان كيف تمكن فوكو من العثور على نادي للشواذ جنسياً، من فئة الخدمة الميدانية، علاوة على ذلك، في هذه القرية. اسـتقل سيارة أجرة ووصل إلى مؤسسة تسمى البالوعة البيضاء، تقع في ضواحي المدينة السفلى. يرتـدي الزبنـاء سراويـل جلديـة وقبعـات القرويين الشـواذ، وجد سـليمان الأجـواء ممتعـة إلى حد مـا. أراد رجل قوي البنية مسـلح بسـوط أن يقدم له مشروبـاً، لكنـه رفض بـأدب وذهب ليتفقـد الغرف الإباحية. وجد ميشـيل فوكو تحت تأثير حبوب الهلوسة (عرف سليمان الأعراض على الفور) جالساً القرفصـاء عـلى الأرض وسـط ثلاثة أو أربعـة أشـخاص أمريكيين يخصونه بعناية مثيرة للتسـاؤل، شـبه عار، ببقع حمراء كبيرة على الجسـم، في حالة من الذهول الشـديد، لا يقوى سـوى على ترديد عبارة «أضعـت الإنجليزية! لا أحد يفهمني! أخرجني من هنا!»

ترفض سـيارة الأجرة نقل فوكو، ربما يخشـى السائق أن يتقيأ فوكو على مقاعـد السـيارة، أو يكره الشـواذ، لذلك أوقفه سـليمان مسـنداً إيـاه بكتفيه وعادوا مشياً على الأقدام إلى الحي الجامعي.

إيثـاكا مدينة صغيرة يبلغ عدد سـكانها ثلاثون ألف نسـمة (ويتضاعف العـدد مـع الطـلاب في الحرم الجامعـي)، ولكنهـا مدينة مترامـيـة الأطراف. الطريـق طويـل، والشـوارع مهجـورة، تصطـف بمحاذاتها مجموعـة طويلة متوازيـة من البيوت الخشـبية المتشـابهة إلى حد ما، يتوفـر كل منزل منها على أريكـة أو كرسي هزاز في فناء المنزل، وعدد قليل من زجاجات البيرة الفارغة

فـوق الطـاولات، ومنفضة سـجائر مملـوءة. (يدخن المرء أكثـر في الولايات المتحـدة الأمريكية في عام 1980.) توجد كنيسـة خشـبية على رأس كل مئة مـتر. عـبر الرجلان عددا من المجـاري المائية. ورأى فوكو السـناجب في كل مكان.

خففـت سـيارة شرطة السرعـة عندما تواجهـت معهما. أدرك سـليمان الوجـه المرتاب لرجال الشرطة وراء المصباح اليـدوي المُصوب نحوه. تبادل معهـم بضع كلمات بالفرنسـية، متصنعاً مظهـراً مرحاً. أصـدر فوكو قرقرة. يعرف سـليمان أن بمقدور العين المدربة أن تدرك أن الرجل الذي يتكىء عليه لا يبدو في حالة سـكر فقط، بل منتشـياً بفعل تأثير المخدرات. يأمل سـليمان فقـط ألا يكـون مع فوكو حبوب الهلوسـة. ترددت الدورية ثـم غادرت من دون التحقق منهما.

وصلا أخيراً إلى وسـط المدينة. اشـترى سـليمان فطائر لفوكو من مطعم بسـيط يديـره أفـراد مـن طائفـة المورمون الكنسـية. يـصرخ فوكو: «سـحقاً لريغان!»

يستغرق تسلق التل ساعة من الوقت، ولحسن الحظ أن سليمان خطرت ببالـه فكرة اختصار الطريق عبر المقبرة. طوال الطريق، يردد فوكو: «شـطيرة نادي قديم جيدة مع كوكا...»

اسـتبدت بفوكـو نوبـة هلع في ممـرات الفنـدق، لأنه رأى فيلـم الرعب الشهير (شاينينج – البريق) قبل مغادرته. وضعه سليمان على السرير، طلب فوكو قبلة ونام، وهو يحلم بالمصارعين الإغريق – الرومان.

66

«أنا لا أقول ذلك، لأنني إيراني لكن فوكو، إنه لا يتلفظ سـوى بالهراء. إن تشومسكي على صواب.»

(طالب مجهول. تم جمع الملاحظات في الحرم الجامعي)

استأنس سيمون بشابة سحاقية يهودية نسوية تابعت للتو محاضرة لهيلين سيزو حول الكتابة النسائية. تدعى جوديث بتلر، تنحدر من عائلة يهودية من المجر، تحضر درجة الدكتوراه في الفلسفة، ويبدو أنها تهتم بالأدائية إذ إنها تعتقد أن السلطة البطريركية (الأبوية) لجأت إلى شكل مخادع في الأفعال الأدائية لتطبيع البناء الثقافي الذي هو نموذج الزوجين المرتبطين بزواج أحادي خاضع لنظام مغاير: باختصار، في نظرها، يكفي أن يعلن الذكر الأبيض المغاير أن هذا هو النظام، لجعل هذا الأمر ممكناً.

إن الأدائية ليست مجرد حفلة تدريع الفرسان، بل أيضاً هذه الخدع الخطابية والبلاغية التي تكمن في تحويل أثر علاقات السلطة إلى مقاييس أزلية.

وقبل كل شيء: «المقياس الطبيعي». الطبيعة، ها هو العدو. الأساس المنطقي لصراع رد الفعل: «ضد الطبيعة»، متغير حديث مبهم يخالف الإرادة الإلهية التي كانت فيما مضى تشكل أمراً طبيعياً. (إن الله، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، تعب قليلا في عام 1980، لكن رد الفعل، لا، لا يلقي السلاح.)

جوديث بتلر: «الطبيعة هي الألم، والمرض، والقسوة، والبربرية، والموت. الطبيعة قاتلة. ضحكت ساخرة من شعار مؤيدي الحياة.

قال سيمون، إذعاناً لرأيها: «كان بودلير يكره الطبيعة.»

تبدو جوديث مربعة الوجه، وكطالب ذي قَصّة شعر نظيف، ومظهر خريج الصف الأول في مدرسة العلوم السياسية، فيما عدا أنها نسوية راديكالية تتبنى فكراً يرى، على شاكلة، مونيك فيتيغ، أن السحاقية ليست امرأة، بما أن المرأة يتم تعريفها على أنها مكمل **supplément** للرجل، والذي تخضع له بحكم التعريف. إن أسطورة آدم وحواء، إلى حد ما، هي الفعل الأدائي الأصلي: منذ اللحظة التي تقرر فيها أن المرأة تابعة للرجل، وأنها خُلقت من ضلع الرجل، وأنها هي من ارتكبت الخطيئة بخصوص أكل التفاحة، وأنها

هي الزانية، وأنها تستحق أن تلِد بشكل مؤلم، فبطبيعة الحال، لقد قُضي عليها وانتهى أمرها. وأن كل ما تحتاجه الآن هو أن ترفض رعاية الأطفال.

وصل بايارد، لقد فاتته محاضرة هيلين سيزو، لأنه فضل متابعة تداريب فريق الهوكي، من أجل، كما قال، استنشاق الهواء في الحرم الجامعي. يمسك بايارد بقنينة جعة نصف مملوءة وعلبة شيبس بطاطس في يديه. تنظر جوديث بتلر إلى بايارد بفضول، ولكن على عكس ما كان يعتقده سيمون، من دون عداء واضح.

«إن السحاقيات ليسوا نساء، ويسخرون منكم، أنتم ومركزيتكم القضيبية - العقلية» تضحك بتلر. يضحك سيمون معها. يسأل بايارد «ما الأمر؟»

68

«اخلع تلك النظارات الداكنة، ليس ثمة شمس، ترى أن الطقس مقرف.»

عبثاً تحدثت الأسطورة، لا يزال فوكو مخدراً بعد مآثره في الليلة الماضية. يغمس حلوى كبيرة بكعكة الجوز في قهوة اسبريسو رائعة جداً. يرافقه سليمان، وهو يتناول شطيرة اللحم المقدد مع صلصة زرقاء.

تقع المؤسسة في أعلى التل، عند مدخل الحرم الجامعي، على الجانب الآخر من المضيق الخانق الممتد على طول الجسر الذي منه، يرمي، في بعض الأحيان، الطلاب المكتئبون أنفسهم. لا يعرفون ما إذا كانوا في حانة أو في قاعة للشاي. في حالة من الشك، فوكو، الفضولي، دوماً وعلى الرغم من الصّداع الذي يشعر به، يريد أن يطلب بيرة، لكن سليمان يلغي الطلب. النادلة، المعتادة على الأرجح على نزوات الأساتذة الزائرين ونجوم الحرم الجامعي الآخرين، تهز كتفيها متجاهلة الأمر، وتبتعد وهي تردد بطريقة ميكانيكية: «لا مشكلة يا رفاق. أخبروني إذا كنتم بحاجة إلى أيّ شيء، حسناً؟ أنا حلوى سكرية، بالمناسبة.» غمغم فوكو: «مرحباً يا حلوى. أنت

حلوة جداً.» لم تسمعه النادلة وعلى الأرجح من الأفضل أنها لم تسمع، قال فوكو في نفسه، الذي لاحظ بالمناسبة أن اللغة الإنجليزية عادت إليه.

يشعر فوكو بلمسة على كتفه. ويرفع عينيه إلى الأعلى، وخلف نظارته يتعرف على كريستيفا. إنها تحمل كوباً ساخناً بحجم الترموس في يدها. «كيف حالك ميشيل؟ لقد مرت فترة طويلة.» استجمع فوكو قواه في الحال. تغيرت ملامح وجهه، خلع نظارته وعرض ابتسامته الشهيرة على كريستيفا بأسنان بارزة. جوليا، أنت متألقة «سألها كما لو أنهم رأوا بعضهم البعض البارحة: ماذا تشربين؟»

ضحكت كريستيفا: «شاي مقرف. لا يعرف الأمريكيون كيف يصنعون الشاي. حين كنا في الصين، أنك تعرف...»

لكي يتفادى انفضاح حالته، تابع فوكو قائلاً: «هل مرت محاضرتك على أحسن ما يرام؟ لم أتمكن من متابعتها».

- أوه، تعرف... لا تنطوي على أي شيء ثوري. توقفت لبرهة. يسمع فوكو قرقرة معدته. «الثورات، أحتفظ بها للمناسبات الكبرى.»

يتظاهر فوكو بالضحك ثم يعتذر: «القهوة هنا تجعلني أرغب في التبول، هاها.» ينهض ويذهب بهدوء ما أمكن نحو المرحاض لِيفرَغ عبر كل ثقب في جسده.

جلست كريستيفا في مكانه. ينظر إليها سليمان من دون أن يقول أيّ شيء. لاحظت شحوب فوكو، تعرف أنه لن يعود من المرحاض، حتى يتمكن من تغيير حالته الجسدية بالكامل، لذلك تُقدر أن أمامها دقيقتين أو ثلاث دقائق.

«قيل لي إنك تملك شيئاً في حوزتك. يمكن أن تعثر على مشتر له هنا».

- لابد أنكِ مخطئة، سيدتي.

- على العكس من ذلك، أعتقد أنك أنتَ على وشك ارتكاب خطأ يدعو للأسف في حق الجميع.

- لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه، سيدتي.

- أنـا مسـتعدة، على الرغم مـن كل شيء لعقد صفقة الشراء، شـخصياً مقابل دفع تعويض كبير، لكن ما أوده قبل كل شيء هو الحصول على ضمان.

- أيّ نوع من الضمان، سيدتي؟

- ضمانات أكيدة على عدم استفادة أي شخص آخر من هذه الحيازة.

- وكيف تنوين الحصول على هذا الضمان، سيدتي؟

- إنه دورك، أنتَ، لتخبرني، يا سليمان؟

- يلاحظ سليمان استخدام اسمه الشخصي.

استـمعي لي جيـداً، أيتها العاهرة القذرة، لسـنا في باريـس ولم أر كلبيك الاثنين معك. إذا اقتربت مني مرة أخرى، سأجعلك تنزفين دماً مثل الخنزير وأرمي بكِ في البحيرة.»

عـاد فوكو مـن المرحاض، يبدو أنه غسـل وجهه بالمـاء، فأصبح مظهره ممتـازاً، ومـن المؤكد أنه يواصل التظاهر المُضلل، تقول كريسـتيفا في نفسـها، وملامح الشـحوب وبقايا شـمعية من مواد التنظيف بادية في عينيه. يبدو أنه على اسـتعداد لإلقاء محاضرة، وربما هذا ما سيفعله، فهو يرغب فقط في تذكر الوقت المحدد لمداخلته.

أخلت كريستيفا له مقعده معتذرة.»لقد سعدت بمعرفتك، سليمان.» لم تصافحـه، لأنهـا تدرك أنه لن يصافحها. لن يشرب مـن زجاجات تم فتحها من قبل. لن يسـتخدم رشاشة الملح على الطاولة. يتجنب أي اتصال جسدي مع أي شـخص. هذا الشـخص حذر، وهو على صواب. في غياب نيكولاي سـتكون الأمور أكثر تعقيداً إلى حدّ ما؛ لكنها تعتقد أنها غير قادرة على إدارة أيّ شيء.

69

«إن تفكيك نص ما يكمن في تبيان كيف يقوض الفلسفة التي يتطلع إليها، أو توضيح تراتبية التعارضات التي يرتكز عليها، من خلال تحديد العمليات البلاغية في النص التي تمنح محتواه أساساً مفترضاً، كما تمنحه مفهومه الرئيس ومنطلقاته الأساسية.»

«جوناثان كالر، منظم ندوة المنعطف اللغوي.»

70

«نعيش إذا جاز التعبير في العصر الذهبي لفلسفة اللغة.»

يلقي سورل محاضرته وجميع الأحزاب الأكاديمية الأمريكية تعرف بالفعل أن المحاضرة ستكون هجوماً صارخاً على جاك دريدا للانتقام لشرف أستاذه جون أوستن، حيث يعتقد عالم المنطق الأمريكي أنه كان موضع تشكيك واهتمام على نحو أشد من طرف التفكيكي الفرنسي.

يوجد سيمون وبايارد في القاعة لكنهما لا يفهمان شيئاً، أو لا يفهمان الشيء الكثير؛ لأن المحاضرة باللغة الإنجليزية. يتحدث سورل عن «أفعال الكلام» حسناً. يسمع سيمون «الفعل الإنجازي»، «الفعل التأثيري». ولكن ماذا يعني هذا التعبير «ملفوظ؟»

لم يأت دريدا، لكنه أرسل مبعوثين من المؤكد أنهم سيقدمون له تقريراً: ملازمه المخلص بول دي مان، ومترجمته غاياتري سبيفاك، وصديقته هيلين سيزو... في الواقع، الجميع هناك، باستثناء فوكو الذي لم يكلف نفسه عناء التنقل. ربما يعتمد على سليمان ليلخص له المحاضرة، أو أنه لا يبالي إطلاقاً.

رأى بايارد جوليا كريستيفا، وجميع الأشخاص الذين رآهم في المقصف، بما في ذلك، الرجل العجوز ذا ربطة عنق صوفية وتسريحة شعر أشبه بشجيرة.

كرر سورل عدة مرات أنه ليس من الضروري ذكر هذه المسألة أو تلك، وأنه لن يهين جمهوره المحترم بشرح هذه القضية أو تلك، وأنه ليس هناك ما

يدعو للتفكير في مثل هذه البديهيات الصارخة، إلخ.

فحسب ما فهمه سيمون، على أي حال، هو أن سورل يعتقد أنه يجب على المرء أن يكون غبياً ليخلط بين «قابلية التكرار» و «الاستمرار»، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، الخطاب الجاد والخطاب المراوغ. باختصار، رسالة سورل هي: سحقاً لجاك دريدا.

همس جيفري ميلمان في أذن موريس زاب: لقد عجزت عن إدراك أن الخلاف الساحر المثير للجدل عند سورل جعله شُرطي بمزاج فلسفي.» ضحك موريس زاب. بعض الطلاب وراءه يطالبونه بالصمت.

في نهاية المحاضرة، طرح أحد الطلاب سؤالا: هل يعتقد جون سورل أن الخلاف بينه وبين جاك دريدا (بما أن، على الرغم من أنه كان حريصاً على عدم تسمية خصمه، الجميع فهم موضوع وهدف محاضرته - عمت همسات إقرار في القاعة) يرمز إلى المواجهة بين تقليدين فلسفيين كبيرين (الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية؟)

يجيب سورل بنبرة غضب مكتوم: «أظن أنه سيكون من الخطأ الاعتقاد بذلك. لم تحدث المواجهة أبداً.» كان فهم أعمال جون أوستن ونظريته حول أفعال الكلام من طرف بعض الفلاسفة الذين يُطلق عليهم القاريين فهماً مضطرباً، وتقريبياً للغاية ومليئاً بالأخطاء وذا تفسير مغلوط، وكما عرضت للتو بالأدلة على ذلك. وأنه من غير المجدي أن نسهب كثيراً في الحديث عنها. ويضيف سورل بنبرة رجل دين متشدد: «توقف عن إضاعة وقتك مع هؤلاء المجانين، أيها الشاب. ليست هذه هي الطريقة التي تعمل بها الفلسفة الجادة. شكراً لاهتمامكم.»

ثم متجاهلا الاعتراضات التي سادت في القاعة، نهض جون سورل وغادر.

ولكن بينما بدأ الحضور في التفرق، رأى بايارد أن سليمان يحث الخطى نحو المحاضر جون سورل. «انظر يا سيمون! يبدو أن العربي لديه تساؤلات حول الفعل التأثيري...» التقط سيمون تلقائياً مسحة العنصرية ومناهضة الفكر والعلم المتأججة والمعششة في ذهن جاك بايارد. ولكن في نهاية المطاف،

وراء الإيحاء الطائفي العنصري للسخرية، فمن المؤكد أن ثمة سؤالاً حقيقياً: ماذا يريد سليمان حقاً من جون سورل؟

71

«ليكـن هنالك نور» وكان هنالك نور. (مخطوطات البحر الميت، حوالي القرن الثاني قبل الميلاد... أقدم حدوث للأدائية ثم العثور عليه حتى الآن في العالم اليهودي - المسيحي.

72

بمجرد أن ضغط سيمون على زر المصعد عرف مسبقاً أنه سيصعد إلى الجنـة. فُتحت أبـواب المصعد عـلى الطابق العلـوي الذي يضم الدراسـات الرومانيـة، ودخـل سـيمون متاهة من الرفـوف تضم كتباً تصل إلى السـقف مضاءة بمصابيح سيئة. لا تغرب الشمس أبداً على مكتبة كورنيل التي تعمل على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم.

جميع الكتب التي قد يريدها سيمون موجودة في المكتبة، وكذلك الكتب الأخـرى. إنـه قرصـان في مكان بـه كل شيء، إلا أنـه إذا أراد أن يأخذ شـيئاً ما، فسـيتعين عليه فقط ملء استمارة. يلمس سيمون حواف الكتب بأطراف أصابعه، كما لو كان يمسـح سـنابل حقل قمح سيملكه - هذه هي الشيوعية الحقيقية: ما يخص الجميع هو ملكي، والعكس صحيح.

في مثل هذا الوقت، من المحتمل أن تكون المكتبة فارغة. يطوف سيمون بالرف الخاص بالبنيوية. حسناً، كتاب كلود ليفي شتراوس عن اليابان؟

يتوقـف أمـام رفّ السريالية، ويبتهج أمام جـدار العجائب هذا: معرفة المـوت بقلـم روجـر فيـتراك... الربيع المظلـم، بقلـم يونيـكا زورن... بابية الشـيطان المنسـوب إلى ديسـنوس... وبعض الأعـمال النادرة للشـاعر روني كروفيـل باللغـة الفرنسـية والإنجليزيـة وأعمال حديثـة للكاتبـة آني لوبرون

والكاتب رادوفان إيفيسك...

طقطقة. تجمد سيمون في مكانه. يسمع أصوات خطوات أقدام. لاشعورياً، لأنه شعر أن وجوده في منتصف الليل في مكتبة جامعية هو بالضرورة، إن لم يكن غير قانوني، فعلى الأقل كما يقول الأمريكيون غير مناسب، اختبأ وراء رف أبحاث حول الجنسانية ل «مكتب الأبحاث السريالية.»

رأى جون سورل يمر أمام مراسلات كريستيان تزارا.

يسمعه سيمون يتحدث مع شخص في الرف المجاور. سحب سيمون الحزمة التي تضم اثني عشر عدداً من النسخ طبق الأصل لسلسلة الثورة السريالية، ليرى بشكل أفضل، ومن خلال الشق، تعرف على الجسد النحيل لسليمان.

يغمغم سورل بصوت منخفض جداً، لكن سيمون سمع سليمان يقول له بوضوح: «لديك أربع وعشرون ساعة. ثم أبيع لأعلى مزايد. ثم أعاد جهاز الموسيقى إلى أذنه وتوجه إلى المصعد.»

لكن جون سورل لم يغادر المكتبة برفقته. يتصفح بارتباك بعض الكتب. من يستطيع أن يخبرنا فيما يفكر فيه جون سورل؟ يطرد سيمون من ذهنه هذا الشعور المألوف.

في محاولة لإعادة سلسلة الثورة السريالية إلى مكانها، أسقط سيمون كتاباً بعنوان اللعبة الكبرى. رفع سورل رأسه، مثل كلب صيد. قرر سيمون أن يتسلل بسرية قدر الإمكان، وتعرج بصمت وسط الرفوف، وهو يسمع وراءه حركة فيلسوف اللغة، وهو يلتقط كتاب اللعبة الكبرى. يتخيل سيمون أن سورل يتصفح الكتاب. أسرع عندما سمع وقع خطوات تتعقب أثره. اجتاز رف التحليل النفسي، ودخل رف الرواية الجديدة، لكنه طريق مسدود. استدار سيمون وانتفض عندما رأى سورل يتقدم نحوه، وهو يحمل قاطع الورق في يد، وكتاب اللعبة الكبرى في اليد الأخرى. بطريقة آلية، أمسك سيمون بكتاب للدفاع عن نفسه (سحر لول شتاين، هذا لن يجدي نفعاً، قال سيمون في نفسه، رماه أرضاً وأخذ كتاباً آخر: طريق فلاندرا، هذا

سيكون أحسن)، لم يرفع سورل ذراعه كما هو الحال في فيلم الجنون، لكن سيمون على يقين أنه يتعين عليه حماية أعضائه الحيوية من شفرة قاطع الورق، عندما سمعوا في تلك اللحظة أبواب المصعد تُفتح.

رأى سيمون وسورل، القابعين في طريقهما المسدود، مرور امرأة شابة تنتعل حذاءا ورجلا يتمتع ببنية قوية يتوجهان نحو آلة التصوير. وضع سورل قاطع الورق في جيبه، وأنزل سيمون رواية كلود سيمون، ومدفوعان بالفضول نفسه، أخذا يراقبان الرجل والمرأة عبر الأعمال الكاملة للكاتبة ناتالي ساروت. يسمعون طنيناً ويرون الضوء الأزرق لآلة التصوير، ولكن سرعان ما احتضن الرجل المرأة الشابة المتكئة على الآلة. أصدرت تنهيدة خافتة ومن دون النظر إليه، وضعت يدها على فتحة سرواله. (يفكر سيمون في منديل عطيل). جسدها بيضاوي وأصابعها طويلة جداً. قام الرجل بفتح أزرار لباسها وأسقطه عند قدميها. لا ترتدي ملابس داخلية، يبدو جسدها مثل لوحة لرافاييل، ثدييها ثقيلان، خصرها نحيف، وركها واسع، كتفيها مشيقة، وفرجها حليق. يمنح شعرها الأسود بقصة مربعة ووجهها المثلث بريق أميرة قرطاجية. فتح سورل وسيمون عيناهما على مصراعيهما حين جثت المرأة على ركبتها لتضع قضيب الرجل في فمها، ويريدان معرفة ما إذا كان قضيب الرجل مماثلا لبنيته الجسدية. أعاد سيمون رواية طريق فلاندرا إلى مكانها. رفع الرجل الشابة وقلبها على ظهرها وغاص بداخلها فتهيجت وفتحت أردافها بيديها، بينما يمسكها هو من رقبتها. ينجز الرجل ما هو متأصل في طبيعته الغريزية: يثب فوقها، أولا ببطء وشدة، ثم بشراسة أقوى، تُسمع آلة التصوير تصطدم بالحائط حتى اقتلعت من الأرض وتعالى أنين طويل انتشر في ممرات المكتبة المهجورة (على ما يعتقدون).

لم يجد سيمون طريقة للانفكاك عن رؤية هذا الجماع الجوبيتيري، ومع ذلك يتوجب عليه فعل ذلك. ولكن لديه مخاوف من مقاطعة هذه المضاجعة الجذابة. ويبذل جهداً إرادياً كبيراً، جعلته غريزة المحافظة على الذات يقوم بجرف الرفوف التي تضم كتب دوراس التي ألقى بها على الأرض. صوت

سقوط الكتب جعل الجميع يتجمد في مكانه. وتوقفت الصرخات على الفور. يحدق سيمون مباشرة في وجه سورل. استدار سيمون حوله متجاوزاً إياه من دون أن يقوم سورل بأدنى حركة. عندما دخل إلى الممر المركزي، توجه نحو آلة التصوير. يحدق به الرجل - الثور، وذيله مرفوع؛ ببطء نظرت إليه المرأة الشابة في تحدي، التقطت رداءها وأدخلت الرّجل الأولى، ثم الثانية، ثم أدارت ظهرها إلى الرجل - الثور لكي يقوم بشد ثوبها بالإبزيم. يدرك سيمون أنها لم تنتعل حذاءها. وهرب عبر السلالم الخلفية.

في الخارج، في حديقة الحرم الجامعي، وجد سيمون أصدقاء كريستيفا الشباب الذين لم يبرحوا مكانهم لمدة ثلاثة أيام، على ما يبدو، بالاستناد إلى حجم الزجاجات الفارغة وعبوات رقائق البطاطس المنتشرة فوق العشب حولهم. وبناء على دعوة منهم، جلس سيمون معهم، أخذ بيرة وقبِل بامتنان لفافة الحشيش التي قُدمت له. يعرف سيمون أنه بمنأى عن الخطر (وإذا كان ثمة خطر على الإطلاق. فمن الأكيد هو الخطر الذي عاشه، عندما رأى قاطع الورق؟) ولكنه لا يشعر بانخفاض مستوى القلق بداخله - ثمة شيء آخر.

في مدينة بولونيا، مارس الجنس مع بيانكا في مدرج يعود إلى القرن السابع عشر ونجا من هجوم بقنبلة. هنا في كورنيل، كان على وشك أن يصاب بطعنة في مكتبة ليلية من طرف أحد فلاسفة اللغة، وتابع مشهداً جنسياً على طريقة الكلاب إلى حدّ ما، مشهداً جنسياً أسطورياً فوق آلة التصوير. التقى بالرئيس جيسكار في قصر الإليزيه، قابل ميشيل فوكو في حمام سونا البخاري للشواذ، شارك في مطاردة السيارة التي على إثرها كان ضحية لمحاولة اغتيال، ورأى رجلا يقتل رجلا آخر بمظلة مسمومة، واكتشف مجتمعاً سرّياً يتم فيه قطع أصابع الخاسرين، وعبَر المحيط الأطلسي لاسترداد وثيقة غامضة. لقد عاش أحداثاً استثنائية في غضون بضعة أشهر أكثر مما كان يتوقعه طوال فترة حياته بكاملها. يميز سيمون الطابع الرومانسي عندما يصادفه. يفكر من جديد في الشخصيات الافتراضية للكاتب أمبرتو إيكو.

وسحب سيمون دخان لفافة الحشيش.

«ماذا هنالك، يا رجل؟»

قام سيمون بتدوير لفافة الحشيش. وَمَضَ في عقله من دون أن يتمكن من إيقافه فيلم الأشهر الأخيرة كما عاشه، وكما لو كانت مهنته، حدد بنياته السردية، والعوامل المساعدة والمعارضة، والقيمة المجازية. مشهد جماع (فاعل)، هجوم (قنبلة) في مدينة بولونيا. اعتداء (قاطع - ورق)، مشهد جماع (متفرج) في كورنيل. (طباق) مطاردة بالسيارة. إعادة كتابة مبارزة هاملت النهائية. الموتيف (التيمة) المتكرر للمكتبة (ولكن لماذا يفكر في مركز هضبة بوبورغ؟) أزواج الشخصيات: البلغاريان، واليابانيان، فيليب سوليرز وجوليا كريستيفا، جون سورل وجاك دريدا، أناستازيا وبيانكا... والأكثر أهمية... الأحداث غير مشاكلة للواقع: لماذا انتظر البلغاري الثالث كثيراً، حتى أدركوا أن نسخة من المخطوط بقيت في منزل رولان بارت قبل الذهاب لتفتيش الشقة؟ كيف استطاعت أناستازيا، إذا كانت عميلا روسياً، أن تشتغل على وجه السرعة، في جناح المستشفى في باريس، حيث كان يرقد رولان بارت؟ لماذا لم يقم جيسكار باعتقال كريستيفا وتسليمها لأحد سماسرته لتعذيبها وإجبارها على التحدث، بدلا من إرسالها، بايارد وهو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، من أجل مراقبتها؟ وكيف حدث أن الوثيقة باللغة الفرنسية وليست باللغة الروسية أو الإنجليزية؟ ومن قام بترجمتها؟

وضع سيمون رأسه بين يديه، وهو يتأوه.

«أعتقد أنني عالق في رواية سخيفة».

- ماذا؟

- «أعتقد أنني محاصر في رواية.»

انقلب الطالب الذي يخاطبه سيمون إلى الوراء على ظهره، ونفث دخان سيجارته نحو السماء، نظر إلى النجوم تدور في الأثير، شرب رشفة جعة مباشرة من فم الزجاجة، واتكأ على مرفقه، وترك الصمت الطويل يلقي بظلاله على الليل الأمريكي وقال: «يبدو الجو رائعاً، يا رجل. استمتع بالرحلة.»

73

«من هذا المنطلق يشارك المصاب بجنون الارتياب في هذا العجز للعلامة المنزاحة عن المركز الذي تهاجمه من كل حدب وصوب في بيئة مراوغة، ولكن مع ذلك يواصل بشدة ملاحقة السلطة الفائقة للدال، في خضم الشعور الماحق بالغضب، لكونه سيد الشبكة التي تنتشر في المحيط.»

(فليكس غوتاري، خطاب ملقى في محاضرة كورنيل، 1980).

74

«مرحباً، سيتم إلقاء محاضرة حول جاكوبسون، أسرع.

- آه كلاّ، هذا جيّد، لقد رأيت ما يكفي.

- آه، لكن اللعنة، أنت ممل، قلت إنك موافق. سيكون هناك الكثير من الناس في القاعة. ستتعلم بعض الأشياء... اترك مكعب روبيك هذا!»

طقطق، طقطق. يقوم بايارد بهدوء بتدوير الصفوف المتعددة الألوان. لقد أنجز تقريباً وجهين من ستة.

حسنا موافق، ولكن فيما بعد ستكون محاضرة لجاك دريدا، لا يجب تفويتها.

- لماذا؟ ما الذي سيقدمه جاك دريدا، ليكون أكثر إثارة للاهتمام من الآخرين، هذا الأبله؟

- إنه أحد أكثر المفكرين الأحياء إثارة للاهتمام في العالم. ولكن ليس هذا بيت القصيد، أيها الغبي الأحمق. لقد اشتبك بشكل حاد مع جون سورل حول نظرية أوستن في أفعال الكلام.»

طقطق، طقطق.

«نظرية جون أوستن، إنها الأدائية، أتتذكر؟ الفعل الأدائي والفعل التأثيري. عندما يكون القول، هو الفعل. كيف ننجز أفعالاً عن طريق الكلام. كيف نجعل الناس تنجز أفعالا عن طريق الكلام معهم فقط. على

سـبيل المثـال، لو كنت أملك قـوة تأثيرية أكثر فعاليـة، أو إذا كنت أقل غباء، يكفـي أن أقول لك «محاضرة لدريدا» حتى تقفز من مكانك ونذهب لنحجز بالفعل أماكننا. ومن البديهي أن الوظيفة السابعة تتجول في الأرجاء بالقرب من هنا، وأن دريدا سيكون معنياً في المقام الأول.

- أيّ مقام أول؟

- توقف عن العبث

- لمـاذا يبحـث الجميع عـن الوظيفـة السـابعة لجاكوبسـون، إذا كانت وظائف جون أوستن متاحة؟

تعـدّ أعمال أوسـتن مجرد أعمال وصفيـة؛ تشرح لك أعمالـه كيف يجري الأمـر وليس مـا يجب أن نفعـل لكي يحدث الأمـر. يصف أوسـتن الآليات المؤثـرة التي تجـري عليها الأمور، عندما تقدم وعـداً أو عندما تتفوه بتهديد، أو عندمـا تخاطب محاورك بقصد جعله يتصرف بطريقة أو بأخرى، ولكن لا يخبرك بما يجب فعله، لكي تجعل محاورك يصدقك ويأخذك على محمل الجد أو يتصرف كما يحلو لك. يُلاحظ تماماً أن فعل الكلام قد ينجح أو يفشل، ويعيد بعـض الشروط اللازمة للنجاح: على سـبيل المثال، يجـب أن تكون عمدة أو نائـب عمدة، حتى تتمكن عبـارة «أعلنكما زوجاً وزوجة» مـن أداء مهامها. (ولكـن هـذا، فيما يخـص الأعـمال الأدائية المحضـة.) لا يقول كيـف يمكننا النجاح على الدوام. إنه ليس كتيب إرشـادات، إنـه مجرد تحليل، هل أدركت الفرق الدقيق؟

طقطق، طقطق.

«وأعمال جاكوبسون، أليست أعمالا وصفية أيضاً؟»

آه، بـلى، لكن هذه الوظيفة السـابعة... عليك أن تصدق أن الأمر ليس كذلك.»

طقطق، طقطق.

«تبّاً، لا جدوى من هذا.»

لم يتمكن بايارد من إنهاء الوجه الثاني لمكعبه.

يشعر أن سيمون ينظر إليه باتهام.

«حسناً، في غضون ساعة ستبدأ المحاضرة؟»

- لا تتأخر!

طقطق، طقطق. يغير بايارد من إستراتيجيته، وبدلا من محاولة تعديل الوجه الثاني للمكعب، يحاول بدلا من ذلك بناء تاج حول الوجه الأول؛ بينما يتلاعب بايارد بمكعبه بمهارة متعاظمة، قال في نفسه إنه لم يفهم الفرق بين الفعل الأدائي والفعل التأثيري.

سيمون في طريقه لمتابعة محاضرة حول جاكوبسون التي يبتهج بحضورها مع بايارد أو من دونه، لكن وهو يَعبُر حديقة الحرم الجامعي، سمع قهقهة أثارت جرسيّتها اللاثغة والبلورية انتباهه، وعندما التفت، رأى المرأة الشابة السمراء صاحبة آلة التصوير. الأميرة القرطاجية بحذاء جلدي، وملابس أنيقة. كانت تتحدث مع شابة آسيوية وامرأة مصرية كبيرة (أو لبنانية قال سيمون في نفسه، ملاحظاً بشكل غريزي النمط العربي والصليب الصغير حول عنقها، امرأة مارونية، ربما، قبطية، حسب رأيه). (أي دليل اعتمد عليه لحسم الأمر؟ إنه سر.)

تتوجه الشابات الثلاث بمرح إلى المدينة العليا.

قرر سيمون أن يتبعهن.

يمررن بالقرب من كلية العلوم، حيث يتم حفظ دماغ قاتل متسلسل يُزعم أنه عبقري يدعى إدوارد رولف في وعاء معقم بمحلول.

يمررن أمام مدرسة فندقية، تنبعث منها رائحة خبز طازج.

يمررن أمام مدرسة بيطرية. أثناء تعقبه، لم يرَ سيمون جون سورل يدخل المبنى بحقيبة كبيرة مليئة بالأطعمة، أو بالأحرى رآه، لكنه لم يرَ فائدة لفك شفرة هذه المعلومات.

يمررن أمام مبنى الدراسات الرومانسية.

يعبرن الجسر، فوق المضائق، الذي يفصل بين الحرم الجامعي والمدينة.

يجلسـن على طاولة في حانة تحمل اسـم القاتل المتسلسل. يجلس سيمون خلسة قرب منضدة الحانة.

يسمع المرأة السمراء السوقية تقول لصديقتها: «الغيرة لا تثيرني، ناهيك عن المنافسة... لقد سئمت من هؤلاء الرجال الذين يخافون مما يريدون...»

أشعل سيمون سيجارة.

«أود القـول إنني لا أحب الكاتـب بورخيس... ولكن إلى أيّ مدى، في كل لحظة أخدع نفسي وأحبطها...»

طلب سيمون جعة وفتح صحيفة إيثاكا.

«أنا لا أخاف أن أقول إنني خُلقت من أجل الحبّ الجسدي والقوي.»

ضحكت الشابات الثلاث بصوت عال.

تحـول الحديـث بينهن إلى نقـاش حول القراءة الأسـطورية والفلّوسـية للأبـراج والتهميـش الدائم للبطـلات اليونانيـات (الإغريقيـات)، (يحصي سيمون في نفسه البطلات اليونانيات: أريان، فيدر، بينيلوب، هيرا، سيرس، أوربا...).

هكـذا انتهى به المطاف، هو أيضاً بدوره، بتفويت محاضرة حول البنيات الحيـة لجاكوبسـون، لأنه فَضّل التجسـس على امرأة ذات شـعر أسـود تأكل همبرغر مع صديقتين.

75

هنـاك أضـواء في كلّ الأرجاء، الجميع هنـا، كريسـتيفا، موريس زاب، فوكو، سليمان، سورل، القاعة مزدحمة، امتلأت جميع الأماكن، من المستحيل التنقـل من مكانـك من دون أن تخطو فوق طالب أو أسـتاذ، لقـد حان وقته الآن.

يبتسـم دريدا للنسوية هيلين سـيزو في الصف الأول، يشير بحركة ودية

لمترجمة أعماله غاياتري سبيفاك، يتعرف على أصدقائه وأعدائه. يحدد مكان جون سورل.

سيمون في القاعة مع بايارد، جلسا بجانب جوديث بتلر، الشابة السحاقية النسوية.

«إن كلمة المصالحة، هي فعل الكلام الذي بواسطته، في كلمة واحدة، من خلال التكلم، نبدأ، بعرض المصالحة من خلال مخاطبة الآخر، وهو ما يعني على الأقل أنه قبل هذه الكلمة، كانت هناك حرب، ومعاناة، صدمة، وجراح....»

لمح سيمون في القاعة الأميرة القرطاجية صاحبة آلة التصوير، الشيء الذي كان له تأثير فوري في التشويش على ملكاته في التركيز، لدرجة أنه فشل في فك شفرة النص الفرعي للكلمات الأولى التي نطق بها جاك دريدا، والتي تدعو إلى الاعتقاد أنه يجنح إلى التهدئة.

وفي الواقع، يعود دريدا بهدوء وبطريقة منهجية إلى نظرية أوستن، حيث يسعى إلى تقديم بعض الاعتراضات عليها، بالتقيد الصارم بالممارسات الأكاديمية، وبالطريقة التي تبدو أكثر موضوعية قدر الإمكان.

إن نظرية أفعال الكلام، التي تفترض أن الكلام هو أيضاً فعل؛ أي أنّ الشخص الذي يتكلم يتصرف بالفعل في الوقت نفسه التي يتحدث فيه، هي نظرية تنطوي على افتراض مسبق يعترض عليه دريدا: القصدية؛ بمعنى، أن نوايا المتكلم موجودة مسبقاً على الخطاب، وهي واضحة تماما له هو بنفسه، وكذلك للمتلقي (بافتراض أن المتلقي محدد بوضوح.)

إذا قلت: «لقد تأخّر الوقت»، فهذا يعني أنني أريد العودة إلى المنزل، ولكن ماذا لو كنت أريد البقاء؟ إذا تمنيت أن يُطلب مني البقاء؟ ألا يُسمح لي بالعودة؟ أن أطَمئن نفسي بالقول: «لكن كلاّ، لم يفت الأوان»؟

عندما أكتب، هل أعرف حقّاً ما أريد أن أكتب؟ ألا يكشف النص عن نفسه من تلقاء نفسه أولا بأول في وقت صياغته. (وهل يكشف عن نفسه حقاً؟).

وحتى إن كنت أعرف ما أعنيه، فهل يتلقى محاوري ذلك بالضبط كما أفكر (كما أعتقد؟) هل ما يفهم مما أقول مطابق تماماً لما أعتقد أنني أريد أن أقول له؟

من الواضح أن هذه الملاحظات الأولى هي ضربة خطيرة لنظريات أفعال الكلام. على ضوء هذه الاعتراضات المتواضعة، يصبح الأمر محفوفاً بالمخاطر، في الواقع، في تقسيم القوة الأدائية (وخصوصاً القوة التأثيرية من حيث فرص النجاح أو الفشل، كما يفعل أوستن. بدلا من معيار الحقيقة أو الباطل كما مارسه التقليد الفيلولوجي حتى الآن.)

عندما يسمعني محاوريَّ أقول: «لقد تأخر الوقت»، سيعتقدون أنني أرغب في العودة إلى منزلي وسوف يقترحون مرافقتي. أي نجاح؟ لكن ماذا لو كنت، في الحقيقة أريد البقاء؟ ماذا لو أن شخصاً ما، أو شيئاً ما داخل أعماقي يرغب في البقاء، حتى دون أن أعي ذلك؟

«بالمناسبة، بأي معنى يدّعي ريغان أنه ريغان، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية؟ من بمقدوره معرفة ذلك بكل دقة؟ على أنه هو ريغان؟؟»

ضحك كلّ من في القاعة. الاهتمام في أشد ذروته. نسي الجميع السياق.

في تلك اللحظة اختار دريدا توجيه ضربة قوية.

«ولكن ماذا سيحدث لو وعدت» سارل، sarl بانتقاد رأيه، سأكون قد استبقت ما يريده لاشعوره، والأسباب يجب تحليلها، أفعل كلّ شيء لاستفزازه؟ وهل سيكون «الوعد وعداً أم تهديداً؟»

يسأل جاك بايارد هامساً في أذن جوديث لماذا ينطق جاك دريدا «سارل، sarl بدل سورل. توضح جوديث أنه لكي يسخر من سورل SEARLE، يسميه هكذا باللغة الفرنسية، بقدر ما فهمت، سارل SARL» والتي تعني «شركة ذات مسؤولية محدودة، Société à responsabilité limitée». يجد بايارد الأمر مضحكاً للغاية.

يفكك دريدا قائلا:

«ما هي وحدة أو هوية المتكلم؟ هل هو مسؤول عن أفعال الكلام التي يمليه عليها لاشعوره؟ لأنه لدي أنا أيضاً لاشعوري الذي قد يرغب في إرضاء سارل sarl، لأنه يريد أن يتم انتقاده، وأجرح مشاعره بعدم انتقاده، وأن أجعله سعيداً بعدم انتقاده، وأغضبه بانتقادي له، أن أعده بتهديد أو أهدده بوعد، وأعرّض نفسي أيضاً للنقد من خلال الاستمتاع بقول أشياء «من الواضح أنها خاطئة»، وأتمتع بضعفي أو أحب الاستثارة قبل كل شيء، إلخ.»

بطبيعة الحال، التفت الحضور برمته نحو سورل الذي كما لو كان يتوقع هذه اللحظة، جلس بالضبط وسط المدرجات. الرجل الوحيد وسط الحشد: يبدو الأمر أشبه بخطة هيتشكوكية. لا يتأثر وجهه البارد تحت وطأة النظرات، ببساطة شديدة، يبدو مرتبكاً.

وعلاوة على ذلك، عندما أركب جملا، هل أنا حقاً من يتكلم؟ كيف يمكن لأي شخص أن يقول شيئاً أصلياً، شخصيّاً، وخاصاً، عندما تجبرنا اللغة بحكم طبيعتها على الاغتراف من معين كنز الكلمات الموجودة مسبقاً (كنز اللغة الشهير)؟ وعندما نكون خاضعين لعدة عوامل خارجية: عصرنا، قراءتنا، محدداتنا السوسيو- ثقافية، عاداتنا اللغوية القيمة جدّاً في تشكيل هويتنا (كما يقال «تمنحنا جمالاً»)، وكل الخطابات التي يتم إمطارنا بها باستمرار، بكل الأشكال الممكنة والمتخيلة.

من لم يسبق له أن ضَبط بالجرم المشهود، صديقاً أو قريباً أو زميلا في مكتب، أو زوجاً، يكرر بطريقة شبه حرفية الحجة التي قرأها في إحدى الصحف أو سمعها على شاشة التلفزيون، كما لو كان هو من يتكلم بصفته الشخصية، كما لو كان يتملّك هذا الخطاب، كما لو كان مصدره الأصلي وغير خاضع لمؤثراته، باستعمال الصيغ والعبارات نفسها، نفس البلاغة نفسها، و الفرضيات المسبقة نفسها، الألفاظ الساخطة نفسها، و النغم المسموع نفسه كما لو أنه ليس سوى مجرد وسيط يكرر من خلاله الصوت المرجأ بنفسه كلام رجل سياسي قرأ بنفسه الكلام في كتاب ما لمؤلف يبقى، هكذا دواليك، صوتاً، على ما أعتقد مرتحلاً بلا أصل لمتكلم طيفي تكلم وتواصل على النحو

الذي يتواصل به موقعان من خلال نص ما.

مكرراً ما قاله في الصحيفة، إلى أيّ مدى لا تعد محادثة زوج أمك استشهاداً؟

استأنف دريدا، وكأن شيئاً لم يحدث موضوعه الأساس. يتطرق إلى سؤاله المحوري الآخر: الاستشهاد عامة. أو بالأحرى قابلية التكرار. (ليس سيمون متأكداً مما إذا كان قد فهم الفرق.)

لكي يتم فهمنا، جزئياً على الأقل، من طرف محاورنا، يجب علينا استعمال اللغة نفسها، علينا أن نعيد (نكرر) الكلمات التي تم استعمالها سابقاً، وإلا فلن يتمكن محاورنا من فهمها. لذلك، نجد أنفسنا دوماً وحتماً، في شكل من الاستشهاد. نستعمل كلمات الآخرين. والحالة هذه، كما هو الشأن في نشر المعلومات، فمن المحتمل أكثر من اللازم، وبشكل لا مناص منه، من خلال التكرار، نستعمل كلمات الآخرين، أعني نحن جميعاً، بمدلولات مختلفة إلى حد ما عن بعضنا البعض.

تكلم ذو القدم السوداء دريدا بصوت أكثر أبهة وتفخيماً:

«وهذا ما سيضمن بالتحديد، بعد هذه اللحظة سير أداء الأثر (النفسي، الشعوري، الخطي، أيّاً كان)؛ أي إمكانية تكراره مرة أخرى، حتى إنه يظل قائماً بالشروع في تقسيم ومصادرة الاكتمال أو حضور الذات «المثاليين» على مستوى القصد وإدارة القول، ناهيك عن المطابقة بين المعنى والقول.»

جوديث، سيمون، المرأة الشابة ذات الشعر الأسود، هيلين سيزو، غوتاري، سليمان، القاعة بأكملها وحتى بايارد علت أنظارهم المشدوهة نحوه حين قال:

«وحتى بتحديدها لما تسمح به، منتهكة المدونة أو القانون الذي تشكله، فإن قابلية التكرار تنقش وتؤصل بشكل عصي على الاختزال التحوير والتغيير في المعاودة.»

وأضاف بنبرة متعاطفة:

«إن الحادث ليس أبداً مجرد حادث.»

76

«إن إمكانية التشـويش موجودة بالفعل هنا، حتى فيما يسـميه سارل ب «الحيـاة الحقيقيـة»، تلك الحياة الحقيقيـة التي هو متأكد جـداً، وبثقة (تقريباً، وليـس تمامـاً) لا مثيل لها، في معرفتهـا، ومعرفة أين تبدأ وأيـن تنتهي، كما لو أن معنـى هذه الكلمات («الحياة الحقيقية») يمكن أن يحظى بالإجماع من دون أدنى مجازفة في التشـويش، وكما لو أن الأدب، والمسرح، والكذب، والخيانة، والنفاق، والتعاسة (ألفاظ غير ملائمة)، التشويش، ومحاكاة الحياة الواقعية لم تكن جزءاً من الحياة الحقيقية!»

(ملاحظـات أدلى بهـا دريـدا في مؤتمـر كورنيـل، 1980، أو حلـم بهـا سيمون هرتسوغ).

77

تظهـر مجموعة من الشـباب بظهور مقوسـة مثل العبيـد القدامى الذين كانـوا ينقلون كتلا من الحجر، إنهم مجموعة مـن الطلاب يدحرجون براميل البيرة بإجهاد شـديد. ستكون السهرة طويلة، ويلزم توفير كميات احتياطية. إن جمعية الختم ورابطة الثعبان هما مؤسسـة «أخوية» قديمة تأسسـت في عام 1905، وهـي إحـدى أرقى المؤسسـات وبالتـالي، بالتعبـير الأمريكي أحد الفضـاءات الأكثـر «شـعبية.» يُنتظر حضـور الكثير من النـاس؛ لأن في هذا المسـاء، يتم الاحتفال بنهاية المؤتمر. جميع المشـاركين مدعوون، وبالنسـبة إلى الطـلاب العاديين، هي الفرصة الأخيرة لرؤية نجـوم الثقافة قبل زيارتهم في السـنة القادمـة. إلى جانب ذلـك، عند مدخل القصر الفيكتـوري، كُتب على صفيحـة: « الانزلاق العشـوائي في المنعطف اللغوي. مرحبـا بكم.» إذا كان الدخول محجوزاً نظرياً لطلاب شهادة الإجازة (الطلاب الجامعيون)، في هذا المسـاء، يرحـب القصر بمختلف الأعـمار. وهذا لا يعني بالطبـع. أن القصر مفتـوح للجميـع: فهنـاك دائماً أولئـك الذين يدخلـون، والذيـن يبقون عند الباب، وفقاً لمعايير كونية في الشكل الاجتماعي أو الرمزي.

وليس من المحتمل أن ينسى سليمان الحفلة، هو الذي تعود بانتظام على الصد في فرنسا، وها هو يعيش القصة نفسها، بما أن زوجاً من الطلاب يتلاعبان بحركات جسديهما فيحجبان الطريق أمامه، ولكن من دون معرفة كيف ولا بأية لغة جادل لفترة وجيزة ومر واضعاً جهاز الموسيقى فوق رقبته، أمام الأنظار الغيورة للمهمشين الذين يرتدون سترات مصنوعة من ألياف الأكريليك.

أول شخص قابله سليمان في الداخل، وكان يتحدث إلى جمهور من الشباب: « تحتوي أعمال هرقليطس على كل ما هو موجود عند جاك دريدا، وأكثر من ذلك.» إنها كاميلي باليا المعروفة باسم كرويلا ريدغريف. تمسك شراب الموهيتو في يد ومبسم السيجارة في اليد الأخرى، حيث تحترق في طرفه سيجارة سوداء تنضح برائحة حلوة. بجانبها، تشومسكي يتحدث مع طالب سلفادوري يشرح له أن الجبهة الثورية الديمقراطية قد تم القضاء عليها، من طرف القوات شبه العسكرية والقوات الحكومية في بلاده. ونتيجة لذلك، لم تعد هناك أية معارضة يسارية في السلفادور، والتي يبدو أنها تسبب قلقاً كبيراً للغوي تشومسكي الذي يدخن سيجارته بعصبية.

ربما بحكم العادة في التردد على الغرف السرية، نزل سليمان إلى الطابق السفلي ليرى مصدر أغنية «أن تموت شاباً» لمجموعة السبت الأسود.

وجد هناك مجموعة من الطلاب يرتدون ملابس أنيقة، وهم في حالة سكر طافح يمارسون رقصة الحضن بإيقاع متباين. فوكو هناك، بسترة جلدية سوداء، وبدون نظارته (ليتذوق سديم الحياة، قال سليمان الذي يعرفه جيداً). وجّه إليه فوكو حركة ودّية، وهو يشير بأصبعه إلى طالبة ترتدي تنورة، وهي تتلوى حول عمود السقالة مثل راقصة متعرية. يلاحظ سليمان أنها لا ترتدي حمالة الصدر، لكنها ترتدي سروالا أبيض متجانساً مع حذاء ماركة نايك أبيض اللون مع علامة حمراء كبيرة (مثل سيارة ستارسكي وهاتش لكن بطريقة عكسية.)

كريستيفا التي ترقص مع بول دي مان لمحت سليمان. سألها بول دي

مان فيها تفكر. تجيب كريستيفا: «نحن في سراديب موتى المسيحيين الأوائل؛ لكنها لم تحِد بعينيها عن العاهر المُتعهد gigolo.»

يبدو أنه يبحث عن شخص ما. يصعد إلى الطوابق العليا. يلتقي بموريس زاب في الدرج الذي غمزه بعينيه. تعزف مكبرات الصوت سوء الفهم في سفر التكوين. يمسك بكوب من شراب التكيلا. خلف أبواب الغرف يسمع الطلاب يتضاجعون أو يتقيؤون؛ بعض الغرف مفتوحة ويراهم سليمان يدخنون ويشربون البيرة جالسين القرفصاء على أسرّة مفردة، ويتحدثون عن الجنس والسياسة والأدب. خلف باب مغلق، يعتقد سليمان أنه تعرف على صوت جون سورل وسمع همهمات غريبة؛ ثم نزل إلى الأسفل.

في قاعة الاستقبال الكبيرة، يتحدث سيمون هرتسوغ وجاك بايارد مع الكاتبة النسوية جوديث بتلر، الناشطة الشابة المثلية التي تحتسي مشروب بلود ماري بالقصبة. لمح بايارد سليمان، ورأى سيمون الشابة السمراء بوجه أميرة قرطاجية تصل مع صديقتيها، الأسيوية الصغيرة والمصرية الكبيرة. صاح طالب: «كورديليا!» التفتت الأميرة القرطاجية. قبلات وفيض احتضان، هبّ الطالب على الفور ليجلب لها نبيذ جين تونيك. قالت جوديث لجاك بايارد وسيمون الذي لا يستمع: «تُفهم السلطة وفقاً لنموذج السلطة الإلهية في التسمية، والتي بمقتضاها يكون التلفظ بعبارة أشبه بخلق العبارة.» يصعد ميشيل فوكو من الطابق السفلي مع هيلين سيزو، وهو يمسك بمشروب ماليبو، ويصعد إلى الطابق العلوي. تنتهز جوديث الفرصة للاستشهاد بفوكو: «الخطاب ليس هو الحياة، فزمنه ليس زمننا.» أومأ بايارد برأسه. يتجمع مجموعة من الشباب حول كورديليا وصديقتيها، اللواتي يبدين معروفات جداً. تستشهد جوديث بتلر بجاك لاكان الذي قال في إحدى كتاباته: «إن التسمية هي زمن موضوع الرغبة.» أو «الزمن هو موضوع رغبة التسمية»، بل «موضوع الرغبة هو تسمية زمنية» أو أيضاً «موضوع الرغبة هو زمن التسمية» أو بكل بساطة «التسمية هي موضوع

رغبة زمنية». أخذ جعة وسحب لفافة حشيش وبصوت نابع من الأعماق قال: «ولكن بما أن لديك الحق في التصويت والطلاق والإجهاض!» تريد هيلين سيزو التحدث إلى جاك دريدا لكنه محاط بزمرة متراصة من الشباب المعجبين المخلصين. يتفادى سليمان كريستيفا. سأل بايارد جوديث: «وماذا تريدين؟» سمعت هيلين سيزو سؤال بايارد، وانضمت إلى المحادثة قائلة: «غرفة لنا! أنا وهي»! سيلفير لوترينغر، مؤسس مجلة سيميائيات النص يحمل زهرة السحلب بين ذراعيه، ويتحدث مع مترجمي دريدا، جيفري ميهلمان وغاياتري سبيفاك التي هتفت قائلة: «غرامشي هو أخي!» يتحدث سليمان مع جان فرانسوا ليوتار عن الاقتصاد الطبقي وصفقة ما بعد الحداثة. تغني فرقة الروك بينك فلويد «مرحباً! أيها المدرس! لقد تركنا الأطفال وحدهم!»

تقول هلين سيزو لجوديث وبايارد وسيمون، إن التاريخ الجديد الذي سيحل يتجاوز الخيال الذكوري، ولسبب وجيه، سيحرمه من تجبيره [فن تقويم اعوجاج الأعضاء] التصوريّ وسيبدأ بتدمير آلة خداعه، لكن سيمون لم يعد يسمع إلى الحديث، وإنما ينظر إلى مجموعة كورديليا، ويحصي عدد قوات جيش العدو: ستة أشخاص، ثلاثة ذكور وثلاث فتيات. الشيء الذي يجعل المهمة صعبة بالنسبة إليه إلى أبعد الحدود، على عكس فيما لو كانت بمفردها؛ بمعنى أن الاقتراب منها يبدو له في هذا الشكل أمراً لا يمكن تصوره على الإطلاق.

ومع ذلك تحرك سيمون من مكانه.

«إنها امرأة بيضاء، ذات بنية جسدية جميلة، ترتدي تنورة ومجوهرات رخيصة. أستخدم كل رموز نوعي الجنسي وعمري»، يفكر سيمون، ويسعى إلى اقتحام مخيلة الفتاة. وهو يمر بالقرب منها، سمعها تقول بنبرة احتفالية تنضح بالإيروسية: «يبدو الأزواج مثل الطيور، لا ينفصلان ولا ينضبان، وعبثاً يرفرفان بجناحيهما خارج القفص.» لم يكتشف أية لكنة في صوتها. أخبرها أحد الأمريكيين أن سيمون لا يفهم الإنجليزية. أجابت في البداية باللغة الإنجليزية (بطريقة يصعب تمييز لكنتها، حسب رأيه) ثم، غيرت من

نبرة صوتها وقالت: «لم أتمكن أبداً من أن أعيش قصص حب، لقد عشت فقط استيهامات خيالية.» يذهب سيمون ليحضر لنفسه كأس شراب، وحتى اثنين. (سمع غاياتري سبيفاك تقول لسليمان: «تعلمنا أن نقول نعم للعدو».

يستفيد بايارد من غياب سيمون، ليطلب من جوديث بَتلر أن تشرح له الفرق بين الفعل الأدائي والفعل التأثيري. تخبره جوديث أن فعل الخطاب الأدائي هو في حد ذاته الشيء الذي نقوم بإنجازه، في حين أن الفعل التأثيري يؤدي إلى آثار معينة لا تتطابق مع فعل الخطاب. «على سبيل المثال، إذا سألتك: هل تعتقد أن هناك غرفاً فارغة في الطابق العلوي؟»، فإن الواقع الأدائي الموضوعي الوارد في السؤال هو أنني أتحرش بك. بطرح هذا السؤال، فإنني أتحرش بك، لكن الرهان التأثيري يتم على مستوى آخر: مع العلم أنني أتحرش بك، هل اقتراحي يهمك؟ سينجح الفعل الأدائي (الإنجاز بنجاح) إذا فهمت دعوتي. لكن الفعل التأثيري لن يتحقق إلا إذا تبعتني إلى الغرفة. إن الفارق دقيق إلى أبعد الحدود، أليس كذلك؟ وعلاوة على ذلك، ليس الواقع دوماً ثابتاً.

غمغم بايارد بكلمات غير مفهومة لكن هذه الغمغمة نفسها تدل على أنه فهم دعوة جوديث. ابتسمت هيلين سيزو ابتسامتها الساحرة، وقالت: «هيا إذن لننجز الفعل!» تبع بايارد المرأتين اللتين أخذتا علبة من البيرة وصعدتا السلالم، حيث يقف تشومسكي وكاميلي باليا وهما يتبادلان بعض القبلات. في الردهة يلتقون طالبة من أمريكا اللاتينية ترتدي بلوزة حرير عليها شعار د/غ اشترت منها جوديث حبوباً صغيرة. ولأنه لا يعرف هذه العلامة د/غ، سأل بايارد ما تعنيه هذه الحروف، فأخبرته جوديث أنها ليست علامة تجارية، ولكنها الأحرف الأولى ل «دولوز- غوتاري». من جهة أخرى، أيضاً حروف أسمائهم على الحبوب والعقاقير.

في الطابق السفلي، قال أمريكي لكورديليا: «أنتِ ربة الفن!»

تظاهرت كورديليا بعبوس رافض، خمن سيمون أنه مدروس بعناية لتبرز لُبّ شفتيها، وهي تقول: «هذا ليس كافياً.»

هـذه هي اللحظـة التي اختـار فيها سـيمون الاقتراب منهـا، أمام جميع أصدقائهـا، بعزيمة غواص مـن مدينة أكابولكو السـاحلية. قال، كما لو كان يمر بالقرب منها فقط، ولكن بعد أن اغتنم فرصة الحديث خطفاً، لم يتوانَ عن المشـاركة في النقاش، متصنعاً قدر الإمكان عفوية غاية في اللطف: «بالطبع، فمن يرغب أن يكون موضوعاً للرغبة؟» ساد صمت في المكان. وكان بوسع سـيمون أن يقرأ في عينيها ما مفاده: «حسـناً، لقد اسـترعيتَ انتباهي الآن.» يعلـم سـيمون أنه لا يجب عليـه أن يكون متحـضراً ومثقفاً فحسـب، بل أن يثير فضولها، يسـتفزها من دون أن يغضبها، وأن يشحذ ذكاءه العاطفي ليثير مشاعرها، وأن يوازن بين الخفة والثبات متلافياً الحذلقة والتصنع، وأن يلعب لعبة كوميديا الأوساط الاجتماعية الراقية مع الإيحاء بأن الأمر لا ينطوي على أيـة حالة من الخـداع، وبطبيعة الحال، إضفاء طابع غزلي على العلاقة بشـكل مثير من البداية.

«لقد خُلقتِ من أجل الحب الجسدي القوي وتحبين قابلية تكرار عملية آلات التصويـر، أليـس كذلك؟ إن الاسـتيهام المتسـامي ليس سـوى محض استيهام محقق. أولئك الذين يزعمون العكس هم كذابون وكهنة ومستغلون للشـعب». قام بتسليمها أحد الكأسين الذي كانا في يديه. «هل تحبين شراب جين تونيك؟»

تطلق مكبرات الصوت أغنية «العينان المثيرتان» لفرقة هوك الموسـيقية. تأخذ كورديليا الكأس.

رفعـت كورديليـا الكأس وكأنهـا تشرب نخبـاً، وقالـت: «نحن البشر صنيعة أكاذيب الثقة.» رفع سـيمون الكأس الذي احتفظ به لنفسـه، وشربه دفعة واحدة. إنه يعلم أنه اجتاز الجولة الأولى.

بطريقة لاشـعورية، ألقى سـيمون نظرة دائرية، ولمح سليمان متكئاً بيده على درابزين الدرج، عند السلم الذي يقود إلى الطابق الأول، وهو يطل على الحشد المتجمع في القاعة، يرسم بيده الفارغة حرف V الذي يرمز إلى النصر Victoire، ثم يسـتخدم يديه لرسـم ما يشـبه الصليب، مشكلا بيده عموداً

أفقياً أعلى بقليل فوق نقطة الوسط على يده العمودية. يحاول سيمون تحديد هوية الشخص الذي يتوجه إليه سليمان بتلك الإشارة، لكنه لا يرى سوى بعض الطلاب والأساتذة فقط، وهم يشربون ويرقصون ويغازلون على إيقاع أغنية الأطفال في أمريكا لمغنية البوب كيم وايلد، ويشعر أن هناك شيئاً خاطئاً لكنه لا يعرف بماذا يتعلق الأمر بالضبط. والمجموعة التي تشكلت حول دريدا ما زالت متراصة أكثر فأكثر: نحو هذه المجموعة ينظر سليمان.

لا يرى سيمون كريستيفا والرجل العجوز بتصفيفة شعر الشجيرة وربطة عنق من الصوف، ولكنهما هنا، مع ذلك، ولو أنه تمكن من رؤيتهما، لو لم يكونا متموضعين كل واحد في مكان مختلف، متخفيين على ما يبدو وسط المدعوين، كان سيرى أن كليهما كان يصوبان أعينهما على سليمان، وكان سيدرك أنهما اعترضا الإشارة التي رسمها سليمان بيديه وسيخمن أن كليهما يظنان أن الإشارة موجهة لجاك دريدا، المختبىء، بدوره خلف دائرة المعجبين به.

كما أنه لا يرى كذلك، الرجل ذا عنق الثور الذي ضاجع كورديليا فوق آلة التصوير، وهو حاضر هنا أيضاً، ويحدج كورديليا بعينيه الشبيهتين بعيني الثور.

بحث سيمون عن بايارد وسط الحشد ولم يتمكن من العثور عليه، ولا غرابة في ذلك، بما أن بايارد يتواجد في غرفة في الطابق العلوي ممسكاً بيرة في يده ومادة كيميائية غامضة تجري في عروقه، وهو يناقش الإباحية والنزعة النسوية مع صديقاته الجديدات.

سمع كورديليا تقول: «وعلى كل حال، حتى الكنيسة، في تساهلها الكبير، تساءلت هي أيضاً في مجمع ماكون في عام 585، عما إذا كانت المرأة لديها روح... وهل هي إنسان...»، آنئذ أضاف سيمون لإرضائها: «.... وكانت حريصة على أن تجد الجواب.»

استشهدت المصرية الكبيرة ببيت شعري للشاعر وردزورث، لا يتمكن سيمون من تحديد مصدره. تشرح الفتاة الآسيوية الصغيرة لشخص إيطالي

مـن بروكلين أنها تحضر أطروحة حول نظرية أحرار الجنس كوير Queer في أعمال راسين.

قـال أحد الأشـخاص: «مـن المعـروف تمامـاً أن المحلل النفـسي لم يعد يتحدث كذلك عن هذا الموضوع، ولا يبذل قدرا أكبر في التفسير.»

صاحـت كاميلي باليا: ليعود الفرنسي إلى منزله. جاك لاكان طاغية يجب طرده من التجول في شواطئنا. «

يضحك موريس زاب ويقول لها عبر الرواق: «أنتِ محقة تماماً، يا جنرال كاستر!»

تذكر غاياتري سبيفاك: «أنتِ لست حفيدة أرسطو « أليس كذلك؟»

في غرفة النوم، سألت جوديث بايارد «وأين تعمل، بالمناسبة؟

أجاب بايارد، وقد أخذ على حين غرة، بغباء، آملاً على الفور ألا تتدخل هيلين سيزو: أقوم بالبحث... في جامعة فينسين» لكن سيزو، بطبيعة الحال، رفعـت حاجبـاً، لذلك حدق بايـارد في عينيها، وقـال: «في الحقوق.» رفعت سـيزو حاجبهـا الثـاني، ليس فقط أنها لم تـرَ قط بايارد في جامعة فينسـين، بل ولكـن لأنه لا وجود هناك لشـعبة الحقـوق. لتغيير الموضوع مـرر بايارد يده تحت بلـوزة جوديث وضغـط على ثديها مـن خلال حمالـة صدرها. كظمت سـيزو تعابـير الوجه الدالة على الدهشـة وقـررت عدم الـرد عندما وضعت جوديث يدها على ثديها الآخر.

انضمت طالبة جامعية تدعى دونا إلى مجموعة كورديليا التي سألتها عن أحـوال النادي النسـائي: «كيف هـي الحياة اليونانية في النـادي حتى الآن؟» (الحيـاة اليونانيـة هي الاسـم الذي يطلق عـلى هذا النظام مـن «الأخويات» و«الجمعيات النسـائية»، لأن غالبيتهم تتم الإشـارة إليهم بأحرف الأبجدية اليونانيـة.) وبالفعـل، تفكـر دونـا وصديقاتها في القيـام مجـدّداً بتنظيم حفلة صاخبـة. بـدت الفكـرة مُسـلية بجنـون لكورديليـا. يفكـر سـيمون: يعتقد أن سـليمان أراد مقابلـة دريـدا، العلامـة التي رسـمها ليسـت V رمز النصر Victoire. ولكنهـا التوقيـت؛ سـاعتان، ولكن أين سـيتم اللقـاء؟ لو كان

اللقاء في كنيسة، لكان سليمان قد رسم علامة الصليب الموحد بدلا من تلك الحركة الغريبة. سأل سيمون: «هل توجد مقبرة في الجوار؟» تصفق الشابة دونا بيديها: «آه، أجل؟ هذه فكرة عظيمة! دعنا نذهب إلى المقبرة!» يريد سيمون أن يقول إن هذا ليس ما قصده، ولكن يبدو أن كورديليا وصديقاتها انجذبا لغواية هذا الاقتراح لدرجة أن سيمون صمت ولم يقل شيئاً.

قالت دونا إنها ستجلب المعدات. تُطلق مكبرات الصوت أغنية اتصل بي لفرقة بلوندي.

تشير الساعة إلى الواحدة تقريباً.

سمع أحدهم يقول: «الكاهن المؤول، العرّاف، هو أحد البيروقراطيين، بطريك مستبد، أليس كذلك؟ جانب آخر من خداع الكاهن، اللعنة: يستمر التأويل بطريقة لا متناهية ولا يصادف أي شيء أبداً لتفسيره ما لم يكن هو في حد ذاته تفسيراً!» إنه غوتاري الذي تمت مهاجمته بشكل واضح بما فيه الكفاية، والذي يقوم بالتحرش بطالبة دكتوراه بريئة من جماعة إلينوي.

مازال عليه إخطار بايارد.

تطلق مكبرات الصوت أغنية ديبي هاري الذي يغني: «عندما تكون مستعدّاً، يمكننا مشاركة النبيذ.»

تعود دونا بحقيبة أدوات الزينة، وتقول إنه يمكننا الذهاب.

يندفع سيمون إلى الطابق العلوي، ليطلب من بايارد الانضمام إليه في المقبرة عند الساعة الثانية صباحاً. يفتح جميع الأبواب، ويجد جميع أصناف الطلاب المنتشين والأكثر نشاطاً وحيوية، يجد فوكو يستمني على صورة ميك جاغر، يجد أندي وارهول يكتب قصائد (في الواقع، إنه جوناثان كالر يملأ إيصال استلام مستحقات)، يجد غرفة صغيرة مليئة بنباتات الماريجوانا، يجد أيضاً طلاباً عاقلين يشاهدون البيسبول على قناة رياضية، وهم يدخنون الكوكايين، ويجد في نهاية المطاف بايارد.

- «آه، معذرة!»

أغلـق سـيمون الباب، ولكن كانت لديه برهة مـن الوقت، ليرى بايارد عالقاً بين سيقان امرأة لم يتمكن من معرفتها، بينما جوديث تضاجعه بقضيب صناعـي، وهي تصرخ: «أنـا رجل وأنا أضاجعك الآن تشـعر بأدائي، أليس كذلك؟».

مذهولا بما رأى، لم يخطر بذهنه ترك رسـالة، وسـارع إلى النزول للعودة إلى مجموعة كورديليا.

التقـى سـيمون بجوليـا كريسـتيفا عـلى الدرج مـن دون أن يعـير الأمر اهتماماً.

يشعر سيمون أنه لا يتبع بروتوكول الطوارئ على الإطلاق، وإنما جسد كورديليا البيضاوي يمارس عليه جاذبية قوية للغاية. على أي حال، سـيكون في مكان الاجتماع قال في نفسـه كي يحاول أن يضفي شرعية على اسـتراتيجية يعرف حق المعرفة أنه لا يمليها عليه أي منطق آخر غير منطق رغبته.

تطرق كريستيفا الباب الذي تنبعث منه الآهات الغريبة؛ يفتح لها سورل الباب. لم تدخل لكنها همست في أذنه بشيء ما بصوت منخفض، ثم توجهت إلى الغرفة حيث رأت بايارد يدخل مع صديقته.

توجـد مقـبرة إيثاكا عـلى جانب التـل، كثيفة الأشـجار، وتبـدو القبور فيها متناثرة بطريقة فوضوية وسـط الأشـجار. ولا وجود لضوء فيها سـوى ضوء القمر والأضـواء المنبعثة من المدينة. تتجمهر المجموعة حول قبر امرأة ماتت في ريعان الشباب. تشرح دونا أنها ستقوم بتلاوة أسرار العرّافة، ولكن يجـب تحضير ما يسـمى بطقوس ولادة الرجـل الجديد وأن هنـاك حاجة إلى شخص متطوع. تشير كورديليا إلى سيمون، يود سيمون أن يسأل عن بعض التفاصيل لكنه استسلم، عندما بدأت كورديليا في خلع ملابسه. من حولهم، جاء عشرات الأشـخاص لمشـاهدة العرض، والذين يبدون لسـيمون كأنهم حشد صغير. عندما أصبح عارياً تماماً، ضاجعته كورديليا فوق العشب، عند سفح القبر، وهي تهمس في أذنه «استرخ» سنقتل الرجل القديم.

يعتقد سيمون أن الجميع قد شرب حد الثمالة، وأن الجميع أصبح عارياً،

وهذا يعني أن كل هذا حدث حقاً.

سلمتها دونا حقيبة أدوات الزينة، وأخرجت منها كورديليا موس الحلاقة فتحته بطريقة احتفالية. وبما أن سيمون سمع دونا تستحضر في حديثها النسوية فاليري مولاناس في مقدمتها الافتتاحية، فإنه لا يشعر بالاطمئنان تماماً. لكن كورديليا أخرجت أيضاً عبوة رغوة الحلاقة وطلت الرغوة على منطقة العانة وبدأت بحلقها بعناية. إشارة إلى الإخصاء الرمزي، فهم سيمون، الذي يتابع العملية بعناية، خاصة وأنه يشعر بأصابع كورديليا تحرك قضيبه برفق.

«في البداية، وبغض النظر عما يقولونه، كانت هناك آلهة فقط. آلهة واحدة، ثم إله واحد فقط.»

وعلى الرغم من كل شيء، تمنى سيمون لو كان بايارد هنا.

لكن جاك بايارد يدخن سيجارة في الظلام، عارياً، مستلقياً على سجاد في غرفة الطلاب، الجسدان العاريان لصديقتيه اللتين نامت إحداهما، وذراعها على صدرها واليد الأخرى فوق صدر صديقتها.

« في البداية، بغض النظر عما يعتقدون، كانت النساء جميعاً، وكانت المرأة الأخرى. وكانت القوة الوحيدة آنذاك نسوية، عفوية ومتعددة.»

سأل بايارد جوديث عن سبب اهتمامها به. جوديث وذراعها ملتف حول كتفه، أصدرت صوتاً أشبه بالمواء وأجابته، بلُكنتها اليهودية من الغرب الأوسط: «لأنك تبدو خارج المكان، هنا».

«قالت الآلهة: لقد أتيت، وهذا أمر صائب وجيد.»

طُرق باب الغرفة ودخل شخص ما، انتفض بايارد وعرف كريستيفا التي قالت له: «يجب أن ترتدي ملابسك.»

« الآلهة الأولى، القوة النسوية الأولى. التي اعتمدت عليها الإنسانية. في الأرض، والجو، والماء، والنار، واللغة.»

يُسمع جرس الكنيسة يرن مرتين.

« وهكـذا جاء اليوم الذي ظهر فيه المخـادع الصغير. لم يكن يظهر كثيراً لكنه كان واثقاً من نفســه. لقد قال: أنا القوة الأعظم، أنا ابن الإنســان. إنهم يحتاجـون إلى أب للصــلاة. وسـيعرفون كيـف يكونون مخلصـين إليّ: أعرف كيف أتواصل.»

توجد المقبرة على بعد مئة متر فقط. يتعالى ضوضاء الأمسية فوق القبور، ويمنح مراسم الطقوس خلفية صوتية، مفارقة للزمن قطعاً: تعزف مكبرات الصـوت أغنيـة أعطني! أعطني! أعطني! (رجلا بعـد منتصف الليل) لفرقة البوب آبا Abba.

« وهكذا فرض الرجل صورته، وقواعده، وتبجيله على جميع الأجسـام الممنوحة له بامتلاكه للقضيب.»

أدار سـيمون رأسـه لإخفاء إحراجه وهيجانه، وعندها تعرف على بُعد بضـع عـشرات الأمتار على شـخصين يلتقيان تحت شـجرة. يرى الشـخص النحيف يمرر سـماعات جهاز الموسـيقى إلى الشـخص الممتلـئ الذي يحمل حقيبة رياضية في يده، فهم سيمون أن دريدا يتحقق من البضاعة وأن البضاعة هي شريط كاسيت، أسطوانة. تم تسجيل وظيفة اللغة السابعة عليها.

« إن الواقـع خـارج عن السـيطرة. يصنع الواقع الحكايات والأسـاطير والمخلوقات.»

دريدا، أمام مرأى عيني سيمون، على بُعد أمتار قليلة، عند سفح شجرة، وسط قبور مقبرة إيثاكا، يستمع إلى الوظيفة السابعة للغة.

« على صهوة الجواد فوق القبر، سنضع أبناءنا بأحشاء آبائهم.»

يود سيمون أن يتدخل، ولكن لم تتمكن أية عضلة في جسده من التحرك لكي يقف، ولا حتى عضلة لسـانه التي يعرف أنها الأقوى في الجسـم، لكي ينطـق بأية كلمة، خاصة وأن المرحلة التي تـلي الإخصاء الرمزي هي مرحلة النهضـة الرمزيـة، وأن مجـيء الإنسـان الجديـد يُرمز لـه هنا في هـذا الطقس بالجنـس الفمـوي المتمثـل في مـص القضيب. والحالـة هـذه، عندما أخذت كورديليا قضيب سـيمون في فمها، وشـعر بدفء الأغشـية المخاطية للأميرة

القرطاجية ينتشر في كل قطعة من ذاته، أدرك أنه خسر مهمة استرداد الوثيقة.

« نشكل بأفواهنا أنفاساً وقوة لمنظمتنا النسوية. نحن الواحد والمتعدد، نحن فيلق من الإناث... »

سوف تتم المقايضة بين سليمان وجاك دريدا، ولن يفعل سيمون شيئاً لمنعها. غير أنه، عندما أدار سيمون رأسه إلى الخلف، رأى في أعلى التل رجلا يقود كلبين، وقد انعكست عليه أضواء الحرم الجامعي، رؤية لاواقعية، وهذه اللاواقعية هي القلق نفسه أكثر من الواقع المحتمل للرؤية.

كان المكان مظلماً للغاية لكنه عرف أنه سورل، نبحت الكلاب، نظر حشد مراسم الطقوس مذهولين في اتجاههم. قطعت دونا صلاتها. توقفت كورديليا عن مص قضيب سيمون.

أصدر سورل صوتاً بفمه، وترك الكلبين ينقضّان على سليمان ودريدا. نهض سيمون وهرع نحوهم لمساعدتهم، لكنه شعر فجأة بقبضة قوية تمسك به: إنه الرجل ذو عنق الثور، الشخص الذي ضاجع كورديليا على آلة التصوير، هو من يمسك بذراعه ويضربه بلكمة قوية على وجهه. سيمون على الأرض عارياً وعاجزاً، يرى الكلبين يقفزان على الفيلسوف والعاهر المُتعهد اللذين يسقطان على ظهرهما.

واختلط الصراخ بالآهات.

إن الرجل ذو عنق الثور، وقد اشتعلت غيرته بسبب المسرحية التي تتم خلف ظهره يريد على ما يبدو افتعال شجار، يسمع سيمون عدة شتائم باللغة الإنجليزية، فهم سيمون أن الرجل كان يود أن تكون له علاقات جسدية مع كورديليا ذات طابع حصري، وخلال هذا الوقت سيمزق الكلبان سليمان ودريدا.

حجّرت صرخات الرجال والحيوانات الأشخاص المتمرنين في الحفلة الباخوسية الماجنة وأصدقائهم. يتدحرج دريدا بين القبور، يجرفه المنحدر وهيجان الكلاب في أثره. سليمان، أكثر شباباً وقوة، صد فك الحيوان بساعده لكن الضغط الذي مورس على العضلات والعظم كان كبيراً لدرجة

أن سليمان سيغمى عليه في غضون ثوان، لم يعد قادراً على منع الكلب من افتراسه، ولكن فجأة سمع صريراً ورأى بايارد يظهر من العدم ويغرز أصابعه في رأس الكلب، ويفقأ عينيه. أطلق الكلب زمجرة مروعة وهرب مصطدماً بالقبور.

ثم نزل بايارد إلى المنحدر بسرعة لنجدة دريدا الذي لا يزال يتدحرج.

أمسك بايارد برأس الكلب الثاني ليكسر رقبته، ولكن الكلب انقلب عليه وأفقده التوازن، يصد بايارد أرجله الأمامية ولكن فمه الفاغر على بُعد عشرة سنتيمترات من وجهه، آنذاك أدخل بايارد يده في جيب سترته وأخرج مكعب روبيك، بأوجه جوانبه الستة المجمعة بشكل مثالي، وحشره في فم الكلب حتى المريء. أطلق الكلب قرقرة قذرة وضرب رأسه على الأشجار، تلوى فوق العشب وتشنج ومات مختنقاً بسبب لعبة المكعب.

زحف بايارد نحو الجسد البشري الملقى على مقربة منه، سمع صريراً رهيباً، ينزف دريدا بغزارة، لقد هجم عليه الكلب في حنجرته بالضبط.

بينما كان بايارد مشغولاً بقتل الكلاب، وسيمون يتجادل مع الرجل-الثور، هرع سورل إلى سليمان الملقى على الأرض. الآن وقد فهم أين كانت مخبأة الوظيفة السابعة، فمن الواضح أنه يريد استعادة جهاز الموسيقى. قلّب سليمان الذي كان يئن من شدة الألم، ووضع يده على الجهاز، وضغط على زر الإخراج.

لكن الجهاز كان فارغاً من شريط الكاسيت.

أطلق سورل صرخة مثل الوحش المسعور.

من خلف شجرة، ظهر رجل ثالث يرتدي ربطة عنق من الصوف وقصة شعره تتناسب مع مظهره، ربما كان يختبئ هناك منذ البداية.

على أيّ حال، يمسك بشريط الكاسيت في يديه.

لقد قام بفك شريط التسجيل المغناطيسي.

وباليد الأخرى، أشعل النار بالقرب من خيوط الشريط بولاّعة.

سورل مرعوباً، يصرخ: «رومان، لا تفعل ذلك!»

أضرم العجوز بربطة العنق الصوفية النار بقداحة من نوع زيبو في الشريط المغناطيسي الذي التهب على الفور. من بعيد، يبدو المشهد مجرد توهج أخضر صغير يخترق الليل.

صرخ سورل مثل شخص يُنتزع قلبه من صدره.

استدار بايارد. استدار الرجل ذو عنق الثور كذلك. وأخيراً، تمكن سيمون من تحرير نفسه. توجه نحو الرجل - الشجيرة مثل شخص مسرنم (مازال عارياً) وسأله بصوت غير مميز: «من أنت؟»

عدل الرجل العجوز ربطة عنقه، وقال ببساطة: «رومان جاكوبسون، عالم لغوي.»

تجمد الدم في عروق سيمون.

جاك بايارد، في الأسفل عند حافة التل، ليس متأكداً من أنه سمعه. ماذا؟ «ماذا قال؟ يا سيمون!»

طقطقت آخر قطعة من الشريط المغناطيسي قبل أن يتحول إلى رماد.

ركضت كورديليا نحو دريدا. مزقت فستانها لتصنع ضمادة حول عنقه. وهي تأمل أن يتوقف النزيف.

«وماذا عن سيمون؟»

لم يجب سيمون بشيء، وأخذ يعيد ذهنياً تشكيل الحوار الصامت مع بايارد: لماذا لم يخبره أن جاكوبسون ما زال على قيد الحياة؟

« لم تسألني أبداً عنه.»

والحقيقة هي أن سيمون لم يعتقد أبداً أن الرجل الذي كان الأصل في ظهور البنيوية، الرجل الذي استقل الباخرة مع أندريه بريتون في عام 1941 للفرار من فرنسا المحتلة، الشكلاني الروسي في مدرسة براغ، وأحد أهم مؤسسي اللسانيات بعد سوسير، لا يزال على قيد الحياة، في نظر سيمون، كان ينتمي جاكوبسون إلى عصر آخر. عصر كلود ليفي شتراوس، وليس

عـصر رولان بـارت. وضحك سـيمون من سـخافة هذا الاسـتدلال: مات رولان بارت، وبقي ليفي شتراوس على قيد الحياة، فلمَا، لا يبقى جاكوبسون أيضاً على قيد الحياة؟

قطـع جاكوبسـون الأمتار القليلة التـي تفصله عن دريـدا بحذر لكيلا يتعثر فوق الحصاة أو كومة تراب.

كان الفيلسـوف مسـتلقياً على الأرض، ورأسـه فوق ركبتـي كورديليا. أمسـك جاكوبسـون بيـده، وقال له: «شـكراً لك يـا صديقي.» نطـق دريدا بصوت ضعيف: «كنت سأسـتمع إلى الشريط، كما تعلم، لكني كنت سـأبقي الأمـر سرّاً.» ونظـر إلى كورديليـا، وهـو يبكي: «ابتسـمي لي كما أبتسـم لك حتـى النهاية، يـا ابنتي الجميلة. انتصري دوماً للحياة ودافعي باسـتمرار عن البقاء...»

وكانت هذه الكلمات هي آخر ما نطق بها دريدا، وفارق الحياة.

اختفى سورل وسليمان، والحقيقة الرياضية أيضاً.

78

«أليـس من السـخافة والسـذاجة والصبيانية المثول أمام شـخص ميّت طلب الصفح؟»

لم يسـبق أبـداً لمقـبرة ريـس- أورانجيس أن شـهدت مثل هـذا التدفق. تقـع المقبرة في الضواحي الباريسـية بجانـب الطريق رقم 7 مُسـيّجة بأعمدة الأكواخ الصغيرة مصطفة كسـنابل الذرة. يسود في المكان صمت مطبق كأن الحشود الحاضرة وحدها من صنعته.

أمام النعش، فوق القبر، يقرأ ميشيل فوكو خطاب التأبين.

«بالحـماس الـودي أو بالامتنـان وأيضـاً بالرضـا، أن يقتـصر المـرء على الاستشـهاد، ومواكبة ما يخص الآخر بدرجات متفاوتة، وأن يمنحه الكلام، وأن ننحنـي أمـام تفوق الكلام... لكـن هذا الولاء المفرط سـينتهي به الأمر

بعدم قول أي شيء، وعدم تبادل أي شيء.»

لن يتم دفن جاك دريدا في الساحة اليهودية ولكن مع الكاثوليك حتى تتمكن زوجته من الانضمام إليه، عندما يحين الوقت.

في طليعة الحاضرين، يستمع سارتر إلى فوكو. يبدو مستاء، مطأطئ الرأس، بجانب إيتيان باليبار. لم يعد يسعل. يبدو مثل شبح.

«جاك دريدا هو اسم شخص لم يعد بمقدوره سماع اسمه أو حمله.»

سأل بايارد سيمون عما إذا كانت سيمون دي بوفوار هي التي تقف بجوار سارتر.

فوكو مستشهداً بفوكو: «كيف يمكننا الإيمان بالمعاصر؟ يبدو أن الجميع ينتمي إلى العصر نفسه الذي تحدده عملية تأريخ تقليدية أو يحدده أفق اجتماعي، إلخ. سيكون من السهل أن نثبت أن أزمنتهم تبقى غير متجانسة بشكل لا محدود، وإن صح التعبير غير متصلة مع بعضها البعض.»

تبكي أفيتال رونيل بهدوء، تتكئ هيلين سيزو على جان لوك نانسي، وتحدق في القبر بنظرات لا تنم عن أي انطباع واضح، يتأمل جيل دولوز وفليكس غوتاري الاختلافات الفردية المتسلسلة.

الأعمدة الثلاثة الصغيرة المحيطة بالأكواخ ذات طلاء متصدع وشرفات صدئة تطل على المقبرة، مثل الأجراس أو نتوءات مغروزة في البحر.

في يونيو 1979، خلال مؤتمر الأحوال العامة للفلسفة الذي نُظم في المدرج الكبير في جامعة السوربون، تقاتل دريدا وبرنار هنري ليفي فيما بينهم بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن برنار ليفي حاضر في مراسيم دفن الرجل الذي سيدعوه قريباً أو يدعوه بالفعل معلمي القديم.»

يتابع فوكو: «على نقيض ما نعتقد في غالب الأحيان، إن الذوات الفردية التي تقطن في المناطق الأكثر أهمية ليست «أنا أعلى» سلطوياً، لا تمتلك هذه الذوات سلطة، حتى بافتراض أن لدينا سلطة.»

كما جاء أيضاً فيليب سوليرز وجوليا كريستيفا بطبيعة الحال. ساهم

دريـدا كثـيراً في البدايـة في مجلة تيل كيـل، ونشر كتابه التشـتيت في مجموعة «تيـل كيـل، لكن قطـع العلاقة معهم في عـام 1972 مـن دون أن يعرف أحد الكثير عن الدافع السياسي والدافع الشخصي في هذا الموضوع. ومع ذلك في ديسـمبر 1977 عندما تم القبض على دريدا في براغ وتم الإيقاع به من طرف النظام الشيوعي الذي وضع المخدرات في حقيبته، حصل على دعم كبير من سوليرز.

لم يتلقَ بايارد حتى الآن، أوامر باعتقال سـوليرز أو كريستيفا. لا يملك دليلاً، باسـتثناء مسـألة العلاقة البلغارية التي تـشي بتورطهم في وفاة رولان بـارت. وقبل كل شيء، ليس له دليل حتى لو كان شـبه مؤكد أن في حوزتهم مخطوط الوظيفة السابعة.

كانت كريسـتيفا هي التي أبلغت جاك بايارد بلقاء المقبرة في إيثاكا، وهو يعتقد أنها هي التي أبلغت سـورل. إن فرضية بايارد ترى أن كريستيفا كانت تريـد إفشـال الصفقة من خـلال جمع جميع الفاعلـين معاً، وبالتـالي مضاعفة حظـوظ التدخـلات المحتملـة، لأنهـا لم تكـن تعـرف أو لا تريـد أن تصدق أن دريـدا بالتعاون مع جاكوبسـون، كان يسـعى إلى إتلاف النسـخة. اعتقد جاكوبسـون دوماً أنـه لا ينبغي لفت انتبـاه العالم إلى اكتشـافه. ولهذه الغاية، ساعد دريدا، في جمع الأموال لشراء شريط الكاسيت من سليمان.

بينـما يواصـل فوكو إلقـاء كلمة التأبين، تتسـلل امرأة خلف سـيمون وجاك بايارد.

يتعرف سيمون على رائحة أناستازيا.

تهمس أناستازيا ببضعة كلمات في أذنه وبشكل غريزي لا يستدير الرجلان.

فوكـو: «ما سـمي آنفاً عند مـوت»، «بمناسـبة موت»: مجموعة واسـعة من الخيارات النمطية. الأسـوأ جميعاً، أو أسـوأ خيار فيها، الشائن أو السخيف، وهي خيارات شـائعة مـع ذلك: «ما زال قادراً على المنـاورة، والتفكير، واختلاس ربح ما، حتى لو كان ماكراً أو سـامياً، وأن نسـتمد من الميت قـوة مكملة نوجهها ضد الأحياء للتنديد وإهانة الباقين على قيد الحياة بطريقة مباشرة إلى حد ما، وأن يبيح

لنفسه كل شيء، ويضفي الشرعية على نفسه، لمواجهة الموت، حيث يفترض، أنه يسمو بالآخر بعيداً عن كل شبهة.»

أناستازيا: «سينعقد في الوقت القريب حدث كبير ينظمه نادي اللوغوس. لقد تم تحدي بروتاغوراس الأكبر. سوف يجازف بلقبه وهذا من شأنه أن يؤدي إلى عقد جلسة ضخمة. لكن فقط الأشخاص المعتمدون يمكنهم حضور المناظرة.»

فوكو: «في نمطه الكلاسيكي، فإن خطاب التأبين له جانبه الإيجابي، خاصة عندما يسمح بمناداة الميت مباشرة، بالتأكيد، إنه دائماً الرجل المتوفى بداخلي، دوماً الآخرون الذين يقفون حول التابوت هم من أتوجه إليهم هكذا، ولكن من خلال المبالغة الكاريكاتورية، فإن المزايدة في هذه البلاغة تدل على الأقل إلى أنه لا ينبغي على المرء أن يبقى حبيس ذاته».

سأل بايارد أين سيعقد الاجتماع. ردت أناستازيا أنه سيتم في مدينة البندقية، في مكان سرّي ربما لم يتم اختياره لحد الآن، لأن «المنظمة» التي تشتغل لحسابها لم تتمكن من تحديده.

فوكو: «يجب أن نقاطع تجارة الباقين على قيد الحياة، ونمزق الشراع نحو الآخر، الآخر الميت بداخلنا، لكن الآخر وكل الضمانات الدينية في البقاء يمكن أن تلبي هذا النداء، كما لو أن.»

أناستازيا: «إن الشخص الذي سيقابل بروتاغوراس الأكبر هو الشخص الذي سرق الوظيفة السابعة، لديكم حافز للحضور.»

لم يتم العثور على جون سورل أو سليمان. لكن الشكوك لا تحوم حولهم، أراد سليمان أن يبيع، وأراد سورل أن يشتري. ساعد جاكوبسون دريدا في المزايدة وبذلت كريستيفا كل ما في وسعها لإفشال الصفقة، ومات دريدا. لا يزال الرجلان يركضان وأحدهما يملك المال، ولكن من وجهة نظر مشغل بايارد، ليس هذا هو الأهم.

ما يتطلبه الأمر يعتقد بايارد، هو القبض على شخص متلبس بالجرم المشهود. يسأل سيمون عن كيفية الحصول على الاعتماد. تجيب أناستازيا إنه يجب

أن يكـون عـلى الأقل في المسـتوى رقم 6 (خطيب شـعبي)، وأن تكون هناك دورة تأهيلية كبيرة منظمة لهذه المناسبة.

«إن الرواية موت، تجعل من الحياة قدراً، ومن الذكرى فعلا مجدياً، ومن الديمومة زمناً موجهاً وهادفا.»

يسأل بايارد سيمون لماذا يتحدث فوكو عن الرواية.

يجيبه سـيمون أنه بالتأكيد استشـهاد لكن هو بذاته يطرح السؤال نفسه؛ لأنه وجد الأمر حقاً مثيراً للقلق.

79

بالـكاد يميـز سـورل، واقفـاً فوق الجـسر، المـاء في عمق مضيـق النهر، ويسـمعه ينسـاب في الظـلام. لقـد أرخى الليل سـدوله على إيثـاكا، والريح يتعرج من ممر الغطاء النباتي الذي شـكلته شلالات كريك. يتبع النهر، الذي انحصرت ممراته بالأحجار والطحالب، مجراه غير مبال بتراجيديا البشر.

يعبر الجسر صديقان، ويداهما في يدي بعضهما البعض. في هذه اللحظة، ليس هناك الكثير من الناس. لا أحد ينتبه إلى سورل.

لو هو فقط عرف، لو هو فقط استطاع...

لقد فات الأوان لإعادة التاريخ إلى الوراء.

من دون أن ينبس بكلمة، تخطى فيلسوف اللغة السياج، وقف في توازن عـلى الحاجـز، يلقي نظرة إلى القـاع ويتأمل لآخـر مرة النجوم. يـدع الأمور تأخذ مجراها ويسقط.

بالكاد سُمع صوت رذاذ: دفقة مائية. وميض خاطف من الرغوة في الظلام.

ليـس النهـر عميقـاً بـما يكفـي لامتصـاص الصدمـة، حيـث جرفـت المنحدرات جسـد سـورل نحو الشـلالات وبحيرة كايوجا، حيث ذات يوم يعـرف الصيـادون الهنود بلا شـك - ولكـن من يدري؟ بعض الأشـياء عن الفعل الأدائي والفعل التأثيري.

الفصل الرابع

البندقية

80

«عمري 44 عاماً. وهذا يعني أني بقيت على قيد الحياة أكثر من الإسكندر الذي توفي وعمره 32 عاماً، وأكثر من موزارت الذي توفي في سن 35، وأكثر من جاري الذي مات وعمره 34 عاماً، وأكثر من لوتريامونت الذي توفي في سن 24. وأكثر من لود بايرون الذي فارق الحياة وعمره 36 عاماً، وأكثر من رامبو الذي رحل في سن 37، وطوال الحياة التي بقيت لي سأتفوق على جميع الموتى العظماء وجميع العمالقة الذين بصموا عصرهم، وهكذا، إذا منحني الله الحياة، سأشهد عبور نابليون، وقيصر، وجورج بطاي، ورايمون روسيل... ولكن كلاّ! سأموت شاباً... أشعر بذلك... لن أشيخ ...لن ينتهي بي الأمر مثل رولان بارت ...64 عاماً... أمر مثير للشفقة... في الواقع، أسدينا له خدمة كبيرة... كلاّ، كلاّ... لا أريد أن أكون عجوزاً جميلا... وعلاوة على ذلك، لا وجود لشيء كهذا...أفضّل أن أستنفد قواي... فتيل قصير، هذا كل شيء...»

لا يحب سـوليرز الجلوس في السـطح العلوي في ميناء ليدو، فهرب من الحشـود الحـاضرة في الكرنفـال ووجد ملجأ، إحيـاء لذكـرى طوماس مان وفيسكوتي، في نزل الحمامات الكبير، حيث يتم الحدث الباعث على التأمل في رواية الموت في البندقية. يشـعر سـوليرز أنه قادر على التأمل هنا مرتاح قبالة البحـر الأدرياتيكي، ولكن لحد الآن، ها هو في الحانة يغازل النادلة، ويحتسي كأسـاً من الويسـكي. في آخر القاعة الفارغة، يعزف عـازف البيانو مقطوعة لرافيـل عـلى مضض. ويجـب القول إننـا في منتصف فترة ما بعـد الظهيرة في فصل شتوي جميل، وحتى لو كانت الأجواء مريحة، فإن الطقس ليس مناسباً جداً للسباحة.

«ما اسـمك يا فتاتي العزيزة؟ لا، لا تخبريني! سأسميك مارغاريتا، مثل عشـيقة اللورد بايرون. كانت ابنة خباز، أتعرفين؟ لوحة العشـيقة مارغاريتا لـوتي... ذات مـزاج عصبي وفخذيـن رخاميين... عيونها تشـبه عينيك بكل تأكيـد. كانوا يمارسـون الحـب على شـاكلة وضعيـة الحصان على الشـاطئ. كان المشـهد غاية في الرومانسـية، أليس كذلك؟ قد يبدو فنـاً رديئاً، ومبتذلا ... أجـل، أنـت على حق... هل ترغبين أن أعلمـك كيف تركبين، في الوقت القريب؟»

يفكـر سـوليرز في هـذا المقطـع مـن «أسـفار شـيلد هـارول»: «المدينـة الأرملـة» لــ «الـدوق Duc...» لم يعد الدوق قادراً على الـزواج من البحر، ولم يعد الأسد يخيف: فالإخصاء هو كل ما في القضية، قال سوليرز في نفسه. «وأسـطول البوقنطـور يتعفن، الباقة المنسـية لترمله!... لكنـه أبعد في الحال هذه الفكرة السـوداء. يلوّح بكأسـه الفارغ ليطلب كأس ويسكي آخر.» مع مكعبات ثلج «ابتسمت النادلة بأدب. «صلصة بريجو».

يتنهـد سـوليرز بمرح: « آه كـم أود أن أقول، على شـاكلة غوته: «قد لا أكـون معروفاً في مدينة البندقية إلا من طرف رجل واحد فقط، ولن يقابلني في القريب العاجل.» لكني معروف جداً في بلدي، يا فتاتي العزيزة، هذه هي

التعاسة. أتعرفين فرنسا؟ سآخذك إلى هناك. يا له من كاتب رائع، غوته هذا. ولكن ما الأمر؟ أنتِ تتوردين خجلاً». آه، جوليا، أنتِ هنا! مارغاريتا، أقدم لك زوجتي جوليا كريستيفا.

خلسة، مثل قطة، دخلت كريستيفا إلى الحانة الفارغة. تتعب نفسك سدى عزيزي، لا تفهم هذه الشابة ربع ما تقوله. أليس كذلك، آنسة؟

لا تزال الفتاة مبتسمة. «وصلصة بريجو؟»

يتفاخر سوليرز قائلا: «حسناً، ما أهمية ذلك؟ حين يكون لديك حق الاقتراع مثلي لا يحتاج المرء (شكراً للرّب) إلى أن يُفهم.»

لا تحدثه كريستيفا عن بوردو الذي يكرهه، لأن عالم الاجتماع يهدد نظام تمثيله بالكامل، وهو النظام الذي بفضله يمنح لنفسه دوراً أعظم. كما أنها لم تدعه إلى عدم الإفراط في الشراب قبل لقاء هذا الأسبوع. لقد آثرت منذ مدة معاملته كطفل وكشخص راشد. وأقلعت عن شرح العديد من الأمور له، لكنها تتوقع منه أن يرقى إلى المستوى الذي تشعر فيه أنه يحق لها أن تطالب به.

يوقع عازف البيانو نغماً مؤتلفاً نشازاً على نحو خاص. أهو نذير شؤم؟ لكن سوليرز يؤمن بحسن طالعه وحظه. ربما سيذهب للسباحة. لاحظت كريستيفا أنه ارتدى بالفعل صنادله.

82

انطلقت مائتا سفينة شراعية، وما يقارب أربعة وعشرين مركباً من نوع غيلوتة (هذه نصف السفن الشراعية) وست سفن حربية عملاقة، من نوع غيلونية (بـ 52، في ذلك الوقت) في البحر الأبيض المتوسط لتعقب الأسطول التركي.

يستشيط سيباستيانو فينيير، قائد أسطول البندقية العصبي غضباً في أعماقه: يعتقد أنه هو الوحيد الذي يرغب في المعركة، بين حلفائه الإسبان، وجنوة، وسافويارد، ونابولي والبابوية، لكنه مخطئ.

إذا كان التاج الإسباني، في شخص فيليب الثاني يميل إلى عدم الاكتراث بالبحر الأبيض المتوسط، نظراً لانشغاله بغزو العالم الجديد، فإن الشاب النمساوي من دون خوان، القائد المتحمس لأسطول العصبة المقدسة، الابن غير الشرعي لشارل الخامس، وبالتالي الأخ غير الشقيق للملك، يسعى إلى الحرب لتحقيق الشرف الذي حرمته منه نغولته من جهة أخرى.

يريد سيباستيانو فينير حماية المصالح الحيوية لجمهورية البندقية، لكن من دون خوان النمساوي الذي يتصرف لصالح مجده الشخصي هو أفضل حليف له، ولا يعرف ذلك.

83

يتأمل سوليرز صورة القديس أنطونيو في كنيسة اليسوعيين، ويرى أنه يشبهه. (سواء كان سوليرز يشبه القديس أنطونيو، أم إن هذا الأخير يبدو مثل سوليرز، لا أدري أي ترتيب يفكر فيه سوليرز.) أشعل سوليرز شمعة مباركة لنفسه، وخرج يتنزه في منطقة دور سودورو التي يحبها كثيراً.

أمام الأكاديمية، يلتقي سوليرز بسيمون هرتسوغ والمفوض جاك بايارد واقفين في الطابور.

«عزيزي المفوض، أنتم هنا، يا لها من مفاجأة! أي ريح أتت بكما؟ آه، أجل، لقد سمعت كثيراً عن تلميذك الصغير. إنني أتطلع إلى حضور الجولة القادمة. أجل، أجل، كما ترى، ليس هناك ما يدعو إلى الخجل من الأمر، أليس كذلك؟ هل هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها مدينة البندقية؟ عليك أن تنمي ثقافتك بزيارة المتحف، بطبيعة الحال. بلغ سلامي للوحة العاصفة للرسام الإيطالي جيورجيوني. إنها اللوحة الوحيدة التي تستحق تحمل توافد كل هؤلاء السياح اليابانيين. إنهم يلتقطون الصور من دون النظر خلفهم، أترون؟».

يشير سوليرز إلى يابانيين في الصف، فقام سيمون بحركة مفاجئة لاشعورية. تعرّف على اليابانيين أصحاب سيارة فويغو اللذين أنقذا حياته

في باريس. في الواقع، إنهما مزودان بمصورة مينولتا آخر صيحة وأكثر تطوراً، ويلتقطان صوراً لكل شيء يتحرك وكأن شيئاً لم يحدث.

«عليك نسيان ساحة سان ماركو، كما عليك نسيان حانة هاريس. أنت هنا في قلب المدينة، أي في مركز العالم: في منطقة دور سوديرو... البندقية مدينة عظيمة جدّاً، أليس كذلك؟ هاها؟ ... علاوة على ذلك، يجب بالتأكيد أن تزورا ساحة سانتو ستيفانو، عليك فقط عبور القناة الكبرى... سترى هناك تمثال، نيكولودي توماسو، وهو كاتب سياسي، وعبثاً يطلق عليه الفينيسيون [سكان مدينة البندقية] غابرييل: صرصور الكتب. بسبب شكل التمثال يبدو حقاً أنه يتغوّط الكتب. هاها، هاها. والأهم تأملوا جزيرة جيوديك على الضفة الأخرى. سيتسنى لكم الاستمتاع بالكنائس المصطفة في تواز للمهندس المعماري الكبير بالاديو. ألا تعرف بالاديو؟ رجل التحدي ...ربما مثلك؟ أخذ هذا الرجل على عاتقه مسؤولية بناء صرح مقابل ساحة القديس مرقس. أيمكنك تخيل هذا؟ تحدي مقدس، كما يقول أصدقاؤنا الأمريكيون الذين لم يفهموا أيّ شيء في الفن... أو في النساء، فضلا عن ذلك، ولكن هذه قصة أخرى... حسناً ها هو: التمثال يقف منتصباً على الأمواج عبر قناة سان جورجيو ماجيوري، والأكثر أهمية كنيسة المخلّص، التحفة الكلاسيكية الجديدة، من ناحية، النمط البيزنطي والقوطي المتوهج للماضي، ومن ناحية أخرى، نمط اليونان القديمة وقد عاد للظهور مرة أخرى عبر عصر النهضة والإصلاح المضاد. هيا لنرى، إنها على مقربة مئة متر! وإذا أسرعتم، ستنعمون بمنظر غروب الشمس...»

في تلك اللحظة، دوت صرخة في الصف «إلى اللص، إلى اللص» يركض سائح وراء نشال. بطريقة لاشعورية وضع سوليرز يده في الجيب الداخلي لسترته.

لكنه تمالك نفسه على الفور: «ها ها، أرأيت؟ إنه فرنسي بالطبع... الفرنسيون دائماً يتعرضون للسرقة، كن حذراً على أي حال. الإيطاليون شعب عظيم، لكنهم قاطعو طرق ولصوص، مثل كل الشعوب العظيمة...

يجب أن أتركك الآن، سوف أتأخر عن القداس...»

ابتعد سوليرز، وهو يطقطق حذاءه الناعم على رصيف مدينة البندقية.

قال سيمون لجاك بايارد: «هل رأيت؟»

– أجل، رأيت.

– إنها معه.

– نعم.

– لماذا لا نأخذها منه الآن؟

– يجب علينا التحقق من أن الأمر سيفلح. أذكرك أنك هنا من أجل هذه المهمة.

ارتسمت على وجه سيمون ابتسامة فخر خفي. مازالت دورة أخرى. نسي سيمون اليابانيين وراءه.

84

تَعبُر ماتتا سفينة مضيق كورفو، وتنطلق نحو خليج كورنت، ومن بينها سفينة الماركيزا بقيادة فرانسيسكو سان فريدا من جنوة، وعلى متنها الكابتن دييغو دي أوربينو ورجاله يلعبون النرد، ومن بينهم نجل طبيب مثقل بالديون، يبحر بحثاً عن المجد هو أيضاً، هيدالغو قشتالي، مغامر، من نبالة السيف المفلسة، الشاب ميغيل دي سرفانتس.

85

على هامش الكرنفال، تتكاثر الحفلات الخاصة في قصور البندقية، والحفل الذي يقام حالياً في قصر ريزونيكو ليس أقل شعبية، ولا أقل خصوصية.

ينجذب المارة المتعطشون وركاب السفن البخارية نحو الأصوات

العاليـة التي تنبعـث من المبنى، وينظرون نحو قاعـة الرقص، حيث يمكنهم رؤية ومتابعة الاسـتعراضات والثريات الزجاجية الضخمة المتعددة الألوان واللوحـات الجداريـة الرائعة للقرن الثامن عشر التي تزين السـقف، غير أن الدعوات شخصية بشكل صارم.

ولا يتـم الإعلان عـن حفلات نـادي اللوغوس على وجـه التحديد في الصحف.

واليوم، يمكننا القول إن نادي اللوغوس لا يتواصل حول هذه الأنواع مـن الأحداث. ومـع ذلك، تقام الحفلة في مركز مدينـة الدوقات (البندقية). يتوافـد مئات الأشـخاص لحضور الحفلة علناً. (فسـتان السـهرة ضروري، لكن حفلة الرقص ليست بالملابس الرسمية).

للوهلة الأولى، يبدو أن لا شيء يميز هذه الأمسـية عن أية أمسـية جميلة وعاديـة. لكـن يجـب الاسـتماع إلى المحادثات. يتـم الحديث عن اسـتهلال، خاتمـة الكلام، عرض، جدال دحض. (كما يقول بارت «يبدو دوماً الشـغف بالتصنيـف أمـراً فارغـاً لمـن لا يشـارك فيـه») فصـل بلاغـي، مجـاز، قياس إضـماري، واسـتقلاب بلاغي. (وكما يقول سـوليرز: لكن كيـف ذلك) «لا أعتقـد أنـه يجـب ترجمـة res et verba فحسـب بالأشياء والكلمات les mots et les choses، الأشـياء، كما يقول كوينتيليان، هذا يعني المدلول significateur وverba الكلـمات هـذا، يعنـي الـدالsignifcant باختصار، على مستوى الخطاب، المدلولات والدوال. Les signifiés et les sinifiantsبطبيعة الحال».

يتحدث الحاضرون فيما بينهم عن المناظرات الماضية والمستقبلية، العديد من المدعوين هم من المحاربين القدامى ذوي الأصابع المقطوعة، أو الشباب المتحمس للخطابة، ومعظمهم لديهم ذكريات عن حملات مجيدة ومأسـاوية، يطيـب لهـم الإسـهاب في إعادة الحديـث عنهـا في لوحات الرسـام الإيطالي جيامباتيستا تيبولو.

«لم أكن أعرف حتى مؤلف الاستشهاد !...»

«وحينهـا، عرض عليّ عبارة غـاي موليه! لقد أصابني الأمر في مقتل ها ها.»

«كنت هناك لحضور اللقاء الأسـطوري بين جان جاك سـيرفان شرايبر وميديس فرانس، لم أعد أتذكر الموضوع.»

«ولقائي مع جان لوكانييه وإيمانويل بيرل. لقاء سريالي.»

«أنتم أيها الفرنسيون جدليون للغاية...»

«أثـرت موضوعاً للناقـش ...عن علم النبات، واعتقـدت أني أخفقت وقُـضيّ علـيّ، ثم فكرت مرة أخـرى في جدّي، وفي حديقـة الخضروات. لقد أنقذت إصبعي بفضل جَدّي.

«وحينئـذ قـال: « علينا أن نكـف عن رؤية الملحديـن في كل مكان، لقد كان سبينوزا صوفياً عظيماً. يا له من غباء!»

«بيكاسـو ضد سـلفادور دالي. فئـة تاريخ الفن، لقاء كلاسـيكي. أحب بيكاسو أكثر، لكنني اخترت دالي.»

«أخذ الرجل يتحدث عن كرة القدم، ولا أعرف أي شيء عنها، وواصل الحديث عن الخُضر ولقاء حامي الوطيس...»

«آه، كلاّ، أنـا، لم أجـرِ مناظـرة منـذ سـنتين، وتقهقـرت مجـدداً إلى رتبة خطيب، لم يعد لي الوقت والطاقة بسبب الأولاد والعمل...»

«كنت على استعداد للاستسلام عندما نطق فجأة بالهراء الكبير الذي لا ينبغي أن يقال....»، يا لها من معجزة.

«هناك إله واحد فقط، واسمه شيشرون.»

«ذهبت إلى حانة هاريس (في ذكرى همنغواي، مثل أي شـخص). خمس عشرة ألف ليرة من أجل بيليني، بكل جدية؟»

«هايدغر، هايدغر هل أبدو مثل هايدغر؟»

وفجأة دبّت موجة من الغليان في الدرج. بدأ الحضور في استقبال القادم الجديد. يدخل سـيمون. برفقة بايارد. يتجمع المدعوون ويشعرون بالرهبة.

ها هو الشـاب المعجـزة الذي يتحدث عنه الجميع، الشـاب الذي ظهر فجأة ومن دون سـابق إنذار وارتقى إلى مرتبة مشّـائي في فترة زمنية قصيرة بشـكل لا يصـدق: أربع رتب في ثلاث دورات متتاليات، في باريس، والأمر يتطلب في الواقع عدة سـنوات لتحقيق مثل هذا التقدم، وربما الرتبة الخامسـة قريباً. يرتدي سـيمون بذلة أرمـاني داكنة وقميصاً وردياً وربطـة عنق ذات خطوط أرجوانية رقيقة، بايارد، من جهته، لم يرَ داعياً لتغيير بدلته البالية.

يتحمـس الناس حول الشـاب المعجزة، وسرعان مـا أخذوا يحثونه على إعادة تحقيق مآثره الباريسـية: مدى السـهولة التي سحق بها أولاً، على سبيل الإحمـاء خطيباً حول موضوع السياسـة الداخلية («في النهايـة، هل يتم دوماً الفوز في وسط المناظرة؟») باستشهاده بعبارة لينين ما العمل؟)

كيـف أقصى سـيمون خطيباً حول مسـألة فلسـفية عن الحـق معقدة إلى حدّ ما («هل يُعد العنف الشرعي عنفاً؟») بالاسـتناد إلى أنطوان دي سـانت جاسـت («لا أحد بمقدوره أن يحكـم ببراءة»، وعلى وجه الخصوص مقولة: «يجب على الملك أن يحكم أو يموت.»)

كيف ماحك سـيمون ضد عالم جدلي مقاتل حول مقولة الشاعر بيرسي شـيلي («لكنه استيقظ من حلم الحياة») مستعملا ببراعة مقولات كالديرون وشكسبير، وأيضاً بلباقة وروعة شديدة مقولات فرانكشتاين.

وهكـذا برقـي وكياسـة تلاعب سـيمون بمناظر في رتبة المشـائين حول عبـارة للفيلسـوف ليبنتـز («إن التربيـة بمقدورهـا فعـل أي شيء: أن تجعل الذئاب ترقص») من خلال الإقدام على تحمل مثالب اعتماد عرض إيضاحي مستند كلية على مقولات الماركيز دو ساد.

أشـعل بايارد سـيجارة، وهو ينظر مـن النافذة إلى الـزوارق على الضفة الكبرى.

يسـتجيب سـيمون بلطـف للطلبات. قدم لـه رجل عجوز من سـكان مدينة البندقية يرتدي بدلة بثلاث قطع، كوباً من الشمبانيا:

«مايسـترو، هل تعرف كازانوفـا، بطبيعة الحـال؟ في سرد أحداث نزاله

الشهير ضد الكونت البولندي كتب قائلاً: أول نصيحة نقدمها لأولئك الذين يواجهون مبارزة هي أن تجعل قدر الإمكان من المتعذر على خصمك إلحاق الأذى بك» ألا تظن ذلك؟

(يشرب سيمون رشفة من الشمبانيا، ويبتسم لسيدة عجوز ترمش بعينها.)

- هل كانت مبارزة بالسيف؟

- كلا، بمسدس

- إذن في حالة المبارزة بمسدس، أعتقد أن النصيحة صحيحة (يضحك سيمون). بالنسبة إلى مناظرة خطابية تختلف المبادئ إلى حدّ ما.

- كيف هذا إذن؟ هل أجرؤ، ما يسترو، على أن أسألك، لماذا؟

- حسنا، أنا على سبيل المثال، أهاجم بالترميز. تدفع هذه الطريقة الخصم إلى التدفق. أدعه يكشف ما في جعبته، هل فهمت؟ إن المناظرة الخطابية أشبه بمبارزة بالسيف. نكشف أنفسنا، نحترس، نراوغ، نخادع، نخترق، نوجه ضربات. نتفادى ضربات الخصم، ونرد بطعنة خاطفة...

- «أجل مبارزة، لكن بالسلاح، إنها ليست الطريقة الأفضل؟»

وخز بايارد الشاب المعجزة في جنبه. يجهل سيمون أنه ليس من الحكمة تقديم معطيات إستراتيجية إلزاماً لأولئك الذين يطلبونها في اليوم السابق لمقابلة من هذا المستوى، لكن توجهه البيداغوجي، يبقى أقوى. لا يتوانى عن التعليم:

«في رأيي، هناك مقاربتان رئيستان، السيميولوجيا والبلاغة، أتفهم؟ أجل، أجل، أعتقد ذلك، ولكن... هل يمكنك أن تشرح قليلاً، مايسترو؟»

- حسناً الأمر في غاية البساطة، السيميولوجيا، هذا العلم يتيح لك أن تفهم، وتحلل وتفك الرموز والشفرات، إنها وسيلة دفاعية، وهذا أسلوب لاعب كرة المضرب بورغ. والبلاغة وُجدت من أجل الإقناع، البرهنة ودحر الآخر، إنها وسيلة هجومية، وهذا أسلوب لاعب كرة المضرب ماكإينور؟

- آه، أجل. لكن بورغ، إنه يفوز، أليس كذلك؟

- طبعاً، يمكننا أن نفوز بهذه الطريقة أو تلك، إنها مجرد أساليب مختلفة في اللعب. مع السيميولوجيا، نقوم بفك شفرات بلاغة الخصم وخطابه، ندرك أساليبه، ونزعجه. السيميولوجيا، إنها أشبه بأسلوب بورغ: عليك فقط إعادة إرسال الكرة مرة أخرى، بضربة أقوى من الخصم. البلاغة، إنها ضربات ساحقة، ضرب الكرة قبل ارتدادها، وسرعة اللعب في خط مستقيم، لكن السيميولوجيا، ضربات من أجل إرجاع الكرة للخصم، ضربات للخروج من الوضع الدفاعي، ضربات لإسقاط الكرة خلف رأس الخصم.

- وهل هذه هي الطريقة الأحسن؟

آه، كلاّ، ليس بالضرورة، لكن هذا مجال تخصصي، هذا ما أجيد فعله، هكذا ألعب لست شعاراً للافتراء أو واعظاً، أو خطيباً سياسياً، أو المسيح المخلّص، أو بائع لمكنسة كهربائية. أنا أكاديمي، ومهنتي، هي التحليل، وفك الشفرة والرموز، والنقد والتأويل. هذا ما أفعله وأؤمن به. أنا بورغ. أنا فيلاس. أنا خوسيه لويس كليرك. همم.

لكن، في المقابل من هو خصمك؟

حسناً... ماكإنور، روسكو، تانير، جيرولايتيس...

وماذا؟ عن كونورز؟

آه، أجل، كونورز، اللعنة.

- لماذا، اللعنة؟ ما خطب كونورز هذا؟ ماذا في جعبته كونورز هذا؟

- إنه يتمتع بقوة خارقة «

من الصعب في تلك اللحظة، تقييم حجم السخرية في جواب سيمون الأخير، لأنه في فبراير 1981 لم يفز كونورز على بورغ في آخر ثماني مباريات، آخر انتصار له في البطولات الكبرى يعود تقريباً إلى ثلاث سنوات (بطولة الولايات المتحدة المفتوحة 1978، ضد بورغ على وجه التحديد)، لدرجة

أننـا بدأنـا نعتقد أنه انتهـى. ومن غير المؤكد، أنه سيفوز ببطولـة ويمبلدون وبطولات الولايات المتحدة في العام الموالي. وأيّاً كان الأمر، أصبح سيمون جدياً من جديد وسأل: «إذن، أعتقد أنه ربح النزال؟»

- وماذا عن كازانوفا؟ نعم، أصاب البولندي في معدته، وكاد أن يقتله، لكنه تلقى ضربة بالكرة في إصبع الإبهام، وهو أيضاً بنفسه كان على وشك أن تُبتر يده اليسرى.

- آه ...حقاً؟

أجـل، الجـرّاح أخـبر كازانوفـا أن الغرغارينـا عـلى وشـك أن تبـدأ في الأصابع. لذا سـأل كازانوفا عما إذا كانت قد بـدأت؟ وأجاب الجرّاح، كلاّ، آنذاك كازانوفا، قال: « حسناً، سندبر الأمر عندما تبدأ.» وقال الجراح آنذاك، إن الـذراع بكاملهـا هي التي يجـب بترها. هل تعرف بماذا أجـاب كازانوفا؟ ولكن ماذا أفعل بذراع من دون يدي؟ ها ها!

- «ها ها .... آه ...حسناً».

ينصرف سيمون بأدب، ويذهب للحصول على مشروب البيليني. تزود بايارد بكميـة كافية من الكعك والمقبلات، ويراقب المدعوين الذين ينظرون إلى رفيقه بفضول وإعجاب، وربما حتى بخوف. تلقى سـيمون سـيجارة من طرف امرأة ترتدي فسـتاناً من قماش السـحيف. وأكدت له وقائع الأمسـية المعلومات التي جاء للبحث عنها: إن السـمعة التي اكتسبها في بضع دورات باريسية وصلت أصداؤها بقوة إلى البندقية.

جاء سـيمون لشفاء روحه، لكنه لا يريد العودة متأخراً. أية غطرسة؟ لم يحـاول سـيمون في أية لحظة، معرفة ما إذا كان خصمـه في القاعة، في حين أن هذا الأخير، ربما يراقبه منذ فترة طويلة باهتمام، متكئاً على أثاث خشبي ثمين، ويسحق سجائره بعصبية فوق تماثيل النحات أندريا بروستولون.

حين تحرشـت المرأة ذات فسـتان من قماش السحيف بجاك بايارد (التي تريد أن تعرف أي دور لعب في صعود الشاب المعجزة)، قرر سيمون العودة بمفـرده. وجـاك بايـارد، الذي افتتن بلا شـك، بصدر المرأة الـذي يظهر من

تقويرة فستانها، والمذهول ربما، من جمال الأمكنة والسياحة الثقافية المكثفة التي فرضها عليه سيمون منذ وصولهم جعلته لا ينتبه إلى سلوك المرأة، أو على أيّ حال، لا يرى أيّ اعتراض.

يبدو سيمون ثملاً قليلاً، ولا زال الوقت مبكراً، وتستمر الحفلة في شوارع البندقية ومع ذلك ثمة أمر مريب، الشعور بوجود شخص يلاحقه، ماذا يعني هذا؟ الحدس تَصور مريح، مثل الشعور بوجود الله، لكي يريح الإنسان نفسه من التفسيرات. يجب ألا نشعر بأي شيء على الإطلاق، نرى ونسمع، فحسب، ونفك الشفرة والرموز، الذكاء، ورد الفعل. يلتقي سيمون بشخص مقنّع، ثم يلتقي بآخر، ثم شخص آخر مقنّع، (ولكن هناك الكثير من الأقنعة، والكثير من طرق الالتفاف والمواربة.) يسمع وقع خطوات وراءه في أزقة مهجورة. بشكل غريزي بدّل طريقه، وبطبيعة الحال، تاه سيمون. يشعر أن الخطوات تقترب (ومن دون حساب لآلية نفسية معقدة بدقة بالغة، يعد الشعور بالفعل مفهوماً أكثر صلابة من الحدس.) وشروده في شوارع البندقية قاده إلى ساحة سان بارتولومي، عند مدخل جسر ريالتوْ، وحيث انكب موسيقيون في منافسة متباينة اعتباطية، ويدرك أنه ليس بعيداً جدّاً عن فندقه، على بعد بضع مئات من الأمتار كحد أقصى، المشي من هنا في خط مستقيم، ولكن تعرجات الأزقة الفينيقية تسخر من المشي باستقامة، وكلما حاول سيمون المضي قدماً يتعثر في المياه الداكنة، المياه الفرعية. قناة ريوديلا فافا، قناة ريوديل بيومبو، فتاة ريو دي سان ليو...

هؤلاء الشباب المتكئون على بئر حجري الذين يشربون الجعة ويتناولون بعض المأكولات... ألم يمر سيمون من قبل أمام هذه الحانة؟

يضيق هذا الزقاق، لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد في الأساس أي ممر بعد المنعطف الذي يجب أن يتشكل بشكل حتمي. أو بعد المنعطف الموالي.

هدير، التماع، النهر.

اللعنة، لا وجود لجسر.

عندما استدار سيمون، اعترض ثلاثة أشخاص من مدينة البندقية

طريقه. لم ينبسوا بكلمة، ولكن نواياهم كانت واضحة؛ لأن كل واحد منهم يمسك بأداة حادة يقوم سيمون بجردها تلقائياً: تمثال صغير مجنح لأسد رخيص الثمن كما هو موجود في أكشاك ريالتو، وزجاجة فارغة من نوع ليمونسيلو يمسك الرجل بعنقها، وملقط منفاخ زجاجي ثقيل وطويل (بالنسبة إلى هذه الأداة الأخيرة، سيمون غير متأكد تماماً أنه يجب إدراجها ضمن فئة الأدوات الحادة.»)

يعرف سيمون الأقنعة، لأنه فحص في متحف ريزونيكو، لوحات لونجي في الكرنفال: الكابيتان ذو الأنف الكبير المعقوف، والمنقار الأبيض الطويل لطبيب الطاعون، واليرقة التي تستخدم في الزي المسمى باوتا، وهو قناع ثلاثي القرن ذو رأس أسود. لكن الرجل الذي يرتدي هذا القناع يلبس سروال جينز وحذاءً رياضياً مثل الاثنين الآخرين. يستنتج سيمون أن هؤلاء هم عصابة من المجرمين، تمّ استئجارهم لكي يبرحوه ضرباً. إن رغبتهم في عدم الكشف عن هويتهم يدفعه إلى الاعتقاد بأنهم لا يريدون قتله، وهذا أمر جيد، اللهم إلا إذا كانت الأقنعة لازمة لتفادي الشهود المحتملين.

يقترب مرتدي قناع طبيب الطاعون من دون أن ينبس بكلمة، والزجاجة في يده، وسيمون، مرة أخرى، كما هو الحال في إيثاكا عندما انقض الكلب، على دريدا، افتتن بهذا التمثيل الإيمائي الغريب واللاواقعي. يسمع سيمون الأصوات الصاخبة لزبناء حانة أوستريا المجاورة، ويعرف أنها على مقربة أمتار قليلة، لكن صدى الموسيقيين المتنافر في الشارع والصخب المنتشر الذي يبعث الحياة في ليل مدينة البندقية يقنعه على الفور بأنه لو طلب النجدة (يحاول أن يتذكر كيف يقال «النجدة» باللغة الإيطالية)، فلا أحد سينتبه لأمره.

يفكر سيمون، وهو يتراجع: بافتراض أنه حقاً شخصية روائية (افتراض تعززه الوضعية الحالية، الأقنعة والأشياء العجيبة للغاية: رواية لا تخشى الكليشيهات، قال في نفسه)، ما الذي يخاطر به حقاً؟ الرواية ليست حلماً: يمكن أن نموت في رواية، وبهذا القول، عادة، لا نقتل الشخصية الرئيسة باستثناء ربما في نهاية القصة.

ولكن ماذا لو أننا لسنا في نهاية القصة، وكيف سيعرف سيمون ذلك؟ وكيف سيعرف في أية صفحة في حياته قد وصلنا؟ وكيف سيعرف أننا قد وصلنا إلى صفحتنا الأخيرة؟

وماذا لو لم يكن الشخصية الرئيسة؟ ألا يعتقد كلّ فرد أنه بطل وجوده وحياته الخاصة.»

ليس سيمون متأكداً مما إذا كان مسلّحاً من الناحية التصورية بما يكفي لمواجهة مشكلة الحياة والموت بشكل سليم من منظور الانطولوجيا الروائية، لذلك قرر العودة، بينما لا يزال هناك وقت؛ أي قبل أن يحطم الرجل المقنع الذي يتقدم نحوه رأسه بالزجاجة الفارغة، إلى مقاربة أكثر براغماتية.

منفذه الوحيد للنجاة، بداهة، هو النهر خلف ظهره، لكننا في شهر فبراير، ولابد أن المياه متجمدة، وسيمون قلق من أن الأمر قد لا يكون سهلا، وكذلك إمكانية الاستيلاء على مجداف زورق، لأن هناك زوارق متوقفة على رأس كل عشرة أمتار، وقلق أن يتم الإجهاز عليه مثل التونة، عندما يحاول القفز إلى القناة، كما هو الحال في مسرحية الفُرس لأسخيلوس، ومثل الإغريق في معركة سلاميس.

إن الفكرة أسرع من الفعل ولدى سيمون برهة من الوقت للتفكير في المشهد حين رفع أخيراً صاحب قناع المنقار الأبيض زجاجته، لكن في اللحظة التي حاول فيها أن يجهز على سيمون سقطت منه الزجاجة، أو بالأحرى، انتزعها منه شخص ما. التفت صاحب المنقار الأبيض وبدلا من مساعديه الاثنين رأى شخصين يابانيين يرتديان بدلة سوداء. وقع صاحبا قناعي باوتا والكابياتنو أرضاً، وبقي صاحب المنقار الأبيض مذهولاً، مكتوف الأيدي أمام مشهد لم يستوعبه بدوره، تم الإجهاز عليه بزجاجته من خلال سلسلة من الحركات المتعاقبة المكتومة والدقيقة. كانت خبرة مهاجمه عالية لدرجة أن الزجاجة لم تنكسر وبدلته بالكاد تجعدت قليلا. يئن الرجال الثلاثة المُسجَون على الأرض بصوت خافت. لا يصدر الرجال الثلاثة الواقفون أيّ صوت.

يتساءل سيمون لماذا، إذا كان روائي يتحكم في مصيره، قد اختار ملاكين

حارسين غامضين ليقوما بحمايته ورعايته. اقترب الرجل الياباني الثاني، وحيّا سيمون بانحناءة رصينة للجسم ويده على خصره، وأجاب عن سؤاله الصامت: «إن أصدقاء رولان بارت هم أصدقاؤنا»، ثم غاب الرجلان في الظلام مثل النينجا.

يرى سيمون أن التفسير الذي قُدم له للتو غير كاف مطلقاً، لكنه يدرك أنه يجب أن يكتفي بذلك، لذلك سلك طريقه إلى الفندق لينام أخيراً.

86

في روما، ومدريد والقسطنطينية، وربما حتى في البندقية يتساءل المرء ما هو الغرض من هذا الأسطول الحربي الهائل؟ أية أمصار يريد المسيحيون استردادها أو غزوها؟ هل يريدون استعادة قبرص؟ هل يريدون شن الحملة الصليبية الثالثة عشرة؟ لكن لا يزال من غير المعروف أن منطقة فاماغوستا قد سقطت، ولم ترِد شائعة تعذيب القائد الفينيسي ماركو أنطونيو براغادين. وحدهما من دون خوان النمساوي وسيباستيانو فينير لديهما حدس بأن المعركة يمكن أن تمثل غاية في حد ذاتها، وأن الرهان يكمن في إبادة جيش العدو.

87

في انتظار اللقاء، يواصل بايارد التنزه مع سيمون لتغيير مزاجه وأفكاره، وقادهما تجوالهما إلى سفح تمثال الفروسية لبارتولوميو كوليوني، في الوقت الذي أعجب فيه بايارد بالتمثال، وظل مفتوناً بقوة البرونز ومرونة إزميل فيروتيو، وكل ما استطاع تخيله عن حياة قائد المرتزقة، المحارب الشرس، القوي والمستبد، دخل سيمون إلى كاتدرائية سان زانيبولو حيث رأى سوليرز يصلي أمام لوحة جدارية، ارتاب سيمون وهو يندهش من هذه الصدفة، وعلى أيّ حال، البندقية مدينة صغيرة ولقاء الشخص نفسه مرتين في موقع سياحي، عندما نكون بأنفسنا في سياحة، أمر لا ينطوي على أية غرابة في الواقع.

ومـع ذلك، لا يرغب سـيمون تحديـداً في التحدث مع سـوليرز، دخل بهـدوء إلى جنـاح الكنيسـة وأخـذ يتأمـل مقابـر الدوقـات ومـن بينهم، قبر سيباسـتيانو فينير، بطل معركة ليبانت وأعجب بلوحات الرسام بيليني وفي مصلى المسبحة الوردية، أمعن النظر في لوحات باولو فيرونيسي.

عندمـا تأكـد سـيمون أن سـوليرز غـادر الكنيسـة اقـترب مـن اللوحة الجدارية.

توجـد هناك مرمـدة عبارة عن جـرة محاطة بأسـدين مجنحين صغيرين، وفوقهـا نقش يصور تعذيب رجل مسـن، أصلع ذو لحية طويلة، وعضلات مفتولة وبارزة، وقد تم سلخ جلده.

في الأسـفل توجـد صحيفة كُتـب عليها بحـروف لاتينية فكّ سـيمون رموزهـا بصعوبة: ماركو أنطونيو براغادين حاكم قبرص، استشـهد بشـكل فظيـع عـلى يد الأتـراك لقيامه بمحاصرة قلعة فاماغوسـتا بشـكل بطولي من سـبتمبر 1570 إلى يوليـوز 1571. (وأيضـاً لعـدم احترامـه للمنتصر أثناء استسـلامه، لكـن الصحيفـة لا تتكلم عن ذلـك. ويقال إنه رفض بغطرسـة الإفـراج عن الرهائن، كما جرت العادة، مقابل الإفراج عن قادة مسـيحيين، وأنـه لم يكترث بمصير السـجناء الأتـراك، حيث اتهمه الباشـا بالتغاضي عن تعرضهم لمجزرة من طرف الرجال التابعين له.)

باختصار قطع الأتراك أذنيه وأنفه، وتركوه يتعفن ويتقيح لمدة ثمانية أيام، وبعد ذلك، عندما رفض تغيير عقيدته المسيحية (ولا زالت لديه القوة ليبصق على معذبيه وإهانتهم)، حملوا فوق ظهره سـلة من التراب والحجر وطافوا به في مشهد قرع الطبول، حيث قام الجنود الأتراك بالسخرية منه وتعنيفه.

ولم يتوقف تعذيبه عند هذا الحد: تم رفعه على حافة سـفينة حتى يتمكن جميـع العبيد المسـيحيين من رؤيـة هزيمتهم والغضب التركي، ولمدة سـاعة، صرخ الأتـراك في وجهـه انظر: «انظر، ربما ترى أسـطولك، انظر إلى المسـيح العظيم، ربما ترى الغوث قادماً!».

وفي النهايـة ربطـوه، عارياً، على عمود، وقاموا بسـلخ جلـده حيّاً، بعد

ذلك قاموا بحشو جثته وطافوا بها فوق بقرة في شوارع المدينة قبل إرسالها إلى مدينة القسطنطينية.

لكن إذا كان جلده هو الذي يوجد في المرمدة، بقايا بائسة. فكيف وصل إلى هنا؟ لا تكشف اللوحة الجدارية باللغة اللاتينية عن ذلك.

لماذا استغرق سيمون في تأملها طويلاً؟ يجهل سيمون سبب ذلك.

88

«لم أتلق أوامر باستقبال أكباش فداء من البندقية.»

بطبيعة الحال، إن القبطان توسكان الذي تلفظ بهذه العبارة أمام جنرال البحر سيباستيانو فينير، سيواجه مشاكل خطيرة، ثم أدرك أنه بعيد، ولأنه يعرف القسوة الشديدة التي تميز الجنرال الفينيسي العجوز رفض إلقاء القبض عليه، وانتهى الأمر باندلاع تمرد، فأصيب القبطان بجروح بليغة، وتم إعدامه ليكون عبرة للآخرين.

لكنه كان تحت السلطة الإسبانية، مما يعني ضمناً أن فينير لم يكن لديه الحق في اتخاذ قرار بشأن العقوبة، وخاصة تنفيذها من تلقاء نفسه. عندما علم خوان النمساوي بالأمر، فكر بجدية في إمكانية القبض على فينير بدوره، ليعلمه احترام أوامر التسلسل القيادي، لكن المفتش العسكري بارباريغو، نائب القائد في الأسطول الفينيسي تمكن من إقناعه بعدم القيام بأي شيء، حتى لا يعرض العملية العسكرية برمتها للفشل.

واصل الأسطول طريقه إلى خليج ليبانت.

89

«أبي،

لقد وصلنا إلى مدينة البندقية، وسيشارك فيليب في المنافسة.

تعج المدينة بالنشاط والحيوية؛ لأنهم يحاولون إعادة إحياء الكرنفال.

هنـا، أناس يرتـدون أقنعة، والعديـد من العروض في الشـوارع. على عكس مـا قيل لنا، فـإن البندقية لم يتغير حالها. من ناحية أخـرى، هناك جحافل من السياح اليابانيين، ولكن هذا المشهد هو أشبه بالحال في باريس.

لا يبـدو فيليب قلقـاً للغاية. إنك تعرفه، يعرب دوماً عن تفاؤل راسـخ يفـضي أحيانـاً إلى تصرفات لا مسـؤولة، لكـن كل واحد منا يشـد أزر الآخر لنشكل قوة.

أعلم أنك لا تفهم لماذا أفسـحت ابنتك المجال له، ولكن عليك أن تعي أنه في مثل هذه الحالة، أي أمام هيأة تحكيم مكونة حصرياً من الرجال، بكفاءة متساوية، سيحظى الرجل دوماً بمزيد من الفرص أكثر من امرأة.

عندما كنت طفلة صغيرة، علّمتني أن المرأة ليست فحسب نِدّاً للرجل، بل إنها أكثر منزلة منه، وأنا أصدقك. ومازلت أصدقك. ولكن ليس بوسعنا تجاهـل هذا الواقـع الاجتماعـي الذي يدعى (حتـى الآن للأسـف) بالهيمنة الذكورية.

يقـال إنه في تاريـخ نادي اللوغوس، وصلت أربع نسـوة فقـط إلى رتبة السفسـطائيين: كاثريـن دي ميديسـيس، وإميلي دوشـاتليه ومارلـين مونرو وأنديـرا غاندي (بخصوص ابنته، لا زال بوسـعنا أن نأمل بأن تصل إلى رتبة السفسطائيين) وهذا قلّما يحصل. ولم يحدث أبداً بالطبع، أن وصلت امرأة إلى رتبة بروتاغوراس الأكبر.

ولكـن إذا فـاز فيليب باللقب، فإن الأمور سـتتغير بالنسبة إلى الجميع: بالنسـبة إليه هو، الذي سـيصبح أحد أكثر الرجال تأثيراً في العالم. وبالنسـبة إليـك، ستسـتفيد مـن قوتـه الخفيـة، ولـن يعتريـك، بعـد ذلك الخـوف من أندروبـوف أو الـروس، وبالتالي سـيكون بمقدورك تغيـير الوضع في بلدك (ليتنـي أسـتطيع قول « بلدنـا »، ولكنك أردتني أن أكون فرنسـية، وفي ذلك على الأقل، أبي العزيز، أطعتك بشـكل يفـوق كل توقعاتك). ولأجل ابنتك الوحيدة التي ستكتسـب شكلا آخر من أشـكال السلطة، وتهيمن على الحياة الفكرية الفرنسية.

لا تحكـم على فيليب سـوليرز بقسـوة شـديدة: اللاوعي هو شـكل من أشكال الشجاعة وأنت تعرف ما هو على استعداد للمخاطرة به. لقد علمتني دوماً الالتزام بترجمة المشاعر إلى فعل، حتى لو كان الأمر بمثابة مغامرة. ومن دون اسـتعداد للكآبـة لا توجد أوضاع نفسـية، وأعـرف أن فيليب يفتقر إلى ذلك، الشيء الذي يجعل منه ربما ممثلاً بائساً يتغطرس حينها، ويضطرب، كما يقول شكسبير، ولكن ربما هذا ما أحب في شخصيته.

أقبلك يا والدي العزيز.

ابنتك التي تحبك،

جولينكا

ملحوظة: هل توصلت بتسجيلات جون فيرات؟»

90

«ولكن نعم، يبدو الأمر معتمد إلى حدّ ما، أجل.»

التقى سـيمون وبايارد أمبرتو إيكو في سـاحة القديس ماركو. بالتأكيد، يبـدو أن الجميـع ضرب موعـداً في البندقيـة. جنون الارتيـاب الذي أصاب سيمون الذي أصبح يفسر الآن كل شيء يشبه الصدفة كعلامة لمجرى حياته قد يكون مجرد وهم من نسج الخيال، شوش على ملكاته التحليلية وحرمه من التساؤل حول الدوافع الممكنة والمحتملة لوجود إيكو هنا والآن.

في إطلالة على البحيرة الساحلية، تبدو العديد من القوارب العتيقة تقوم بمناورات في بهاء مشـعّ، فتجعل الهيـاكل تصطدم ببعضها البعض، على وقع هدير المدافع وصخب المجاميع.

«إن المشـهد هو إعادة لتمثيل أحداث معركة ليبانت» يجب على إيكو أن يصرخ، ليعلو صوته على ضجيج المدافع وهتافات الحشد.

إن الكرنفال، في نسـخته الثانية منذ إعادة إحيائه السـنة الماضية، يتطلع، ضمـن عروض أخرى مبهرة إلى الاحتفال بإعـادة تمثيل الأحداث التاريخية:

العصبة المقدسة بقيادة الأسطول الفينيسي إلى جانب الأسطول البحري (أرمادا) الذي لا يُقهر، وجيوش البابا لمواجهة أتراك سليم الثاني، الملقب بالمخمور، ابن سليمان القانوني.

«لكن، هل ترون هذه السفينة الكبيرة؟ إنها نسخة طبق الأصل من البوقنطور، السفينة التي على متنها يحتفل الدوق كل سنة في عيد الصعود، بأداء طقس زواج البحر من خلال إلقاء خاتم ذهبي في البحر الأدرياتيكي. كانت سفينة احتفالية لم تصنع للحرب على الإطلاق. كان يتم إخراجها في الاحتفالات الرسمية، ولم تغادر البحيرة قط، وليس لديها ما تفعله هناك، حيث من المفترض أن تكون في خليج ليبانت في ذلك اليوم من السابع من شهر أكتوبر 1571.»

لا يستمع سيمون حقاً لأمبرتو إيكو. يتقدم نحو الرصيف، مدفوعاً باحتفالية القوارب المقلدة والزوارق الطقوسية. ولكن عندما كان على وشك المرور بين عمودين يشبهان دعامات باب غير مرئي، أوقفه إيكو قائلاً: «مهلاً، انتظر!»

لا يمر الفينيسيون أبداً بين أعمدة القديس ماركو، يقولون إن ذلك يجلب الحظ السيئ؛ لأن هذا هو المكان الذي أعدمت فيه الجمهورية المحكوم عليهم بالإعدام، ثم علقت الجثث من الأقدام.

في الجزء العلوي من الأعمدة، يرى سيمون أسد البندقية المجنح والقديس تيودور يصرع تمساحاً. غمغم قائلاً: «أنا لست من البندقية» وعبَر العتبة غير المرئية وتقدم نحو حافة الماء.

وصوّب سيمون نظره لبرهة من الوقت. ليس فحسب «الصوت والضوء» والقوارب في شكل سفن حربية بمجاميعها التي ترتدي ملابس الكنيسة تبدو غريبة ومبتذلة. ولكن أيضاً المواجهة بين الجيوش: القوادس [السفن الشراعية] الستة الراسية في عرض البحر، والحصون العائمة، وقد تَدمر كل شيء حولها، المئتا قوادس موزعة بين الجناح الأيسر تحمل لواء أصفر، بقيادة المفتش العسكري العام الفينيسي أغوستينو باربريغو الذي

تلقى سهماً في العين ومات في بداية المعركة، والجناح الأيمن ذي راية خضراء، بقيادة الأدميرال الورع جيان أندريا دوريا الذي دحرته المناورات الذكية للمراوغ قلج علي باشا (علي المرتد، علي الأعور، علي المارق، كالابريا المولد بجنوب إيطاليا وباي الجزائر)، وفي الوسط، راية زرقاء، تحت القيادة العليا للنمساوي من دون خوان، وكولونا من إسبانيا قائد سفن البابا وسيباستيانو فينيير في الخامسة والسبعين من عمره، المتشدد بلحية بيضاء، دوق البندقية في المستقبل، الذي لم يعد خوان يتواصل معه أو ينظر إليه منذ حادثة إعدام القبطان الإسباني. وفي الخلف، في حال خرجت الأمور عن السيطرة، الأمير الإسباني ألفارو دي بازان، المعروف بالماركيز سانتا كروز. وفي المقابل، يوجد الأسطول التركي بقيادة علي مؤذن زاده، قبودان باشا بجيوشه الإنكشارية وقراصنته.

ويوجد على متن سفينة الماركيزا، مريضاً ومحموماً، الملازم في البحرية ميغيل دي سرفانتس الذي ألزم بالبقاء مستلقياً في عنبر الفحم، لكنه يريد أن يقاتل ويتوسل لقائده، لأنه ماذا سيقال عنه إذا لم يشارك في أعظم معركة بحرية على مر العصور؟

لذلك حصل سرفانتس على الموافقة، وعندما تحركت السفن واصطدمت مع بعضها البعض، وعندما تبادل الرجال إطلاق النار حاملين البنادق ومتأهبين لمداهمة السفن، قاتل سرفانتس بشراسة وفي خضم العاصفة وهيجان البحر، أجهز على الأتراك مهشماً أجسادهم مثل أسماك التون، لكنه تلقى طلقات من بندقية في صدره، ويده اليسرى، ومع ذلك استمر في القتال، فانتصار المسيحيين بات وشيكاً بلا شك، لقد قُطع رأس قبودان باشا ورفع على طرف سارية سفينة الأدميرال، لكنه هو بدوره، ميغيل دي سرفانتس، الملازم الباسل في البحرية تحت قيادة قائده دييغو دي أوربينو، لم يعد قادراً على استخدام يده اليسرى في المعركة، أو ربما الأطباء الجراحون أضروا صحته ليصاب بالشلل في يده.

تبقى الحقيقة أنه، من الآن فصاعداً، سوف يسمى بـ «أكتع ليبانت»

وسيسخر البعض من إعاقته، لكنه هو من جهة مصاب في الجسد والروح، سيشير بوضوح إلى هذا الحدث في مقدمته للجزء الثاني من روايته من دون كيشوت: «وكما لو أن قطع يدي قد حدث في حادثة، وليس في أسمى قضية شهدتها العصور الماضية والحاضرة، وليس من المتوقع أن تشهد مثلها العصور القادمة.»

ووسط حشد من السياح والرجال المقنّعين، يشعر سيمون أيضاً بالحمى، وعندما ربّت على كتفه، توقع سيمون أن يرى الدوق ألفيس موسينغيو ومجلس العشرة الكامل العدد وثلاثة رجال من هيأة التفتيش في الدولة للاحتفال بهذا الانتصار المبهر لأسد البندقية والمسيحية، لكنه ببساطة كان فقط أمبرتو إيكو الذي قال له بابتسامة جميلة: «هناك أناس ذهبوا بحثاً عن وحيد القرن، فلم يجدوا سوى كركدنيات.»

91

يصطف بايارد أمام مبنى لافينيس (العنقاء)، دار الأوبرا في البندقية، وعندما حان دوره، وتم التحقق من أن اسمه مدرج في القائمة، شعر بارتياح كوني أشبه بالإحساس الذي ينتابنا أثناء عبور نقطة تفتيش (وهو الإحساس الذي يستشعره بحكم مهنته)، لكن المراقب سأله بأيّة صفة تمت دعوته، فأوضح بايارد أنه يرافق سيمون هرتسوغ، أحد المنافسين، لكن المراقب أصر: «بأيّة صفة؟» ولم يعرف بايارد بماذا يجيب فقال: «آه، مدرب؟»

سمح له المراقب بالمرور، وذهب ليأخذ مكانه في المنصة الذهبية المفروشة بكراسي قرمزية.

على المنصة، تواجه امرأة شابة رجلاً مسناً حول مقولة لماكبث: «فليكن كل إنسان سيد زمانه.» يتكلم الخصمان باللغة الإنجليزية ولا يستخدم بايارد السماعات المتاحة للجمهور للترجمة الفورية، ولكن ينتابه شعور بأن المرأة الشابة تتولّى دور القيادة. («الزمن هو لصالحي.»، قالت بتألق. وبالفعل، سيتم الإعلان عن فوزها)

القاعة مليئة، سارع الناس من كل أنحاء أوروبا لحضور الدورة التأهيلية الكبرى: يتم تحدي خطباء شعبِيين من قبل مناظرين من رتبة دنيا، ومعظمهم مـن المَشّـائين وأيضاً الجدليين وحتـى بعض الخطباء الذين هم على اسـتعداد للمخاطرة بثلاثة أصابع دفعة واحدة للحصول على الحق في حضور اللقاء.

يعلـم الجميع أنه تـم تحدي بروتاغوراس الأكبر، وأنه سـيتم فقط دعوة الخطباء الشـعبيين وحدهم، يرافقهم شـخص من اختيارهـم لحضور المباراة (مـع السفسـطائيين بالطبع، الذين يشـكلون هيـأة لجنة التحكيـم المحلّفة.) سـتحدث المواجهـة إذن في مـكان سري لن يتم الإبلاغ عنه إلا للأشـخاص المُخـوّل لهـم الحضور بناء عـلى نتيجة دورة هذا المسـاء. نجهل رسـمياً هوية المتحدي، على الرغم من انتشار العديد من الشائعات.

يتصفح بايارد كتيبه، دليل ميشلان، ويكتشف أن لافينيس la Fencice هو مسرح لم يتوقف، منذ إنشائه، عن التعرض للحرق وإعادة بنائه، ومن تم أخذ بلا شـك هذا الاسـم: العنقاء، فينيكس (وجد بايارد الكلمة أكثر جمالاً بصيغة التأنيث).

على المنصة، يفقد روسي لامع بغباء إصبعه بسـبب خطأ في الاستشـهاد: عبارة لمارك توين نسـبها إلى مالرو، الشيء الذي أتاح لخصمه، إسـباني ماكر، أن يقلب مسار الوضع لصالحه، سُمع ضجيج في القاعة «أوه» في لحظة القطع الحاد للإصبع »تشاك».

فتح الباب خلف بايارد الذي انتفض في مكانه. «عزيزي المفوض، يبدو أنك جئت لترى سـتندال شخصياً!» إنه سوليرز حاملاً مبسم السجائر الذي جاء لزيارته في المنصة. « حدث مثير للاهتمام، أليس كذلك؟ لا وجود لشيء هنا سـوى صفوة المجتمـع الفينيسي، ولعمري هو الأكثـر أهمية إلى حدّ ما في المشهد الثقافي في أوروبا. لقد قيل لي إن هناك أيضاً بعض الأمريكيين، أتساءل عما إذا كان همنغواي سبق وأن كان عضواً في نادي اللوغوس. لقد ألّف كتاباً تدور أحداثه في البندقية، أتعلم؟ قصة عقيد مسـن يسـتمني على فتاة شابة في زورق بيـده المصابـة. ليس بالشيء السيئ على الإطلاق. أتعلـم أن هنا ألّف

جوزيبي فيردي أوبرا «لاترافياتا»، (المرأة المضللة)، la Triviata؟، وأيضاً ألّف عمله الأوبيرالي «إرناني»، (Ernani) التي استلهمها من مسرحية «هيرناني» للكاتب الفرنسي فيكتور هوغو...»جال سوليرز بنظره نحو الخشبة، حيث يتجادل إيطالي شاب قوي البنية مع رجل إنجليزي يدخن الغليون، وأضاف متأملاً:«Hernani مبتوراً من حرفه الأول ernani» ثم انسحب، وهو يقفز بنعله مثل ضابط نمساوي - مجري منحنياً بصدره قليلاً ليعود إلى مكانه في المنصة، حيث يحاول بايارد تحديده، ليعرف ما إذا كانت زوجته كريستيفا موجودة هناك.

على خشبة المسرح، يعلن المقدم مرتدياً بدلة رسمية عن المعركة التالية، (السيدات والسادة...) وضع بايارد ساعته:»أيها المناظرون من جميع البلدان... جاء، إلينا من باريس... رجل يبدو سجله بليغاً ومعبراً... صِفر مباراة ودية... أربع مناظرات قطع الإصبع... أربعة انتصارات بإجماع لجنة التحكيم... والتي كانت كافية له ليصنع لنفسه اسماً ومكانة... أطلب منكم الترحيب بمفكك شفرات الرموز من جامعة فينسين.»

دخل سيمون بطريقته الخاصة، مرتدياً بدلة من تصميم شيروني مُحكَمة المقاس.

صفق بايارد بعصبية مع بقية الجمهور.

ابتسم سيمون ورحب بجمهوره، وكل حواسه في حالة تأهب، بينما يتم اختيار الموضوع.

«الكلاسيكية والباروك، موضوع تاريخ الفن؟ لما لا، ما دمنا في مدينة البندقية».

على الفور، بدأت الأفكار تتدفق إلى رأس سيمون، ولكن من السابق لأوانه العمل على غربلتها. عليه أن يركز أولاً على شيء آخر، عندما يصافح خصمه، أن يبقى ممسكاً يده لبضع ثوان، يقرأ خلالها هيأة الرجل الذي يواجهه:

إيطالي من الجنوب بناء على لون بشرته الداكنة.

قامة صغيرة، إذن نزوع إلى السيطرة.

- مصافحة قوية، رجل التواصل.

سمين، يتناول الكثير من الأطباق بالصلصة،

ينظر إلى الجمهور، وليس إلى خصمه، ردّ فعل الرجل السياسي،

لا يرتدي ملابس أنيقة جداً كإيطالي، بدلة بالية غير متجانسة ثوبه متدلي وسرواله قصير، وحذاء أسود ملمع: رجل بخيل أو ديماغوجي،

يرتدي ساعة فاخرة حول معصمه، أحدث طراز، وبالتالي غير موروثة، ومن الواضح أنها مكلفة من ناحية الثمن بالنظر إلى مكانته. احتمال كبير على الفساد والرشوة، وهذا يعزز فرضية أنه من جنوب إيطاليا).

خاتم زواج، إضافة إلى خاتم مختلف: لديه زوجة وعشيقة قدمت له خاتماً، والذي ربما كان يرتديه قبل زواجه (وإلا لكان عليه أن يبرر ظهوره أمام زوجته، وهنا بإمكانه اختلاق قصة ميراث الخاتم من عائلته)، وهذا يعني أن عشيقته قديمة، وبالتالي لم يرغب في الزواج بها، ولكن لم يقرر هجرانها.

بطبيعة الحال، كل هذه الاستقراءات هي مجرد افتراضات، وليس بوسع سيمون التأكد من أنه على صواب في كل مرة. يقول سيمون في نفسه: «لسنا في مسلسل شيرلوك هولمز»، ولكن عندما تُشكل القرائن مجموعة من الافتراضات يقرر سيمون الوثوق بها.

إن الاستنتاج الذي توصل إليه سيمون هو أنه يواجه رجلاً سياسياً، ربما ديمقراطياً مسيحياً، مناصراً لفريق نابولي أو كاغالياري، رجل الاستعراض، وصولي، ماهر، لكنه متردد في اتخاذ القرارات الحاسمة.

لذا قرر سيمون أن يجرب خطة منذ البداية من أجل اختراقه: يتخلى بشكل قاطع عن امتياز البدء، على الرغم من أنه ممنوح بالاستناد، إلى القانون، على الأقل إلى من هو في أحسن رتبة بين المناظرين، وعرض سيمون بكرم ترك المبادرة لخصمه الموقر، الشيء الذي يعني ضمناً من الناحية العملية، السماح

لـه بالاختيار بـين مصطلحي الموضوع الذي سـيدافع عنه. عـلى أي حال في مباراة التنس، يمكننا اختيار تلقي الكرة.

خصمـه ليس ملزماً بقبول ترك مبادرة البدء له، لكن رهان سـيمون هو عـلى النحـو التالي: لن يرغب الإيطالي أن يُسـاء تأويل رفضـه، على أنه بمثابة نـوع مـن الازدراء أو مزاج سـيئ أو تصلب، أو أسـوأ من ذلـك، تعبيراً عن تخوف.

يجب أن يكون الإيطالي منافسـاً، وليس مفسـداً للحفل. لا يمكنه البدء برفـض الارتقـاء إلى مسـتوى التحـدي، عـلى الرغم مـن أن التحـدي الذي يُعرض عليه يبدو بمثابة فخ. يوافق.

ومن هذا المنطلق، لا يساور سيمون أدنى شك في الموقف الذي سيدافع عنه. في مدينة البندقية، أي رجل سياسة سيثني على الباروك ويقوم بتمجيده.

لذلـك، عندمـا بدأ الإيطـالي بالإشـارة إلى أصـل كلمة البـاروك (التي نشـأت من الكلمـة البرتغاليـة «barocco» بمعنى لؤلؤة ممسـوخة)، اعتبر على الأقل، أنه يمسك عليه زلة.

في البدايـة، يبـدو الإيطـالي أكاديمياً إلى حـد ما، ومتعثـراً بعض الشيء؛ لأن سـيمون أطاح به حين ترك المبادرة لـه وأيضاً، ربما، لأنه ليس متخصصاً في تاريـخ الفـن، لكنه لم يصل إلى رتبة خطيب شـعبي بالصدفة، ببطء، تمالك الإيطالي نفسه، ورفع من حدة الإيقاع.

البـاروك، هـو ذاك التيار الجمالي الـذي يرى العالم بمثابـة مسرح والحياة بوصفهـا حلماً، وخيالاً، ومـرآة من الألوان الزاهية والتقاطعات المكسـورة. الآلهة سـيرس والطاووس: مسوخ، تباهي. يفضل الباروك المنحنيات بزوايا قائمة. يحب الباروك الامتثال، والخداع البصري، والغرابة.

وضع سـيمون سماعته، لكنه سـمع الإيطالي يستشـهد بالكاتب مونتين باللغة الفرنسية في النص:»لا أرسم، ولا أصور الكائن، بل أرسم العبور.»

مراوغـاً ينتقـل البـاروك مـن بلـد إلى آخـر، من عـصر إلى آخر، القرن

السادس عشر في إيطاليا، مجمع ترنت، الإصلاح المضاد، النصف الأول من القرن السابع عشر في فرنسا مع بول سكارون، ومارك أنطوان سانت أمانت، النصف الثاني من القرن السابع عشر، العودة إلى إيطاليا، مع أكويلون دي بافيير، القرن الثامن عشر، براغ، وسانت بطرسبورغ، وأمريكا الجنوبية وفن الروكوكو... لا يعرف الباروك الوحدة، ولا يعرف ماهية الأشياء الثابتة ولا يعرف طابعاً دائماً. الباروك حركة دائمة. المنافسة بين المعماريين ذوي الأسلوب الباروكي برنيني وبورومينى والمنافسة بين تيبولو ومونتيفريدي.

يكتفي الإيطالي بالعموميات النادرة.

ثم فجأة، وبطريقة ما، وعن طريق آلية غامضة ومن خلال مسار وانعطاف في الفكر البشري، وجد مبدأه التوجيهي، المبدأ الذي يتمكن من خلاله الإبحار على لوح البلاغة الخطابية والمفارقة الشديدة: «الباروك هو الطاعون.»

الباروك، إنه الطاعون.

هذا هو الموطن، هنا في البندقية، حيث نعثر على جوهر هذا التيار الفاقد للماهية. في القباب البصيلية الشكل في كاتدرائية القديس ماركو، في الزخرفة الحلزونية للواجهات، في الزخارف الأسطورية للقصور المطّلة على البحيرة، وبطبيعة الحال في الكرنفال.

ولكن لأيّ سبب؟ راجع الإيطالي التاريخ المحلي بشكل جيد من عام 1348 إلى عام 1632، ضرب الطاعون المدينة، ثم عاد أشد مما كان تاركاً رسالته من دون كلل أو ملل: كل شيء يصير حطاماً تذروه الرياح. في سنوات 1462، 1485، ضرب الطاعون الجمهورية وفتك بها. في عام 1506، كل شيء أصبح هباء منثوراً. ثم لم يلبث الطاعون أن عاد عام 1576، وقضى على الرسام تيتيان. إن الحياة عبارة عن كرنفال. يرتدي الأطباء أقنعة ذات منقار أبيض طويل.

إن تاريخ البندقية ليس سوى حوار طويل مع الطاعون.

والحالة هذه، كان جواب السيرينيسيما (جمهورية البندقية في العصور

الوسطى) هو لوحات الرسام باولو فيرونيس (لوحة «المسيح يقضي على الطاعون»)، والرسام تينتوريتو (سان روكو يشفي المصابين بالطاعون) ومتحف الفنون بونتا ديلا دوجانا »، والكنسية البيضاء للمعماري بالداسار لوتغهينا: كنيسة سانتا ماريا ديلا سالوت، التي يقول عنها الناقد الفني الألماني رودولف فيتكوفر: «انتصار مطلق في البحث والآثار الباروكية، وثراء التأثيرات الضوئية.»

وسط الجمهور، يدوّن فيليب سوليرز بعض الملاحظات.

على شكل مضلع ثماني من دون واجهة مشبعة بالهواء.

تشبه القطع الحجرية الغريبة لفائف الرغوة التي تحجرت بقناديل البحر. الحركة الدائمة كرد فعل على بطلان العالم وتفاهته.

الباروك إنه الطاعون، وبالتالي هو مدينة البندقية.

متتالية حقيقية رائعة، قال سيمون في نفسه.

اندفع الإيطالي بكل حَمِّية واستطرد قائلاً: «ما هو الأثر الكلاسيكي؟ أين سبق ورأيتم آثاراً كلاسيكية؟ هل قصر فرساي أثر كلاسيكي؟ هل قصر شونبرون أثر كلاسيكي؟ الأثر الكلاسيكي مرجا على الدوام. نقر بالأثر الكلاسيكي دوماً بأثر رجعي. نتحدث عن الأثر الكلاسيكي، ولكن لم يره أحد».

لقد حاولوا نقل استبدادية الحكم المطلق للويس الرابع عشر إلى تيار جمالي قائم على النظام والوحدة والانسجام، على عكس قلاقل فترة التمرد الذي سبقته.

يقول سيمون في نفسه، بالأخذ في الحسبان كل الأمور بأن هذا المتخلف من جنوب إيطاليا ذا الملابس المتدلية القصيرة، يعرف الكثير في التاريخ والفن وتاريخ الفن.

يستمع سيمون إلى الترجمة الفورية باستخدام سماعته: «لكن لا يوجد مؤلفون كلاسيكيون... في الوقت الحالي... التسمية الكلاسيكية... إنها مجرد

عصا القيادة المارشالية التي تقدمها الكتب المدرسية.»

وختم الإيطالي قائلاً: «الباروك يوجد هنا، الكلاسيكية، لا وجود لها».

تصفيقات حارة من الجمهور.

يشعل بايارد سيجارة بعصبية.

يتكئ سيمون على منضدته.

كان لديه الخيار بين إعداد خطابه، بينما كان الإيطالي يتحدث، أو يستمع إليه بانتباه، ليرد على خطابه، وفضل سيمون الخيار الثاني الأكثر هجومية.

« إن القول إن الكلاسيكية غير موجودة، يعني القول إن مدينة البندقية غير موجودة.»

إنها حرب إبادة إذن، كما كان هو الحال في معركة ليبانت.

من خلال استخدام كلمة «كلاسيكية classicisme «يدرك خصمي أنه يقع في مغالطة تاريخية، لكنه لا يبالي بذلك، على أيّ حال، الباروك والأثر الكلاسيكي هما مفهومان تم تشكيلهما لاحقاً، مفهومان في حدّ ذاتهما ينطويان على مغالطات تاريخية، وقد تم استحضارهما للتأكيد على حقائق نسبية مشكوك فيها.

«ولاسيما أن من الغرابة بمكان أن يتم النطق بهذه الكلمات هنا، في هذا المبنى، لافينيس، مسرح العنقاء، هذه الجوهرة الكلاسيكية الجديدة.»

يستخدم سيمون كلمة «جوهرة» عن قصد. لديه بالفعل خارطة طريق للهجوم، وهذا يعني أيضاً على وجه السرعة شطب جزيرة جيوديكا وسان جورجيو من الخارطة. يلتفت سيمون إلى خصمه. «هل المعماري أندريا بالاديو لم يوجد من قبل؟ هل كنائسه الكلاسيكية الجديدة هي أحلام ورؤى باروكية؟ يرى منافسي المحترم الباروك في كل مكان، وهذا من حقه ولكن...»

من دون التداول فيما بينهما اتفق الخصمان على نوع الموضوع: التحدي، هو مدينة البندقية. البندقية أثر باروكي أم كلاسيكي؟ إن البندقية هي التي

ستؤكد صحة الأطروحة أو نقيضها.

توجه سيمون نحو الجمهور، وأنشد يقول: «النظام والجمال، والترف والهدوء والمتعة: هل ثمة بيت شعري غير هذا أنسب لوصف البندقية؟ والآن، هل هناك تعريف أفضل للكلاسيكية؟ وماذا عن رولان بارت، بعد بودلير: أعمالهم هي آثار كلاسيكية بامتياز. والثقافة (كلما ازداد نتاج الثقافة، كلما كانت اللذة كبيرة ومتنوعة). الذكاء، والسخرية، والحساسية الفنية، والنشوة، والسيادة، والأمن، وفن العيش.» يقول سيمون: «هذه هي مدينة البندقية».

يوجد الأثر الكلاسيكي، وهو في موطنه في فينيسيا. وهذه هي الطامة الأولى والطامة الثانية: يكشف سيمون أن الخصم لم يفهم الموضوع.

«لقد أساء خصمي المحترم الفهم: ليس الموضوع هو الباروك أو الكلاسيكية، بل الباروك والكلاسيكية. فلماذا يقيم تعارضاً بينهما؟ إنهما الين واليانغ la yin et e yang الدائرة التي تشكل فينيسيا والكون، إنهما مثل أبولو إله العقل فائق الجمال وديونيسوس الشهواني، السامي والبشع، العقل والعاطفة، راسين وشكسبير.» (لا يخوض سيمون بالتفصيل في هذا المثال، لأن ستندال كان يفضل بوضوح شكسبير مثله هو أيضاً بالمناسبة.)

فالمسألة ليست مسألة إثارة المعماري بالاديو ضد القباب البصيلية في كاتدرائية القديس ماركو. أترون، كنيسة المخلّص le redentore من تصميم أندريا بالاديو؟ «نظر سيمون بعيداً في القاعة كما لو كان يتخيل ضفة جزيرة جيوديكا.» من ناحية، طراز بيزنطي وقوطي مشع من الماضي (إذا جاز لي قول ذلك)، ومن ناحية أخرى، طراز اليونان القديمة، وقد عاد للظهور عبر عصر النهضة والإصلاح المضاد. لا شيء يذهب هباء في نظر المُناظر سيمون، ابتسم سيمون، وهو ينظر إلى كريستيفا التي تدرك معاني كلماته، ونفث دخان سيجارته تعبيراً عن الرضا، وهو يربت بيده على الخشب المذهب لمقصورته.

خذ مسرحية «السيد» للكلاسيكي بيير كورني، ملهاة مأساوية ذات

صفات باروكية شبه شطارية في فترة إخراجها في مرحلتها الأولى، ثم سرعان ما تم تصنيفها ثانية، بوصفها تراجيديا كلاسيكية (بصعوبة) حين لم تعد التصورات التجنيسية صيحة رائجة. القاعدة، الوحدات، الإطار؟ لا بأس، مسرحيتان جُمعتا في عمل واحد، المسرحية نفسها مع ذلك، باروك ذات يوم، كلاسيكية في اليوم الموالي.

لدى سيمون العديد من الحالات الأخرى المثيرة للاهتمام على سبيل المثال، لوتريامون، شاعر الرومانسية المظلمة الذي تحول إلى إيزيدور دوكاس، المدافع غريب الأطوار عن الكلاسيكية المتحولة في أناشيده الشعرية - النثرية، لكن سيمون لا يريد أن يبتعد عن الموضوع: «تقليديون بلاغيون كبار: الخاصية الأتيكية [اليونانية] والخاصية الآسيوية الشرقية. من جهة، الوضوح الدقيق للغرب» كل ما يتم تصوره على نحو جيد يتم التعبير عنه بوضوح. «عبارة الكاتب الكلاسيكي بوالو، ومن جهة أخرى، التحليقات الغنائية والزخارف وغزارة التعابير المجازية للشرق الشهواني والمتشابك.»

يعرف سيمون جيّداً أن الخاصية الأتيكية اليونانية والخاصية الآسيوية الشرقية هي مفاهيم لا ترتكز على أسس جغرافية واقعية، في الأغلب استعارات عابرة للتاريخ، ولكن في هذه المرحلة، يعرف سيمون أن هيأة التحكيم تعرف أنه يعرف، وبالتالي ليس في حاجة لتوضيح ذلك.

«وماذا عن التقاء الاثنين؟ البندقية، ملتقى الكون! البندقية، مزيج من البحر والأرض، الأرض فوق البحر، الخطوط المستقيمة والمنحنيات، الفردوس والجحيم، الأسد والتمساح، القديس ماركو وكازانوفا، الشمس والضباب، الحركة والخلود!»

يأخذ سيمون استراحة أخيرة، قبل أن ينهي خطابه بشكل نهائي: «الباروك والكلاسيكية؟ الدليل: مدينة البندقية.»

تصفيقات حارة.

يريد الإيطالي أن يقوم بهجوم مضاد من دون إبطاء، لكن سيمون حرمه من حصيلة الموضوع، من صياغة توليفة لعرضه، لذا تصرف بشكل مخالف

ومناقـض لطبيعتـه. يتحول مباشرة، باللغة الفرنسـية، الـشيء الذي أعجب سـيمون، لكـن فسره على أنـه علامة عـلى انفعال عصبـي: «لكـن القول إن البندقية، هي البحر! فالمحاولة الجدلية البائسة لخصمي لا تغير في الأمر شيئاً. فالعنصر السائل هو الباروك. المتين والثابت، هو الأثر الكلاسيكي. البندقية هي البحر!» حينئذ تذكر سيمون كل ما تعمله أثناء إقامته، البوقنطور، الخاتم الملقى إلى البحر وقصص أمبرتو إيكو: «كلاّ، البندقية هي زوج البحر، وهذا ليس نفس الأمر».

مدينـة الأقنعة، الزجاج اللامع، الفسيفسـاء المتلألئة، المدينة الغائصة في البحيرة! مدينة البندقية، هي الماء، والرمل والطين!

والحجر، يوجد الكثير من الرخام.

الرخـام، إنـه البـاروك! إنـه مُثلم بخطـوط متعرقـة، ولديـه الكثير من الطبقات بداخله ويتكسر طوال الوقت.

«لكـن كلاّ، الرخـام، إنـه كلاسـيكي، في فرنسـا، نقـول منقـوش عـلى الرخام.»

الكرنفال! كازانوفا! كاغليو سترو!

نعـم، كازانوفا، في اللاشـعور الجمعي، هو ملك البـاروك بامتياز. لكنه آخر الملوك.

ندفن في المجد والانتصار عالماً قد ولّى وانقضى.

لكـن، هناك تكمن هويـة البندقية: احتضار أبـدي. القرن الثامن عشر، هو البندقية.

يشـعر سيمون أنه يتقهقر، ولن يكون بوسـعه الدفاع طويلاً عن مفارقة البندقيـة الصلبـة والمسـتقيمة، لكنه يتابـع باسـتمرار: «كلاّ، البندقيـة القوية المهيمنة، فينيسيا، القرن السادس عشر، قبل اندثارها وتفككها».

«إن العصر الباروكي الذي تدافع عنه هو الذي جعلها تموت.»

لكن الإيطالي لم يستسلم: «لكن التفكك هو سمة البندقية! وهويتها على

وجه التحديد الانعطاف الحتمي نحو الموت».

لكـن البندقيـة يجب أن يكون لهـا مسـتقبل! والباروك الـذي تصفه هو الحبل الذي يُلف حول عنق المشنوق.

صـورة باروكية أخرى. في البدء، تعترض، ثم بعد ذلك تدين، لكن كل شيء يعيـدك إلى البـاروك، كل شيء يثبـت أن روح عـصر البـاروك هي التي صنعت عظمة المدينة.

يشـعر سـيمون بخصـوص البرهنـة المنطقيـة الخالصة أنـه يتحدث عن متواليـة سرديـة مـن الأحـداث يُغلب فيها عـلى أمره، لكن لحسـن الحظ، لا تتألـف البلاغة فقط مـن المنطق، لذلك يلعب سـيمون بورقة العاطفة: يجب أن تعيش البندقية.

«ربما الباروك هو هذا السم الذي يقتلها ويجعلها دوماً أكثر جمالا بقتلها. (يجـب تجنـب التنازلات، قال سـيمون في نفسـه باطنياً.) لكـن خذ مسرحية «تاجر البندقية» لشكسـبير: من أين يأتي الخلاص؟ من النسـاء اللائي يعشن في جزيرة: على الأرض!»

هتـف الإيطـالي ظافراً: «أتتحدث عن شـخصية (بورشـيا؟) المرأة التي تتخفى في زيّ رجل؟ لكن هذا، تماماً فن باروكي! بل إنه انتصار على عقلانية شـيلوك ضيقة الأفق، وعلى القانون الذي يحتمي به شـيلوك للمطالبة برطل من اللحـم، وهو ثمن باهظ. هذا التأويل الاسـتحواذي المتصلب للخطاب عنـد تاجـر البندقية، وهنـا، يتجلى التعبـير عن اضطراب عصبي كلاسـيكي أصولي (إذا جاز لي القول.)»

يشـعر سـيمون أن الحضور ثَمّن عالياً جـرأة العبارة، ولكـن في الوقت نفسـه، يـرى أن خصمـه لا يتكلـم بطريقة منطقية حـول شـيلوك معبراً عن مغالطات، وأن ذلك من حسـن حظ سـيمون؛ لأنه بنفسه بدأ يشعر بانزعاج شـديد مـن الموضوع المفروض: عادت شـكوكه ووساوسـه حـول الصلابة الأنطولوجية لحياته تعكر صفو مزاجه، في لحظة يحتاج فيها إلى كامل تركيزه. يسـارع سـيمون لتنفيذ خطته باسـتخدام أدواته حول شكسبير («الحياة ممثل

بائس يتحرك طيلة وقته، ويستعرض على المسرح») لماذا خطرت بذهنه هذه العبارة الآن على وجه التحديد؟ من أين جاءت العبارة؟ يجاهد سيمون لإرجاء السؤال إلى وقت لاحق: «بورشيا هي بالتحديد هذا المزيج من الجنون الباروكي والعبقرية الكلاسيكية التي أتاحت لها دحر شيلوك، على عكس الشخصيات الأخرى، من خلال اللجوء إلى المشاعر، وأيضاً الحجج القانونية الجازمة، وغير القابلة للجدل، بعقلانية نموذجية قائمة على البرهان والدليل، حتى إنها حملت شيلوك على تغيير رأيه: «رطل من اللحم، أجل، يمنحك إياه القانون، ولكنه لا يعطيك الحق في أكثر من ذلك، فينزف المدين دما.» في تلك اللحظة تم إنقاذ أنطونيو من خلال حيل استعراضية قانونية: ملحمة باروكية بالتأكيد، لكنه باروك كلاسيكي.

استشعر سيمون تأييد الجمهور وإقراره. أدرك الإيطالي أنه خسر زمام المبادرة، لذا يحاول تفكيك ما يسميه «التلافيف والانعطافات الخادعة المثيرة للشفقة» التي لجأ إليها سيمون، لكنه ارتكب في المقابل هفوة صغيرة. لشجب الدوران المنطقي المريب لسيمون، تساءل الإيطالي: «لكن، من الذي قرر بأن القانون كان قيمة كلاسيكية؟»، على الرغم من أن هذا هو ما افترضه بنفسه في حجته السابقة. لكن سيمون مرهق جداً، ومتشتت الذهن أو جلّ تركيزه منصب على شيء آخر، فوّت فرصة تسليط الضوء على هذا التناقض، واستطاع الإيطالي، أن يتابع قائلاً: «ألا نلمس هنا الحدود والقيود التي تشوب نظام خصمي؟»

ووجّه الإيطالي ضربته قائلا: «ما يفعله محاوري المحترم، أمر في غاية البساطة: يفرض خصمي بالقسر أوجه التماثل والتقارب.»

هُوجم سيمون الآن في النقطة التي يتفوق فيها ببراعة في الميتا – خطاب (خطاب شارح)، ويدرك أنه إذا رضخ لخصمه، فإنه يكون قد عرّض نفسه لتلقي هزيمة في عقر داره، لذلك يستميت بعناد في الدفاع عن مرماه: «دفاعك عن البندقية عالق ومحاصر. وكان لابد من إعادة صياغته من خلال مصاهرة، وبورشيا هي هذه المصاهرة: هذا المزيج من الدهاء والبراغماتية.

عندما أوشكت البندقية على الضياع خلف أقنعتها، جلبت بورشيا من جزيرتها جنونها الباروكي وحِسّها الكلاسيكي السليم.»

يواجه سيمون صعوبة بالغة في التركيز، ويفكر في سحر وهيبة القرن السابع عشر، في سرفانتس مقاتلاً في معركة ليبانت، في دروسه حول جيمس بوند في جامعة فينسين، في طاولة التشريح، في المسرح التشريحي في مدينة بولونيا، في مقبرة إيثاكا، في آلاف الأشياء في الوقت نفسه، ويدرك أنه لن يتمكن من الانتصار، إلا إذا تغلّب، وهو على حافة هاوية سحيقة، كان من الممكن أن يجدها ممتعة في ظروف أخرى، على هذا الدّوار الباروكي الذي يعترِي كيانه.

قرر سيمون أن يختتم بنفسه المتوالية السردية حول شكسبير التي يعتقد أنه ناقشها على نحو سليم وشحذ كل قوته الذهنية لتغيير الموضوع، ليجعل خصمه يحيد عن مسار الميتا - خطاب (الخطاب الشارح) الذي بدأ هذا الأخير يتعمق في البحث فيه، وحيث لأول مرة، لا يشعر سيمون بالأمان.

وأضاف سيمون كلمة أخرى: «السيرنيسيما، جمهورية البندقية».

وبهذا القول، أجبر سيمون خصمه على التصدي والرد، وقطع عليه المتوالية البلاغية الخطابية التي كان على وشك بنائها، فرد الإيطالي محتجاً بعد أن خسر زمام المبادرة من جديد: «جمهورية البندقية، هي الباروك!»

في هذه المرحلة من الارتجال، يطيل سيمون الجدال، ويدلي بكل ما يتبادر إلى ذهنه: «يتوقف الأمر على عدة أشياء. ألف سنة من الدوقات، doges على أيّ حال، ومؤسسات راسخة. وسلطة حازمة، وكنائس في كل مكان: فالإله ليس باروكياً، كما قال أينشتاين. نابليون، على خلاف ذلك، (واستحضر سيمون عن قصد الشخص الذي كان حفّار القبور لجمهورية البندقية): ملك مطلق لكنه كان يتغير وينفتح باستمرار. باروكي جدّاً، ولكن أيضاً كلاسيكي للغاية، الأول من نوعه.»

يريد الإيطالي أن يرد، لكن سيمون قاطعه قائلاً: «آه، هذا صحيح، لقد نسيت: لا وجود لأثر كلاسيكي، وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي تحدثنا عنه

منذ نصف ساعة؟» حبَس الجمهور أنفاسه، وتلقى الخصم صفعة قوية.

ثمِلان من جراء الجهد والتوتر العصبي، بات الرجلان يجريان المناظرة بطريقة عشوائية في الواقع، وخلفهم، يشعر أعضاء لجنة التحكيم الثلاثة أنهم قدموا كل ما في جعبتهم، لذلك أنهوا المُناظرة.

كتم سيمون الشعور بالارتياح، والتفت نحو أعضاء لجنة التحكيم. يدرك أن هؤلاء المحلفين الثلاثة الذين شاركوا في التحكيم في هذه الأمسية هم بالضرورة سفسطائيين بما أن هيأة التحكيم عادة ما تتكون من أعضاء أفضل مرتبة من المناظرين الذين يتعين عليهم اختيار الفائز من بينهم.) يرتدي الثلاثة جميعهم أقنعة فينيسية، مثل مهاجميه، وفهم سيمون ميزة تنظيم اللقاءات خلال فترة الكرنفال: فهذا يتيح المحافظة على كتمان هويتهم في سرّية تامة.

يشرع أعضاء لجنة التحكيم في التصويت في صمت مطبق.

يصوت العضو الأول لصالح سيمون.

يصوت العضو الثاني لصالح خصمه.

وبالتالي، فإن الحُكم في نتيجة المقابلة يقع بين يدي العضو الأخير. يحدق سيمون في شكل اللوح المُحمر بدماء أصابع المنافسين السابقين. يسمع سيمون همسات في القاعة التي تستضيف التصويت الثالث، ولم يجرؤ على رفع رأسه. النادر لا حكم عليه، ولم يتمكن من تأويل هذا الهمس.

لم يمسك أيّ أحد بالساطور الموضوع على الطاولة.

صوت العضو الثالث لصالحه.

انهار خصمه. ولن يفقد إصبعه، لأنه وفقاً لقواعد نادي اللوغوس، وحده المتحدي يراهن برأس المال الإصبعي، لكنه كان يتمسك برتبته ويصعب عليه أن يتحمل، على ما يبدو، الانخفاض بدرجة أقل.

وبذلك تمّت ترقية سيمون إلى رتبة خطيب شعبي تحت تصفيقات الجمهور. والأهم من ذلك، تسلّم رسمياً دعوة لشخصين بحضور لقاء

القمـة في اليوم الموالي. تحقق سـيمون مـن التوقيت والمـكان، وحيّا الجمهور مـرة أخرى، والتحق بجـاك بايارد في مقصورته، بينما بـدأت القاعة تخلو من الحاضرين (لأن لقاءه، الحدث الأبرز للأمسية، تمت برمجته في نهاية الأمسية).

في المقصورة، يطّلع بايارد على المعلومات المُشـار إليها في بطاقة الدعوة، ويشعل سيجارة، كحد أدنى، السيجارة الثانية عشرة في الأمسية. أطل رجل إنجليزي من الباب لتهنئة الفائز: «مباراة رائعة، كان الرجل عنيداً.»

نظـر سـيمون إلى يديـه التي ترتجف قليلا، وقال: «أتسـاءل عـما إذا كان السفسطائيون أشدّ قوة بكثير.»

92

وراء سـوليرز يوجد رسـم الفـردوس «لوحة عملاقة للرسـام الإيطالي تينتوريتو، الذي فاز، هو أيضاً في زمنه بمسـابقة لتزيين مجلس القاعة الكبرى في بلاط الدوقات».

تحـت اللوحة، توجد منصة كبيرة لا يجلس عليها فقط ثلاثة أعضاء، بل عشرة أعضاء في لجنة التحكيم: مجموع السفسطائيين بكامل عددهم.

أمـام أعضاء اللجنة البالغ عددهم عـشرة، يتقابل لاعبان أمام الجمهور بروتاغوراس الأكبر شخصياً، وفيليب سوليرز متكئاً على منضدة.

يرتـدي أعضاء اللجنة العـشرة والمتناظران الاثنان أقنعة فينيسـية لكن، سيمون وبايارد تعرّفا بسهولة على سوليرز، فضلا عن ذلك، رصدا كريستيفا بين الجمهور.

عـلى خلاف مبنـى مسرح العنقاء، هنـا يقف الجمهور، محتشـداً في قاعة ضخمة صُممت في القرن الرابع عشر، لاسـتيعاب أكثر من ألف من النبلاء: ثلاثة وخمسـون متراً طولا مسطحة بسـقف يدفع المرء إلى التساؤل عن كيفية انتصابـه من دون أن يسـنده أي عمود، مرصـع بمجموعة كبيرة من لوحات السادة. اللوحات الكلاسيكية.

سادت في القاعة أجواء كان لها وقع على الجمهور، حيث ترددت همسات تَوّجُس في الأرجاء. يهمس الجميع في هدوء تحت نظرات لوحة الرسام تينتورتيو وفينوريس.

وقف أحد أعضاء اللجنة وأعلن باللغة الإيطالية رسمياً عن انطلاق اللقاء، وأخرج الموضوع من أحد الصندوقين الموضوعين أمامه.

«On forcène doucement / نُعنف بلطف ورفق.»

يبدو أن الموضوع باللغة الفرنسية، لكن بايارد يلتفت نحو سيمون الذي يومأ له بأنه لم يفهم جيداً.

سادت موجة من الحيرة في أرجاء القاعة. يتحقق المتفرجون غير الناطقين بالفرنسية من أن جهاز الترجمة الفورية مضبوط على المسار الصحيح.

إذا كان سوليرز، قد ظهرت عليه لبرهة علامات تردد، فإنه بدا طبيعياً وهادئاً. على أيّ حال، في القاعة، لم تتزحزح كريستيفا من مكانها.

لدى سوليرز خمس دقائق لفهم الموضوع، وأشكَلَته، واستخلاص أطروحة والدفاع عنها بحجج متماسكة، وإذا أمكن، حجج مذهلة.

وفي غضون ذلك، يستفسر بايارد من الأشخاص المتجاورين معه: ما هذا الموضوع غير المفهوم؟

يشرح له عجوز وسيم يرتدي ملابس أنيقة وكيساً حريرياً يتناسب مع وشاحه: «لكن، الشخص الفرنسي يتحدى بروتاغوراس الأكبر، فلا يجب أن يتوقع موضوعاً من قبيل مع أو ضد عقوبة الإعدام، أليس كذلك؟

أومأ جاك بايارد بالموافقة، لكنه يسأل لماذا الموضوع باللغة الفرنسية؟

رد الرجل العجوز: «إنها كياسة ولباقة من بروتاغوراس الأكبر، يقول إنه يتحدث جميع اللغات.»

- أليس فرنسياً؟

- كلاّ، إنه إيطالي، هيه!

ينظر بايارد إلى بروتاغوراس الأكبر الذي يدخن غليونه بهدوء خلف

قناعـه، ويكتب بعـض الملاحظات. قامته، مظهره، وشـكل فكه (لأن القناع يغطي العينين فقط) سمات تعني شيئاً لجاك بايارد، وتبدو مألوفة له.

عندمـا انتهت الدقائق الخمس، نهض سـوليرز، وحـدق في القاعة، قام بحركـة جسـدية مسـتديراً خلفـه، كما لـو كان يرغـب في التأكد مـن وجود، الأعضـاء العشرة خلـف ظهره، وانحنى بتحفظ إلى حـد ما في اتجاه خصمه، وشرع في خطابه، الخطاب الذي يعرف أنه سيبقى في السجلات والحوليات، بوصفه خطاب فيليب سوليرز في مواجهة بروتاغوراس الأكبر.

«يُعنـف forcéne ... يعنـف forcéne قـوي... المشـهد... ما عدا... نهر السـين... فـور (فيليكـس)... العشـاء الأخير. تـوفي الرئيـس فيليكس فور بسـبب مص جنسي وسـكتة قلبية، الشيء الذي جعلـه خالداً في التاريخ وخارج المشهد. كمقدمة تمهيدية... مقبلات... استهلال (ها ها!) ...»

يقول سـيمون في نفسـه إن سـوليرز ينهـج مقاربة لاكانيـة (Jacques Lacan) جريئة.

ينظر بايارد إلى كريستيفا بطرف عينيه. لا تُفصح تعابير وجهها عن شيء باستثناء الانتباه الشديد.

«القوة والمشـهد. القوة خشـبة المسرح. رودريغو مـا الأمر. غابات. نهر السـين. مقاطعـة فال دو مـارن. يقال إن الغربـان لا تزال مُسـمّرة هناك على الأبواب!) أن تمسك بقضيب القائد أو لا تمسك؟ ذاك هو السؤال.»

نظر بايارد إلى سـيمون في تسـاؤل واستفهام، حيث شرح له هذا الأخير بصـوت خافـت أن سـوليرز عـلى ما يبـدو اختـار تكتيـكاً جريئـاً، يكمن في اسـتبدال الروابـط المنطقية بروابـط تناظرية أو بالأحرى تجـاور الأفكار، بل تسلسل الصور، بدلاً من البرهنة الخالصة.

يحاول بايارد أن يفهم هل هو باروك أيضاً؟

اندهش سيمون «آه، أجل، إن شئت.»

واصـل سـوليرز قائـلاً: «مـا عدا المـسرح: خـارج المسرح؛ ذلـك فعل

فاحش. كل شيء هنا. البقية ليست ذات فائدة، بالطبع. المقال المُدوّي حول سوليرز الفاحش. للكاتب مارسلين بلنيت؟ بلا تردد حسناً، ماذا. يا للهول! برفق... من أين ...البذور ...من أين تأتي البذور؟ من الأعلى هناك، بطبيعة الحال! (يشير بإصبعه إلى السقف لوحات فيرونيس.) الفن هو بذور الإله. (يشير إلى الجدار خلف ظهره) تينتوريتو هو مبعوثه... في الحقيقة، يتخبط في الفخ... طوبى للزمن الذي سيحل فيه مجدّداً الجرس والشبكة محل المنجل والمطرقة... ففي نهاية المطاف، أليسا هما أداتا الصياد؟ »

هل يعتقد بايارد أنه يرى معالم القلق مرتسمة على وجه كريستيفا السلافي visage slave؟

«لو استطاعت الأسماك أن تتنفس خارج الماء، لأمكنها أن تدرك أن عالمها ليس العالم الوحيد...»

يعتقد سيمون أن استراتيجية سوليرز حقاً جريئة للغاية.

همس بايارد في أذن سيمون متسائلاً: «يبدي تصرفات سينمائية. أليس كذلك؟»

يهمس لهم الرجل العجوز ذو الحقيبة قائلاً: «شجاع هذا الفرنسي، لديه خصيتان وفي الآن نفسه، هذا هو الوقت الملائم لاستخدامها.»

يطلب منه بايارد أن يوضح تحليله.

رد الرجل العجوز: «من الواضح أنه لم يفهم الموضوع، لم يفهم أكثر مما فهمنا، أليس كذلك؟ لذلك فهو يحاول أن يتعاظم بالمظهر – à l'esbroufe– كما نقول بالفرنسية؟ إنه شجاع.»

وضع سوليرز مرفقه على المنضدة، الشيء الذي أجبره على الانحناء قليلاً بصدره إلى الأمام، ولكن من الغريب، أن هذه الوضعية غير طبيعية جعلته يبدو إلى حدّ ما هادئاً.

«جئت رأيت تقيأت.»

«تَسَارع فن تأليف الجمل لدى سوليرز، وأصبح أكثر مرونة، وأشبه

بجمـل موسـيقية: إن الله قريـب حقاً من دون غمـوض، خارقاً برفـق، قوياً بلطـف سر كـف الجحيم... ثم قـال هذا الشيء الذي وجده سـيمون وحتى بايـارد غريبـاً: إن الإيـمان بدغدغة العضو تتيـح الحفاظ على الجسـد، بكونه القيمة الأساسـية الوحيدة. وبقوله لهذه العبارة، مرر سوليرز بشهوانية لسانه على شفتيه. واستطاع آنذاك أن يرى بايارد توتراً واضحاً في محيّا كريستيفا.»

وفي لحظة ما، قال سوليرز (وقال سيمون في نفسه إنه بشكل ما يبوح هنا بسره): «من القضيب إلى الروح du coq à l'âme».

استكان بايـارد في هدوء، وقـد تملكه الإيقـاع مثل النهـر المتدفق الذي يطرق فيه بين الفينة والأخرى قطع خشبية صغيرة زورقا متهالكا.

«...هل اسـتمتعت روح المسـيح الخالصة في شـغفها بالنعيـم. يبدو أن الأمر ليس كذلك لعدة أسـباب، إذ أليس من المستحيل أن نعاني ونستمتع في الآن نفسه؛ لأن الألم والفرحة يتعارضان وقد أشار أرسطو أن الحزن العميق لا يمنع مع ذلك اللذة بل بالعكس...»

يسـيل لعاب سـوليرز أكثر فأكثر لكنه يسـتمر، مثل آلـة ألفريد جاري: «أغير الشكل الاسم الرؤيا اللقب أنا الشيء نفسه أتحور تارة إلى قصر تارة إلى كوخ فرعون حمامة أو كبش... تَغيّر الشكل تمادٍ صعود...»

ثـم ينتقل إلى خطابه، يشـعر الجمهور بذلك لأنه تعـذرت عليه متابعته، سأكون ما سأكون عليه، يعني اهتموا بما أنا عليه، ما دمت أنا فيما أنا عليه من دون أن تنسوا أني الآثار التي خلفتها إذا كنت غداً سأكون ما أنا عليه إلى الحد الذي سأصبح عليه...»

أعرب بايارد عن اسـتغرابه إلى سـيمون «هل هذه هي الوظيفة السـابعة للغة؟»

يشـعر سـيمون بالبارانويا تصيبه، ويعتقد أن شـخصية مثل سـوليرز لا يمكن أن توجد بشكل حقيقي على أرض الواقع.

ختم سوليرز بشكل قاطع: «أنا نقيض الرجل الألماني – السوفياتي.»

خيّم على القاعة ذهول رهيب.

حتى بروتاغوراس الأكبر بدا مندهشاً وعاجزاً عن الكلام. همهم، منزعجاً إلى حد ما. ثم أخذ الكلمة، لأنه جاء دوره للحديث.

تعرف سيمون وجاك بايارد على صوت أمبرتو إيكو.

«لا أدري من أين أبدأ، طالما خصمي المحترم، همهم، استخدم جميع الأسلحة، أليس كذلك؟»

توجه إيكو نحو سوليرز وانحنى بأدب، وهو يضبط بإحكام أنف قناعه.

ربما كان في وسعي أن أدلي بملاحظة صغيرة عن أصل الكلمة، أولاً؟ من المؤكد أنكم لاحظتم، أيها الحضور الأعزاء، أعضاء لجنة التحكيم المحترمون، أن الفعل عنّف forcener لم يعد موجوداً في اللغة الفرنسية الحديثة، أثره الوحيد الباقي يوجد في الاسم «محتدforcené» الذي يشير إلى كائن مجنون يتصرف بعنف.

والحالة هذه، فإن هذا التعريف للاسم «محتد forcené» قد يضلّلنا. في الأصل - دعوني أدلي بتدقيق إملائي بسيط - تمت كتابة الفعل عنّف forcener بحرف» S / forsener «، وليس بحرف» «C / forcener»؛ لأن هذا الكلمة تنحدر من اللاتينية«sens» ،«senseus» إحساس، شعور، حيوان محتد، جامح - استشاط غضباً، وهذا يعني حرفياً «خرج عن طوره»، وبالتالي أصبح مجنوناً، ولكن لم تكن هناك، في البداية دلالة على عنف قوي.

وبهذا القول، كان يجب أن تظهر هذه الدلالة تدريجياً مع إصلاح الكتابة الإملائية الذي قدم تأثيلاً (اشتقاقاً) خاطئاً في الأصل، وأود أن أقول على هذا النحو، إنه اعتبارا من القرن السادس عشر، كان هذا الإملاء مشهوداً، ومثبتاً في فرنسية نهاية العصر الوسيط.

لذلك، فالسؤال الذي كنت سأناقشه، لو أن خصمي الموقر كان قد أثاره، سيكون كالتالي: «هل يُعنّف المرء بلطف ورفق»، هو إرداف خلفي، ضديدة،

طِباق؟ كلاّ، إذا تأملنا في أصل الكلمة الحقيقي لفعل عنّف « forcene».

- وأجل، إذا قبلنا دلالة القوة في الاشتقاق الزائف.

أجل، لكن هل «لطيف» و«قوي» يتعارضان بالضرورة؟ يمكن ممارسة القـوة بلطف، على سـبيل المثـال، عندما يجرفك تيار النهـر، أو عندما تضغط برفق على يد حبيبتك...

يـتردد صـدى النـبرة الغنائيـة في أرجـاء القاعـة الكبرى، لكـن الجميع استشـعر حدة الهجوم العنيف: في شكله المتسـامح، سلط إيكو الضوء بشدة على أوجه القصور في خطاب سـوليرز من خلال إعادة بناء النقاش بمفرده، والذي لم يتمكن خصمه من وضع أسس سليمة له.»

«لكن كل هذا لا يخبرنا عمّا يدور حوله الموضوع، أليس كذلك؟»

سـوف أكون أكثر تواضعا من خصمي الذي سـعى إلى تقديم تأويلات جريئة للغاية، وأعتقد عذراً، أنها تأويلات اسـتيهامية إلى حدّ ما لهذه العبارة. من جهتي أنا، سأحاول فقط أن أشرح لكم، إذا سمحتم: إن الشخص الذي «يُعنف بلطف ورفق» هو الشـاعر، أجل. إنه غضب الشـاعر. لسـت متأكداً مـن قـال هذه العبـارة، لكـن أود أن أقول إنه شـاعر فرنسي عـاش في القرن السادس عشر، تلميذ لجان دُورا وعضو في جماعة الثّريا (لابلياد)، لأننا نشعر هنا، في هذا التعبير، بتأثير الأفلاطونية الجديدة.

بالنسبة إلى أفلاطون، كما تعلمون، الشعر ليس فناً، وليس تقنية، إنه إلهام إلهي. فالشاعر مسكون بإله، في درجة ثانية: هذا ما يشرحه سقراط في حواره الشـهير مع أيون. وبالتالي، فالشاعر مجنون، لكنه جنون جميل، جنون خلاّق، وليس جنونا هداماً أو مدمراً.

لا أعرف كاتب هذه المقولة، ولكن أعتقد أنه ربما يكون الشاعر بيير دي رونسـار أو دو بيلاي، الاثنان كلاهما، تلاميذ مدرسـة يتم فيها، بكل هدوء، تعنيف بلطف ورفق.

لذلك، هل يمكننا مناقشة مسألة الإلهام الإلهي، إذا رغبتم؟

لست أدري، لأنني لم أفهم تماماً ما يريد خصمي المحترم مناقشته.

ساد صمت في القاعة: فهم سوليرز أن الكلمة مُنحت له من جديد للحديث، وأبدى بعض التردد لبرهة من الوقت.

قام سيمون تلقائيا بتحليل إستراتيجية إيكو، والتي يمكن تلخيصها في مسألة واحدة: معاكسة سوليرز، وهذا يعني اعتماد روح متواضعة للغاية ومستوى واقعي في العرض يكتفي بالحد الأدنى والعمل على رفض أيّ تأويل خيالي أو استيهامي أو تفسير حرفي للغاية. من خلال الاستفادة من سعة اطلاعه وتبحره الذي يُضرب به المثل، اكتفى إيكو بالشرح من دون حجاج، كما لو كان يود أن يشدد على استحالة المناقشة إزاء الهذيان الجنوني لخصمه. الصرامة، والتواضع لتسليط الضوء على الاضطراب العقلي لمحاوره المصاب بجنون العظمة.

يتحدث سوليرز مرة أخرى، غير واثق من نفسه:

«أتحدث عن الفلسفة، لأن الموقف الأدبي يسعى اليوم إلى إثبات أن الخطاب الفلسفي يمكن دمجه في موقف الذات الأدبية شريطة أن تحقق تجربتها في التطلع إلى الوصول إلى الأفق المتعالي.»

لكن إيكو لا يجيب على أيّ شيء.

حينئذ، تملك سوليرز الذعر، فصاح قائلا: «كتب أراغون مقالا مدوياً عني! حول عبقريتي! وإلزا تريوليت! لدي الإهداء في عدة أعمال!»

خيّم صمت مريب.

قام أحد السفسطائيين العشرة بحركة، فجاء حارسان، يقفان عند مدخل القاعة، وأمسكا بفيليب سوليرز الذي أصابه الذهول وراح يحملق بعينيه ويصرخ «الدغدغة! هو هو هو! لا لا لا!»

يسأل بايارد لماذا لا يتم التصويت. يخبره الرجل العجوز أن الإجماع واضح في بعض الحالات.

طرح الحارسان الخاسر على الأرضية الرخامية أمام المنصة، وتقدم أحد

السفسطائيين يحمل مقراضاً كبيراً في يديه.

نزع الحارسان سروال سوليرز الذي يتخبط ويصرخ محاولاً التخلص تحت لوحة الفردوس للرسام تينتوريتو. يغادر سفسطائيون آخرون مقاعدهم للمساعدة في السيطرة عليه. يسقط قناع سوليرز في خضم الفوضى والبلبلة.

وحدها الصفوف الأمامية للجمهور أمكنها رؤية ما يحدث عند أسفل المنصة، لكن بقية الحاضرين في أرجاء القاعة يعرفون ما يجري.

ثبت السفسطائي ذو قناع منقار الطبيب خصيتي سوليرز بين شفرتي المقراض، وأمسك المقابض بقوة، بكلتا يديه، وحرك المقراض بقوة وقطع خصيتي سوليرز.

جفلت كريستيفا.

أطلق سوليرز صرخة غريبة، زعقة مدوية تلاها مواء طويل ارتد صداه في اللوحات الكلاسيكية وجلجل أرجاء القاعة.

التقط السفسطائي ذو منقار الطبيب الخصيتين ووضعهما في الجرة الثانية، حيث فهم سيمون وجاك بايارد حينئذ أنها كانت مخصصة لهذا الغرض. سيمون شاحباً سأل الشخص المجاور له: «إنه ليس إصبعاً، أليس كذلك؟ ثمن الخسارة، عادة؟»

يجيبه الرجل على أن ثمن الخسارة يكون إصبعا، عندما نتحدى مُناظراً يفوقنا برتبة واحدة فقط، لكن سوليرز أراد تخطي المراحل، ولم يشارك أبداً في أيّة مُناظرة وتحدى مباشرة بروتاغوراس الأكبر. « لذا هذه المرة، الخسارة مكلفة جدّاً.»

بينما يتم تقديم الإسعافات الأولية لفيليب سوليرز الذي يتلوى مُصدراً آهات رهيبة، استردت كريستيفا الصندوق الذي يضم الخصيتين وغادرت القاعة.

تبعها بايارد وسيمون.

بخطى سريعة عبَرَت كريستيفا ساحة سانت مارك وهي تحمل الجرة

بين ذراعيها. مازال الليل في أوله والمنطقة القائمة في المدينة لا زالت تعج بالمتسكعين، والبهلوانيين الذين يتكئون على ركائز خشبية، وآكلي النار، وكوميديين بأزياء تعود للقرن الثامن عشر يحاكون مبارزات بالسيف. سيمون وجاك بايارد يشقان طريقهما حتى لا يفقدا كريستيفا. تغوص في الأزقة الضيقة، تعبر الجسور ولا تلتفت وراءها أبداً. يمسكها من خصرها رجل يرتدي زي مهرج لتقبيلها، لكنها تطلق صرخة ثاقبة، وتتخلص منه كالحيوان ثم تنطلق بجرّتها، تعبر ساحة ريالتو. بايارد وسيمون غير متأكدين مما إذا كانت كريستيفا تعرف إلى أين ستذهب. من بعيد، في السماء، يُسمع دوي انفجارات الألعاب النارية. تتعثر كريستيفا في مشيتها، وكادت تسقط منها الجرة. يخرج بخار من فمها؛ لأن الجو بارد وتركت معطفها في قصر الدوقات. لكنها مع ذلك وصلت إلى مكان ما: وصلت إلى سفح كاتدرائية سانتا ماريا غلوريو سادي فراري، حيث يقيم على حد قول زوجها، القلب المجيد لجمهورية البندقية، مع قبر تيتيان ولوحته «عيد صعود العذراء بردائها الأحمر». في هذا الوقت، الكاتدرائية مغلقة لكن، على أيّ حال، لا ترغب كريستيفا في الدخول إليها.

إن الصدفة هي التي قادتها إلى هنا.

تقدمت كريستيفا في الجسر الصغير الذي يمتد إلى ريو دي فراري، وتوقفت في المنتصف. وضعت الجرّة على الحافة الحجرية. سيمون وجاك بايارد خلفها مباشرة، لكنهما لا يجرؤان على السير فوق الجسر، وقطع الخطوات القليلة للوصول إليها.

تستمع كريستيفا إلى ضوضاء المدينة، وتدير عينيها السوداويتين في المويجات التي شكلها النسيم الليلي. وبلل مطر خفيف شعرها القصير.

أخرجت من قميصها ورقة مطوية على أربعة.

انتاب بايارد دافع للقفز عليها وانتزاع الوثيقة منها، لكن سيمون أوقفه ممسكاً بذراعه. أدارت رأسها نحوهما، أغمضت عينيها وكما لو أدركت حضورهما وحدهما، وكما لو اكتشفت وجودهما، رمتهما بنظرة ملؤها الحقد،

نظرة جعلت بايارد يتحجر في مكانه، وبسطت الورقة.

كان الظلام دامساً لدرجة حال من دون رؤية ما يوجد هناك، لكن سيمون يعتقد أنه تمكن من رؤية حروف صغيرة متلاصقة. إن الورقة حقاً مكتوبة من كلا الجانبين.

وأخذت كريستيفا، بهدوء وببطء، في تمزيقها.

وبينما كانت تقوم بعملية التقطيع، كانت قطع الورق التي أصبحت صغيرة تحلق فوق القناة.

في النهاية، لم يبقَ سوى الرياح السوداء وصوت المطر الرقيق.

93

«لكن برأيك، جوليا كريستيفا، تعرف أم لا؟»

يحاول بايارد أن يفهم.

يبدو سيمون حائراً ومرتبكاً.

إن لم يكن سوليرز يدرك أن الوظيفة السابعة غير مجدية، فإن هذا الأمر يبدو وارداً وممكناً، لكن ماذا عن كريستيفا؟

«من الصعب الجزم بذلك. لقد كان من الضروري أن أقرأ الوثيقة.»

لماذا تخون زوجها؟ ومن ناحية أخرى، لماذا لم تستخدم بنفسها الوظيفة السابعة للتنافس؟

قال بايارد لسيمون:»ربما كانت مثلنا. ربما أرادت أن ترى أولاً، ما إذا كانت هذه الوظيفة فعالة.»

ينظر سيمون إلى حشود السياح وهم يتنقلون في حركة بطيئة في البندقية التي أخذت تفرغ، ينتظر هو وبايارد القارب المائي بحقيبتهم الصغيرة، وبما أن الكرنفال قارب من نهايته، فإن الطابور مزدحم، وعربات السياح تسلك طريق المحطة أو المطار، وصل قارب مائي لكنه ليس القارب المناسب، ما زال عليهما الانتظار.

سيمون، غارقا في التأمل، يسأل بايارد ما هو الواقع، بالنسبة إليك؟

بما أن بايارد لم يفهم بطبيعة الحال إلى ما يرمي إليه سيمون، يوضح هذا الأخير قائلاً: كيف تعرف أنك لست في رواية؟ كيف تعرف أنك لا تعيش في الخيال؟ كيف تعرف أنك شخصية واقعية؟ «

يتأمل بايارد سيمون بفضول صادق ويجيبه بنبرة متساهلة: «أنت غبي أم ماذا؟ الحقيقة هي ما نعيشه، هذا كل شيء؟ «

وصل قاربهم المائي وبينما يقوم بدوره للرسو، يربت بايارد على كتف سيمون قائلا: «لا تطرح الكثير من الأسئلة، هيّا.»

يتم الصعود على متن القارب في اندفاع غير منظم، حيث يقوم طاقم القارب بالتنمر على هؤلاء الحمقى من السياح الذين يصعدون إلى القارب برعونة بأمتعتهم وأطفالهم.

عندما صعد سيمون على متن القارب، حرك المكلف بالعد مزلاق الحاجز المعدني خلفه مباشرة، بعد البقاء في الرصيف أراد بايارد أن يحتج لكن الإيطالي أجابه غير مبال: «بيعت كل التذاكر.»

طلب بايارد من سيمون أن ينتظره في المحطة التالية، سيأخذ القارب الموالي، لوّح سيمون بإشارة وداع من أجل الضحك.

ابتعد القارب المائي. أشعل بايارد سيجارة. خلفه، سمع قهقهات. استدار ورأى الرجلين اليابانيين يتجادلان، قلقاً، اقترب منهما بايارد. قال له أحد اليابانيين باللغة الفرنسية: «لقد أُختطف صديقك للتو...»

استغرق بايارد بضع ثوان لمعالجة المعلومة.

بضع ثوان لا أكثر، ثم بوصفه شرطياً، طرح السؤال الوحيد الذي يجب أن يطرحه شرطي ما: «لماذا؟»

قال له الرجل الياباني الثاني: «لأنه فاز قبل البارحة.»

إن الإيطالي الذي هزمه سيمون هو رجل سياسي نابولي يتمتع بنفوذ قوي، ولم يستوعب هزيمته. بايارد على علم بالاعتداء بعد الأمسية في قصر كاريزونيكو. شرح له اليابانيان: لقد أرسل السياسي النابولي أتباعه لإبعاد

سيمون من دائرة التنافس، لأنه كان خائفاً منه، والآن بعد أن خسر المباراة يريد الانتقام.

ينظر بايارد إلى القارب المائي الذي يبتعد. يقوم بسرعة بتحليل الموقف، وينظر حوله، يرى تمثالاً من البرونز لأحد الجنرالات بشارب كبير، يرى واجهة مبنى المؤسسة الأسطورية دانييلي، ويرى قوارب متوقفة عند الرصيف. يرى جندولا على متن جندوله ينتظر السياح.

يقفز بايارد إلى الجندول مع اليابانيين. لم يندهش كثيراً صاحب الجندول ورحب بهم، وهو يغني بالإيطالية لكن بايارد قال له:

«اتبع ذاك القارب المائي!».

تظاهر صاحب الجندول بعدم فهمه لذلك أخرج بايارد مجموعة من الليرات، وبدأ صاحب الجندول في التجديف.

تقدم القارب المائي بثلاثمائة متر وفي عام 1981، لم يكن هناك هاتف محمول.

تفاجأ صاحب الجندول: هذا غريب، هذا القارب لا يسير في الاتجاه الصحيح، إنه يتجه نحو مورانو.

لقد تعرض القارب المائي للاختطاف.

على متن القارب، لا يدرك سيمون أي شيء، لأن الركاب يتكونون بالكامل تقريباً من السياح الذين لا يعرفون الطريق، وبالتالي بصرف النظر عن اثنين أو ثلاثة إيطاليين يحتجون باللغة الإيطالية على السائق، لا أحد يدرك أن الوجهة غير صحيحة. إن إيطاليا في مزاج سيئ لا يثير استغراب أحد، يقول الركاب إن هذا جزء من الفولكلور، ووصل القارب إلى جزيرة مورانو.

عن بعد، في الخلف، يحاول جندول بايارد اللحاق بركب القارب المائي، ويحث بايارد واليابانيين صاحب الجندول على التجديف بشكل أسرع ويصيحون باسم سيمون لتحذيره، لكنهم بعيدون جداً ولا يوجد لدى سيمون داع للانتباه إليهم.

من ناحية أخرى، يشعر سيمون فجأة أن سكين غرز في ظهره، ويسمع صوتاً خلفه يقول: «تفضل»، يفهم سيمون أن عليه النزول. يمتثل السياح، وهم في عجلة من أمرهم للحاق بطائرتهم، لا يرون السكين، وتابع القارب المائي طريقه.

يقف سيمون على الرصيف، إنه على يقين من أن الرجال الذين خلفه هم المهاجمون المعتدون الثلاثة الملثمون في تلك الليلة.

تم إحضاره إلى إحدى ورشات صانعي الأواني الزجاجية التي تطل مباشرة على الميناء. في داخل الورشة، يدلك صانع حرفي قطعة عجينة زجاجية خرجت للتو من الفرن، وسيمون، يتأمل، مندهشاً، الكرة المعجنة، المتنفخة، اللينة، المجسمة، التي تأخذ ببضع ضربات على رخامة معدنية، شكل حصان صغير متعثر.

بجانب الفرن، يقف رجل يرتدي بدلة متناسقة، بدين وأصلع، يتعرف عليه سيمون، إنه خصمه في مسرح العنقاء (لافينيس).

«أهلا وسهلا!»

يقف سيمون وجهاً لوجه أمام السياسي النابولي، خاضعاً لسيطرة الرجال الثلاثة الأتباع. يستمر صانع الأواني الزجاجية في تشكيل مجسمات أحصنته الصغيرة، وكأن شيئاً لم يحدث.

«أحسنت! « أحسنت! أردت أن أهنئك شخصياً قبل أن تغادر. بالاديو، لقد أبليت بلاء حسناً. أمر سهل لكن أحسنت صنعاً. وشخصية بورشيا في تاجر البندقية. أنا، هذا لم يقنعني لكن لجنة التحكيم، أجل، أليس كذلك؟ آه، شكسبير... كان يجب أن أتحدث عن فيسكونتي... هل رأيت فيلم (حواس) ميلودراما المخرج فيسكونتي؟ قصة رجل غريب في البندقية كانت نهايته بالغة السوء.»

يقترب السياسي النابولي من صانع الأواني الزجاجية المنهمك في تشكيل أرجل حصان صغير ثان. أخرج سيجاراً أشعله مُقرّباً إيّاه من الكأس المتوهج، ثم استدار نحو سيمون بابتسامة شريرة.

ولكـن، لا أريد أن أتـركك ترحل من دون أن أتـرك لك ذكرى صغيرة عني «كيف تقولون باللغة الفرنسية؟ « لكل ذي حق حقه، أجل؟ «

شـلّ أحد الرجال الثلاثة حركة سيمون من خلال تثبيت مؤخرة رأسه. يحـاول سـيمون أن يتخلص منه، لكـن ضربه الرجل الثـاني بلكمة في صدره حبست أنفاسه، وأمسك الرجل الثالث بذراعه اليمنى.

دفعـه الرجـال الثلاثة وألقوه إلى الأمام، وسـحبوا ذراعـه فوق منضدة الصانع الحرفي. سـقطت الخيول الزجاجية الصغيرة وتكسرت على الأرض. ارتـد صانـع الأواني الزجاجيـة إلى الـوراء، ولكنـه لا يبدو متفاجئـاً. التقت نظـرات سـيمون بنظرة الرجل صانـع الأواني، وقرأ في عينيـه أنه يعرف تماماً ما هو منتظر منه، وأنه ليس قادراً على الرفض، لذلك انتاب سـيمون الذعر، أخـذ يتخبـط وهو يصرخ لكن صراخه مجرد رد فعـل لا إرادي تماماً لأنه على قناعـة تامة أن لا وجود لمسـاعدة قد ينتظرها، ولأنه يجهـل أن الإمدادات في طريقها إليه، وأن بايارد واليابانيين سيصلون على متن جندول، وأنهم وعدوا صاحـب الجندول أن يضاعفوا ثلاث مرات أجرته إذا قطع المسـافة في وقت قياسي.

سأل صانع الأواني الزجاجية «أيّ إصبع؟»

يسـتخدم بايارد واليابانيـين حقائبهم مثل المجاديـف من أجل الإسراع بشـكل أكبر ويتكبـد صاحب الجندول بنفسـه عنـاء كبيراً؛ لأنـه، ومن دون معرفة الرهان الحقيقي، فهم أن اللحظة كانت خطيرة.

سأل السياسي النابولي سيمون: «أيّ إصبع؟ «أيّ إصبع تفضل؟»

يتمـرّغ سـيمون مثل الحصـان، لكن الرجـال الثلاثة يمسـكون ذراعه بثبـات عـلى طاولة الحرفي. في هذه اللحظة، لم يعد يتسـاءل مطلقاً فيما إذا كان شـخصية روائيـة أم لا، إن غريزة البقاء هي التي تحفـز ردود أفعاله، ويحاول يائساً أن يخلص نفسه، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

وأخيراً يرسـو الجنـدول ويلقي بايـارد حزمة من الليـرات إلى صاحب الجندول ويقفز إلى الرصيف مع اليابانيين، لكن مصانع الزجاج مصطفة جنباً

إلى جنب على طول الرصيف، ولا يعرفون إلى أين تم أخذ سيمون، وبالتالي اندفعوا إلى داخل كل مصنع بشكل عشوائي، وتحدثوا إلى العمال والبائعين والسياح، لكن لا أحد شاهد مرور سيمون.

يدخن السياسي النابولي سيجارة، ويأمر: «اليد بكاملها.»

يقوم صانع الزجاج بتغيير الملقاط بملقاط آخر، كماشة أكبر ويمسك معصم سيمون في فك آلة حديد السبك.

اقتحم بايارد واليابانيون أول مصنع ووجب عليهم أن يصفوا الشاب الفرنسي لبعض الإيطاليين الذين لم يفهموهم، لأنهم يتحدثون بسرعة كبيرة. لذا خرج بايارد من المصنع واندلف إلى المصنع المجاور، ولكن هناك أيضاً لا أحد رأى فرنسياً يَمُر ويدرك بايارد جيّداً بأن هذه ليست الطريقة الأفضل، وليس بهذا التسرع والعجلة، يقوم المرء بالتحقيق، ولكن يتمتع بحدس الشرطي الذي يستشعر خطورة الموقف، حتى من دون أن يتوفر على جميع العناصر والمعطيات، لهذا أخذ يجري من مصنع إلى آخر ومن ورشة إلى أخرى.

لكن فات الأوان: يقوم صانع الزجاج بإغلاق فك آلة حديد السبك على معصم سيمون وطحن اللحم والأربطة والعظم، حتى تكسر معصمه في طقطقة فظيعة، وانفصلت يده اليمنى عن ذراعه في بركة كبيرة من الدم.

يتأمل السياسي النابولي في خصمه الأبتر الذي انهار على الأرض، ويبدو أنه تردد للحظة.

هل حصل الإيطالي، نعم أم لا، على ترضية كافية؟

يدخن سيجارة، وينفث دوائر دخانه. ويقول: «ها نحن ذاهبون.»

إن الصراخ الذي أصدره سيمون نبه بايارد واليابانيين الذين وجدوا أخيراً ورشة صانع الزجاج، وعثروا على سيمون ممددا هامداً ينزف دمه بين الخيول الصغيرة المكسورة.

يدرك بايارد أنه لا يجب أن يتصرف بسرعة. يبحث عن اليد الناقصة،

المبتورة لكنه لا يجدها، ينظر في كل مكان على الأرض، ولكن ثمة بعض قطع زجاج الخيول الصغيرة التي تقعقع تحت نعله فقط. يدرك بايارد إذا لم يتم فعل شيء ما في الدقائق القليلة القادمة، فإن سيمون سيموت من النزيف.

لذا سحب أحد اليابانيين ملعقة من الفرن الساخن لا زالت مشتعلة ووضعها على الجرح. انبعثت من عملية الكي هسهسة بشعة. أيقظ الألم سيمون الذي عوى دون إدراك ووعي. انتشرت رائحة اللحم المحترق في الورشة المجاورة، وأثارت فضول زبناء غير مدركين للمأساة التي تجري في ورشة صانع الزجاج.

يعتقد بايارد أن كي الجرح المفتوح يعني أنه لن يكون من الممكن إجراء عملية زرع بعد الآن، وإن سيمون سيظل أكتعاً إلى الأبد، لكن الياباني الذي تناول قضيب النار، كما لو أنه قد قرأ ما يدور في فكره، أشار إلى الفرن، حتى لا يندم: في داخل الفرن، على غرار تمثال رودين، تتفرقع الأصابع المكورة لليد المتفحمة.

الفصل الخامس

باريس

94

«لا أصدق ذلك! تركت هذه الحقيرة تاتشر المناضل بوبي ساندز يموت!»

يتخبط سيمون أمام مقدم الأخبار باتريك بوافر الذي يعلن في النشرة الإخبارية الثانية، وفاة الناشط الإيرلندي بعد ستة وستين يوماً من الإضراب عن الطعام.

يخرج بايارد من مطبخه، ويلقي نظرة على التغطية الصحفية، يعلق قائلاً: «حسناً، لا يمكنك منع شخص من الانتحار، هاه.»

يصرخ سيمون في وجه بايارد: «هل تسمع أيّها الشرطي القذر؟ لقد كان في السابعة والعشرين من عمره!»

يحاول بايارد أن يجادل: «لقد كان عضواً في منظمة إرهابية».

الجيش الجمهوري الإيرلندي L'IRA، يقتلون الناس، أليس كذلك؟»

يختنق سيمون من شدة الغضب: «هذا بالضبط ما قاله لافال عن المقاومة! لم أكن أحب أن تتم مرافقتي بواسطة شرطي مثلك في الأربعين؟»

يشعر بايارد أنه من الأفضل عدم الرد، لذلك يسكب كوباً من شراب بورتو لضيفه، ويضع وعاء من نقانق - كوكتيل على الطاولة، ويعود للانهماك في شغله في المطبخ.

يتابع باتريك بوافر بإعلان خبر اغتيال جنرال إسباني، ويدلي بتقرير عن الحنين إلى فترة الحكم الاستبدادي لحقبة فرانكو، بعد ثلاثة أشهر فقط من محاولة الانقلاب في برلمان مدريد.

رجع سيمون إلى قراءة المجلة التي اشتراها قبل مجيئه والتي بدأ في قراءتها في مترو الأنفاق. إن العنوان هو الذي أثار فضوله: «الاستفتاء: حول اثنين وأربعين شخصية ثقافية تحتل الصدارة.» طلبت المجلة من خمسمائة شخصية «ثقافية» (قطّب سيمون حاجبيه) على تحديد، حسب رأيهم، ثلاثة مثقفين فرنسيين أحياء أكثر أهمية. أولا: كلود ليفي ستراوس، الثاني: سارتر، الثالث: ميشيل فوكو؛ ثم لدينا لاكان، سيمون دي بوفوار، يورسنار، بروديل.»

يبحث سيمون عن جاك دريدا في التصنيف، متناسياً أنه مات. (يفترض سيمون أن دريدا كان يجب أن يكون في منصة التتويج، لكن لن نعرف أبداً)

برنار هنري ليفي في المرتبة العاشرة.

ميشو، بيكيت، أراغون، سيوران، يونسكو، دوارس...

سوليرز، المرتبة 24، ونظراً لوجود تفاصيل حول التصويت، وأن سوليرز، كان من بين الناخبين أيضاً، يلاحظ سيمون أنه صوت لصالح كريستيفا، بينما صوتت هذه الأخيرة لصالحه. (تبادل المجاملة والكياسة نفسها مع برنار هنري ليفي).

يتناول سيمون نقانق- كوكتيل، وينادي بصوت عال على بايارد: «بالمناسبة، هل لديك أخبار عن سوليرز؟»

يخرج بايارد من المطبخ، حاملاً منشفة في يده: «لقد غادر المستشفى. بقيت كريستيفا بجانب سريره طوال فترة تماثله للشفاء. لقد استأنف حياته بشكل طبيعي، بحسب ما قيل لي. وفقاً لمعلوماتي، فقد دفن خصيتيه في

جزيـرة- مقبرة في مدينـة البندقية. ويقول إنه تكريماً لهما، سـيعود هناك حتى وفاته مرتين في السنة - مرة واحدة لكل خصية.»

تردد بايارد قليلاً قبل أن يضيف برفق من دون النظر إلى سيمون:

«يبدو أنه يتعافى بشكل جيّد.»

ألتوسـير، المرتبـة 25: لا يبدو أن قتـل زوجته قد ألحق بـه ضرراً كبيراً، يقول سيمون في نفسه.

«هناك رائحة لذيذة، أليس كذلك، حسناً، ما خطبك؟»

يعود بايارد إلى مطبخه: «تفضل، تناول الزيتون إلى حين.»

دولوز، الرتبة 26، بالتساوي مع كلير بريشتر.

دوميزيل، غودار، ألبرت كوهين...

بورديو، الرتبة 36 فحسب. يغضب سيمون بشدة.

صوتت هيأة صحيفة « التحرير»، رغم ذلك لصالح دريدا، حتى ميتا.

صوت كل من غاستون ديفير وإدموند تشارلز لصالح سيمون دي بوفوار.

صوتت آن سـنكلير لصالح أرون، فوكو وجون دانييل. يعتقد سـيمون أن أرون يقيم معها علاقة.

امتنـع البعض عن التصويـت، بحجة أنه لا وجود لأي مثقف شـمولي على نطاق واسع.

رد ميشيل تورنييه قائلا: ما عدا أنا، لا أرى حقاً من يمكنني أن أستشهد به. في أوقات أخرى، ربما كان سـيضحك سيمون. كتب غابرييل ماتزنيف: «اسـمي الأول هو خاصيتي، هو لي: ماتزنيف.» يتسـاءل سيمون عما إذا كان هـذا النوع من النرجسـية الآن الانكفائية - الرغبة في تسـمية الذات نفسـها بنفسها مدرج ومسجل في تصنيف التحليل النفسي.

يقـول باتريـك بوافـر (الـذي صـوت لصالـح أرون، وجوليـان غراك وأورميسـون): «واشـنطن التي لها كل الدواعي للابتهـاج بارتفاع الدولار: خمسة فرنكات وأربعين...»

يتصفح سيمون قائمة الناخبين، ولم يكظم غيظه: «اللعنة، هذا الفاسد جاك ميدسان... هذا الفاشل جان دوتورد...ووكلاء الدعايات الإعلانية، بطبيعة الحال، الأوباش الجدد... فرانسيس هستر؟ ... آه، وهذا الحثالة جون بيير الكباش، صوّت لصالح من؟ ... وهذا العجوز الرجعي ستيفان باولز!... وهذا الوغد الفاشي شيراك، هذا غير معقول على الإطلاق!! ... كل هؤلاء الأوغاد!»

يطل بايارد برأسه في الصالون: «هل تتحدث معي؟»

يهمهم سيمون ببضع كلمات نابية غير مسموعة: يعود بايارد إلى مطبخه.

تنتهي أخبار باتريك بوافر بتوقعات الطقس من قبل آلان جيلو بيتري الذي يعلن أخيراً عن جو مشمس في شهر مايو البارد هذا (12 درجة في باريس، 9 في بيزانسون.)

بعد الإشهار، ظهرت شاشة زرقاء كُتب عليها، على إيقاع موسيقي رجال المطافئ مع صوت الآلات الموسيقية، البلاغ الذي يعلن عن المناظرة الكبرى «بهدف انتخاب رئيس الجمهورية.»

الصحفيان اللذان سيقومان بالفصل في المناظرة، في هذا اليوم 6 مايو 1981، يمران إلى الشاشة الزرقاء.

صاح سيمون: «جاك، هيا! تبدأ المناظرة.»

ينضم بايارد إلى سيمون في الصالون، وهو يحمل زجاجات جعة ومقبلات. قام بفتح زجاجتي بيرة، بينما الصحفي الذي اختاره جيسكار، جان بواسونات، كاتب عمود صحفي في إذاعة أوروبا1، يرتدي بدلة رمادية بربطة عنق مخططة، من الأشخاص المستعدين للفرار إلى سويسرا في حالة فوز اشتراكي، يقدم، استفتاء المساء.

بجانبه، ميشيل كوتا، صحافية في راديو تيلي لوكسمبورغ RTL ذات شعر أسود، وأحمر الشفاه مستشع، قميص من نوع فوشيا وصدرية أرجوانية، تتظاهر بتدوين ملاحظات مبتسمة بعصبية.

يسـأل سيمون، الذي لا يستمع إلى إذاعة تيلي لوكسمبورغ، من هو هذا الدمية الروسية باللون الأرجواني. يسخر بايارد بغباء.

يوضح جيسكار أنه يتمنى أن تكون المناظرة مفيدة.

يحاول سـيمون أن ينزع بأسـنانه خيوط الجبن المصنوع من لحم الخنزير، لكنـه لا يتمكـن من ذلك، فيغضب بينما يقول ميتران لخصمه جيسـكار: «لا شك أنك تعتقد أن السيد شيراك هو أحد المشيعين...»

يأخذ بايارد قطعة الجبن من يد سيمون، ويزيل غلاف الألمنيوم منه.

يتواجه جيسكار وميتران مع حلفائهم الأقل فعالية: شيراك الذي مر في ذلك الوقت لتمثيل اليمين المتشدد، الليبرالي المتطرف، الحد المدهش (18٪) ومارشي، المرشـح الشـيوعي في عصر بريجنيـف في موجة السـتالينية المتعفنة (15٪). يحتـاج كل واحـد مـن المتأهلين للتصفيـات النهائيـة إلى الأصوات الخاصة بهم للفوز في الجولة الثانية.

يصر جيسكار على كونه لا يحتاج إلى حلّ الجمعية الوطنية في حالة إعادة انتخابـه، بينـما يجب عـلى خصمه، إما أن يحكـم مع الشـيوعيين، أو أن يكون رئيساً دون أغلبية: «لا يمكنك قيادة شعب معصوب العينين. إنه شعب كبير يجب أن يعرف إلى أين يتجه.» يشـير سـيمون إلى أن جيسـكار يواجه مشاكل في تصريف فعل «حل dissoudre»، ويقول لجاك بايارد إن التقنيين أميون حقـاً. لاشـعورياً، يجيب بايارد: «الشـيوعيون في موسـكو» يقول جيسـكار لميتران: «ليس بمقدورك أن تقول للفرنسـيين: أريد أن أقود تغييراً كبيراً، مع أي شـخص... بـما في ذلك حتى مع الجمعية الحالية « لأنـه في هذه الحياة، لا تحلها.»

بينـما يقـوم جيسـكار بسـحب البسـاط من تحـت خصمه بمسـألة عدم اسـتقرار البرلـمان؛ لأنـه لا يسـتطيع أن يتخيـل أن الاشـتراكيين يحصلـون عـلى الأغلبيـة في الجمعيـة، يرد عليـه ميتران، بجديـة كبيرة: «أريـد الفوز في الانتخابات الرئاسـية، وأعتقد أنني سأفوز بها، وعندما أفوز بها، سأفعل كل مـا يلزم فعلـه في إطار القانون للفـوز في الانتخابات البرلمانيـة. وإذا كنت لا

تستطيع أن تتخيل، انطلاقاً من الاثنين المقبل، ما ستكون عليه الحالة الذهنية في فرنسا، رغبتها الكبيرة في التغيير، فإنك لا تفهم شيئاً عما يحدث في هذا البلد.»، وبينما يغضب بايارد، ويثور ضد الحثالة البلشفية يشير سيمون تلقائياً إلى التلفظ المزدوج: من الواضح أن ميتران لا يتوجه إلى جيسكار، ولا إلى كل أولئك الذين يكرهون جيسكار.

ولكن ها هي نصف ساعة مضت في نقاش الأغلبية البرلمانية، يلوّح جيسكار في خطابه الباطن باستمرار إلى فزّاعة الوزراء الشيوعيين، وهو أمر مزعج بعض الشيء، يقول سيمون في نفسه، عندما قرر فجأة ميتران، حتى الآن في وقت حرج، أخيراً القيام بهجوم مضاد: « فيما يتعلق بتطهيرك... دعنا نقول المعادي للشيوعية، دعني أقول إنه يستحق بعض الصلاحيات؛ لأنها لا تزال سهلة للغاية. (وقفة) كما تعلم، هناك العديد من العمال الشيوعيين. (وقفة.) سينتهي بنا الحال في نهاية المطاف إلى الاعتقاد، في طريقة تفكيرك: ما الجدوى من العمال؟ يصلحون للإنتاج، والعمل، ودفع الضرائب ويتم استخدامهم للموت في الحروب، يصلحون لكل شيء.

«لكن ألا يمكن أبداً أن يصلحوا لتشكيل أغلبية في فرنسا؟»

سيمون الذي كان يستعد لقضم قطعة أخرى من نقانق - كوكتيل، توقف عن ذلك. وبينما يرتد الصحفيون إلى قضية غير ذات صلة بالموضوع، يدرك سيمون، مثل جيسكار، أن المعركة ربما سيتغير شكلها، لأن جيسكار، بدوره، يجد نفسه في موقف دفاعي وغيّر من حدة لهجته، مدركاً تماماً لما يجري الآن، في وقت لا يمكن فيه التسلّي بمعادلة أن كل عامل، هو شيوعي: «لكن...أنا لا أهاجم الناخبين الشيوعيين على الإطلاق. خلال سبع سنوات، سيد ميتران، لم أتفوه بأية كلمة استخفاف بالطبقة العاملة الفرنسية. أبداً! احترمها في عملها وفي نشاطها وحتى في تعبيرها السياسي.»

يضحك سيمون ضحكة رهيبة: «أنت على حق، بالمناسبة، في كل عام، سوف تأكل نقانق الخنزير في احتفالية الإنسانية. وبين رحلتي سفاري في ضيافة بوكاسا، ستشرب نخباً مع عمال الحديد والصلب في مقر الاتحاد

العام للعمال، إنه أمر معروف، هاها.»

ينظر بايارد إلى ساعته، ويعود إلى المطبخ لمتابعة الطهي، بينما يسأل الصحفيون جيسكار حول حصيلة سنوات الرئاسة. إنها حصيلة متميزة. يضع ميتران نظارته الكبيرة ليبرهن له، أنه على العكس من ذلك، أنها حصيلة مثيرة للشفقة. يرد عليه جيسكار مستشهداً بريفارول «إنها ميزة رهيبة ألا تفعل شيئاً. لكن لا ينبغي الإفراط في تجاوز الحدود». ويضرب على الوتر الحساس ليصيب ميتران في موضع وجعه: «في الواقع، تتولى إدارة وزارة الكلام، وهذا منذ عام 1965. منذ عام 1974، أنا أدرت شؤون فرنسا.» اغتاظ سيمون: «لقد شهدنا كيف كان ذلك!» لكنه يعلم أنه من الصعب مواجهة هذه الحجة. ورد بايارد من المطبخ بقوله: «صحيح إن الاقتصاد السوفياتي مزدهر أكثر!»

اختار ميتران هذه اللحظة ليوجه ضربته: لديك نزوع إلى حد ما للقيام بعمل الجوقة ليس إلا، منذ سبع سنوات: «رجل الماضي» ومازال الأمر مضجراً أن تصبح في هذه الأثناء، أنتم، الرجل السلبي التابع.»

يضحك بايارد: «لم يتقبل الأمر، واضطرب بضربة رجل الماضي، ايه، سبع سنوات، وهو يجترها، تلك النزعة، هاها.»

لا يرد سيمون، لأنه متفق بخصوص ذلك: الصيغة ليست سيئة، ولكن يبدو أنها قد أعدت مسبقاً بشكل جيد. على الأقل صيغة جديرة بتهدئة ميتران، الذي يشبه إلى حد ما متزلجاً وضع للتو جهاز أكسل الثلاثي في التزلج.

تلي ذلك معركة قوية حول الاقتصاد في فرنسا والعالم، ومن الجلي أن الرجلين أبليا بلاء حسناً، وأخيراً أحضر بايارد طبقه الباخر:

طاجين لحم الضأن. اندهش سيمون: «ولكن من علمك فن الطبخ؟ يرسم جيسكار صورة مروعة لمستقبل فرنسا الاشتراكية». قال بايارد لسيمون: «قابلت زوجتي الأولى في الجزائر. يمكنك أن تتذاكى بتخصصك في السيميولوجيا، ولكنك لا تعرف كل شيء في حياتي.» يذكر ميتران أن

ديغول هو الذي بدأ عمليات التأميم بشكل كبير في عام 1945.

يفتح بايارد زجاجة نبيد أحمر، كوت دي بون 1976. يتذوق سيمون الطاجين: «لكن هذا رائع جداً» لم يتوقف ميتران عن نزع وارتداء نظارته الكبيرة. يشرح بايارد: «1976، إنه عام جيّد جداً بالنسبة إلى منتجي نبيذ برغونيا». يقول ميتران: «قامت دولة مثل البرتغال بتأميم البنوك، وهي ليست دولة اشتراكية.» يستمتع سيمون وجاك بايارد بالطاجين ونبيذ كوت دوبون. أعد بايارد عمداً طبقاً لا يتطلب استخدام صحنين، اللحم المغلي طري بما فيه الكفاية لدرجة أنه يتفتت بنقرة بسيطة بالشوكة. يعرف سيمون أن بايارد يعرف أنه يعرف لكن الرجلين معاً يتصرفان كما لو أن شيئاً لم يحدث. لا أحد يريد استحضار حادث مورانو.

وفي تلك الأثناء، كشر ميتران عن أنيابه: «البيروقراطية، أنت من خلقها. من ناحية أخرى، أنت من يحكم. إذا كنت تشك اليوم، في مواعظك، من مساوئ الإدارة، فمن أين أتت؟ إذا كنت أنت من يحكم، إذن أنت هو المسؤول! إذا كنت تشعر بالهم والقلق، قبل ثلاثة أيام من الانتخابات، بالطبع، أفهم لماذا تفعل ذلك، ولكن ما الذي يجعلني أعتقد أنك ستفعل خلال السنوات السبع القادمة بخلاف ما فعلت في السنوات السبع الماضية».

يلاحظ سيمون الاستخدام الذكي لصيغة الشرط ولكنه، منكب على الطاجين اللذيذ وغارق في ذكريات مريرة، فهو أقل تركيزاً.

جيسكار المفاجئ بهذه العدوانية المباغتة، يحاول أن يعارضه بعجرفة اعتاد عليها: «دعنا نحافظ على اللهجة الصحيحة، من فضلك.» لكن ميتران المستعد الآن للقتال ببراعة: «يمكنني أن أعبر عن نفسي تماماً كما أريد.»

وسدد ضربته: «مليون ونصف عاطل عن العمل.»

يريد جيسكار أن يتصدى له: «الباحثون عن عمل.»

لكن ميتران لم يعد يتجاهل أي تعليقات: «أعرف جيّداً التمييز الدلالي الذي يجعل من الممكن تجنب النطق بالكلمات التي تسبّب آلاماً كبيرة.»

ويستطرد ميتران قائلاً: «لديك تضخم وبطالة وبالإضافة إلى ذلك – ولعلّ في الأمر لعنة وشائبة، إنه المرض الذي يوشك أن يكون قاتلا لمجتمعنا: 60 ٪ من العاطلين عن العمل هم من النساء... معظمهم من الشباب...إنه تعد خطير على كرامة الرجال والنساء...»

في البداية، لم يكترث سيمون بذلك. يتحدث ميتران بشكل أسرع، إنه أكثر هجوماً وأكثر دقة، وأكثر بلاغة وفصاحة.

لقد تم تضييق الخناق على جيسكار، لكنه سيقاوم مقاومة الأبطال وباستماتة، خفض من صوته كنبيل ريفي محلّي وتوجه إلى خصمه الاشتراكي قائلاً: «الزيادة في الحد الأدنى للأجور، كم؟ الشركات الصغيرة على أي حال، لن يكون بمقدورها الاستمرار. ولاسيما في قراراته الطائشة يرغب البرنامج الاشتراكي في تخفيض العتبات الاجتماعية وتوسيع حقوق الموظفين، ليشمل الشركات التي تقل عن عشرة موظفين».

ليس لدى برجوازي منطقة شاماليير أية نية للاستلام.

لقد تبارى الرجلان ضد بعضهما ببسالة.

لكن جيسكار ارتكب خطأ عندما طلب من ميتران أن يمنحه سعر المارك: «ما هو سعر عملة المارك اليوم؟»

رد ميتران قائلا: «أنا لست تلميذك وأنت لست رئيس الجمهورية، هنا.»

يشرب سيمون نبيذه الأحمر بتأمل عميق: ثمة شيء من ذاتية التحقق، وبالتالي، من الفعل الأدائي، الإنجازي، في هذه الجملة...

يذهب بايارد لجلب الجبنة.

يقول جيسكار: «أنا ضد إلغاء النصاب العائلي... أؤيد العودة إلى نظام الضريبة ذات السعر الثابت وفقاً لأنواع مكاسب رأس المال...» يسهب في سرد سلسة من الإجراءات والتدابير بدقة التقني المحنك كما هو شأنه، لكن فات الأوان: لقد خسر.

ومع ذلك تستمر المناظرة لاذعة وفنية، حول الطاقة النووية والقنبلة



التيوترونية والسوق المشتركة والعلاقات بين الشرق والغرب وميزانية الدفاع...

ميتران: «هل السيد جيسكار ديستان يود أن يقول إن الاشتراكيين سيكونون فرنسيين سيئين لن يهبّوا للدفاع عن بلادهم؟»

جيسكار، خارج النطاق: «كلاّ على الإطلاق.»

ميتران، من من دون أن ينظر إليه: «بما أن السيد جيسكار لا يعني ذلك، فهذا خطاب لا طائل منه.»

سيمون مضطرباً، أخذ جعة من المنضدة الصغيرة وثبتها تحت ذراعه، وأراد أن يفتحها لكن الجعة انزلقت وسقطت على الأرض. يتوقع بايارد أن ينفجر سيمون من شدة الغضب، لأنه يعرف إلى أية درجة لا يستطيع صديقه تحمل حقيقة أن الحياة اليومية تذكره أنه بات معاقاً، لذلك مسح البيرة التي انسكبت على أرضية الخشب وسارع للقول: «لا بأس!»

لكن سيمون أظهر حيرة غريبة. أشار إلى ميتران، وهو يقول لجاك بايارد: «انظر إليه. ألم تلاحظ أي شيء؟»

- ما الأمر؟

- هل استمعت إليه منذ البداية؟ ألم تجده رائعاً؟

- أجل، حسناً، إنه أفضل مما كان عليه قبل سبع سنوات، هذا أمر مؤكد.

- كلا، ثمة شيء آخر. إنه رائع بشكل غير طبيعي.

- ماذا تقصد؟

- الأمر شائك، وفي غاية الدقة والدهاء، فمنذ نهاية النصف الساعة الأولى، يقود ميتران حركات جيسكار، ولا يمكنني أن أحلل كيف يفعل ذلك. إن الأمر مثل إستراتيجية غير مرئية: أستطيع أن أشعر بها، لكنني لا أفهمها.

- تقصد...

- انظر.

يرى بايارد أن جيسكار يسعى جاهداً لإثبات أن الاشتراكيين طائشون ولا يجب تسليمهم الجهاز العسكري وقوة الردع الذري خصوصاً: "عندما تعلق الأمر بالدفاع، كان موقفك معاكساً... لم تصوت قط لصالح وزارة الدفاع، وصوتت ضد جميع قوانين البرنامج المتعلقة بالدفاع. تم تقديم قوانين البرنامج هذه خارج مناقشة الميزانية، وبالتالي يمكننا أن نتخيل جيّداً إما حزبك، إما أنت... بذاتك، مدركاً للقضية الكبرى جدّاً التي تخص أمن فرنسا، أدليت بتصويت غير مؤيد لقوانين البرنامج العسكري. ألاحظ أنك لم تصوت على أي قانون من قوانين البرامج العسكرية الثلاثة... خاصة قانون 24 يناير 1963...".

لم يكلف ميتران نفسه عناء الرد، وتنتقل الصحفية ميشيل كوتا إلى موضوع آخر، لذلك، يصر جيسكار منزعجاً: "إن الأمر في غاية الأهمية!" تحتج الصحفية ميشيل كوتا بأدب: "بالتأكيد! بالطبع سيدي الرئيس!" وتتحول إلى السياسة الإفريقية. من الواضح أن الصحفي بواسونات يفكر في شيء آخر. لا أحد يكترث لحديث جيسكار. يبدو أن ميتران قضى عليه.

بدأ بايارد يفهم ما يرمي إليه سيمون.

يستمر جيسكار في التعثر.

يصوغ سيمون خلاصته قائلاً: "لقد استعاد ميتران الوظيفة السابعة للغة."

يحاول بايارد تجميع قطع اللغز، بينما يناقش ميتران وخصمه جيسكار التدخل العسكري الفرنسي في الزايير.

"لقد رأينا في مدينة البندقية أن الوظيفة السابعة لم تُجدِ نفعاً."

يُجهز ميتران على جيسكار بشأن قضية كولويزي: "باختصار، كان بمقدورنا العودة في وقت مبكر.. لو أننا فكرنا في الأمر."

يشير سيمون بإصبعه إلى التليفزيون من نوع لوكاتيل قائلا: "تلك الوظيفة، تؤثر وتعمل بنجاح"

يهطل المطر في باريس، بدأ الاحتفال في الباستيل، لكن القادة الاشتراكيين مازالوا في مقر الحزب في سولفرينو، حيث غمرت بهجة غير موصوفة صفوف الناشطين. في السياسة، يكون النصر دوماً إنجازاً بالإضافة إلى كونه بداية. ولهذا السبب؛ فإن الإثارة الناتجة عنه هي مزيج من النشوة والدّوار. بالإضافة إلى ذلك، يتدفق الكحول بسخاء، وبالفعل، تتراكم المقبلات في كل مكان. «يا لها من قصة!» يقول ميتران.

يصافح جاك لانغ الحاضرين، يقبلهم على خدودهم، ويسقط في أحضان كل من يلتقي به في طريقه. يبتسم لفابيوس الذي بكى كطفل عند إعلان النتائج. في الشارع، البعض يغني والبعض يصرخ تحت المطر. إنه الحلم الذي تحقق وهذه لحظة تاريخية. على الصعيد الشخصي، يعرف جاك لانغ، أنه سيكون وزير الثقافة. يتصرف مواتي كقائد. يرقص بادينتر وريجيس دو براي رقصة أشبه بالباليه. يتسلق الشباب سياج سولفرينو. تنبعث ومضات المصورين مثل شرارات البرق في العاصفة الكبرى للتاريخ. لم يعد لانغ يعرف أين يولي وجهه. يتم النداء عليه: «السيد لانغ!»

يستدير ويسقط على بايارد وسيمون.

يدرك لانغ على الفور، مندهشاً، بأن هذين الشخصين لم يأتيا للاحتفال.

يتحدث بايارد: «أتمانع في منحنا بضع لحظات؟ أبرز بطاقته».

يميز لانغ الشريط ثلاثي الألوان.

- «بخصوص ماذا؟»

- «بخصوص رولان بارت.»

تلقى جاك لانغ اسم الناقد الميت مثل صفعة غير مرئية.

«اسمع، آه... كلاّ حقاً، لا أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب».

«في وقت لاحق من الأسبوع، حسناً؟ عليك فقط التوجه إلى الأمانة العامة لتقترح عليك موعداً. أرجوك، اسمح لي...»

لكن بايارد يمسكه من ذراعه: «أصر.»

يسأل بيير جوكي الذي يمر بالقرب منهم: «هل ثمة مشكلة، جاك؟»

ينظر لانغ في اتجاه الشرطة التي تنظم مداخل البوابة. يتردد للحظة، حتى هذا المساء، كانت الشرطة في خدمة خصومهم، ولكن الآن، بمقدوره للغاية أن يطلب منها اقتياد وطرد هذين الشخصين إلى الخارج.

في الشارع، يتردّد صدى نشيد الأممية تتخلله أوركسترا أبواق السيارات.

طوى سيمون الكم الأيمن لسترته، وقال: «من فضلك. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلا.»

حدّق جاك لانغ في جسد سيمون. قال له جوكس: «ما بك جاك؟

كل شيء بخير، بيير. سأعود حالاً.»"

وجد جاك لانغ مكتباً شاغراً في الطابق الأرضي يطل على فناء المدخل.

لا يعمل مفتاح الإضاءة، ولكن الغرفة مضاءة بشكل كاف بواسطة الأضواء الخارجية، لذلك يبقى الرجال الثلاثة في هذه العتمة. لا أحد منهم يريد الجلوس.

أخذ سيمون الكلمة قائلا: «سيد لانغ، كيف وقعت الوظيفة السابعة بين أيديكم؟»

يتنهد لانغ. سيمون وبايارد ينتظران. ميتران هو الرئيس الآن. بمقدور لانغ أن يحكي. ولا شك، يعتقد سيمون، أن لانغ يريد أن يتحدث ويحكي ما حصل.

قام ميتران بتنظيم مأدبة غداء مع بارت، لأنه كان يعلم أن بارت قد استرجع مخطوط جاكوبسون.

كيف ذلك؟ يسأل سيمون.

«كيف ماذا؟ قال لانغ. كيف استطاع بارت أن يسترجع المخطوط، أو كيف عرف أنه حصل عليه؟»

بقي سيمون هادئاً، لكنه يعرف أن بايارد غالباً ما يكبح نفاذ صبره

بصعوبـة. وبما أنه لا يريد أن يقوم صديقه الشرطي بتهديد جاك لانغ باقتلاع عينه بملعقة صغيرة، يقول بهدوء: «الاثنان معاً.»

يجهـل جاك لانغ كيف امتلك رولان بارت هذا المخطوط، لكن الحقيقة هي أن شـبكته الاسـتثنائية في الاتصالات في الدوائر الثقافية أتاحت له التنبه لوجـود هذه الوثيقـة. إن ريجيس دو براي، بعد التحدث إلى دريدا، هو الذي أقنعـه بقيمة هذه الوثيقة. لذلك قـرروا تنظيم الغداء مع بارت، ليتمكنوا من سرقة المخطوط منه. أثناء وجبة الغذاء، سرق لانغ خلسـة الورقة التي كانت في سترة بارت، ليقدمها إلى دو براي الذي كان ينتظر مختبئاً في الردهة. ركض دو بـراي بسرعة لتسـليم الوثيقـة إلى دريدا الذي اختلـق، انطلاقاً من النص الأصـلي، وظيفة خاطئة بشـكل مزيف، قام دو بـراي بإعادتها إلى لانغ الذي أعادهـا إلى سـترة بارت قبـل أن يتم الانتهاء مـن مأدبة الغـداء. كان توقيت العمليـة ضيقاً للغايـة، وكان يتعين على دريدا كتابة الوظيفـة المزيفة في وقت قيـاسي، انطلاقاً مـن الوظيفة الحقيقيـة، حيث تبـدو ذات مصداقية، لكن لا تؤدي عملها.

يتعجب سيمون: «ولكن ما هي الفائدة من ذلك؟ يعرف بارت النص. وسيكتشف ذلك تلقائياً.»

يوضـح له لانـغ: «توقعنا بنـاء على حقيقـة مفادها أنه إذا كنـا قد علمنا بوجـود هـذه الوثيقة، فلـن نكـون الوحيدين، وأنه مـن المحتـم أن يثير هذا المخطوط العديد من الأطماع.»

يقاطعه بايارد قائلا: «هل توقعتم أن سوليرز وجوليا كريستيفا سيسرقان له الوظيفة؟»

يجيب سيمون بدلا من لانغ قائلا: «كلاّ، اعتقدوا أن جيسكار سيحاول الاسـتيلاء على الوثيقة. وفي الواقع، لم يكونوا مخطئين، لأنه هذه هي بالضبط المهمة التي عهِد بها إليك. ما عدا إذا كان، وعلى عكس ما كانوا يفترضون، في الوقت الذي صدمت فيه الشـاحنة بارت، لم يكن جيسـكار على علم بوجود الوظيفة السـابعة. (يلتفت سيمون نحو جاك لانغ) علينا التسليم بأن شبكته

من المخبرين الثقافيين لم تكن فعالة مثل شبكتكم ...»

لم يكتم لانغ ابتسامة غرور طفيفة: "كانت العملية برمتها في الواقع تستند إلى رهان، لا بد لي من القول، جريء للغاية: أن تؤخذ خلسة من بارت الوثيقة الزائفة قبل أن يدرك استبدالها، وأن يعتقد اللص أنه حصل على الوظيفة السابعة الحقيقية، وبصورة غير مباشرة نبقى محصنين جدّاً."

ويضيف بايارد: «وهذا بالضبط ما حدث. إلا أنه لم يكن جيسكار هو من أعطى التفويض اللازم بل سوليرز وكريستيفا من أمروا بعملية السرقة.»

يوضح لانغ: «بالنسبة إلينا، في نهاية المطاف، لم يُحدث هذا الأمر فارقاً كبيراً. أردنا تضليل جيسكار، وجعلناه يعتقد أنه استولى على سلاح سري. لكن كنا نملك الوظيفة السابعة، الوظيفة الحقيقية، وكان ذلك هو الأهم.»

يسأل بايارد: «لكن لماذا قُتل رولان بارت؟»

لم يتوقع جاك لانغ أن تصل الأمور إلى هذا الحد. لم يكن لديهم مطلقاً نية لقتل أي شخص. لم يكن يهمهم أن يمتلك الآخرون الوظيفة السابعة وحتى يتقنونها طالما أنه ليس جيسكار.

يفهم سيمون. كان هدف ميتران هدفاً قصير المدى: هزيمة جيسكار في المناظرة. لكن سوليرز، بطريقة أو بأخرى، كانت لديه خطط أكبر، أو كان يريد توسيع نطاق استخدام الوثيقة. أراد سوليرز تجريد أمبرتو إيكو من لقبه بروتاغوراس الكبير في نادي اللوغوس، ولهذا كان بحاجة إلى الوظيفة السابعة التي كانت ستمنحه ميزة بلاغية خطابية حاسمة.

ولكن بمجرد حصوله على اللقب، كان عليه التأكد، للحفاظ عليه، من أن لا أحد سيكون بمقدوره الاطلاع على الوثيقة كي لا يهزمه، هو بدوره. ومن هنا مصدر القتلة البلغاريين الذين استأجرتهم كريستيفا لتعقب النسخ: كان من الضروري حتماً أن تظل الوظيفة السابعة حقاً حصرياً في حوزة سوليرز وله وحده. لذلك، كان من اللازم على بارت أن يموت، وأيضاً جميع أولئك الذين كانوا يملكون الوثيقة، والذين كانوا قادرين على استخدامها أو نشرها.

يســأل سيمون عما إذا كان فرنسوا ميتران قد أعطى موافقته على «عملية الوظيفة السابعة.»

لا يجيب لانغ بشكل مباشر، ولكن الجواب واضح، لذلك لا يحاول أن ينكر: «حتى اللحظة الأخيرة، لم يكن ميتران مقتنعاً بأن هذه الوظيفة ستُجدي نفعاً. استغرق الأمر بعض الوقت لكي يتقن الوظيفة. ولكن في النهاية سحق جيسكار. يبتسم وزير الثقافة المستقبلي بفخر».

«وماذا عن دريدا؟»

كان دريدا يتمنى هزيمة جيسكار. بالاتفاق مع جاكوبسون، كان يفضل ألا يملك أي شخص الوظيفة السابعة، ولكنه لم يكن قادراً على أي حال على منع ميتران من الاستيلاء عليها، وأحبّ فكرة تزوير الوظيفة السابعة. طلب مني أن أجعل الرئيس يتعهد بالاحتفاظ بالوظيفة السابعة لاستخدامها حصرياً لصالحه، وعدم مشاركتها مع أي شخص. (يبتسم جاك لانغ مرة أخرى). وأنا واثق من أن الرئيس لن يجد صعوبة في الوفاء بهذا التعهد.

وأنت، سأل بايارد، هل قرأتها؟

- «كلاّ، طلب منّا ميتران، أنا وريجيس دو براي، عدم فتح المخطوط. أنا، على أيّ حال، لم يكن لدي الوقت، لأنه بمجرد سرقتها من بارت، سلمتها لريجيس دو براي.»

يتذكر جاك لانغ المشهد: كان عليه الإشراف على طبخ الأسماك، والإسهام في النقاش وسرقة الوظيفة في سرية تامة.

بالنسبة إلى ريجيس دو براي، لا أعرف ما إذا كان قد أطاع الأوامر الرئاسية أو لا، ولكن كان عليه هو أيضاً التصرف بسرعة. نظراً لمعرفتي بولائه، أستطيع القول إنه احترم التعليمات.

- إذن، مبدئياً، قال بايارد، متشككاً، فرنسوا ميتران هو آخر شخص لا يزال على قيد الحياة يمتلك الوظيفة؟

- مع جاكوبسون بطبيعة الحال؟

لم يقل سيمون شيئاً.

في الخارج، تتعالى الصيحات: «إلى الباستيل، إلى الباستيل!»

يُفتح الباب، ويطل مواتي برأسه: «هل أنت قادم؟ بدأت الحفلات الموسيقية، يبدو أن الباستيل يعج بالناس!»

- «أنا قادم، أنا قادم.»

يرغب جاك لانغ في العودة إلى أصدقائه، ولكن لا يزال لدى سيمون سؤال: «هل النسخة المزيفة من طرف دريدا تم تصميمها للإطاحة بالشخص الذي قد يستخدمها؟»

فكّر لانغ: «لست متأكداً... كان يجب أن تبدو الوثيقة معقولة. لقد كان بالفعل إنجازاً من قبل دريدا لكتابة نسخة شبيهة ذات مصداقية للوظيفة السابعة في وقت وجيز.»

يفكر لانغ من جديد في أداء سوليرز في البندقية، وقال لسيمون: «على أي حال، كان سوليرز، آه، مرتبكاً أساساً، أليس كذلك؟»

يطلب لانغ بكل ما استطاع من مجاملة وكياسة الإذن بالانصراف الآن بما أنه أرضى فضولهما.

غادر الرجال الثلاثة المكتب المظلم، وانضموا إلى الحفلة. أمام محطة أورسي القديمة، يترنح رجل ويثرثر بلا توقف، يشجعه المارة: «جيسكار إلى حبل المشنقة! لنرقص رقصة الكرمنيول!» عرض لانغ على سيمون وجاك بايارد مرافقته إلى الباستيل. في الطريق، يلتقيان بغاستون ديففير، وزير الداخلية المستقبلي. يقوم لانغ بتقديم بعضهما إلى البعض من أجل التعارف. قال ديففير لبايارد: «أنا بحاجة إلى رجال مثلك. لنتقابل هذا الأسبوع.»

يهطل المطر بغزارة، ولكن الباستيل يعج بحشود في غاية البهجة والسرور. يصرخ الناس، على الرغم من أن الظلام قد حلّ بالفعل: «ميتران شمس مشرقة! شمس مشرقة!»

سأل بايارد لانغ عمّا إذا كان في نظره، أن كريستيفا وسوليرز يشعران

بالقلق في المثول أمام العدالة. تجهّم لانغ: «بكل صراحة، أشك في ذلك. الوظيفة السابعة هي الآن سرّ من أسرار الدولة. ليس للرئيس مصلحة في إثارة هذه المسألة. إلى جانب ذلك، دفع سوليرز بالفعل ثمناً باهظاً لطموحه الجامح، أليس كذلك؟ التقيت به عدة مرات، هل تعلم؟ رجل فاتن. كان جريئاً في المغازلة.»

ابتسم لانغ ابتسامته الساحرة. صافحه بايارد، وأخيراً أمكن لوزير الثقافة الوشيك العودة إلى رفاقه الصغار للاحتفال بالنصر.

يتأمل سيمون المد البشري الذي يغزو المكان.

يقول: «يا لها من خسارة»

يتعجب بايارد: " ماذا تقصد بهذا الكلام، يا لها من خسارة؟ ستحصل على تلك الامتيازات، تقاعدك في الستين، أليس هذا ما تريده؟ تحصل على خمس وثلاثين ساعة. ولديك الأسبوع الخامس. تأميماتك. إلغاؤك لعقوبة الإعدام. ألست سعيداً؟

رولان بارت، حامد وصديقه البلغاري في الجسر الجديد، والبلغاري الآخر في سيارة ستروين، دريدا، جون سورل... ماتوا بلا فائدة. لقد ماتوا حتى يتعرض سوليرز لقطع خصيتيه في البندقية؛ لأنه لم يملك الوثيقة الصحيحة. منذ البداية، سعينا وراء الوهم.

ليس صحيحاً. في منزل رولان بارت، كانت هناك النسخة الأصلية التي عادت إلى جاكوبسون. لو أننا لم نعترض البلغاري لكان قد سلم النسخة إلى كريستيفا التي كانت ستتحقق من عملية استبدال المخطوط من خلال المقارنة بين النصين في حوزتها. وشريط الكاسيت الذي كان في حوزة سليمان، أيضاً كان لا يجب أن يقع في أيدي غير آمنة. (اللعنة، قال بايارد في نفسه، توقف عن الحديث عن اليدين!)

لكن جاك دريدا أراد إتلاف الشريط.

ولكن ماذا لو أن جون سورل قد حصل على شريط الكاسيت، (يا إلهي،

ليس صحيحاً، يا للسخافة!) لا ندري ماذا كان سيحدث.

«ولكن في مورانو، نعلم ماذا حدث»

ساد صمت رهيب وسط الحشد الذي يغني. لا يعرف بايارد بماذا يجيب. يتذكر فيلماً شاهده عندما كان صغيراً، الفايكنغ، الذي استطاع فيه توني كيرتس، وهو أكتع من أن يقتل كيرك دوغلاس بيد واحدة، ولكنه ليس متأكداً من أن سيمون سيتأثر بهذه الإشارة المرجعية.

لقد تم إنجاز التحقيق على أحسن ما يرام، مهما كانت نظرتنا إليه.

لقد تعقبوا أثر قتلة رولان بارت. كيف كان بمقدورهم معرفة أنهم لا يملكون الوثيقة الصحيحة؟ سيمون على حق: لقد كان طريقاً مسدوداً، وساروا فيه منذ البداية.

يقول بايارد: من دون هذا التحقيق، لما أصبحت ما أنتَ عليه.

- أكتع؟ ضحك سيمون هازئاً.

- عندما التقيت بك، كنت جرذ المكتبات الغرّير، كنت تبدو صبياً بكراً، مملا وثقيلا، وانظر إلى نفسك الآن: ترتدي بدلة أنيقة، تلتقي بالفتيات، أنت النجم الصاعد في نادي اللوغوس...

- «وفقدت يدي اليمنى.»

تتوالى الحفلات الموسيقية واحدة بعد أخرى على المسرح الواسع في الباستيل. يرقص الناس ويتعانقون ووسط مجموعة من الشباب، هناك شعر أشقر يتطاير في الهواء (لأول مرة يرى شعرها منسدلا)، يتعرّف سيمون على أناستازيا.

ما هي احتمالات أن يعثروا عليها من جديد وسط هذا الحشد، في هذه الليلة؟ في تلك اللحظة، اعتقد سيمون أنه إما في يد روائي سيئ للغاية، أو أن أناستازيا هي جاسوسة خارقة.

على الخشبة، تغني فرقة الهاتف الموسيقية هذه الأغنية (أنت حقاً.)

نظر سيمون إلى عينيها، وبينما ترقص مع شاب ذي شعر كثيف، أشارت إليه أناستازيا بود.

رآها بايارد أيضاً، قال لسيمون إن الوقت قد حان ليعود إلى المنزل.

- ألن تبقى؟

- هذا ليس انتصاري: أنت تعلم أنني صوتت لصالح الآخر الأصلع.

- وكل هذه الأنواع من الاحتفالات لم تعد تتناسب مع عمري. (يشير بايارد إلى مجموعات من الشباب يرقصون على إيقاع الموسيقى، أو يسكرون أو يدخنون لفائف الحشيش أو يتبادلون القبل.)

- توقف، أيها العجوز، لم تكن تقول ذلك في كورنيل، عندما كنت مشحوناً كالبغل، لا أعلم من كان مرتمياً في أحضان صديقتك جوديث يضاجعها.

تظاهر بايارد بأنه لم يكترث:

ناهيك عن أني أمتلك خزانة من الملفات سأقوم بتمزيقها قبل أن يستولي عليها رفاقك... آو يعثرون عليها.

- وماذا لو عرض عليك ديففير منصبا؟

- أنا موظف أتقاضى أجراً لخدمة الحكومة.

- أفهم. إحساسك أنك رجل دولة يشرفك.

- اخرس أيها الأحمق.

يضحك الرجلان. يسأل سيمون بايارد إذا لم يكن ينتابه أي فضول على الأقل لسماع رواية أناستازيا حول القضية. يمد له بايارد يده (اليسرى) ويقول له، وهو ينظر إلى الشابة الروسية التي ترقص: ستحكي لي أنت.

وبدوره يختفي المفوض بايارد وسط الحشد.

عندما استدار سيمون، وجد أناستازيا أمامه، تتصبب عرقاً، تحت المطر. ساد حرج وضيق لبرهة من الوقت. يرى سيمون أن أناستازيا تلاحظ موضع يده المفقودة. لصرف انتباهها سألها: «إذن، فما رأي موسكو في انتصار فرنسوا ميتران؟» ابتسمت أناستازيا: «أنت تعرف، بريجنيف...» مدت له علبة بيرة مفتوحة. «الرجل القوي الجديد هو أندروبوف.»

- وما رأي الرجل القوي بخصوص نظيره البلغاري؟

- والد كريستيفا؟ كنا نعلم أنه يعمل لحساب ابنته. لكننا لم نستطع فهم سبب رغبتها في الحصول على الوظيفة السابعة. أنت من أتاح إليّ اكتشاف وجود نادي اللوغوس.

- ماذا سيحدث له الآن، بابا كريستيفا؟

- «لقد تغير العصر، لم نعد في فترة 68. لم أتلقّ أوامر. لا بخصوص الأب أو الابنة. أما العميل الذي حاول قتلك، فقد شوهد آخر مرة في إسطنبول، لكننا فقدنا أثره.»

تضاعف المطر بغزارة. على الخشبة، يغني جاك هيغلين الشمبانيا.

سأل سيمون في نبرة محزنة: «لماذا لم تكوني في البندقية؟»

ربطت أناستازيا شعرها وأخرجت سيجارة من عبوة مرنة، من دون أن تتمكن من إشعالها. قادها سيمون في منأى عن الناس، تحت شجرة، في ميناء الترسانة. «كنت أتبع مساراً آخراً.» اكتشفت أناستازيا أن سوليرز أعطى نسخة للفيلسوف ألتوسير. لم تكن تعرف أنها نسخة مزيفة، لذلك بحثت عنها في كل مكان في شقة ألتوسير، في الوقت الذي كان فيه هذا الأخير في مصحة عقلية - وتطلّب البحث الكثير من الجهد؛ لأنه هناك الكثير من الكتب والأوراق، حيث يمكن إخفاء الوثيقة في أي مكان، كان يجب البحث هناك بطريقة منهجية للغاية. لكنها لم تجد شيئاً.

- قال سيمون: «إنه لأمر مؤسف.»

خلفهم، على الخشبة، نرى روكارد وجوكوان، اليد في اليد، يغنيان نشيد الأممية، والحشد برمته يردد من بعدهم، تغني أناستازيا كلمات الأغنية باللغة الروسية. يتساءل سيمون عما إذا كان في الحياة الواقعية بمقدور اليسار حقاً اعتلاء السلطة. أو بتعبير أدق، إذا كان بمقدوره، في الحياة الواقعية تغيير الحياة. لكن قبل الانسياق مرة أخرى في الوقوع في تعرجات قاتلة لتأملاته الأنطولوجية، سمع أناستازيا تهمس له قائلة: «سأعود إلى موسكو غداً. لن

أشتغل هذه الليلة» وبطريقة سحرية، أخرجت الشابة من حقيبتها زجاجة شمبانيا، لا يدري سيمون كيف ولا من أين حصلت عليها. تقاسما الشابان جرعات كبيرة مباشرة من القنينة، وقبّل سيمون أناستازيا وهو يتساءل عمّا إذا كانت ستقطع له الشريان السباتي باستخدام دبوس الشعر، أو إذا كان سيسقط عرضة لصعقة أحمر الشفاه المسموم، لكن الشابة استسلمت له، ولم تكن تضع أحمر الشفاه. يبدو المشهد وكأنه مشهد سينمائي بسبب المطر والحفلة في خلفية الصورة لكن سيمون قرر عدم التفكير في ذلك.

تصيح الحشود: «ميتران! ميتران» (لكن الرئيس الجديد ليس هناك).

يقترب سيمون من بائع متجوّل يقدم المشروبات في مبردة، خصوصاً، مشروب الشمبانيا، هذا المساء، والذي اشترى منه زجاجة أخرى، فتحها بيد واحدة أمام أناستازيا التي ابتسمت له، وعينها أصبحت أكثر إشراقاً بالكحول، والتي من جديد، قامت بحل تسريحة شعرها.

يشربان، ويسمع صوت قرع الزجاجتين، وأناستازيا تصرخ بأعلى صوتها تحت العاصفة.

«الولاء للاشتراكية! ...»

تتعالى هتافات الشباب من حولهما.

ويرد عليها سيمون، بينما تبرز صاعقة برق في سماء باريس: «...الواقع!»

96

نهائي رولان غاروس، 1981. مرة أخرى، يسحق بورغ خصمه، لقد حقق انتصاراً كاسحاً 6/ 1 ضد الشاب التشيكوسلوفاكي إيفان ليندا. ومثلما يحدث في فيلم هيتشكوك، يدير الجميع رأسهم لمتابعة الكرة باستثناء سيمون الذي يفكر في شيء آخر.

قد لا يكترث بايارد، لكنه هو يريد أن يعرف، إنه يريد إثباتاً أنه ليس شخصية في رواية وأنه يعيش في العالم الحقيقي. (ما هو الواقع؟ «هو عندما

يصطدم المرء مع نفسه»، قال جاك لاكان، ونظر سيمون إلى جسده.)

الجولة الثانية أكثر شراسة. انزلاقات اللاعبين ترفع غيوماً من الغبار.

سيمون وحده في مقصورة إلى أن انضم إليه شاب ذو سحنة مغاربية. يجلس الشاب على مقعد بجانبه. إنه سليمان.

تبادلا التحية. ينتزع ليندل الجولة الثانية.

هذه هي أول جولة يخسرها بورغ في البطولة بأكملها.

رائعة، المقصورة.

إنها وكالة إعلانات هي التي استأجرتها، الوكالة التي أدارت شؤون حملة فرنسوا ميتران. لقد أرادوا توظيفي.

- وهل أنت مهتم؟

- اعتقد أنه يمكننا رفع الكلفة في الحديث مع بعضنا البعض.

- أنا آسف لما حصل لديك.

-إذا فاز بورغ، فسيكون قد أحرز لقب رولان غاروس لسادس مرة. يبدو أن هذا الأمر لا يمكن تصوره، أليس كذلك؟

- يبدو أنه في المسار الصحيح.

- في الواقع، ينهار بورغ بسرعة في الجولة الثالثة.

- شكراً لقدومك.

- كنت ماراًّ من باريس. هل أخبرك صديقك الشرطي؟

- إذن أنت تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية الآن؟

- أجل، لقد حصلت على بطاقة الإقامة.

- في ستة أشهر؟

- يمكننا دوماً الحصول على فرصة لتسوية الأمور.

- مع الإدارة الأمريكية؟

- أجل، حتى مع الإدارة الأمريكية.

- ماذا فعلت، بعد مؤتمر كورنيل؟
- هربت بالمال.
- لا، لكن هذه المسألة، أعرفها.
- لقـد ذهبت إلى نيويـورك. في بادئ الأمر، تسـجلت في كلية كولومبيا لتلقي دروس.
- خلال العام الدراسي، هل كان ذلك ممكناً؟
- أجل، آه، كما تعلم، عليك فقط إقناع سكرتيرة.
- يقوم بورغ بكسر إرسال ليندل للمرة الثانية في هذه الجولة.
- «لقد علمت بانتصاراتك في نادي اللوغوس. تهانينا».
- بالمناسبة، ألا يوجد مكتب فرعي أمريكي؟
- أجـل، ثمـة مكاتب فرعية لنـادي اللوغوس، لكنهـا مازالت جنينية. ولست متأكداً حتى إن كان لديهم خطيب شعبي واحد في جميع أنحاء البلاد. هناك أحد المشّـائين في فيلادلفيا، على ما أعتقد، واحد أو اثنان في بوسـطن، ربما، وبعض الجدليين منتشرين عبر الساحل الغربي."
لم يسأله سيمون عما إذا كان سيتسجل في نادي اللوغوس.
- يفوز بورغ بالجولة الثالثة 6/ 2.
- هل لديك مشاريع في المستقبل؟
- أرغب في أن أكون سياسياً.
- في الولايات المتحدة الأمريكية؟ لكن هل تنوي الحصول على الجنسية الأمريكية؟
- لما لا؟
- لكن هل تريد، آووه، خوض الانتخابات؟
- مم، أولاً، يجب أن أطور مستواي في اللغة الإنجليزية وأتجنس، وبعد ذلـك، لا يتطلب الأمر الفوز في المناظرات ليترشـح المـرء، يجب، كيف أقول

هذا، أن يعرف المرء كيف يصنع مساره. ربما يمكنني التفكير في الانتخابات التمهيدية الديمقراطية لعام 2020، لما لا؟ ولكن ليس قبل ذلك، هاها.

فقط، لأن سليمان يتكلم بنبرة مرحة بشكل مطلق، يتساءل سيمون عما إذا كان جاداً في حديثه...

– "كلاً، لكن انظر، لقد قابلت طالباً في جامعة كولومبيا، أشعر أنه سيكون لديه مستقبل مشرق، إذا ساعدته".

– مشرقاً، إلى أين قد يصل؟

– أعتقد أنني قد أصنع منه سيناتوراً.

– لكن لأيّ هدف؟

– هكذا. إنه رجل أسود جاء من هاواي.

– مم، أفهم. تحدي يتناسب مع سلطاتك الجديدة.

– إنها ليست سلطة بالضبط

– أعلم.

– يرسل ليندل ضربة قوية باليد اليمنى، تجعل بورغ على بعد ثلاث ياردات من الكرة.

يعلق سيمون قائلاً: «هذا الأمر، هذا لا يحدث في كثير من الأحيان لبورغ. إنه قوي، هذا التشيكي.»

يؤخر سيمون لحظة تناول الموضوع الحقيقي الذي يريد التحدث فيه مع سليمان، حتى إن هذا الأخير يعرف جيّداً ما يدور في ذهنه.

– «لقد استمعت إلى الوظيفة السابعة مراراً وتكراراً على جهازي وولكمان [جهاز يشغل أشرطة الكاسيت] لكن ذلك لم يكن كافياً لحفظها، هاه».

– هل هي طريقة منهجية؟ ضربة قاضية؟

– إنها مفتاح، أو دليل معلومات، أكثر ما هي منهج. لقد أشار إليها

جاكوبسـون بالفعل باسـم «الوظيفـة الأدائيـة»، ولكن «الفعـل الأدائي هو صورة.»

يشاهد سليمان لاعب التنس بورغ يقوم بضربته الخلفية بكلتا يديه.

- «إنها تقنية، دعنا نقول.»

- بالمعنى الإغريقي؟

يبتسم سليمان.

- تقنية، أجل، إن شـئت. براكسيس [تجربة عملية] شعرية... تعلّمت كل ذلك، كما تعلم.

- وتشعر أنه لا يمكن هزيمتك؟

- أجل، لكن هذا لا يعني أنني كذلك. أعتقد أنه يمكن هزمي.

- من دون حصول الخصم على الوظيفة السابعة؟

يبتسم سليمان:

«سـوف نرى ذلك. ولكن لا يزال لديّ أشـياء يجـب أن أتعلمها، وعليّ أن أتـدرب. إن إقنـاع موظف جمارك أو سـكرتير هـذا شيء، ولكن الفوز في الانتخابات أمر صعب. لا يزال لديّ مجال كبير لتحقيق التقدم.»

يتساءل سيمون عن مدى سيطرة ميتران، وعمّا إذا كان الرئيس الاشتراكي يمكن أن يخسر في الانتخابات القادمة، أو أنه مؤهل ليعاد انتخابه حتى وفاته.

وفي غضـون ذلك، صـارع ليندل ضد الماكينة السـويدية، وانتزع الجولة الرابعـة. اهتـز الجمهور: هذه هي المرة الأولى منذ فـترة طويلة دُفع فيها بورغ إلى المركـز الخامـس في مباراة في رولان غـاروس. في الواقع، لم يخسر أقل من جولـة واحـدة منذ 1979 ومنـذ النهائي الـذي لعبه ضد فيكتـور بيسي. أما بالنسبة إلى هزيمته الأخيرة هنا، فهي تعود إلى عام 1976 ضد باناتا.

ارتكب بورغ خطأ مزدوجاً منحت نقطة فاصلة للاعب ليندل.

- «لست أدري من هو الأكثر استبعاداً، قال سيمون: فوز سادس لبورغ أو هزيمة.»

- يرد بورغ بضربة الأس. يصرخ ليندل بكلمات تشيكية.

يدرك سيمون أنه يريد أن يفوز بورغ، ولا شك في أن هناك نوعاً من الخرافات، ونزعة محافظة، وخوفاً من التغيير، في هذه الرغبة، ولكنه سيكون أيضاً انتصاراً للمعقولية والمصداقية: سحق بورغ، رقم واحد بلا منازع أمام كونورز وماكإينور، جميع خصومه للوصول إلى المباراة النهائية، بينما كاد يخسر ليندل، الخامس عالمياً في الترتيب، أمام خوسيه لويس كليرك في دور النصف النهائي، ومن قبل ضد أندريس غوميز في الدور الثاني. طبيعة نظام الأشياء...

- «بالمناسبة، هل لديك أخبار عن فوكو؟»

- أجل، نكتب لبعضنا البعض بانتظام، هو الذي يستضيفني في باريس. لا يزال يشتغل على كتابة تاريخ الجنسانية.

- واه، آه، الوظيفة السابعة، ألا تهمه؟ على الأقل كموضوع للدراسة.

- لقد مرت فترة طويلة منذ أن هجر مجال اللسانيات، كما تعلم. قد يعود إليه ربما. لكن على أيّ حال، هو شديد الحساسية لدرجة أنه لم يحدثني أنا الأول عن ذلك.

- احم، أدرك ذلك.

- اوه، كلا، لكنني لم أقل هذا من أجلك، هاه.

- يقوم بورغ بكسر إرسال ليندل.

يتوقف سيمون وسليمان عن الحديث لمتابعة المباراة.

يفكر سليمان في حامد.

- وماذا عن العاهرة كريستيفا؟

- إنها بخير. هل تعرف ماذا حدث لفيليب سوليرز؟

أضاءت ابتسامة خبيثة وجه سليمان.

يشعر الرجلان بشكل غامض أنه في يوم ما سيجدان أنفسهما وجهاً لوجه في مكان بروتاغوراس على رأس نادي اللوغوس، لكنهما لن يعترفا

لبعضهما البعض بذلك اليوم. تجنب سيمون بحرص ذكر أمبرتو إيكو.

يستعيد ليندل شوط إرساله بكسر إرسال خصمه.

النتيجة غير مؤكدة بصورة متزايدة.

- «وأنت، ما هي مشاريعك المستقبلية؟»

يضحك سيمون هازئاً، وهو يشير إلى جسده.

- «حسنا، للفوز بدوري رولان غاروس، سيكون الأمر معقداً.»

- «ولكن من ناحية أخرى، إن عبور السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، هو فكرة سديدة تماماً.»

يضحك سيمون من التلميح إلى بليز سندرار، كاتب آخر أكتع، ويتساءل متى اكتسب سليمان هذه الثقافة الأدبية.

لا يريد ليندل أن يخسر، بورغ قوي للغاية.

ومع ذلك.

حدث الأمر الذي لا يمكن تصوره.

كسّر ليندل إرسال بورغ الذي خسر شوط إرساله.

وكسر هذا الإرسال هو النقطة الفاصلة في المباراة.

يرتجف الشاب التشيكوسلوفاكي تحت وطأة الرهان.

لكنه فاز بالمباراة.

انهزم بورغ الذي لا يُقهر. يرفع ليندل ذراعيه عالياً.

يصفق سليمان مع الجمهور.

عندما رأى سيمون ليندل يرفع الكأس، لم يعد يدري ماذا يصدق وفيما يجب أن يفكر.

نابولي

97

يقف سيمون أمام مدخل غاليريا أو أمبرتو I، ويستشعر، مبعث التناسق المبهج والعجيب بين الزجاج والرخام، لكنه بقي عند العتبة. هذا المعرض هو معلَمة وليس مشروعاً. فتح خريطة أمامه، ولم يفهم لماذا عبارة « عبر روما « غير موجودة، ينتابه شعور بأن خطته خاطئة.

لكن يجب أن يكون الأمر «عبر روما». بدلا من ذلك، يتم الأمر «عبر طليطلة.»

خلف سيمون، على الرصيف المائل، يراقبه مُلمع أحذية عجوز بفضول.

يعرف سيمون أنه ينتظر، ليرى كيف سيتمكن من طي خريطته بيد واحدة.

يمتلك الرجل العجوز صندوقاً خشبياً صُنع فوقه ما يشبه منضدة، لتثبيت الأحذية عليها. يلاحظ سيمون تدرج التحدر المخطط لوضع الكعب العالي.

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض.

يسود الاضطراب على جانبي هذا الشارع في مدينة نابولي.

لا يعرف سيمون أين يوجد بالضبط. أخذ يطوي خريطته من جديد، ببطء، ولكن بمهارة، من دون أن يحيد بنظراته عن ماسح الأحذية العجوز.

لكن فجأة، حدق ماسح الأحذية إلى نقطة شاقولية في اتجاه سيمون، الذي يشعر أن شيئاً غير طبيعي يحدث؛ لأن قسمات وجه العجوز الكئيب تحولت إلى دهشة وذهول.

رفع سيمون رأسه إلى الأعلى، وبالكاد كانت لديه بضعة ثوانٍ لرؤية مثلث فوق بوابة المعرض، عليه نقش ضئيل البروز، يمثل ملاكين يؤطران شعار النبالة، أو شيئاً من هذا القبيل، ينفصل عن واجهة المبنى.

أراد ماسح الأحذية أن يصيح بشيء ما، على سبيل التحذير «توقف» لمنع حدوث مأساة، أو على الأقل المساهمة بطريقة أو بأخرى في الحيلولة من دون وقوعها، ولكن لم يَصدر أي صوت من فمه الأدرد.

ولكن سيمون تغيّر كثيراً. لم يعد جرذ المكتبات الذي كان على وشك أن يُسحق بنصف طن من الحجر الأبيض، ولكنه سيمون الأكتع، ذو الرتبة المهمة في التسلسل الهرمي في نادي اللوغوس، الذي نجا على الأقل ثلاث مرات من الموت. بدلا من التراجع، كما تستلزم هنا غريزتنا القيام بذلك، قام برد فعل غير طبيعي، فالتصق بجدار المبنى، حيث تحطمت الكتلة الضخمة من الأحجار عند قدميه من دون أن يُصاب بجروح.

لم يصدق ماسح الأحذية المشهد. ينظر سيمون إلى الأنقاض، وينظر إلى ماسح الأحذية وينظر من حوله إلى المارة المصدومين.

يشير سيمون بإصبعه إلى ماسح الأحذية البائس، ولكن لا يتوجه إليه بالخطاب عندما قال، بنبرة عدوانية: «إذا كنت تريد قتلي في النهاية، فيتعين عليك أن تتكبد المزيد من المتاعب!» أو أن الروائي يريد أن يوجه إليه رسالة، «حسناً، من اللازم أن يعبّر عن نفسه بكل وضوح.»، وذلك ما يعتقده سيمون بغضب شديد.

«إنـه زلـزال العام الماضي، لقـد قوّض جميع البيوت. يمكـن أن تنهار في أيّ وقت.»

يستمع سيمون إلى بيانكا وهي تشرح له لماذا كان سيسقط عليه قنطار كبير من الرخام على وجهه.

- لقـد أوقف سـان جينـارو - saint janvier - الحمـم البركانية أثناء ثـوران جبـل فيزوف. ومنذ ذلك الحين، أصبح سـان جينـارو وحامي مدينة نابولي. وفي كل عام، يقوم أسـقف بوضع قطرات من دمه المجفف في قارورة زجاجية ويحرك القارورة، حتى يصبح الدم سائلا. إذا ذاب الدم، فهذا يعني أن المصائب لن تحل بمدينة نابولي. فما الذي حدث في العام الماضي، برأيك؟

- لم يذب الدم.

وبعـد ذلك، اختلسـت منظمة كامـورا الإجرامية الملايـين التي قدمتها المجموعة الاقتصادية الأوروبية؛ لأن أعضاء في الكامورا هي التي ستستحوذ على عقود إعادة الإعمار. بطبيعة الحال، لم يفعلوا شيئاً، أو قاموا بعمل سيئ لا يقـل خطورة عما كان من قبل. تقع حوادث طوال الوقت. لقد اعتاد سـكان نابولي على ذلك.»

يحتسي سيمون، وبيانكا القهوة الإيطالية على شرفة مقهى جامبرينوس، وهو مقهى أدبي سياحي للغاية يضم مخبزة للحلويات، اختاره سيمون بنفسه لهذا اللقاء. بالمناسبة، يتذوق سيمون الكعكة المفضلة لديه.

تشرح بيانكا لسيمون أن عبارة «شاهد نابولي ومُت»، وباللاتينية «vedi napoli et poi muori» هـي في الحقيقـة جنـاس وتلاعـب بالألفـاظ: «mor» «مت» هي بلدة صغيرة في ضواحي نابولي.

تحكي له أيضاً تاريخ البيتزا: ذات يوم، اكتشفت الملكة مارغاريتا، زوجة ملـك إيطاليـا أمبرتو الأول هـذا الطبق الشـعبي، وجعلته مشـهوراً في جميع أنحـاء إيطاليا. كتذكار، سُـميت البيتزا باسـمها، البيتزا التـي صُنعت بألوان

العلم: الأخضر (الريحان)، والأبيض (الموزاريلا)، والأحمر (الطماطم).

حتى الآن، لم تطرح بيانكا أيّة أسئلة حول يده.

توقفت سيارة فيات بيضاء في موقف مزدوج.

«اهتاجت بيانكا على نحو متزايد. بدأت تتحدث عن السياسة. تُكرر لسيمون كراهيتها للبرجوازية التي تحتكر كل الثروة وتجوّع الشعب. أتدرك يا سيمون أن هناك نساء برجوازيات ينفقن مئات آلاف الليرات لشراء حقيبة يد. حقيبة يد يا سيمون!»

ينزل شابان من سيارة فيات البيضاء، ويأتيان للجلوس على شرفة المقهى. ينضم إليهما شخص ثالث، راكب على دراجة أوقف دراجته النارية تريومف على الرصيف. لا يمكن أن تراهم بيانكا؛ لأنها تدير ظهرها لهم. إنها عصابة الأوشحة من بولونيا.

إذا كان سيمون قد فوجئ برؤيتهم هنا، فإنه لم يبد أي رد فعل.

تستشيط بيانكا غضباً وهي تفكر في تجاوزات البرجوازية الإيطالية. تصب على ريغان وابلاً من الشتائم. تحترس من ميتران لأنه، على هذا الجانب من جبال الألب كما في الجانب الآخر، فإن الاشتراكيين دائماً خونة. بيتينو كراكسي مجرد حثالة. فهُم جميعاً يستحقون الموت، ولو أن بيانكا قادرة، لتكفلت بنفسها بإعدامهم. يبدو لها العالم قاتماً بشكل لا حدود له، يقول سيمون في نفسه، وهو لا يستطيع حقاً أن يثبت لها أنها على خطأ.

طلب الشباب الثلاثة بيرة وأشعلوا سجائر، في الوقت الذي وصل فيها شخص آخر التقى به سيمون من قبل: خصمه في البندقية، الرجل السياسي الذي بتر يده، يحيط به حارسان شخصيان.

انكب سيمون على تناول كعكته المفضلة. صافح الرجل الإيطالي النابولي الناس على طريقة وجهاء القوم، أو مثل منتخب سياسي محلي، أو مثل رئيس عصابة الكامورا (الفروق التمييزية ليست ظاهرة في كثير من الأحيان في البلدة.) واختفى داخل المقهى.

تصب بيانكا جام غضبها على فلوراني وحكومته الحماسية. يشعر سيمون بأنها تعاني من انهيار عصبي. يريد تهدئتها، وبينما يتلفظ بكلمات مهدئة للترضية «حسناً، ليست كل الأمور سيئة للغاية، فكري في نيكاراغوا...». يمد يده تحت الطاولة ليضعها على ركبتها، ولكن من خلال قماش بنطال بيانكا، يلمس شيئاً صلباً ليس جسداً.

انتفضت بيانكا وسحبت ساقها بقوة تحت كرسيها. وتوقفت على الفور عن النحيب. ونظرت في عيني سيمون نظرة تحدّ وتضرع في الآن نفسه. وانهمرت دموعها في حنق وغضب وحب.

لم ينبس سيمون بكلمة. هكذا، هذا ما حدث إذن: نهاية سعيدة. الأكتع مع صاحبة الساق الواحدة. وما سببّ ذلك من شعور بالذنب، يلازم المرء لفترة طويلة، كما هو الحال في القصص الخالدة: إذا كانت بيانكا قد فقدت ساقها في محطة بولونيا، فالذنب يقع على سيمون. لو أنها لم تلتقِ به لكانت الآن بساقين، ولأمكنها ارتداء التنورات.

وأيضاً، لم يشكلا هذا الزوج البائس المعاق والمثير للأسى. لقد تعرضا للبتر وسيعانيان من حالة الأعسر؟

عدا أنه قد لا يكون هذا هو المشهد الأخير الذي ينتظرهما.

نعم، أراد سيمون الاستفادة من مروره بنابولي لرؤية بيانكا، الشابة التي مارس معها الحب في بولونيا على طاولة تشريح، ولكن في الوقت الحالي، لديه مشاريع وخطط أخرى.

أعطى سيمون إشارة خفية لأحد الشباب ذوي الأوسمة.

نهض الشباب الثلاثة ووضعوا أوشحتهم على أفواههم، ودخلوا إلى المقهى.

يتبادل سيمون وبيانكا نظرات طويلة تتعاقب من خلالها رسائل لا حصر لها، وحكايات ومشاعر، من الماضي، والحاضر، وقبل ذلك، زمن الماضي بصيغة الشرط (الأسوأ من بين كل الأزمنة، زمن الندم والحسرات.)

يسمع صوت تفجيرين. صرخات وفوضى.

تخرج عصابة الأوشحة من المقهى، وأسفل وجههم ملثم، وهم يدفعون خصم سيمون. أحد الشباب الثلاثة يثبت مسدس من نوع P38 في ظهر السياسي الإيطالي البارز في عصابة كامورا. شاب آخر يقوم باجتياح شرفة المقهى حاملا مسدسه، ليسيطر على الزبناء ويجعلهم في حالة شلل.

عندما مر أمام سيمون، وضع الشخص الثالث شيئاً على الطاولة، قام سيمون بتغطيته بمنديله.

قام الشباب الثلاثة بتحميل السياسي خصم سيمون في سيارة فيات وانطلقوا كالإعصار.

ساد ذعر في المقهى. يسمع سيمون صرخات في الداخل ويدرك أن الحراس الشخصيين لخصمه مصابون. تم إطلاق النار على كل واحد منهما في ساقه، كما يجب أن يكون.

قال سيمون لبيانكا، المذعورة: «تعالي معي»

قادها سيمون إلى الدراجة النارية للرجل الثالث، وسلمها المنشفة التي بداخلها مفتاح المحرك. قال لبيانكا: «قودي الدراجة.»

احتجت بيانكا: كان لديها من قبل سكوتر، لكنها لا تستطيع قيادة دراجة نارية كبيرة كهذه.

اصطكت أسنان سيمون في غضب، وهو يرفع كمه الأيمن: «وأنا كذلك، لا أستطيع.»

لذا، قفزت بيانكا فوق الدراجة النارية تريومبف، ضغط سيمون على مشغل الدراجة لتنطلق، وجلس خلف بيانكا ممسكاً بخصرها، أدارت مقبض الدواسة، وانطلقت الدراجة النارية. سألت بيانكا عن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه فأجابها سيمون: «بوزيولي.»

إنه مشهد خيالي مزيج من أفلام الغرب الأمريكي وسجلات المخلوقات الفضائية.

وسط حفرة ضخمة مغطاة بالطين الأبيض، يحيط أعضاء عصابة الأوشحة الثلاثة بالسياسي الإيطالي البدين، الذي جعلوه يركع عند حافة بركة من الطين في حالة غليان.

يتصاعد حولهم كبريت من أحشاء الأرض عبر أعمدة. كما تنبعث حولهم رائحة البيض الفاسد.

كان سيمون قد فكر لأول مرة في عرين العرّافة، في بلدة كيم، حيث لم يأت أحد للبحث عنه، لكنه لم يتذكر المكان؛ لأنه مبتذل للغاية ثقيل الظل برموزه الكثيرة، والرموز بدأت تتعب سيمون، إلا أننا لا نستطيع أن نهرب من الرموز بسهولة: وبينما يدوسون الأرض المتشققة، قالت له بيانكا بالنسبة إلى الرومان، لاسولفاترا على هذا البركان الخامد كان يعد بوابة الجحيم. فهمت.

«مرحبا! ماذا سنفعل به يا رفيقي؟»

«بيانكا، التي لم تتعرف على الرجال الثلاثة في مقهى جامرينوس، فتحت عينها في اندهاش»:

«هل استأجرت أفراداً من كتائب الألوية الحمراء من مدينة بولونيا؟»

أعتقد أنهم ليسوا بالضرورة من كتائب الألوية الحمراء، أليس هذا ما دافعت عنه في مواجهة صديقك إنزو؟

– لم يستأجرنا أحد.

– نحن لسنا مرتزقة.

– كلاً، هذا صحيح، إنهم يقومون بهذا الفعل مجاناً. لقد أقنعتهم بذلك.

– خطف هذا الرجل؟

– هذا سياسي فاسد من نابولي.

- هـو الـذي يمنح رخص البنـاء في بلدية المدينة. بسـبب الرخص التي باعهـا لمافيـا كامورا، مـات المئات مـن الناس خـلال الهـزة الأرضية، حيث سحقتهم المباني المتهالكة التي بنتها مافيا الكامورا.

اقترب سيمون من السياسي الفاسد، وفرك يده المبتورة على وجهه.

«علاوة على ذلك، إنه خاسر سيء» هز الرجل رأسه مثل الحيوان.

- «أيها الحقير ! سأقتلك!»

اقـترح الأعضاء الثلاثة في الألوية اسـتبداله بفدية ثورية. التفت العضو الفرنكفوني من جماعة الألوية نحو سـيمون قائلا: «لكن، ليس من المؤكد أن شخصاً ما يريد أن يدفع فدية من أجل خنزير مثله، هاها !» يضحك الرجال الثلاثة، وبيانكا أيضاً، لكنها تريده أن يموت حتى لو لم تقل ذلك.

مصـير غامـض على غرار السـياسي الإيطالي ألدو مورو: يحب سـيمون هذا السـيناريو: اختطاف وقتل هذا الفاسد. إنه متعطش للانتقام، لكنه يحب فكرة ترك الأمور للقدر. أمسـك سـيمون بذقن السياسي البارز بيده اليسرى التـي ضغـط بها عليه مثل مخلب. «هل تفهم الخيار الآخر؟ إما أن يُعثر عليك في صندوق سـيارة رونو4، أو أن تعـود إلى منزلك وتواصل أعمالك القذرة. لكـن لا تفكـر مطلقاً أن تضـع قدمك في نـادي اللوغوس». يتذكر سـيمون مبارزتهم في مدينة البندقية، وهي المبارزة الوحيدة التي شعر فيها حقاً بالخطر «وبالمناسبة، كيف أمكن لمتخلف مثلك أن يكون شخصاً مثقفاً؟ بين عمليتين فاسـدتين، يجـد الوقت للذهـاب إلى المسرح»، لكنه يندم عـلى الفور على هذا التأمل المفعم بالأحكام السوسيولوجية المسبقة التي ليست صحيحة تماماً.

أرخى سيمون فك السياسي البارز الذي أخذ يتكلم بسرعة كبيرة باللغة الإيطالية. سأل سيمون بيانكا: «ماذا يقول؟.

- يعرض على أصدقائك الكثير من المال لقتلك».

أخـذ سـيمون يضحـك. يعرف موهبـة إقناع رجـل مذلـول جاثياً على ركبتيه، بعد أن لقنه درساً قاسياً، ويعرف أيضاً أن من بين كل مسؤول سياسي

عضـو في مافيا ربما ديمقراطي مسيحي وعناصر من الألويـة الحمراء بالكاد بلغوا الخامسـة والعشرين من عمرهم، أنه لا وجود لأي حوار ممكن. يمكنه التحدث إليهم طوال النهار والليل من دون أن يقنعهم بأي شيء.

وهذا أيضاً ما يجب أن يعتقده خصمه؛ لأن بمرونة وبسرعة لم تدع بدانته مدعاة للشـك في ذلك، يقفز السـياسي الإيطالي على أقـرب عنصر في الألوية الحمراء في محاولة لانتزاع مسـدس p38 منه. لكن عصابة الأوشـحة تتكون من شـبان أقوياء، حيث تلقى السـياسي البدين طلقة من المسدس فسقط على الأرض. احتجزه عناصر الألوية الحمراء الثلاثة، وهم يصرخون.

عـلى هذه الشـاكلة سـوف تنتهـي القصة. سيجهزون عليه هنـا والآن لمعاقبته على هذه المحاولة الغبية؛ قال سيمون في نفسه.

اصطفق دويّ انفجار.

لكن، إنه أحد عناصر الألوية الحمراء من خرّ صريعاً.

خيم الصمت فوق البركان.

يتنفس الجميع الدخان المتصاعد للكبريت الذي انتشر في الهواء المحيط.

لا أحد بحث عن مأوى للاحتماء بما أن سـيمون كانت لديه فكرة رائعة عن هذا المكان الجميل للقاء: مكشـوفاً، في وسـط فوهة بركان يتكون محيطه من سـبعمائة مـتر. يكفي أن نقـول إنه لا توجد شـجرة، ولا أجمـة للاختباء. يبحـث سـيمون عن ملجأ ممكن ويكتشـف بئـراً وبناء صغيراً مـن الأحجار ينبعـث منه الدخـان (أفران عتيقة تمثـل بوابة المطهر وبوابـة الجحيم)، لكنها خارج المدى، وليسوا في المتناول.

يتقـدم رجـلان مخيفـان للبحث عنهم، يحمـل أحدهما مسدسـاً والآخر يحمـل بندقية. يعتقد سـيمون أنها من طراز مـاوسر ألمانية. يرفع عنصران من الألويـة الحمـراء، لازالوا عـلى قيد الحيـاة، أيديهما لأنهما يعرفـان أن من هذه المسافة فإن سلاحهم من طراز ب 38 ليس بقوة الخصم نفسها. تحدق بيانكا في جثة أحد عناصر الألوية الثلاثة الذي أصيب برصاصة في الرأس.

أرسلت عصابة الكامورا أحداً ما لاستعادة رجلها السياسي البارز. يرفض النظام أن يتخلّى بسهولة عن أعضائه. ويدرك سيمون أن الأمر محفوف بالمخاطر، عندما يتعلق الأمر بالثأر على انتهاك حقوقه الشخصية، مما يعني أنه من المحتمل أن يُعدم على الفور مع ما تبقى من عصابة الأوشحة. بالنسبة إلى بيانكا، ستواجه لزاماً المصير نفسه؛ لأن «النظام» لم يكن، كذلك، مرناً جدّاً مع الشهود.

على أي حال، فقد جاءه اليقين عندما نهض السياسي الإيطالي، وهبّ كالفقمة، فصفعه، هو، أولا، ثم عنصري الألوية الحمراء، وأخيراً بيانكا. مصيرهم، الأربعة جميعاً، قد خُتم إذن. أطلق السياسي الإيطالي صوتاً حاداً على الرجلين الأتباع: «اقتلوهم».

يفكر سيمون ثانية في اليابانيين في مدينة البندقية. هذه المرة، ألن تكون ثمة قوة خارقة لمساعدته؟ في لحظاته الأخيرة، يجدد سيمون الحوار مع هذه السلطة المتعالية التي يطيب له أن يتخيلها: إذا كان عالقاً في رواية، فما هو [الاقتصاد - التكثيف السردي] الذي يتطلبه الموقف ليموت في النهاية؟ يجدد سيمون العديد من الدواعي السردية التي يجدها جميعها موضع شك. يفكر في ما قاله بايارد. « تذكر توني كيرتس في فيلم «الفايكنغ» بلى. يفكر في ما كان سيفعله جاك، القضاء على أحد المسلحين والإجهاز على الثاني بسلاح الأول، بالتأكيد، لكن بايارد ليس هنا، وسيمون ليس هو بايارد.

يصوب الرجل التابع من عصابة الكامورا البندقية إلى صدر سيمون.

يدرك سيمون أنه ليس لديه ما ينتظره من أية سلطة متعالية، ويشعر أن الروائي، حتى إن وجد، فليس صديقه.

جلاده أكبر سنّاً بقليل من رجال الألوية الحمراء. وبينما كان على وشك الضغط على زناد البندقية، قال له سيمون:»أعرف أنك رجل شرف.» توقف رجل الكامورا عن تصرفه الحاد. وطلب من بيانكا أن تترجم له. isse aritto .. casiomm d'onre

كلاّ، لن تكون هناك معجزة. ولكن، سواء أتعلق الأمر برواية أم

بالواقع، لن يقال إنه استسلم للهلاك. لا يؤمن سيمون بالخلاص، ولا يؤمن أن لديه رسالة على الأرض، بل على العكس من ذلك يؤمن أنه لا يوجد شيء مكتوب سلفاً، وأنه حتى لو كان بين أيدي روائي سادي وغريب الأطوار، فإن مصيره لم يتحدد بعد.

ليس الآن.

يجب تدبر الأمر مع هذا الروائي الافتراضي كما هو الحال مع الله: أن يتصرف المرء دائماً كما لو أن الله لم يكن موجوداً؛ لأنه إذا كان الله موجوداً، فهو في أحسن أحوال روائي سيئ، لا يستحق الاحترام أو الطاعة. لم يفت الأوان بعد على محاولة تغيير مسار التاريخ.

إذا كان الأمر كذلك، فإن الروائي الخيالي لم يتخذ بعد قراره النهائي. وإذا كان الأمر كذلك، فإن النهاية في يد شخصيته، وهذه الشخصية هي أنا.

-أنا سيمون هرتسوغ. أنا بطل قصتي.

التفتت جماعة الكامورا نحو سيمون الذي قال له: « لقد حارب والدك الفاشيين. لقد كان مناصراً للحلفاء. لقد خاطر بحياته من أجل العدالة والحرية. » التفت الرجلان إلى بيانكا التي ترجمت لهم إلى اللغة النابولية: «Pateto eta nu partiggiano ca a fatt’a guerra a Mussolini e Hitler. A commattuto p a giustizia libberta».

نفذ صبر الإيطالي السياسي الفاسد، لكن رجل الكامورا أشار إليه بالتزام الصمت. أمر السياسي الإيطالي التابع الثاني بإعدام سيمون، لكن الشخص الذي يحمل البندقية قال له بهدوء: «انتظر» ويبدو أن الشخص الذي يحمل البندقية هو الرئيس. يريد أن يعرف كيف يعرف سيمون والده.

في الواقع، إنها تخمينات ناجحة: لقد عرف سيمون نوع البندقية ماوسر، سلاح نخبة القناصة الألمان. (لطالما كان سيمون مغرماً بقصص الحرب العالمية الثانية.) استنتج سيمون من ذلك أن الشاب ورث البندقية من والده، ومن هذا المنطلق، ثمة فرضيتان: إما أن والده حصل على البندقية عن طريق القتال مع الجيش الإيطالي إلى جانب القوات الألمانية، أو على العكس من

ذلـك، حـارب ضدها بصفتـه منـاصراً للحلفـاء، وحصل عـلى البندقية من فـوق جثة جندي ألماني. تبدو له الفرضية الأولى عديمة الجدوى، فراهن على الفرضيـة الثانية. ولكن يجـب عليه توخي الحرص في تقديـم تفاصيل تدعم تفكـيره المنطقـي، فالتفـت نحـو بيكانـكا وقال: «أعـرف أيضاً أنـك فقدت عائلتك أثناء الزلزال» تترجم بيانكا:

«Isse sape ca e perzo à coccheruno int'o terramoto»

يتخبط السياسي الإيطالي البدين: «هذا يكفي ! أطلق النار!»

لكـن عضـو الكامـورا، «الرجـل»، بـما أن النظام يعـين شـبابه للتكفل بالأعمال القذرة، يسـتمع بانتباه وعناية إلى سـيمون الـذي يشرح له دور هذا الرجل الفاسـد الذي أخذ على عاتقه مسؤولية حمايته في مأساة الزلزال الذي عصف بعائلته.

يحتج السياسي البارز:»ألن ينتهي بعد!»

لكن الشاب «رجل الكامورا» يعرف أن هذا صحيح.

سـأل سـيمون ببراءة: «قَتَلَ هذا الرجـل أفراد عائلتك. هـل الانتقام له معنى لديك؟»

بيانـكا: «chisto acciso e parienti tuoje. Nun te miette. scuorno e ll'aiuta».

كيف خمن سـيمون أن الشاب «رجل الكامورا» فقد عائلته في الزلزال؟ وكيـف اسـتطاع بطريقة أو بأخرى، ومن دون وجـود أيّ دليل ملموس، أن يكـون من المعقول تحميل المسـؤولية على عاتق السـياسي الإيطالي البارز؟ في هوسـه النقدي، لا يرغب سيمون في الكشف عنه. لا يريد أن يفهم الروائي، إن كان ثمة وجود لروائي، كيف فعل ذلك. ولن يقال إن بمقدور أي شخص قراءة أفكاره، كما لو كان يقرأ كتاباً.

إنه على أي حال، مشـغول للغاية بانتقاء مقدمـات خطابه «مات الناس الذين تحبهم مدفونين تحت الأنقاض.»

لم تعـد بيانـكا في حاجـة إلى أن تترجـم؛ ولم يعـد سـيمون في حاجـة إلى الحديث.

التفـت الشـاب الذي يحمل البندقية نحو السـياسي البارز، شـاحباً مثل طين البركان.

أطلق عليه النار في وجهه ودفعه للخلف.

تدحرج السياسي البارز، والفاسد، البدين والمثقف، وسقط في بركة من الطين المغلي. «القذارة» همست بيانكا مذهولة.

وبينما يطفو جسد السياسي الإيطالي للحظة، وهو يصدر أصواتاً مروعة، قبـل أن يبتلعـه الـبركان، أمكنـه أن يتعرف على صوت سـيمون، غـير المميز كالموت، يقول له: «أرأيت، أن اللسان هو الذي كان يجب أن تقطعه لي.»

وتسـتمر أعمـدة الكبريت بالتصاعـد من باطـن الأرض، والارتقاء إلى السماء مرسلة ريحا فاسداً.

* الكاتب في سطور:

لوران بيني / Laurent Binet: من مواليد 19 يوليوز 1972 في باريس. روائي وأكاديمي فرنسي، مبرز في الآداب الحديثة. نشر عدة أعمال روائية وحاز على جوائز عديدة: جائزة غونكور سنة 2010، جائزة فناك للرواية 2015، جائزة أنتيراليي 2015، عن روايته « الوظيفة السابعة للغة، La septième fonction du langage » والجائزة الكبرى للرواية من الأكاديمية الفرنسية 2019، عن روايته «حضارات، Civilizations».

* المترجم في سطور:

محمد الجرطي / MOHAMED EL JORTI: باحث ومترجم مغربي ولد سنة 1976 – المغرب.

أستاذ التعليم العالي مساعد – جامعة ابن طفيل بالقنيطرة – المغرب.

حصل محمد الجرطي على إجازة في الأدب الفرنسي عام 2003 ودبلوم الدراسات العليا المعمقة في الأدب الفرنسي سنة 2007. بعد ذلك، حصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الفرنسي سنة 2015 بعد مناقشته لأطروحة الدكتوراه بعنوان «تلقي الرواية المغاربية باللغة الفرنسية في النقد الأدبي الحديث والمعاصر». جامعة ابن طفيل بالقنيطرة – المغرب.

نشر العديد من المقالات والدراسات الأدبية والنقدية والفكرية والجيو – سياسية في العديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية والدولية، وصدرت له العديد من الترجمات في هذه المجالات كان أهمها: «حوارات القرن» في سلسلة كتاب الرافد، دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة (2014). و «تزفيتان تودوروف. تأملات في الحضارة والديمقراطية والغيرية» في سلسلة كتاب الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث – الدوحة – قطر (2014). وكتاب «ما بعد الربيع العربي في العلاقات الدولية» عن دار نون للنشر بالإمارات العربية المتحدة (2015). وكتاب« إدوارد سعيد. من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف» عن منشورات المتوسط – ميلانو – إيطاليا (2016). وكتاب « إدوارد سعيد الانتفاضة الثقافية » دار صفحات للدراسات والنشر – دمشق – سوريا 2017. وكتاب « إدوارد سعيد. الأنسني الراديكالي. في أصول الفكر ما بعد الكولونيالي »، دار صفحات للدراسات والنشر – دمشق – سوريا، 2018. وكتاب « نهاية الحداثة اليهودية. تاريخ انعطاف محافظ »، دار صفحات للدراسات والنشر – دمشق – سوريا 2020. ومسرحية بعنوان « فصل في الكونغو » للكاتب إيمي سيزار، سلسلة المسرح العالمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت. (قيد الإصدار.)

الفهرس



الوظيفة
السابعة للغة

عنصر التشويق في هذا العمل الروائي، يتمثل في الحبكة الدرامية الرامية إلى فك لغز محير: استرداد مخطوط الوظيفة السابعة للغة الذي سُرق من رولان بارت، والذي بسببه قُتل، ما جعل حادثة السير حادثة غير عرضية، وإنما اغتيال مدبّر. فبعد أن استعرض لوران بيني وظائف اللغة الستّ كما نظّر لها عالم اللسانيات رومان جاكوبسون في كتابه أبحاث في اللسانيات العامة (الوظيفة المرجعية والانفعالية والإفهامية والانتباهية والميتا- لغوية والشعرية)، توصل إلى وظيفة سابعة ذات أهمية بالغة الخطورة، وقد دوّنها في مخطوط سلّمه سرّاً لعالم السيميولوجيا وأحد أعظم نقاد الأدب في القرن العشرين رولان بارت، ليكون الوصي على هذه الوظيفة التي تتيح لمن يمتلكها ويتقن شفراتها السيطرة على شؤون العالم.

د. محمد الجرطي

ترسّخ هذه الرواية مكانة لوران بينيه وريثاً واضحاً للراحل أمبرتو إيكو عبر كتابة روايات بارعة وهزلية، وفي الوقت نفسه محمّلة بالأفكار من دون أن يتوه عن غاية جعلها مسليةً.
إحدى أكثر الروايات الممتعة والمسلية - وبمشاغبة مبتكرة - التي ستقرأها هذا العام.

الأوبزرفر

قراءة لوران بينيه تمنحك تلك المتعة النادرة بفقدان الإحساس بالواقع.

الغارديان

الفكرة الأساسية عبقرية مدهشة! رولان بارت لم يمت جرّاء تعرضه لحادث سير عام ١٩٨٠، بل تمّ اغتياله..... خيوط الحبكة منسوجة ببراعة عبر عملية مزدوجة من تجسيد الخيالي وتخييل الحقيقي.

فاينشال تايمز

أن تبدأ.. هذا كل ما لديك

ISBN: 978-9922-601-22-9



التوزيع في العالم العربي
دار التنوير

